أعلام المسلمين
٨٠



حسن البنا

الداعية الإمام والمجدد الشهيد

تأليف
أنور الجندي





أعلام المسلمين
٨٠



حسن البنا

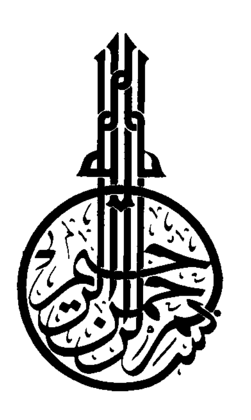
الداعية الإمام والمجدّد الشهيد

تأليف

أنور الجندي

دار القلم

دمشق



الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰـذا الرَّجُـل

جمع الله في شخصية حسن البنا العقل الهائل النيّر، والفهم المشرق الواسع، والعاطفة القوية الجياشة، والقلب المبارك الفيّاض، والروح المشبوبة النضرة، واللسان الذرب البليغ، والزهد والقناعة في الحياة الفردية، والحرص وبُعد الهمّة في سبيل نشر الدعوة والمبدأ.

أبو الحسن الندوي

لقد عاد القرآن غضّاً طريّاً على لسانه، وبدت وراثة النبوّة ظاهرة في شمائله، ووقف هذا الرجل الفذّ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية، وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حبّاً للإسلام واستمساكاً به.

محمد الغزالي

إن الأستاذ حسن البنّا أمةٌ وحده، وقوة كنتُ أنشدُها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم عرفته، فاكتشفتُ حاجةَ الإسلام إلى هذا الداعية القوي، الصابر المصابر، الذي يعطِي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة، ومرونة، ولين، وجلَد، وصبر، وثبات إلى النهاية.

محب الدين الخطيب

ليس للعظمة مقياس خاص، فقد يكون العظيم عالماً، أو فاتحاً، أو مخترعاً، أو مربّياً روحياً، أو زعيماً سياسياً، ولكن أجدر العظماء بالخلود هم الذين يبنون الأمم، وينشئون الأجيال، ويغيّرون مجرى التاريخ. وحسن البنّا كان أحد هؤلاء الخالدين، بل هو ـ في رأيي ـ أبرز الخالدين في تاريخ الإسلام في القرن الرابع عشر.

الدكتور مصطفى السباعي

إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنّا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلّى بها، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف. . لا أنكر إرشاد المرشدين وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبّرين وحنكة السائسين. . لا أنكر هذا كلّه عليهم من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمّع لهذه المتفرّقات من الكمالات قلّما ظفر به أحد كالإمام الشهيد.

الشيخ محمد الحامد

إن حسن البنَّا في نظري مزاج عجيب من التقوى والدهاء السياسي، إنه قلب علي وعقل معاوية، وإنه أضفى على دعوة اليقظة عنصر (الجندية) ورد إلى الحركة الوطنية عنصر (الإسلامية)؛ وبذلك يعد هذا الجيل الإسلامي الحاضر النسخة الإسلامية الثانية الكاملة المعالم بعد الجيل الإسلامي الأول في عهد الرسول ﷺ.

طنطاوي جوهري ـ العالم المفسّر

وجدت فيه ما لم أجد في قبيله أو أهل جيله: من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق، لا يزعزعه غرور العلم، ولا شرود الفكر، وفقه في الدين صافٍ صفاءَ المُزْن، لا يكدّره ضلال العقل ولا فساد النقل، وقوة في البيان مشرقة إشراق الوحي لا تحبسها عقدة اللسان ولا ظلمة الحس، إلى حديث يتصل بالقلوب، ومحاضرة تمتزج بالأرواح، وجاذبية تدعوك إلى أن تحب، وشخصية تحملك على أن تذعن!!.

أحمد حسن الزيات

لقد اشتعل رأسي شيباً، وتحت كلٍّ شعرة خبرة وتجارب سنين عديدة، ولكنّي حينما التقيتُ مع حسن البنَّا علمت أنني انتهيت من حيث بدأ هو.

الحاج أمين الحسيني ـ مفتي فلسطين وزعيمها

المقــدّمَة

(حسـن البنّا) نموذج من النماذج النـادرة التي عرفهـا تـاريخ الإسلام الطويل منذ أرسل الله سبحانه برسالته الخالدة محمداً ﷺ، فهو واحد من عِقد هؤلاء الدعاة الأبـرار والمصلحين الربانيين الذين عرفتهم الأمة الإسـلامية؛ فصحَّحوا مسيرتها، وغيَّروا أعرافها، وطبعوها بطابع الحق، وأعادوها إلى الصراط المسـتقيم. هؤلاء الذين يظهرون فجأة فيملؤون الدنيـا علماً وعملاً، ثم يختفـون فجأة بعد أن يكونـوا قد أحدثوا دويّـاً عالياً في آذان الدهر وأسماع النـاس، فهم يبرزون فوق الأحـداث، ولا يخضعـون لمقررات الوراثـة، ولا يسـتمدّون مقدرتهم من بيئة أو أسرة، وإنما هم صبغة الله ومظهر إرادته البالغة؛ ذكاءً غاية في الذكاء، وعزيمة آية في الصدق، وحُسن سَمْتٍ، وبراعة أداء، وبلاغـة بيان، وكأنما قـد جُمع لهم علم الأوَّلين وخبـرة الشـيوخ؛ وهم مايزالون بعد في مقتبل العمر، وفي مطالع الشباب.

ولقد عاش حسن البنَّا بضعة وأربعين عاماً، وتألق وهو لمَّا يبلغ الثلاثين، وحمل رسالته إلى العالمين في شجاعة المؤمن، وبراعة القائد، وحكمة المجاهد، وصدق الداعية؛ فلم يلبث أن استمعت له الدنيا، واجتمعت حوله القلوب، فهزَّ دوائر الأحزاب وجماعات السياسة، وأزعج الزعماء، وأقضَّ مضاجع المسـتعمرين، وتكالبت القوى كلّها على الخلاص منـه؛ ذلـك أن

الصوت الذي كان يتحدّث به هو صوت الحق، والكلمة التي كان يقولها هي الكلمة التي كان يخشاها الاستعمار، وهي الخطر الذي كان حريصاً على أن يحجبه عن المسلمين، حتى يظلّوا في قبضة نفوذه، وحتى لا يفهموا دينهم الفهم الصحيح، ولا يجدوا من آيات قرآنهم أداة قوتهم، وسلاحهم الباتر في استرداد مجدهم وتحرير أرضهم واستعادة عزّتهم.

ولقد عاش حسن البنَّا بين عامي ١٩٠٦م حيث وُلِد، و١٩٤٩م حيث استُشهد، وهذه المرحلة تمثّل أخطر مراحل العلاقات بين المسلمين والمستعمرين، فما كاد يشبّ عن الطَّوق حتى كانت الحرب العالمية الأولى قد وضعت أوزارها؛ وقد سقطت كل بلاد المسلمين تقريباً ـ ما عدا الحجاز واليمن ـ في قبضة الغاصبين، وكان هذا من أولى الأحداث التي هزّت هذه النفس. وما كاد يخطو خطوة أخرى حتى سقطت الخلافة الإسلامية وتفككت وحدة المسلمين، وواجه المسلمون الاستعمارَ فُرادى فانتقص منهم، وفرض عليهم نفوذه وسلطانه في المدرسة والمصرف والقانون والاقتصاد والسياسة، وحجبهم عن دعوة الإسلام في مفهومها الحقيقي، وأذاع بينهم مفهوماً خاطئاً محرَّفاً، يقصر الإسلام على المسجد، ويوقفه عند العبادات، كل ذلك مما أحاطت به هذه النفس المؤمنة في مطالعها، وحيث بدأت تواجه الحياة.

وكانت المؤثّرات الثلاث الكبرى في نفس حسن البنَّا في مطلع حياته هي: حلقة الذكر، والمدرسة، ودكان الساعات. فلقد ولد في (المحمودية ـ بحيرة) ووالده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا ـ المعروف بالساعاتي ـ من بيئة علم واستمساك بالدين والقرآن، ومن مواليد ناحية شمشيرة مركز (قنوة غربية)، درس الفقه والتوحيد والنحو، وحفظ القرآن وجوّده، واتّصل بكثير من العلماء، وكان يقضي يومه في تصليح الساعات ومذاكرة العلم؛ حتى إذا أنشأ أهل قريته

مسجداً كلّفوه بالإمامة فيه، فعمل إماماً وخطيباً.

وكانت له مكتبة إسلامية ضخمة، وقد قرأ الكتب الستة، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، وألّف كتباً فيها؛ فله: (بدائع المسند في جمع وترتيب مسند الشافعي)، وقد كتب عليه شرحاً، كما رتّب جزءاً من مسانيد الأئمة الأربعة، ورتّب مسند الإمام أحمد وأسماه: (الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام الشيباني)، وشرحه باسم (بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني).

ولقد عاش هذا الوالد حياته في المحمودية بعد أن كبر أولاده، ودخلوا مدارسها، ثم انتقل إلى القاهرة بعد ذلك حيث كان يسكن قريباً من الأزهر.

وقد أوردت هذا في توسّع لأدحضَ تلك الفرية المبطلة الضالّة التي ساقها عباس محمود العقاد حين حاول أن يربط بين إقامة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا في السكة الجديدة وبين ما توهّمه في مقالة (فتنة إسرائيلية):

وهو كاذب مضلِّل حين يقول عن الأستاذ البنَّا: «إنّ أحداً في مصر لا يعرف مَن هو جدّه على التحقيق، وكلّ ما يقال عنه إنه من المغرب، وإن أباه كان ساعاتياً في السكة الجديدة، والمعروف أن اليهود في المغرب كثيرون، وأن صناعة الساعات من صناعاتهم المألوفة». ولقد كان العقاد في هذا واهماً وزائغاً ومضلِّلاً؛ ذلك أنّ صناعة الساعات كانت منذ فجر التاريخ الإسلامي صناعة المسلمين، وكانت حوانيتهم قريبة من المساجد.

ولما كان الأستاذ حسن البنَّا من أسرةٍ معروفة في قلب ريف مصر هي قرية (شمشيرة)؛ فإنه لم يكن في حاجة إلى هذه الدعاوى الباطلة لمحاولة ربطه بالمغرب أو غيره من بلاد الله.

وحسب العقاد جزاؤه عند الله على هذا الافتراء.

ولقد نشأ الأستاذ حسن البنَّا في جوٍّ إسلامي عَبق، وتعلَّم في المحمودية، ثم التحق بمدرسة المعلمين الأولية في (دمنهور)، ثم قدِمَ القاهرة، فالتحق بدار العلوم، وقد قضى في أول قدومه أسبوعاً في الأزهر معتكفاً، ليستذكر مواد الامتحان.

ولقد كان في تلك الفترة متصلاً بحلقات الذكر، في إطار الطريقة الحصافية؛ يقول: وقد اجتذبتني حلقة الذكر بأصولها المنسّقة، ونشيدها الجميل، وروحانيتها الفيّاضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم، ليشاركوهم ذكر الله تعالى.

ولم تكن الطريقة الصوفية وحدها؛ بل كانت كلُّ أعمال الخير والبر والأمر بالمعروف.

ثم كانت مدرسة (دار العلوم) مرحلة تالية لها أهميتها وخطرها، فقد كانت دار العلوم في هذه الفترة تمرّ بأبرز مراحل نشاطها ودعوتها إلى الفصحى، وتحديها للاستشراق والتبشير، ومقاومتها للاستعمار، وكان رجالها من كرام العاملين لنصرة الإسلام واللغة العربية من أمثال: الشيخ محمد عبد المطلب، وعلام سلامة، وأحمد يوسف نجاتي.

يقول الأستاذ البنَّا في (مذكرات الدعوة والداعية):

وفي هذه الفترة التي قضيتها في القاهرة، اشتدّ تيار موجة التحلّل في النفوس وفي الآراء والأفكار باسم التحرّر العقلي، ثم في المسالك والأخلاق

والأعمال باسم التحرر الشخصي، فكانت موجةَ إلحاد وإباحية قوية جارفة طاغية، لا يثبت أمامها شيء، تساعد عليها الحوادث والظروف.

لقد قامت تركية بانقلابها الكمالي، وأعلن مصطفى كمال إلغاء الخلافة، وفَصْل الدولة عن الدين في أمة كانت إلى بضع سنوات في عُرف الدنيا جميعاً مقرّ أمير المؤمنين.

ولقد تحوّلت الجامعة المصرية من معهد أهلي إلى جامعة حكومية، تديرها الدولة وتضمّ عدداً من الكلّيات النظامية، وكان للبحث الجامعي والحياة الجامعية حنذاك في رؤوس الكثيرين صورة غريبة؛ مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة علمانية إلا إذا ثارت على الدين، وحاربت التقاليد، واندفعت وراء التفكير المادي المنقول عن الغرب بحذافيره، وعُرِف بعض أساتذتها وطلابها بالتحلّل والانطلاق من كل القيود.

أما العامل الثالث فكان هو (دكان الساعات) وهذا في تقدير الكثيرين ممن درسوا حياة الأستاذ حسن البنَّا بعيد الأثر في تكوينه، فقد علّمه الدقة والصبر والنظام.

ولا ريب أن هناك عوامل كثيرة ذات أثر في تكوين الأستاذ حسن البنَّا في هذه المرحلة، أهّلته لحمل لواء الدعوة، ولكنَّ أبرز هذه العوامل كلّها أنه وطَّن نفسه أن يكون (معلِّماً)؛ وتلك ميزته الكبرى.

ومما يزيد هذه الميزة أهمية: قدرته الخارقة على الإقناع، وحُسن الأداء، ونجاحه في كسب الأنصار.

ذلك هو الإطار الذي تشكّلت فيه حياة الأستاذ البنَّا، وهذه هي التحديات

التي واجهته في هذا العصر. وقد صوّر هذه المرحلة في أوفى صورة في كتابه (مذكرات الدعوة والداعية) بما لا يدع حاجة لمستزيد، وإن كان قد اقتصر على المرحلة الأولى وهي مرحلة الإعداد والتكوين.

ولذلك فقد كان جُلّ اهتمامنا في الحديث عن المراحل التي تلت تلك المرحلة؛ وحتى لا نكرر أنفسنا، خاصة أن كثيرين تناولوا هذه المرحلة بإفاضة؛ ومنهم: المرحوم الأستاذ أحمد أنس الحجّاجي في كتابه (روح وريحان)، والدكتور إسحاق موسى الحسيني في كتابه (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة).

والذي يلفت النظر هو أنه بالرغم من مرور أكثر من نصف قرن على استشهاد هذا الداعية العملاق؛ فإن أحداً لم يتمكن من حصر (أوراق) هذا الرجل؛ وخاصة منذ بدأ يدخل مرحلة التبليغ بعد انتقاله من الإسماعيلية إلى القاهرة عام ١٩٣٣م تقريباً، حيث تبدأ الدعوة في صورتها العامة التي أخذت تؤثر في مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية، وتهزّ دوائر الأحزاب والحكومات، وتخلق الأنصار والأعداء.

ولذلك فقد كان علينا أن نتجاوز المعروف إلى المجهول وأن نلملمَ هذا الحشد الضخم من المواقف والبيانات المتفرّقة الموزّعة في بطون الصحف خلال هذه المرحلة، وأن نقدّمها في صورة متكاملة لتكشف عن هذا (الرجل القرآني) في معمعان العمل الذي وهب نفسه له، وتجرّد لأدائه وتحقيقه، ولم يكن من اليسير تحقيقُ ذلك إلا بصبر كبير، وعمل متصل في بطون الدوريات المختلفة.

* * *

ولقد كانت حياة الأستاذ حسن البنَّا حياة يسيرة بسيطة متواضعة، فقد حصل على دبلوم دار العلوم ولمّا يتم الحادية والعشرين من العمر، وعُيِّن في مدرسة الإسماعيلية الإبتدائية الأميرية في ٢٠ من سبتمبر (أيلول) ١٩٢٧م، فاستمرّ بها حتى انتقل إلى القاهرة عام ١٩٣٣م.

وظلّ يعمل بالتدريس بالقاهرة حتى استقال في مايو (أيار) ١٩٤٦م؛ حيث رأسَ مجلس إدارة دار الصحافة للإخوان، وقد تقرّر له مرتّبٌ شهريٌّ قدره مئة جنيه رفض أن يتسلّم منها ملّيماً واحداً، وعاش على بعض القروض التي حصل عليها من صهره الحاج عبد الله الصولي. ثم أسس مجلة (الشهاب) وظلّ يأخذ من مواردها ما يوازي مرتّبه الحكومي بما لا يزيد عن أربعين جنيهاً شهرياً، وظلّ حتى آخر حياته يقيم في منزل بالدور الأول في شارع (سنجر الخازن) رقم ١٥ (بالحلمية الجديدة) بأجر قدره جنيهان زيدت إبان الحرب فأصبحت (٢١٦) قرشاً.

وكان أول مقال نُشِرَ له بالصحف هو مقال (الدعوة إلى الله) الذي نشرته مجلة الفتح في ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٦هـ سنة ١٩٢٧م. وقد أصدر أولاً (الإخوان المسلمين) مجلة أسبوعية بالاشتراك مع طنطاوي جوهري ومحب الدين الخطيب عام ١٩٣٣م. ثم أصدر (التعارف)، فـ(النذير)، ثم مجلة (الإخوان) ١٩٤٢م، وجريدة (الإخوان) اليومية ١٩٤٦م.

وكان الأستاذ البنَّا يشارك أتباعه ورجاله في كل المناسبات الفردية والاجتماعية، ويخطب الجمعة والعيدين، ويصلّي بهم التراويح في رمضان بختمة القرآن كاملة، ويجري في كثير من الأحيان صيغة عقود الزواج لهم بنفسه، ويدعو لأطفالهم بالدعاء المأثور حين يولدون، ويشيِّع جنائزهم،

ويصلّي عليها، ويقيم معهم في معسكراتهم الكشفية والرياضية، ويوجّههم في حياتهم العامة والخاصة.

ولقد كانت دار القلم بدمشق قد أخرجت لي هذا الكتاب من قَبْل في طبعته الأولى، ثم اقترح عليَّ الناشر الصديق أن يعيد طباعته في سلسلة دار القلم القيّمة (أعلام المسلمين) فوافقت على ذلك، بل سرّني ذلك وأسعدني، واهتبلت هذه الفرصة فأضفت إلى هذه الطبعة زيادات تحتوي على مزيد من المعلومات عن هذه الشخصية العظيمة التي تتناولها صفحات هذا الكتاب. فلدار القلم ولصاحبها العزيز شكري ومودَّتي وتمنياتي.

وبعد:

فإني أرجو أن أكون فيما كتبته من فصول عن هذا الداعية الكبير والمجدّد العملاق، قد قمتُ بأداء بعض ما له من حق في أعناق هذا الجيل الذي كان خير أستاذ وخير مربٍّ له. وأن أكون قد وفِّقتُ لتقديم صورة صادقة وقريبة من الكمال عن هذا المرشد الكبير للجيل الإسلامي المعاصر ولأجيال الأمة المقبلة.

رحم الله الإمام الشهيد حسن البنَّا رحمة واسعة، وجزاه عن دعوته خير الجزاء، وجمعنا به في دار كرامته، ونفع الله بهذا الجهد المتواضع المسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

٣٠/ ١٠/ ١٤٢٠هـ
٦ / ٢ / ٢٠٠٠م
القاهرة

أنور الجندي

الفَصْل الأوّل

مَدْخل إلى سِيرَة الإمَام الشَّهِيد

تمهيد:

تحدّث الأستاذ (أحمد عبد الرحمن البنَّا) ـ رحمه الله تعالى ـ عن نشأة ولده الأستاذ الإمام (حسن البنَّا) فقال:

روى الترمذي عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نَحَل[1] والدٌ ولداً من نُحْلٍ أفضل من أدبٍ حَسَنٍ».

ولقد تمنّيت منذ بنيت أن يهبني الله ولداً صالحاً أُحسن أدبه وتربيته؛ ليكون نسلاً صالحاً، وخيراً جارياً وأثراً باقياً؛ فاستجاب الله دعوتي وحقق أمنيتي، ووهب غلاماً زكياً سمّيته (حسن البنَّا).

تعهّد الله ولدي بعنايته منذ صغره، وحفظه بعنايته من كلِّ ما يضرّه ويؤذيه، فلقد عرضت له حية وهو في مهده فاستعنتُ الله تعالى فصرف أذاها عنه.

وخرَّ عليه السقف في أول منزل لنا ببلدة المحمودية ـ وكان معه أخوه عبد الرحمن ـ فأنجاهما الله تعالى بأن علَّق السقف على السلَّم، وحماهما

---

(١) نحل بفتح النون والحاء: أي أعطى ووهب.

بسلم البيت الذي لم يبلغ أكبرهما طوله بعد، وظلّ ولدي تحت السقف حتى رفعتُ الأنقاض وأكرم الله به أخاه فخرجا سالمَيْن.

وأحاطت به ذات يوم كلاب تنبحه حتى روّعته، فألقى بنفسه في ترعة تسمَّى الرشيدية ـ وكانت تصطخب بمياه النيل وقت فيضانه ـ فألقاه اليمُّ بالساحل، والتقطته سيدة من سيدات البلدة، ونجّاه الله تعالى من الغرق بفضله ومنّته.

* * *

لم تكن نشأة ولدي نشأةً عادية؛ فمنذ تفتّحت طفولته، تفتحت معها قريحته، وبدأ يسأل عن الكون وصانعه والقمر ومبدعه، ولمحت فيه نجابة مبكرة، فحفَّظْتُه القرآن، وعلّمته السنّة، وأدّبته أدباً حسناً.

ولما ألحقته بمدرسة المعلمين الأولية ببلدة دمنهور أظهر تفوقاً عجيباً، ونشأ على الصلاح والزهد والعبادة، وكان أول فرقته في كل مراحل تعليمه، وتخطّى زملاءه في الدراسة؛ وقُدِّم للالتحاق بالقسم العالي بدار العلوم مختزلاً بذلك أربع سنوات هي مدة الدراسة التجهيزية بدار العلوم.

وقصد القاهرة لا يعرف فيها أخاً ولا صديقاً، ونزل ضيفاً على الله في بيته، فأقام في الجامع الأزهر، ولما تخرّج في دار العلوم، كان أول فرقته في امتحان الدبلوم.

ورغبتْ وزارة المعارف في إيفاده في بعثة إلى أوروبة، فرفض البعثة لأمر يريده الله تعالى، وعُيِّن في مدرسة الإسماعيلية، وفيها كان ميلاد الدعوة حيث أسس فكرته، وأنشأ جماعته (جماعة الإخوان المسلمين).

ودوّت فكرة ولدي في أرجاء الدنيا، وانتشرت دعوته في أقطار العالم الإسلامي، وشغلت رسالته ذوي الفكر والعقول، وانتظمت مدرسته شباب الجامعات والأزهر الشريف، وجدَّد الله به دعوة الإسلام في القرن العشرين، وأضاء من نور فكرته قبس في كل بيت، ولمع من وهج دعوته سراج في كل محيط، ووثّق الله به الروابط بين الإخوة، ومتّن به العلائق بين العشائر؛ ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].



بيئته ونشأته

كانت البيئة التي نشأ فيها الأستاذ الإمام حسن البنَّا بسيطة متواضعة: هي بيئة المدن الصغيرة التي قامت على ضفاف فرع رشيد المتفرّع من نهر النيل، فقد كانت (المحمودية ـ بحيرة) واسطة العِقد بين طريق الشمال إلى الإسكندرية وطريق الجنوب إلى القاهرة.

وفي هذه البلدة الصغيرة أقام المرحوم الشيخ (أحمد عبد الرحمن البنَّا) الساعاتي؛ الذي قدمت أسرته من إحدى قرى مركز (قنوة غربية) يعمل في صناعة تصليح الساعات، ويقضي أيامه في دراسة السنَّة الشريفة ومتابعة مسانيدها، وقد أولى عنايته منذ ذلك الوقت البعيد مسند أحمد بن حنبل بوصفه أكبر موسوعات السنّة النبوية.

وكان الشيخ أحمد رجلاً رضيَّ الخلق، سمحاً كريماً مؤمناً متواضعاً، يقضي يومه في محله يصلح ساعات، ويتذاكر مع أصدقائه العلماء علوم المقاصد الإسلامية، وقد حفلت داره بمكتبة عامرة ضخمة.

أما حياته الاجتماعية فهي حياة متواضعة بسيطة من رزق ميسور وحياة طيبة.

كان العصر عصر يقظة، أدخل على العلوم والثقافة الإسلامية كثيراً من مفهاهيم الأصالة والتماس المنابع الأساسية، وواجه بها ذلك الجمودَ الذي

خيّم على الأزهر وعلومه كالفقه الإسلامي والتصوّف الذي أصيب بلوثه الجبرية، فكان أولئك العلماء ـ الذين درسوا في الأزهر، وعادوا إلى بلادهم للعمل في شؤون الزراعة والتجارة ـ لا يتوقفون عن العمل لبعث السنَّة من جديد، ومراجعة كتبها الصحيحة، وأمهات دواوينها، ويثيرون مناقشات كثيرة ومتصلة حول عشرات القضايا؛ باحثين فيها عن رأي الإسلام الصحيح، بعيداً عن البدع والخرافات.

هذه المدرسة كانت قد بدأت مع دعوة جمال الدين ومحمد عبده، وكانت مجلة (المنار) التي يصدرها رشيد رضا تحمل لواء هذه الدعوة، وكانت مدينة (المحمودية ـ بحيرة) عام ١٩٠٦م ـ على إثر وفاة الشيخ محمد عبده ـ تواصل بحث هذه القضايا مع مولد حسن البنَّا؛ الذي لم يلبث بعد سنوات قليلة أن دخل معمعة البحث وشارك فيه؛ ليخرج منه بمفهوم جامع يربط بين مفهوم الفقه ومفهوم التصوّف الصحيح على نحوٍ واضح سليم، يتمثّل في دعوته الجامعة إلى الإسلام: دين ودولة، ومصحف وسيف، عبادة وقيادة. هذه الدعوة التي جدَّدت الفكر الإسلامي، وبعثت فيه روحاً صادقاً من العمل والجهاد لإعلاء كلمة الله، وتصحيح المفاهيم التي أفسدها الاستعمار والتفوّق الأجنبي، وألحَّ عليها حين حاول أن يقول للناس: إن الإسلام دين عبادة، وإن رسالة النبي رسالة روحية لا صلة لها بالحكم والسياسة وبناء المجتمع.

كذلك كانت نشأةُ حسن البنَّا: إسلامية عميقة الفهم والإيمان، جامعة بين العلم والعمل، رابطة ربطاً عميقاً بين الفقه القادر على معرفة حكم الله الصحيح، وبين التماس التطبيق في الحياة العملية. ومن ثمَّ كان أبرزُ ما برز في هذه المرحلة الدعوةَ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطبع الحياة الاجتماعية المحيطة بروح الأخلاق والفضيلة، والاتجاه إلى إنشاء الجمعيات

الداعيــة للتمســك بالدين وأداء الصلاة، والحرص على طاعــة الله، ومقاومـة المسكرات والمحرّمات الفاشية كالخمر والقمار وبِدَع المآتم.

وقد برزت فيه منذ ذلك الوقت الباكر طبيعة الباحث الطُّلَعة، الذي يسأل العلماء عن حقيقة رأي الشرع في الأمور التي تعرض في حياة الناس والمجتمع، وطبيعة الموجه الذي يأخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصحيح أساليب العيش والعبادة حتى تكون مطابقة لشريعة الله.

كانت هذه التجمّعات التي يعقدها مع شباب المحمودية تستهدف بناء الشخصية وفق مفاهيم الأخلاق الإسلامية.

وكانت هذه الجمعيات تعاقب مَن يخرج عن الضوابط والحدود؛ فمن شتم أخاه يغرّم، ومَن شتم الوالد يغرّم بأكثر، ومن شتم الأم يغرم غرامة كبيرة، ومن سبَّ الدين تُضاعف له العقوبة؛ وتنفق الغرامات في وجوه الخير. هذا عمل، والعمل الآخر إرسال الخطابات لمن يقومون بارتكاب بعض الآثام، فترسل الخطابات لمن أفطر رمضان، ومَن لا يصلّي، ومَن تحلَّى بالذهب، وأي امرأة تلطم وجهها في مأتم يصل إلى زوجها خطاب بهذا الشأن.

وهذه أولى علامـات القيادة وإرهاصات تحويـل الطريق الصوفي إلى عمل تربوي عصري، والتماس طريق الجماعة والالتقاء بالشباب ومحاولة التعرّف على طريق للعمل.

ولا ريب أن هذا الاتجاه الذي بدأه بـاكراً في المدرسـة الأولية العامـة ـ خلال فترة المحمودية ـ يقرّر الركائز التي امتدّت وتعمّقت بعد ذلك في خلال المرحلتين التاليتين: مرحلة مدرسة المعلمين في دمنهور، ومرحلة دار العلوم في القاهرة.

ويبدو في هذه المرحلة أثر القدوة التي عاشها بين البيت والمدرسة والمسجد، وهي قد بدأت أساساً من الوالد، الذي وضع إطار هذه الحياة المؤمنة، القائمة على العلم وعلى العبادة وعلى العمل أيضاً، حتى يمكن القول بأن حياة الأستاذ البنَّا في تلك المرحلة كانت مقسّمة بين ثلاثة أعمال كبرى:

أولاً: الطريق؛ وهو العبادة.

ثانياً: الاطّلاع؛ وهو البحث العلمي، ومصاحبة العلماء، والتعرّف على المسائل والقضايا.

ثالثاً: صناعة الساعات وتجليد الكتب.

* * *

ولقد وجد الأستاذ البنَّا في مسيرة حياته في المحمودية صداقة كبرى وقدوة عظيمة هي الشيخ (محمد زهران) صاحب مدرسة الرشاد الدينية، الذي يتحدّث عنه في مذكّراته طويلاً، ويصفه بالرجل الذكي الألمعي، العالِم التقي، الفطن اللَّقن الظريف، الذي كان بين الناس سراجاً مشرقاً بنور العلم والفضل يضيء في كلّ مكان.

وقد تعلَّم منه الأستاذ البنَّا التأثير في السامعين؛ يقول:

كان للرجل أسلوب في التدريب والتربية مؤثّر منتج، رغم أنه لم يدرس علوم التربية، ولم يتلقَّ قواعد علم النفس، فكان يعتمد أكثر ما يعتمد على المشاركة الوجدانية بينه وبين تلامذته. وكان يحاسبهم على تصرّفاتهم حساباً

دقيقاً مشرباً بإشعارهم بالثقة بهم والاعتماد عليهم، ويجازيهم على الإحسان والإساءة جزاءً أدبياً يبعث في النفس نشوة الرضا والسرور مع الإحسان، كما يذيقها قوارص الألم والحزن مع الإساءة، وكثيراً ما يكون ذلك في صورة نكتة لاذعة، أو دعوة صالحة، أو بيت من الشعر؛ إذ كان الأستاذ يقرضه على قلّة، ولا أزال أذكر بيتاً من الشعر كان مكافأةً لي على إجابةٍ في التطبيق أعجبته، فأمر صاحب الكراسة أن يكتب تحت درجة الموضوع:

حسنٌ أجابَ وفي الجوابِ أجادَ ... فالله يمنحهُ رضاً ورشادا

كما أذكر بيتاً آخر أتحف به أحد الزملاء على إجابة لم ترقه، فأمره أن يكتب تحت درجته:

يا غارةَ اللهِ جُدّي السيرَ مسرعةً ... في أخذِ هذا الفتى يا غارةَ اللهِ

وهكذا نجد أنَّ الأستاذ البنَّا وجد القدوة في الأسرة، ووجدها في المدرسة في هذا الشيخ الجليل، الذي تعلّم منه أسلوب التعامل مع الأتباع والتلاميذ، وكسب منه فهماً للعلاقة الدقيقة بين الداعية والعاملين معه والسائرين معه على الطريق. يقول:

أدركتُ منذ تلك اللحظة أثر التجاوب الروحي والمشاركة العاطفية بين التلميذ والأستاذ، فلقد كنّا نحبّ أستاذنا حبّاً جمّاً، رغم ما كان يكلّفنا من مرهقات الأعمال. ولعلّي أفدتُ منه رحمه الله ـ مع تلك العاطفة الروحية ـ حبَّ الاطلاع، وكثرة القراءة؛ إذ كثيراً ما كان يصطحبني إلى مكتبته ـ وفيها الكثير من المؤلفات النافعة ـ لأراجع له وأقرأ عليه ما يحتاج من مسائل، وكثيراً

ما يكون معه بعض جلسائه من أهل العلم فيتناولون الموضوع بالبحث والنظر والنقاش وأنا أسمع.

وهكذا نجد الآفاق تتسع أمام الأستاذ البنَّا ـ وهو ما زال في هذه المرحلة الأولى ـ إلى مجالسة العلماء والبحث والمناقشة في مسائل هي أكبر فعلاً من سنه.

ويتحدث عن أستاذ آخر له في هذه المرحلة هو الشيخ (محمد أبو شوشة) وفضله في التربية الروحية؛ حيث كان يجمعهم عشرة أو نحوها ويذهب بهم إلى المقابر، ويعرض عليهم القبور المفتوحة، ويذكرهم بمصيرهم إليها، وقد يأمر بعضهم بالنزول فيها، والاضطجاع لحظة يذكر فيها مصيره إليها وظلمة القبر ووحشته، ويبكي ويبكهم.

ويشير الأستاذ البنَّا في مذكراته إلى ملحظ في التربية وبناء الدعاة لهذا الأستاذ: إنه لم يكن يسمح للإخوان المتعلمين أن يكثروا من الجدل في الخلافيات أو المشتبهات من الأمور، أو يرددوا كلام الملاحدة أو الزنادقة أو المبشرين مثلاً أمام العامة، ويقول لهم: «اجعلوا هذا في مجالسكم الخاصة تتدراسونه فيما بينكم أما هؤلاء فتحدثوا أمامهم بالمعاني المؤثرة العملية التي توجههم إلى طاعة الله، فقد تعلق بنفس أحدهم الشبهة ولا يفهم الرد، فيشوِّش اعتقاده بلا سبب وتكونون أنتم السبب».

* * *

فإذا انتقل الأستاذ البنَّا إلى مدرسة المعلمين في (دمنهور)، فقد بدأت مرحلة جديدة في حياة الرجل الذي أعدّه الله ليكون داعية إليه، وجعل كل

الظروف والأحوال المتصلة به عوامل لبناء شخصيته وإعداده لهذا العمل الذي تصدى له .

وفي هذه المرحلة (١٩٢٠ ـ ١٩٢٤م) ـ وسنه بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة ـ انتقل إلى (دمنهور) المدينة الزاخرة؛ حيث مدرسة المعلمين والأساتذة الكبار، وجماعة الحصافية بقادتهم ومشايخهم. وقد اتسع مجال البحث والدرس والتعلم، كما عُمِّقت عاطفة الإيمان والذكر والعبادة، نرى صورة الأستاذ البنَّا وقد تمثلت فيها تلك الاندفاعة الحارة إلى استكمال شخصيته، فنراه يستيقظ قبل صلاة الفجر فيحضر جماعة يقرؤون كتاب الإحياء للغزالي؛ ثم يمضي فيوقظ المؤذنين، ويحفظ القرآن بعد صلاة الصبح حتى يذهب إلى المدرسة، فإذا خرج من المدرسة عمل في صناعة الساعات حتى صلاة العشاء، فإذا صلى العشاء استذكر دروسه حتى النوم.

حياة حافلة ضخمة، وهو يسمي مرحلة (دمنهور) هذه مرحلة الاستغراق في التصوف والعبادة؛ وإن لم تخلُ من مشاركة فعلية في الواجبات الأخرى التي ألقيت على كواهل الطلاب. يقول:

نزلت دمنهور مشبعاً بالفكرة الحصافية، ودمنهور مقر ضريح شيخ الطريقة الأول وفيها نخبة صالحة من الأتباع الكبار للشيخ، فكان طبيعياً أن أندمج في هذا الوسط وأن أستغرق في هذا الاتجاه.

ويصور كيف أنه اقتحم مجالات الكبار في البحث والدراسة ومراجعة الكتب الكبرى ودراسة القضايا المثارة؛ يقول:

أخذت نفسي وأنا الطالب الصغير مع رجال كبار، منهم الأساتذة الذين كانوا يدرسون لي في المدرسة وغيرهم من العلماء والفضلاء، وكلهم

يشجعونني ويشجعون أمثالي من الشباب على السير في هذا الطريق: (طريق طاعة الله).

كانت المناقشات تثار حول الاعتراضات على الطرق والأولياء والصوفية، وعلى مسائل أخرى كثيرة، وعلى ما يتصل بالسنن والبدع وغيرها؛ وكان أستاذه (عبد الفتاح أبو علام) يوصيه بالدراسة العميقة، وإطالة النظر في أسرار التشريع الإسلامي وتاريخه، وتاريخ المذاهب والفرق والطوائف؛ لينكشف له وجه الحق.

وهكذا كان الأستاذ البنَّا في هذه المرحلة يشق بحراً متلاطماً من البحث العلمي والدراسات والمناقشات، وكان في نفس الوقت يقطع طريقاً طويلاً في مجال العبادة والذكر، قوامه اعتكاف ليال بطولها مع لفيف من إخوانه في المسجد؛ يصلون العشاء ثم يتناولون قليلاً من الطعام، ثم يذكرون الله بعض الوقت، ثم ينام قليلاً ويقوم نحو منتصف الليل للتهجد إلى الفجر.

ولقد كان موقفه واضحاً في هذه المرحلة من زيارة الأولياء، مفرِّقاً بين البدعية والشرعية منها، وكذلك كان موقفه واضحاً من مسألة الكرامات، وخاصة بالنسبة لأستاذه الشيخ (زهران). يقول:

كان الإخوان يكثرون من الحديث عن كرامات الشيخ الحسية، فلم أكن أجد لها من الوقع في نفسي بعض ما أجد لهذه الناحية العملية، وكنت أعتقد أن أعظم كرامة أكرمه الله بها هي هذا التوفيق لنشر دعوة الإسلام على هذه القواعد السليمة، وهذه الغيَرة العظيمة على محارم الله تبارك وتعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول: وكان سنِّي إذ ذاك لم يتجاوز الثالثة عشرة.

هكذا نـرى ذلك النُّضج الباكر في الفهم وفي الجمع بين علـوم الفقه وعلم التصوف، بل إن كتابات الأستاذ التي كتبها بعد ذلك توحي بأنه كان لا يصدر عن العلم المكتوب بل عن تأمل عميق وعطاء يسبق العمر والتجربة؛ وإذا نظرنـا إلى خطابه الذي كتبه في إنشاء دبلوم دار العلوم؛ نجده قد اختصر هذه المراحل كلها واستطاع أن يصل إلى مفهوم الداعية إلى الله على نحوٍ رفيعٍ في الأصالة والعمق وكأنما قد استوت التجربة عنده تماماً.

ولعلَّ هذا يـرجع إلى طبيعـة الرجل التي أفاد فيها من عصره وبيئتـه، والاتجاه الذي أخذ نفسه به وأعده الله له، والذي كان أبرز معالمه: الاستعلاء على متاع الدنيا الفاني والإقبال على إرضاء الله بعمل كبير، وكأنما كان الشيخ أحمد عبد الرحمن ـ بعلمه وخبرته ـ هو (الأرضية) الأصلية التي قام عليها بناء حسن البنَّا.

وهكذا نجد أن الأستاذ البنَّا لم يأخذ التصوف مأخذاً عاماً؛ وإنما فهمه أسلوباً لبناء الشخصية ومنهجاً للتربية، وقد طبقه على نفسه فاستخرج جوهراً مؤمناً ظل يشع على الناس سنوات عمره كلها.

يقول: كانت لنا أيام ننذر فيها الصمت والبعد عن الناس، فلا يتكلم أحدنا إلا بذكر أو قرآن، وكنا نفعل هذا الصمت تأدبياً للنفس وفراراً من اللغو، وتقوية للإرادة حتى يتحكم الإنسان في نفسه ولا تتحكم فيه.

ويخبر أنـه كان في مدرسـة دمنهور للمعلمين يلبس عمامة ذات عذبةٍ، ونعلاً كنعل الإحرام في الحج، ورداء أبيض فوقـه الجلباب، فسـألني مدير التعليم في زيارة للمدرسة: لماذا ألبس هذا الزي؟ فقلت: إنه السنة، فقال: وهل عملت كل السنن ولم تبق إلا سنة الزي، فقلت: لا، ونحن مقصِّرون كل

التقصير، ولكن ما نستطيع أن نفعله نفعله، فقال: ولكن بهذا الشكل أنت خرجت على النظام المدرسي، فقلت له: ولِمَ يا سيدي؟! إن النظام المدرسي مواظبة وأنا لم أغب عن الدروس أبداً، وسلوك وأخلاق وأساتذتي راضون عني والحمد لله، وعلم ودراسة وأنا أول فرقتي؛ فأين الخروج على النظام المدرسي إذن؟!.

فقال: ولكنك إذا تخرجت وأصررت على هذا الزي فلن يسمح مجلس المديرية بتعيينك مدرساً حتى لا يستغرب التلاميذ هذا المظهر؛ فقلت: على كل حال هذا لم يجئ وقته بعد، وحين يجيء يكون للمجلس الحرية ويكون لي الحرية كذلك، والأرزاق بيد الله وليست بيد المجلس ولا الوزارة، فسكت المدير وتدخل الناظر في الأمر فقدمني إلى المدير بكلمة طيبة وصرفني فانصرفت.

ومن هذه المحاورة نجد بروز الشخصية ووضوحها، ونجد القدرة على المواجهة والنقاش بالحق والقدرة على الدفاع ووضوح الحجة والبيان.

وكذلك نجد لاستكمال الصورة أنه كان وهو طالب في مدرسة المعلمين إذا جاء وقتُ العصر وهو في الحصة يستأذن في أداء الأذان، وكان بعض المدرّسين يريد المحافظة على النظام، فأقول له:

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأناقشه مناقشة حادة لا يرى منها بداً من السماح، حتى يتخلّص منها ومني.

ويقول: إنه لم يكن يذهب إلى المنزل فترة الظهر، بل كان يقضيها في

المصلَّى وفناء المدرسة لدعوة الزملاء إلى الصلاة، حتى إذا أُديت الفريضة جلستُ مع صديق نقرأ القرآن معاً، أنا أسمع وهو يقرأ، أو أنا اقرأ وهو يسمع؛ حتى يجيء موعد الدخول.

* * *

هذا عن الدعامة الأولى: وهي دعامة العبادة، أما عن دعامة الاطلاع والبحث، فقد كان شغله الشاغل في حضور مجالس العلم، وقراءة كتاب الإحياء قبل صلاة الفجر، ومناقشة الأساتذة، والقراءة لشيخه في مكتبته، وحضور مجالس والده في دكان الساعات أو في البيت ومراجعة مكتبته العامرة.

أما صناعة الساعات فقد برع فيها؛ يقول: تقدمتُ في صناعة الساعات وفي صناعة التجليد؛ فكنت أقضي فترة النهار في الدكان صانعاً، وفترة الليل مع إخوان الحصافية ذاكراً.

ويقول: كنت أنزل من قطار الدلتا (يوم الخميس عائداً من دمنهور) إلى الدكان مباشرة، فأزاول عملي في الساعات إلى قبيل المغرب، حيث أذهب إلى المنزل لأفطر؛ إذ من عادتنا صوم الإثنين والخميس، ثم إلى المسجد الصغير بعد ذلك للدرس والحضرة، ثم إلى منزل الشيخ للمدارسة والذكر، ثم إلى المسجد لصلاة الفجر، وبعد ذلك استراحة يعقبها الذهاب إلى الدكان وصلاة الجمعة، والغداء والدكان إلى المغرب، فالمسجد فالمنزل، وفي الصباح إلى المدرسة.

ويقول: في ليلة الجمعة بعد الحضرة نتدارس كتب التصوف مع الإحياء،

وجامع أصول الأولياء والياقوت والجواهر وغيرها، ونذكر الله إلى الصباح، وكانت تلك من أقدس مباهج حياتنا.

وهكذا نرى الدعامات الثلاث متداخلة لتكوين شخصية هذا الداعية الشاب، ويصور عمله خلال الإجازة الصيفية على هذا النحو:

مذاكرة في الإجازة صباح كل يوم من طلوع الشمس تقريباً إلى الضحوة الكبرى مع أستاذنا (محمد خلف نوح) في منزله؛ حيث بدأنا بألفية ابن مالك نحفظها معاً، ونقرأ عليها شرح ابن عقيل، ونتدارس معها كتباً أخرى في الفقه والأصول والحديث، وكنا نطلب العلم لمجرد العلم.

وكنا نوقظ الناس لصلاة الصبح قبل الفجر بقليل، وكنت أجد سعادة كبرى وارتياحاً غريباً حين أوقظ المؤذنين لأذان الصبح، ثم أقف بعد ذلك في هذه اللحظة السحرية الشاعريَّة على شاطئ نهر النيل وأصغي إلى الأذان ينطلق من حناجرهم في وقت واحد؛ إذ كانت المساجد على مسافات متقاربة في القرية.

ويخطر ببالي أنني سأكون سبباً ليقظة هذ العدد من المصلين وأنّ لي مثل ثوابهم مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

وكان يضاعف هذه السعادة أن أذهب بعد ذلك إلى المسجد فأرى نفسي أصغر الجالسين فيه ـ في هذا الوقت ـ سناً، فأحمد الله وأسأله أن يديم التوفيق.

* * *

لا ريب أن هذه الوقائع السريعة لحياة الأستاذ الإمام حسن البنَّا في هذه

المرحلة من التكوين ومطالع العمر تلقي الضوء الواضح على هذه الحياة وهذه النفسية وهذا التطلع وذلك الاتجاه الذي سار فيه من بعد بعمق. فهو رجل يريد أن يبني المجتمع حوله بالخلق، ويلتمس أسلوب التربية، ويرتفع فوق مناهج الطرق إلى ما هو أشمل وأعم وأكثر قدرة على تحقيق بناء الفرد المسلم؛ في نفس الوقت الذي يضع هذا كله في صورة عصرية.

ولكن هل كان الأستاذ حسن البنّا في هذا قد أحاط بالمسؤولية الخطيرة التي أعد نفسه لها، وتعرَّف على المهمة الشاقة الجسيمة التي ألقى بنفسه في أحضانها من بعد؟.

الواقع أن أبعاد النظرة إلى هذه الأمور لم تتضح إلا في دار العلوم خلال المرحلة التالية التي جاء فيها إلى القاهرة، والتي انتهت بعد سنوات الدراسة بإعداد موضوع الإنشاء الذي كتبه في الدبلوم، والذي صرّح فيه بوضوح أنه يعدُّ نفسه لبناء نفسه والشباب معه لحماية الإسلام والدفاع عنه.

ذلك أن هذه المرحلة الأخيرة (مدرسة دار العلوم) قد جاءت حافلة بالأحداث وتوَّجها ذلك الحادث الصاعق: حادث إسقاط الكماليين للخلافة ووقوف العالم الإسلامي دهشاً إزاء الخطر. لقد كان الأستاذ البنّا الذي ولد عام ١٩٠٦م، واستقبل مطلع الشباب إبان ثورة ١٩١٩م قد تفتحت عيناه على ذلك الصراع العجيب الذي قام بين أمة عزلاء وبين مستعمر باغٍ، فكانت له مواقفه الوطنية، ولكنه لم يكن حزبياً أو قاصراً عند مفهوم الأرض، بل كان يؤمن بأن القضية أكبر من الاحتلال الإنكليزي لمصر، وإنما هو الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، وأنه ليس قضية استعمار بل هي قضية أكبر هي السيطرة على أمة الإسلام، وتحويلها عن منهجها الربّاني، والحيلولة بينها وبين تطبيق الشريعة

الإسلامية، ولذلك فإن منهجه الذي دعا إليه كان جامعاً شاملاً، وكانت الوطنية جزءاً منه، ولكنها ليست هي القضية الوحيدة، وهذا هو مصدر الاختلاف بين مفهوم الإخوان المسلمين وبين مفهوم الأحزاب.

كان ينظر إلى تلك الظاهرة التي تواجه المسلمين وقد اهتدى إلى الحقيقة الساطعة؛ وهي أن هذه الأمة ما وقعت تحت براثن الاستعمار والغزو العسكري إلا بعد أن تخلت عن دستورها القرآني ومنهجها الرباني؛ وأنها لو استمسكت به، لما استطاع غازٍ أن يغزوها، أو مستعمر أن يسيطر عليها.

إن الصورة الوطنية المجردة التي فتنت الكثيرين والتي كانت باهرة إذ ذاك لم تفتن هذا الشاب الذي لم يبلغ العشرين؛ ولكنه رآها قاصرة عاجزة عن تحقيق الهدف، فقد كانت الحركة الوطنية إذ ذاك تتحرك في إطار الفكرة الغربية، وتلتمس الوسائل إلى الاستقلال والحرية وفق أسلوب الديمقراطية الغربية، وكان هذا أكبر نصر حققه الاحتلال والنفوذ الغربي، أن قضى على الرعيل الأول والمدرسة الإسلامية التي واجهت الاحتلال أول الأمر، أولئك الأبرار الذين آمنوا بأن قضية الوطن العربي أو المصري إنما هي قضية إسلامية أساساً، وأنها لا تُعالَج إلا عن طريق إعلاء فكرة الوحدة الإسلامية والجامعة القرآنية.

فلما قضى الاستعمار على الخلافة عام ١٩٢٤م كان ذلك بمثابة أخطر تحدٍ واجهه الأستاذ حسن البنَّا، وهو في أول طريق الدعوة إلى الله، فقد أحس بأن المخطط الاستعماري يذهب بعيداً في أعماق هذه الأمة ليمزقها، ويحطم معنوياتها، وكذلك كان عارفاً مدى الخطر الذي بدأت طلائعه في فلسطين، حيث بدأت الهجرة الصهيونية إلى أرض الإسلام وقد بدأت تهدد بيت المقدس.

وكان الاستعمار البريطاني يسيطر على مصر والسودان والعراق، والاستعمار الفرنسي يسيطر على سورية ولبنان والمغرب بأقطاره: تونس والجزائر ومراكش، كان يؤمن بأن ما أطلق عليه اسم (الحركة الوطنية) ليس هو الأسلوب الصحيح، فقد كانت الأحزاب تؤمن بأن العمل يجب أن يتمَّ بموافقة الاستعمار ورضاه، وكان رجالها يتحركون في دائرة النفوذ الغربي؛ وكان هذا النفوذ مسيطراً على المدرسة والمصرف والقانون والمجتمع، وكان النظام الحزبي الديمقراطي الغربي المطبق يحمي الأسلوب الغربي في السياسة والقانون، ويحول دون عودة المسلمين إلى أسلوب دينهم.

وكان موقف الأزهر وعلماء الدين في هذه القضية ضعيفاً، ولقد استطاعت القوى الإسلامية أن تتجمع في صورة تشكيل عُرف باسم (الشبان المسلمين)، وباسم جمعيات عديدة كثيرة، غير أنّ الأستاذ البنَّا أراد أن يواجه الأمر بأسلوب جدّ مختلف، وإن كان قد بدأه في نطاق الجمعيات الإسلامية، غير أنه ركز ولأول مرة في تاريخ حركة اليقظة الإسلامية على التربية الإسلامية، وبناء الشباب، وتجميع القوى، لتكوّن رأياً عاماً يمكن أن يحقق هدف الإسلام عن طريق مشروع.

هذا من ناحية الاتجاه العام في هذه المرحلة، أما من ناحية التكوين الثقافي والفكري الذي أرسى هذه المفاهيم، فإن الأستاذ البنَّا قد أغنانا كثيراً في هذا المجال حيث تحدث عن قراءاته الواسعة، وأشار إلى أن إقباله على التحصيل والدرس خارج حدود المناهج المدرسية إنما كان مرده إلى أمرين:

الأول: مكتبة الوالد وتشجيعه إياه على القراءة والدرس، وإهداؤه إياه كتباً احتفظ ببعضها وعاود قراءتها، وكان لها أثرها العميق، ومنها: الأنوار

المحمدية للنبهاني، وهو مختصر المواهب اللدنية للقسطلاني، ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ الخضري. وقد دعاه هذا إلى تكوين مكتبة خاصة فيها مجلات قديمة وكتب متنوعة، حيث كان ينتظر الشيخ حسن الكتبي يوم السوق بفارغ الصبر، ليستأجر منه كتباً كل أسبوع لقاء مليمات زهيدة، ثم يردها إليه ليأخذ غيرها، وكان من أشد هذه الكتب في هذا الدور وأعمقها أثراً في نفسه قصة (الأميرة ذات الهمة).

والأمر الثاني: هو أن مدرسة المعلمين قد جمعت نخبة طيبة من فضلاء العلماء. يقول: كان لهذه العوامل أثرها في نفسي، فحفظت وأنا في هذه المرحلة من التعليم خارج المناهج الدرسية كثيراً من المتون في العلوم المختلفة، فحفظت ملحة الإعراب للحريري، ثم الألفية لابن مالك، والبيقونية في المصطلح، والجوهرة في التوحيد، والرحبية في الميراث، وبعض متن السلّم في المنطق، وكثيراً من متن القدوري في فقه أبي حنيفة، ومن متن الغاية والتقريب لأبي شجاع في فقه الشافعية، وبعض منظومة ابن عاشر في مذهب المالكية. ولست أنسى أبداً توجيه الوالد لي بالعبارة المأثورة: «من حفظ المتون حاز الفنون». ولقد كان أثرها في نفسي عميقاً إلى درجة أني حاولت حفظ متن الشاطبية في القراءات مع جهلي التام بمصطلحاتها، وحفظت مقدمتها فعلاً، ولا زلت أحفظ بعضها إلى الآن.

ولا ريب أن معرفة هذا في حياة الأستاذ البنّا من شأنه أن يحول دون الدهش أو الاستغراب لتلك القوة القادرة في البيان والعطاء الواسع في مجال الكلمة كتابة وخطابة ومحاضرة وحديثاً، فقد كان رصيده ضخماً من التراث الإسلامي في مختلف فروعه: فقهاً وأدباً ونحواً وبلاغة وبياناً.

ولعل أبـرز مفاتيح حياة الأسـتاذ البنّا في نشأته في إطار هـذا المفهوم الجامع القائم على الاتجاه نحو الله والعمل لدعوته، ذلك التخفف من مطامع الحياة يقول:

كنت أقول لنفسي دائماً: لماذا تريد أن تدخل دار العلوم؟ هل للجاه حتى يقـول الناس: إنك مدرس عال لا مدرس أولي؟ وهذا حرام، لأن طلب الجاه والحرص عليه داء من أدواء النفس وشهوتها يجب مقاومتها.

أو للمال حتى يتضاعف مرتبـك وتجمع الأمـوال، وتلبـس الملابس الفاخـرة، وتطعم المطاعم الليـنـة، وتركب المراكب الفارهـة؟ وهذا أشـرّ ما يعمل له إنسان، و«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

أو للتكاثر بالعلم والمعرفة، لتنافس العلماء أو تماري الجهلاء، أو تستعلي على الناس بالحق؟ وأول من تُسعَّر به النار يوم القيامة من تعلّم لغير الله ولم يعمل بعمله.

وقد تقول لك نفسك: إنك تتعلم لتكون عالماً تنفع الناس؛ وإن الله وملائكته ليصلُّون على معلمي الناس الخير، وإنما بعث رسول الله ﷺ معلماً؛ فقل لها: إذا كنتِ صادقة في أنك تريدين العلم لإفادة الناس ابتغاء مرضاة الله؛ فلم تريدين دخول دار العلوم؟ والعلم في الكتب وعند الشيوخ والعلماء.

والشهادة فتنة وهي المطية إلى الدنيا وإلى الحياة والمال، وهما سمٌّ قاتل محبط للأعمال، مفسد للقلوب والجوارح!!.

هكذا كان الأستاذ البنّا يناجي نفسه في هذه الفترة من العمر، ويتحرز من

حظ التظاهر بالعلم وألقابه .

يقول : إن هذا الـرأي في العلم والشـهادات كان أثـراً من آثـار مطالعتي للإحيـاء، لقد كنت محباً للعلم حبـاً جماً، وكنت شـديد الميل إلى القراءة والاستزادة من العلم، وكنت مؤمناً بفائدة العلم للفرد وللجماعة ووجوب نشره بين الناس، ولكنه كان في النفس خوف من الظهور والشهرة والاستعلاء بالعلم .

* * *

وبعد : فقد بدأنا هذا الفصل بكلمة الوالد الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنَّا ونختمه بكلمة الأستاذ عبد الرحمن البنَّا شقيق الإمام ورفيق صباه، يتحدث عن هذه المرحلة فيقول :

لئن كان حسن البنَّا أستاذ العصر، وإمام الجيل، فلقد كانت أستاذيته لي مزدوجة، فهو أستاذي مرتين :

مرة ونحن صبية يحتضنني بأستاذيته، ويفيض عليَّ من علومه، ويبادلني وجوه الرأي، ويبصرني بكثير من المسائل . نتلو كتاب الله معاً، ونقرأ الحديث ـ وما وعيت كما وعى ـ ونجني آمال أمة مسلمة، ونشيّد لها المساكن والأربعا؟ ومرة يسلكني مع الآلاف من جنوده، ويحملني ما أستطيع حمله من أعلامه وبنوده، ويدفع بي مع من يدفع من خيرة أبنائه وتلامذته إلى آفاق الأرض، فيقول : هزّوا جنباتها هزاً، وأمِّنوا دعاة الخير، وابتغوا بجهادكم لدين الله عزاً، وروِّعوا بغاة الشر، فقد ركبتهم شياطينهم تؤزهم أزاً .

ولقد كانت له جولات ورحلات ورياضات روحية، وتغريب عن البلاد

في طلب العلم، وتطواف بـالمدن في طلب الكتب؛ كما كان يطـوف علماء قرطبة بأسـواق الوراقين فيها، ويقصدها العلماء في جميع الأقطار بحثاً عن مسألة أو تنقباً عن مخطوط أو كتاب.

ولئن نسيت فما أنسى رحلتنا من (المحمودية) إلى (دسوق) في زيارة عالم وطالب كتاب. أمّا العالم فأستاذ جليل يدعى الشيخ الأخضر، وأما الكتاب فسِفر نفيس هو: (إيقاظ الهمم في شرح الحِكم) حكم ابن عطاء الله السكندري لابن عجيبة الحسني.

وعُدنا بالكتاب عودة الظافرين في موقعة حربية، وكان الطريق إلى بلدتنا بحراً؛ فركبنا السفن في النيل من دسوق إلى المحمودية، وجلسنا حلقة نتلقى العلم، وأخذ أستاذي حسن البنَّا يتلو إحدى حكم ابن عطاء الله حيث يقول: «إذا فتح الله لك وجهة في التعرف فلا تبالِ معها إن قل عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّف إليك. ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك»؟!.

وأخـذ أستـاذي يشـرح وقـد أشـرق وجهـه بنـور الله، وتـوالـت عليـه الواردات، وكثرت الفتوحات، وجال في إيضاح المعاني وصال، وَسَرت فيه روحانية عجيبة، واشتدت الروحانية بأحدنا ـ وكان يكبرنا سناً ويكاد يكون لنا شيخاً، وهو الأخ الشيخ محمد أبو شوشة أكرمنا الله وإياه ـ فتمايل من الوجد، وكاد من شدة وجده أن يقذف بنفسه في النيل!!.

لقد كان حسن البنَّا أستاذي في كل شيء، أتابعه في خَطْوِه، وأراقبه في شَـدْوِه: فإذا خطا إلى دار العلوم سـرت في أثره، وإذا قرأ المعلقات السـبع ردَّدت من شعره، وإذا عكف على الدرس عكفت معه، فيقرأ الأشموني،

وأحفظ معه أبياتاً من ألفية ابن مالك، ويدعوني إلى السبق فأقف عند حدي وأقول: لست هنالك!!.

حتى زيه كَلفت به فكنت ألبس عمامته وجبته وقفطانه، وأذكر مرة ذهبت فيها الزيارة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب ـ المدرس بدار العلوم والشاعر البدوي الراوية ـ وكنت ألبس العمامة، وكان ـ رحمه الله ـ يراني في أكثر الأوقات بالزي الأفرنجي، فقال: حدثني: أأنت أفندي تلبس العمامة أم شيخ يلبس الطربوش؟.

فقلت أنا الأول، قال: يا عجباً أنت الأول فعلاً، فكل الناس أراهم الثاني.

ونقلني حسن البنَّا في فصول مدرسته العجيبة، فزاملت الدعاة من إخواني، وعاصرت الجيل الذي رباه على قواعد الدعوة، لقد أنشأ حسن البنَّا مدرسة، وربى جيلاً، ودفع بأبنائه إلى أبعاد الأرض، فدوَّت أصداؤهم بالرنين، وارتفعت حناجرهم بآيات الكتاب المبين، فوقعت الخارقة، وأصغت جموع الناس منصتين: أيها الناس! مَنْ لم يدرك رسول الله ﷺ فليسعَ إلينا فقد مشينا في ركابه، ومن لم يتشرف بالمثول بين يديه فليأتنا فلقد وقفنا طويلاً على أبوابه، ومن لم يقرأ سيرته المطهرة فليسمع ما نتلوه عليه من صفحات كتابه.

* * *

فجـرُ الدَّعـوَة

تحدَّث الأستاذ البنَّا في وضوح عن مولد الدعوة، فقال:

اعتقدت أنه ليست هناك نظم ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفوس البشرية، وتهدي الناس إلى الطريق العمليـة الواضحة لهذه السعادة؛ كتعاليم الإسلام الحنيف الفطرية الواضحة العلمية. ولهذا وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي: إرشاد الناس إلى الإسلام حقيقة وعملاً، ولهذا كانت فكرة (الإخوان المسلمين) إسلامية بحتة في غايتها وفي وسائلها لا تتصل بغير الإسلام في شيء.

وقد ظلَّت هذه الخواطر حديثاً نفسانياً ومناجاة روحية، أتحدث بها في نفسي لنفسي، وقد أفضي بها إلى كثير ممن حولي، وقد تظهر على شكل دعوة فردية أو خطبة وعظية، أو درس في المساجد إذا سنحت فرصة التدريس، أو حث لبعض الأصدقاء من العلماء على بذل الهمة ومضاعفة المجهود في إنقاذ الناس وإرشادهم إلى ما في الإسلام من خير.

ثم كانت في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي حوادثُ عدة ألهبت نفسي، وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، ولفتت نظري إلى وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس.

ولقد أخذت أفاتح كثيراً من كبار القوم في وجوب النهوض والعمل، وسلوك طريق الجد والتكوين. فكنت أجد التثبيط أحياناً والتشجيع أحياناً والتريث أحياناً، ولكني لم أجد ما أريد من الاهتمام بتنظيم الجهود العملية. ومن الوفاء أن أذكر في هذا المقام المرحوم أحمد باشا تيمور ـ أفسح الله له في جنته ـ فما رأيته مرة إلا مثالاً للهمة المتوثبة والغيرة المتوقدة، وما تحدثت إليه في شأن من شؤون الأمة العامة إلا وجدت العقل الكامل والاستعداد التام والإلمام الشامل وترقب ساعة العمل، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وليّت وجهي شطر الأصدقاء والإخوان ممن جمعني وإياهم عهد الطلب وصدق الود والشعور بالواجب، فوجدت استعداداً حسناً، وكان أسرعهم مبادرة إلى مشاركتي عبء التفكير، وأكثرهم اقتناعاً بوجوب العمل في إسراع وهمة؛ الإخوان الفضلاء: السكري، عسكرية، محمد عبد الحميد وكثير غيرهم، وكان عهد وكان موثق أن يعمل كل منا لهذه الغاية حتى يتحول العرف العام في الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة.

ليس يعلم إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء.

وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة؛ والخليُّون هاجعون يتسكعون في المقاهي، ويترددون على أندية الفساد والإتلاف، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة قال لك: أقتل الوقت!! وما درى هذا المسكين أن من يقتل وقته إنما يقتل نفسه؛ فإنما الوقت هو الحياة!!.

كنا نعجب لهؤلاء النـاس وكثير منهم من المثقفين ومَـنْ هم أولى منـا بحمل هذا العبء، ثم يقول بعضنا لبعض: أليس هذا داء من أدواء الأمة ولعله أخطرها، ألا تفكِّر في مرضها؟ ألا تعمل لعلاج نفسها؟ ولهذا وأمثاله نعمل، ولإصلاح هذ الفسـاد وقفنا أنفسـنا فتتعزى؛ ونحمد الله على أن جعلنـا من الداعين إليه والعاملين لدينه.

وفي الإسماعيلية وضعت أول نواة تكوينية للفكرة، وظهرت أول هيئة متواضعة تعمل وتحمل لواءها؛ وتعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها تحت اسم: (الإخوان المسلمون) وكان ذلك في ذي القعدة ١٣٤٧هـ.

فقد بايعه أربعة من الإخوان هم: سواق، وحلاق، وترزي، ونجار:

عبد الرحمن حسب الله، وأحمد الخضري، وزكي المغربي، وحافظ عبد الحميد.

لقد كان أسلوب الدعوة التي حمل لواءها الأستاذ البنَّا له مظهر خاص وطبيعة مختلفة فهو لم يبدأ في المسجد وإنما بدأ من المقهى، فقد كان الهدف أن يصل إلى من هم ما زالوا خارج المسـجد، أولئك الذين تشـغلهم الحياة ولهوها، ولذلك فهو قد آثر اقتحام المقاهي ساعة أن تكون غاصة بالناس، ولقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثره البعيد، فقد استطاع أن يكسب نفوساً غافلة، وأن يفتح آذاناً صُمّاً وقلوباً غلفاً.

يقول الأستاذ البنَّا في مذكراته: جاء الدور العملي بعد هذا الاستعداد العلمي، فعرضت عليهم أن نخرج للوعظ في المقاهي، فاستغربوا ذلك وعجبوا منه وقالوا: إن أصحاب المقاهي لا يسمحون بذلك ويعارضون فيه، لأنه يعطل

أشغالهم، وإن جمهور الجالسين في المقاهي قوم منصرفون إلى ما هم فيه، وليس أثقل عليهم من الوعظ، فكيف تتحدث في الدين والأخلاق لقوم لا يفكرون إلا في هذا اللهو الذي انصرفوا إليه؟! وكنت أخالفهم في هذه النظرة وأعتقد أن هذا الجمهور أكثر استعداداً لسماع العظات من أي جمهور آخر حتى جمهور المسجد نفسه؛ لأن هذا شيء طريف وجديد عليه، والعبرة بحسن اختيار الموضوع، فلا نتعرض لما يجرح شعورهم، وبطريقة العرض، فتعرض بأسلوب شائق جذاب، وبالوقت، فلا نطيل عليهم القول.

ولما طال بنا الجدل حول هذا الموضوع قلت لهم:

ولم لا تكون التجربة هي الحد الفاصل في الأمر فقبلوا ذلك، وخرجنا فبدأنا بالمقاهي الواقعة بميدان صلاح الدين وأول السيدة عائشة، ومنها إلى المقاهي المنتشرة في أحياء طولون، إلى أن وصلنا من طريق الجبل إلى شارع سلامة والسيدة زينب، وأظنني ألقيت في هذه الليلة أكثر من عشرين خطبة؛ تستغرق الواحدة منها ما بين خمس دقائق إلى عشر.

ولقد كان شعور السامعين عجيباً، وكانوا ينصتون في إصغاء، ويستمعون في شوق، وكان أصحاب المقاهي ينظرون بغرابة أول القول ثم يطلبون المزيد منه بعد ذلك، وكان هؤلاء يقسمون بعد الخطبة أننا لا بد أن نشرب شيئاً أو نطلب طلبات، فكنا نعتذر لهم بضيق الوقت، وبأننا نذرنا هذا الوقت لله فلا نريد أن نضيعه في شيء، وكان هذا المعنى يؤثر في أنفسهم كثيراً، ولا عجب فإن الله لم يرسل نبياً ولا رسولاً إلا كان شعاره الأول: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، لما لهذه الناحية العفيفة من أثر جميل في نفوس المدعوين.

لقد نجحت التجربة مئة في المئة، وعدنا إلى مقرِّنا في (شيخون) ونحن

سعداء بهذا النجاح، وعزمنا على استمرار الكفاح في هذه الناحية، وكنا نتخول الناس بالموعظة العملية على هذه الطريقة في كثير من الأحيان.

على هذا النحو الذي بدأه الأستاذ البنَّا في القاهرة كان عمله في الإسماعيلية وكان نجاحه واجتماع الناس حوله.

لقد بدأت الدعوة فعلاً من (الإسماعيلية) وامتدت إلى (أبو صوير، وشبراخيت، وبور سعيد)، ثم انتقلت إلى (البحر الصغير) في المنزلة، ثم إلى (السويس إلى جباسات البلاح) على مدى أربع سنوات حتى أكتوبر ـ تشرين أول ١٩٣٢م ـ عندما انتقل الأستاذ إلى القاهرة؛ حيث كانت جمعية الحضارة الإسلامية (عبد الرحمن الساعاتي ومحمود سعدي الحكيم) نواة جمعية الإخوان بها. وفي حارة نافع رقم (٢٤) المتفرعة من حارة عبد الله بك إحدى حواري شارع السروجية بدأت طلائع العمل في القاهرة؛ بعد أن عمت أغلب الوجه البحري، وسرعان ما تكونت الفروع من عناصر طيبة من رجال عرفوا في أعمالهم بالإخلاص والوفاء والصدق، وكانوا مثلاً طيباً عالياً، حتى الجمعية الحصافية بالمحمودية بدأت تتحول في شكلها وهدفها إلى الصورة الجديدة التي تكيفت بها الدعوة في الإسماعيلية.

وقد تركَّزت الدعوة في بناء مسجد ودار ومدرسة لتحفيظ القرآن حتى كان عام ١٣٥٢هـ هجرية ١٩٣٣م مايو ـ أيار ـ حيث صدرت جريدة (الإخوان) الأسبوعية، وأشرف عليها رجلان من كرام الرجال هما: طنطاوي جوهري ومحب الدين الخطيب، وبدأت بجنيهين على سبيل القرض، ثم تحولت الدعوة إلى (مجلة الخلود) فـ(مجلة النذير) إلى عام ١٩٣٨م حينما أعلن الأستاذ البنَّا أن الدعوة دخلت خطوتها الثانية ومرحلتها العملية، وفي ذلك قوله:

إن المرحلـة الأولى كانت لتربيـة الأمة، وتغيير العرف العام، وتزكيـة النفوس، وتطهير الأرواح، وإذاعة مبادئ الحق والجهاد والعمل والفضيلة بين الناس، وأعتقد أن الإخوان قد نجحوا في ذلك إلى مدى يحمدون الله عليه ويسألونه المزيد، فقد أصبح للإخوان المسلمين دار في كل مكان، ودعوة على كل لسان، وأكثر من ثلاثمئة شعبة تعمل للفكرة، وتقود إلى الخير، وتهدي إلى سواء السبيل.

وأصبح في مصر كذلك شعور إسلامي يركن إليه القوي ويعتزُّ به الضعيف، ويأمل الجميع في ثمراته ونتائجه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والآن قد حان وقت العمل، وآن أوان الجد، وسننتقل من حيز الدعوة العامة إلى حيز الدعوة الخاصة، ومن دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال، وسندعو الجميع إلى مناهجنا ونضع بين أيديهم برامجنا.

* * *

وهكذا بـدأ فجر الدعوة متألقاً مشـرقاً، قوامه الإخلاص، ودعامتـه الإيمان، حتى كان الأستاذ البنَّا يدخل البلدة يريد إنشاء فرع فيها دون معرفة بالناس، فإذا به يحط في مكان وكأنه يعرفه ويأتي توفيق الله غامراً.

يقول: زرت (أبو صوير) وبدا لي أن أنشئ فيها فرعاً للجمعية، وأخذت أتفرس في وجوه الناس في المقاهي والطرقات والحوانيت، حتى رأيت دكان الشيخ محمد العجرودي رحمه الله، وكان رجلاً وقوراً مهيباً سمحاً، فيه صلاح وله منطق ولسـان، ورأيته يبيع ويتحدث مع زبـائنه، فتوسـمت فيـه الخير، فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من كان معه في الدكان، وقدَّمت إليه نفسي والغرض الذي من أجله زرت (أبو صوير)؛ وأني توسمتُ فيه الخير ليحمل أعباء

هذه الدعوة. وأخذت في حديثي ألفت نظره ونظر الجالسين معه إلى نقط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه، وإلى ما في المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذلك ناتج من تركنا وإهمالنا لأحكام الإسلام، وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع؛ وإلا كنا آثمين، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة؛ فريضة واجبة، وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفي، بل لا بد من تكوين رأي عام يناصر هذه الفكرة؛ وقوامه جماعة من الطيبين في كل قرية، يؤمنون بها ويجتمعون لها ونسميهم (الإخوان المسلمين).

وكان الرجل ومن معه يصغون باهتمام؛ ولكنهم لم يفقهوا بادئ ذي بدء إلا أنها دعوة إلى جمعية خيرية أو إلى سماع درس ألقيته عليهم. وأبى لطفه إلا أن يدعوني إلى الغداء ويحضر لي القهوة، فاعتذرت عن الغداء وأردت الانصراف، ولكنه شدَّد علي وأشار علي أن ألقي درساً في المسجد أو في مصلًى على البحر، فاخترت أن ألقي الدرس في المقهى، وقد كان، وتجمع الناس وأصغوا واستغربوا ما رأوا وما سمعوا، وعجبوا من أن مدرساً شاباً وجيهاً يلقي دروساً دينية هكذا على الناس في المقاهي، وليس بإمام في مسجد ولا بشيخ طريقة، وأعجبهم القول فشددوا في أن أكرر الزيارة، وقد كان!!.

* * *

ولقد كانت مهمة التكوين الأولى شاقة، فقد كان على الأستاذ البنَّا أن يذهب إلى كل بلد، وأن يحضر كل حفل، وأن يتكلم. ولقد كان أحياناً يصادفه المرض، فكيف كان يواجهه؟ فاستمع إليه يصور في مذكراته حالة من هذه الحالات:

كان حفل افتتاح الجماعة في بور سعيد ويوم الحفل اشتدت بي حالة احتقان في اللوزتين، وسافرت من الإسماعيلية إلى بور سعيد مضطجعاً من الإعياء، وقال لي الدكتور: إذا سافرت اليوم وخطبت الليلة فإنك تكون الجاني على نفسك، ولا أظنك تستطيع الخطابة بحال، ولكني مع هذا صممت على السفر، ونزلت من القطار إلى دار الإخوان، وصليت المغرب فيها من قعود للإعياء، وانتابتني بعد الصلاة حالة نفسية عجيبة، فقد تصورت سرور الإخوان بحفلهم وآمالهم المعلقة عليه ونقودهم التي أنفقوها من أجله، وجهودهم التي بذلوها، ثم تكون النتيجة اعتذار الخطيب!!.

تصورت هذا فبكيت بحرارة، وأخذت أناجي الله ـ تبارك وتعالى ـ في تأثر عميق واستغراق عجيب إلى وقت العشاء، فشعرت بشيء من النشاط وصليت العشاء من قيام، وجاء وقت الحفل وافتتح القرآن، ووقفت للخطابة، وبدأت وأنا لا أكاد أسمع نفسي، وسرعان ما شعرت بقوة عجيبة، وشفاء تام، وصفاء في الصوت غريب وارتفاع فيه كان يسمعه من في داخل السرداق ومن في خارجه، ولم يكن استخدام الميكرفون قد ذاع حينذاك، حتى كدت أحسد نفسي بل حسدتها فعلاً، وانتهى الحفل على خير ما يرام وقد استغرقت الخطبة أكثر من ساعتين.

ومن فضل الله وجميل كرمه أن هذا الاحتقان كان يعودني كل عام تقريباً ومن تلك الليلة وأنا لا أجده والحمد لله!!.

* * *

ولقد كان الأستاذ البنَّا في هذه المرحلة موضع الامتحان الشديد؛ للسنِّ

الذي لم يبلغ العشرين ولحجمه الصغير، يقول: لما وصلت إلى المطرية وجدت تبسماً عند اللقاء بصورة تلفت النظر، فلما سألت قيل: إنك فاجأت الناس بما لم يكونوا ينتظرون، فهم كانوا يترقبون أن يروا شيخاً فخماً ضخماً، كبير السن جليل المظهر، فإذا بهم يلقون فتى لم يصل إلى الخامسة والعشرين، فعليك أن تعيد في نفوسهم الطمأنينة، وأن تبذل جهداً كبيراً في الإقناع، فقلت: يا أخي، التوفيق من الله، والتأييد من الله، وإن يرد الله خيراً يمضه، والمرء بأصغريه[١]، و«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن».

وألقيت الكلمة في المساء في سرداق غاصٍ بالأهلين، لا يبلغ البصر مداه، وفي نهايتها أقبل الكثير يصارحوني بشعورهم، وبأنهم إلى تلك اللحظة كانوا يترقبون أن يروا مظهراً فرأوا مخبراً، وذلك فضل الله!!.

* * *

ولم يكن الأستاذ البنَّا يتوقف عن تحقيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي مكان يحلُّ به. ويروى أنه كان في مجلس يضم القاضي الأهلي ومدير التعليم وطبيب البلدة وأهم حكامها، وكان الجمع بمنزل القاضي الشرعي، وجاء الشاي في أكواب من فضة، يقول: فلما جاء دوري طلبت كوباً من زجاج فقط، فنظر إليَّ فضيلة القاضي مبتسماً وقال: أظنك لا تريد أن تشرب لأن الكوب من فضة؟ قلت: نعم، وبخاصة ونحن في بيت القاضي فقال: إن المسألة خلافية وفيها كلام طويل، ونحن لم نفعل كل شيء حتى تتشدَّد في هذا المعنى؛ فقلت: لا يا مولانا، إنها خلافية إلا في الطعام

---

(١) أي قلبه ولسانه.

والشراب، فالحديث متفق عليه، والنهي شديد، والنبي ﷺ يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها» ويقول: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم» ولا قياس مع النص، ولا مناص من الامتثال، وحبذا لو أمرت بأن نشرب جميعاً في أكواب من زجاج.

قال القاضي الأهلي: ما دام هناك نص فالنص محترم وعلينا الامتثال، فقلت له مشيراً إلى إصبعه: وما دمت قد حكمت فاخلع هذا الخاتم فإنه من ذهب والنص يحرمه، فابتسم فقال: يا أستاذ، إني أحكم بقوانين نابليون وفضيلة القاضي الشرعي يحكم بالكتاب والسنة وكل منا ملزم بشريعة، فدعني وتمسك بقاضي الشريعة، فقلت: إن الأمر إنما جاء للمسلمين عامة وأنت واحد منهم، فهو يتجه إليك بهذا الاعتبار، فخلع خاتمه!!.

* * *

ولقد كان فجر الدعوة مشرقاً وضيئاً، في يدي رجل مؤمن عميق الإيمان، فصيح بالغ الفصاحة، قوي الحجة، قادر على الإقناع، قريب إلى نفوس الناس على نحو لم يتكرر كثيراً، وقد أعطته التجربة الكثير في هذه المرحلة الباكرة:

ومن تلك التجارب قوله: إن دعوة الحق في كل زمان ومكان لا بد أن تجد لها من المعارضين والمناوئين من يقف في طريقها ويعمل على معاكستها وإحباطها، ولكن النصر لها في النهاية؛ سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً، فإنه ما كان يظهر إعجاب الناس بالدعوة والتفافهم حولها وتقديرهم للعاملين لها؛ حتى أخذت عقارب الحسد والضغينة تدب في نفوس ذوي الأغراض، وراحوا يصورون الدعوة والداعية للناس بصور شتى: فهم تارة يدعوة إلى مذهب خامس، وهم أحياناً شباب طائش لا يحسن عملاً

ولا يؤمن على مشروع، وهم أحياناً نفعيون مختلسون يأكلون أموال الناس بالباطل، وهكذا.

ويقول: أنا أعلم قاعدة أفادتني كثيراً في سير الدعوة العملي، وهي: أن الإشاعة والأكاذيب لا يقضى عليها بالرد بإشاعة مثلها، ولكن يقضي عليها بعمل إيجابي نافع يستلفت الأنظار ويستنطق الألسنة بالقول، فتحل الإشاعة الجديدة ـ وهي حق ـ محل الإشاعة القديمة ـ وهي باطل ـ.

وقد التقى الأستاذ البنَّا في هذه المرحلة عشرات من أعلام الدعوة الإسلامية ورجال الفكر من كل مكان، وامتص منهم خبرتهم وتجربتهم، ويصور في مذكراته نماذج من ذلك من بينها هذا النموذج الفريد؛ يقول:

كان الشيخ محمد سعيد العرفي يقول: يا أخي، سَمِّ، سَمِّ، فأقول: ما أسمي، فيقول: سَمِّ إخوانك وأصحابك ومنشآتك، قل لهذا إنك تشبه أبا بكر، ولهذا إنك تشبه عمر، فإن ذلك يبعث فيهم الحمية ويدفعهم إلى القدوة الحسنة والأسوة الحسنة، فأقول: يسلقنا الناس بألسنة حداد، فيقول: ما لك وللناس، كن مع الله وافعل كل ما فيه الفائدة. وسمّ منشآتك: معهد حراء للبنين، ومدرسة أمهات المؤمنين للبنات، ونادي الخندق لتبقى هذه الذكريات في النفوس.

وكان يقول لي دائماً: اسمع، لا تتحرج أبداً من أن تضم إلى الدعوة المقصِّرين في الطاعات المقبلين على بعض المعاصي الخسيسة، ما دمت تعرف منهم خوف الله، واحترام النظام، وحسن الطاعة، فإن هؤلاء سيتوبون عن قريب، وإنما الدعوة مستشفى فيه الطبيب للدواء وفيه المريض للاستشفاء، فلا تغلق الباب في وجه هؤلاء، بل إن استطعت أن تجذبهم بكل الوسائل فافعل، فإن هذه هي مهمة الدعوة، ولكن احذر من صنفين حذراً شديداً ولا تلحقهما

بصفوف الدعوة أبداً: الملحد الذي لا عقيدة له وإن تظاهر بالصلاح فإنه لا أمل في إصلاحه، وهو بعيد عنكم بأصل العقيدة فماذا ترجو منه. والصالح الذي لا يحترم النظام ولا يقدِّر معنى الطاعة، فإن هذا ينفع منفرداً، وينتج في العمل وحده، ولكنه يفسد نفوس الجماعة؛ يغريها بصلاحه ويغرقها بخلافه!! فإن استطعت أن تستفيد منه وهو بعيد عن الصفوف فافعل، وإلا فَسَدَ الصف واضطرب، والناس إذا رأوا واحداً خارج الصف، لا يقولون: خرج واحد، ولكن يقولون: صف أعوج، فاحترس من هذا كل الاحتراس.

وكان يقول: العالم معلق بخيوط من الوهم، وإنما يكشف الإيمان وحده الحقائق أمام المؤمنين، ولهذا ينتصرون وإن ضعفت قوتهم، ويُهزم غيرهم وإن استعد، ومن هنا كان الإيمان أقوى أسلحة العاملين في الحياة.

وكان يقول: إني لأعرف إقبال الدنيا وإدبارها في كل شيء: فإذا هي أقلبت أقبل كل شيء حتى إن اللص الداعر ليتقدم إلي ليسلمني نفسه بمجرَّد مروري في الطريق، وإذا أدبرت أدبر معها كل شيء حتى إن دابتي الذلول تجمح وتستعصي ولم يكن لها ذلك بخلق!!.

ومن قوله: إن الدعوة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد.

وهكذا نجد أن فجر الدعوة كان مشرقاً وضاءً، وكان قوياً غلاباً؛ فقد وجدت الدعوة أرضاً عطشى، ونفوساً مشوقة، وآمالاً مرجوة، وأحلاماً تملأ كل القلوب ترجو أن تتحقق.

ومن هنا كانت تلك السرعة الواضحة في الانتقال إلى المرحلة العملية.

● ● ●



الفصل الثاني

مرحلة التبليغ

-١-

ثلاثة تحدّيات واجهت الرجل، وفرضت عليه الطريق الذي اختطه لنفسه؛ والذي كان فيه متميزاً عن العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، مختلفاً عمن سبقوه، هذه التحديات هي: سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا وانحلال عروة الوحدة الإسلامية، وتدافع سيل التبشير وتضاعف خطر الإرساليات، واحتواء الاحتلال للحركة الوطنية لتكون خادمة للقانون الوضعي والنظام الليبرالي وقائمة على الإعجاب بالمثل الغربي.

غير أن محاولة كسر هذا الاتجاه أو تحويله أو تغييره حتى يأخذ مساره الصحيح؛ مستجيباً للنفس العربية الإسلامية ومحققاً لآمال الجماعة في التماس نهج من الحياة وأسلوب من العيش يحقق لها سلامة القصد ويمضي بها في الطريق الصحيح؛ هذه المحاولة كانت في حاجة إلى جهد ضخم وعمل متصل، ولم يكن يكفي فيها أن تقف حركة اليقظة الإسلامية عند حدود الكلمة المنطوقة في خطاب والمكتوبة في مقال، فقد قطعت حركة اليقظة منذ ظهورها أشواطاً متعددة في هذا الطريق، وأصبح عليها اليوم أن تدخل مرحلة جديدة

هي مرحلة التربية وبناء الأجيال القادرة على أن تنهج نهج الأصالة؛ بعد أن انحرفت بالجماعة أساليب التربية والتعليم والثقافة الغربية التي فرضتها الإرساليات التبشيرية في معاهدها، ثم نقلتها وزارات المعارف في البلاد المختلفة تحت ضغط الاستعمار وبإشرافه لإخراج أجيال محتواة، تلتمس مُثُلها في الغرب وفي بطولاته ونظامه وطريقته في العيش، وهي في الوقت نفسه تجهل أسلوب العيش الإسلامي الذي توارى من الحياة العامة تقريباً وخاصة في المدن والعواصم.

ومن هنا فقد كان مجال الدعوة في حقيقته مجالاً سياسياً واجتماعياً بالدرجة الأولى، وإن أخذ طابع التوجيه الروحي والديني فإن ذلك كان يعني أنه محاولة لإعادة بناء الجانب الذي أهملته الثقافة العصرية. هذا مع أن الدعوة أعلنت منذ اليوم الأول: أن الإسلام كلٌّ متكامل، وأنه دين وسياسة، ومصحف وسيف، ودنيا وآخرة، وأنه ليس ديناً بمعنى العبادة أو اللاهوت يتمثل في العلاقة بين الله والإنسان فحسب، ولكنه نظام مجتمع ومنهج حياة والدين بمفهوم العبادة جزء منه.

ولم يكن هذا المعنى جديداً ولكنه برز بأسلوب جديد، وكان التركيز عليه أساساً هو العامل الأول البارز في ملامح هذه الدعوة، ونحن اليوم عندما نرى كتابات الباحثين والمؤلفين وأعلام الفكر الإسلامي تستفيض في هذا المعنى؛ وحين نرى دوائر المعارف التي قامت خاصة بالشريعة والفقه ومفاهيم الإسلام في التجارة والزراعة والصناعة والتعامل؛ يجب أن نذكر أن الدعوة التي حمل لواءها هذا الرجل هي التي فتحت الباب واسعاً أمام هذا الاتجاه، فقد كسرت القيود وحطمت الحواجز التي كانت قائمة في هذا الطريق يوم كان الكلام عن الشريعة الإسلامية وتطبيقها أمراً مخوفاً، يقدَّم كتابه إلى المحاكم،

ويتعرضون لغضب السلطات المحتلة والحاكمة على السواء.

لقد كانت الصيحة المدوية التي لا تتوقف على لسان هذا الرجل هي: تطبيق الشريعة، والعودة إليها، والكشف عن نقص وزيف وأخطاء القانون الوضعي، ومداومة هذا العمل دون ملل ولا توقف، حتى أصبح إحدى عقائد هذه الدعوة، ومن ثم كان ما نراه اليوم نتيجة فعلية لذلك الإصرار والإلحاح المدوي بالكلمة والبرهان، العرض العلمي الصحيح، والصمود في وجه مؤامرة فصل الدين عن الدولة سنوات طوالاً.

وهكذا نجد الدعوة التي حمل لواءها حسن البنَّا تختلف اختلافاً بيناً عما تعمل في مجاله الجماعات المختلفة التي عرفها عصره، والتي كانت تُعنى بمكارم الأخلاق والرياضة والبر وأعمال الخير والإحسان والتثقيف العام، كان العمل الذي تميز به الرجل: هو القدرة على بناء الرجال، وذلك الاقتدار العجيب في مجال التربية، والتعرف على الشباب وإعداده روحياً وثقافياً ورياضياً وطبعه بطابع الإسلام الحق، إذ كان هو ـ في الوقت نفسه ـ القدوة الصالحة والنموذج القوي الذي يحتذي ما أمكن سنن رسول الله ﷺ ويلتمس في الحياة أساليبه في الحياة والعبادة والتعامل مع الناس.

وكان الرجل باهراً في هذا المجال، فقد استطاع أن يكون بسلوكه وخلقه مثلاً عالياً في الصدق والإيمان والقوة والبساطة، وقد ألقى وراء ظهره كل المظاهر والمغريات والمطامع، وتجرد لربه ودعوته على نحو لا يقدر عليه إلا من عصم الله، ولا يطيقه إلا من صدق ربه وجهته، ولقد كنا نزوره في بيته ونعرف دقائق موارده وحياته؛ فلا نجده إلا مثلاً لتلك الصورة التي أرادها، فليس هناك من زخرف الدنيا شيء، ومائدته بسيطة، أطباقها وملاعقها وأدواتها

مشكّلة منوّعة لا تجمعها رابطة، وكساؤه الأبيض اليسير، وتلك الغرف التي تقوم فيها بعض السرر السفرية بأغطيتها الباهتة، فليس له في زخرف الحياة مطمع وإنما هي طاقة متجهة إلى العمل لله، كالإعصار لا يقف أمامه شيء من مغريات الحياة أو مطامعها، ولا يعوقها شيء عن أن تقول الكلمة وتبلغها لكل من تسعى إليه من أطراف القرى أو أنحاء المدن من أقصى القطر إلى أقصاه.

كذلك كان الخلاف بينه وبين علماء الأزهر في عصره واضحاً وواسعاً، فهؤلاء قوم ينطلقون من مناهجهم القديمة، ويرون الإسلام ديناً عبادياً، حدوده المساجد، وأركانه الصلاة والصوم، ويفتون الناس على هذا المذهب أو ذاك، أما أوضاع الحياة السياسية والاجتماعية فهم لا يرفضونها ولا يرون وجه المخالفة بينها وبين شريعة الله، وكثير منهم قد انضوى تحت لواء هذا الحزب أو ذاك؛ فكانت نظرتهم إلى المجتمع وأدوائه لا تتعدى حدود الإنكار والكراهية، ولا تمتد إلى ما بعد ذلك من دعوة إلى إصلاح أو نهي عن منكر أو أمر بمعروف.

ولما سقطت الخلافة ألقيت أضواء مركزة على شيخ الأزهر، وبدأت جماعات المسلمين تنظر إليه على أنه شيخ الإسلام، ولكن شيوخ الأزهر ـ إذ ذاك ـ ما كانوا يقدِّرون هذه المسؤولية الخطيرة، وفيهم من قال: إنه لا يعدو أن يكون مديراً لجامعة من الجامعات التعليمية.

ولقد ظلَّت الدعوة سنوات طويلة غير واردة في تقدير الأحزاب أو الحكومات، ولا منظورة تحت أضواء الاستعمار، فقد كان الرجل حريصاً على أن يعمل دون جلبة أو ضوضاء، وأن يجمع إلى صَفّه الشباب السليم الفطرة، المتطلّع إلى العمل لله، ينمِّي فيهم روح الإيمان، ويصنع منهم نماذج

من الدعاة إلى الله يحفظون القرآن ويروون الأحاديث النبوية ويحسنون الكلام، وتستشعر منهم الدنيا نماذج جديدة يغلب عليها الصدق والإخلاص؛ وإن كان رصيدها من الفقه والعلم محدوداً، هذه النماذج كان أكبر أثرها في أسرها وبيوتها، فقد استطاع الكثيرون أن يغيروا آباءهم وأمهاتهم وأهليهم، وأن يقيموا نماذج باهرة للمجتمع الإسلامي الجديد في مجموعاتهم القليلة، فلفتوا أنظار الناس بقوة، وبهروا أعين كل مؤمن حين كان يراهم يسارعون إلى المساجد، وحين تخرج نساؤهم في لباس إسلامي لا يكشف غير الوجه والكفين، وحين يسارعون إلى الخير. وبذلك استطاع حسن البنَّا أن يصنع نواة الأمة المؤمنة ونموذجها التطبيقي وأصل الأمة المسلمة؛ وفق قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وحيث كانت في البلد أحزاب منذ ثورة ١٩١٩م، ثم ظهرت في الثلاثينيات جماعات أخرى فقد لمعت في خلال الحرب العالمية الثانية هذه الدعوة واتسع نطاقها وانضم لها الألوف، وبدأ الصراع بينها وبين الجماعات الأخرى، والأحزاب والأزهر، وبينها وبين الحكومة والاستعمار نفسه.

وكان التنافس مصدر الخلاف والخصومة والأحقاد، كانوا ينفسون على الرجل حب الناس له والتفافهم حوله.

أما الاستعمار فقد آزر كل القوى في سبيل تحطيم هذا الوليد الذي لم يكتمل، ذلك أن الاستعمار كان يعرف أن الانطلاق من مفهوم الإسلام هو أخطر ما يمكن أن يواجهه، أما الانطلاق من مفهوم الوطنية أو الحرية أو القومية فذلك كله من صناعته ومن تنظيمه، فهو الذي أعد الحركة الحزبية عام ١٩١٩م على

النحو الذي عرفت عليه؛ حين قضى على الحركة الوطنية الأولى التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وكانت خطراً عليه، لأنها تنطلق من مفهوم الإسلام، أما الحركة الحزبية (سعد زغلول، عدلي، ثروت، النحاس) فإنها عملة ضربت في نطاق الاحتواء الغربي الاستعماري، فلا خوف منها ولا خطر، فإذا عادت قوى الأمة لتسقى بماء السماء فإن ذلك هو الأمر الذي لا يحسن السكوت عليه والذي لا بد من القضاء عليه.

- ٢ -

كان على صاحب الدعوة أن يبلغها إلى الناس أولاً، وهذه هي المهمة التي قام بها حسن البنَّا، فقد اتجه إلى عامة الناس أولاً، فاتصل بهم عن طريق المساجد والندوات والمقاهي على طول القطر من أسوان إلى الإسكندرية في خلال عشر سنوات طوال، لم يدع مدينة أو قرية إلا ونزل بها واتصل بأهلها، مبلغاً دعوته على نحوٍ دهش له كل من عرفه أو اتصل به.

وهذه هي المرحلة الأولى التي أوفت على غايتها، ثم جاءت بعدها (مرحلة التبليغ) لمن يهمهم الأمر من قادة ومفكرين وأحزاب وحكومات وهيآت.

وكانت الدعوة في المرحلة الأولى لا تستلفت نظر القوى السياسية التي تتداول الحكم، فلما اتسع نطاقها بدأت هذه القوى تفكر فيها وتعمل حساباً لها في محاولة لاحتوائها أو السيطرة عليها وإلا فاضطهادها.

ولما كانت الدعوة في هذه المرحلة لا تتطلع إلا إلى بناء جيل من الشباب وإعداده بالتربية الصالحة والتنظيم النافع بعيداً عن الدعاية؛ فإن الأمر

ظل يسـيراً وسهلاً، وذلك إيمانـاً من الرجل بـأن الزمن جزء من العلاج، وأن التدرج خير من الطفرة. ثم بدأ الرجل من بعدُ مرحلة التبليغ؛ فتقدم إلى مختلف الحكومات بالمذكرات يكشف للمسؤولين عن فكرته وهدفه اللَّذين هما فكر الأمة وهدفها.

وقد وقف من الحكومات المتوالية منذ تشكيل دعوته ١٩٢٨م إلى أوائل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م موقفاً واضحاً صريحاً، فهذه الحكومات كلها مقصرة في تنفيذ أحكام الله، وعليها أن تلتمس الطريق الصحيح. ولما كان (الوفد) هو القوة الشعبية الكبرى فقد ركز جهداً كبيراً في تبليغ قادته نداء الحق.

وانتهز لذلك مناسبة ضخمة هي تولي (مصطفى النحاس باشا) الحكم على أثر توقيع معاهدة ١٩٣٦م، وفي أوج هذا الموقف الذي كان بمثابة انتصار ضخم، حيث قامت الجبهة الوطنية المشكلة من مختلف الأحزاب وكبار الساسة المستقلين، والتي أُلزمت بتوقيع المعاهدة التي وصفت في ذلك الوقت بأنها معاهدة الشرف والاستقلال.

في ظلِّ هـذا الموقف الحاسـم تقدم حسـن البنَّـا إلى مصطفى النحاس برسالة ضافية يحدِّد بها الموقف بين الدعوة وبين أكبر أحزاب مصر في ذلك الحين:

«أتقدم[1] إلى رفعتكم بهذه الكلمات راجياً أن تتفضل بإنعام النظر فيها والحكم عليها بدافع من وحي ضميرك وحده، بعيداً عن كل المؤثرات وعن تزيين أو تزيف أهل الأهواء والأغراض مهما كانت صلتهم بكم، فإن العاطفة

---

(١) جمادى الآخرة: ١٣٥٧هـ.

التي أوحت بها، والروح الذي سكبها على هذا الخطاب لأطهر وأتقى من أن يبتغي بها غير وجهه الله وحده وخير هذا البلد، وهو في الوقت نفسه لا يضمر لكم، ولا لأحد من العاملين لقضيـة هذه الأوطان إلا التمنيـات الطيبة والخير العميم، وليس بينه وبينكم خصومة تجور به عن الحق أو تعدل برأيه عن جادة الإنصاف، وسأكون صريحاً واضحاً في كل ما أكتب، ولئن كان في الصراحة قسـوة وشدة، إن فيها مع ذلك راحة وشـفاء، وبياناً واهتداء، فمعذرة إذا ورد في كلامي بعض الحقائـق المؤلمة فإن الحق المـر خيـر من البـاطل الناعم الملمس، فيكشف بعد حين عن سم زعاف.

يا باشـا: يوم اعتقد الناس أن مصطفى النحاس باشـا والوفد المصري وحكومـة الوفد تقف من الإسـلام موقف المنصرف عن نصرتـه، المتبـرّم بمظاهره، العامل على إضعاف تأثيره؛ رغم ما يعلمون من ماضيكم المشرف منذ كنت طالباً في مدرسة الحقوق، فوكيلاً للنيابة، فقاضياً نزيهاً، فعاملاً مجداً للنهضة الوطنية في فجرها بنادي طلبة المدارس العليا، وإلى جانب مصطفى كامل ومحمد فريد وأضرابهما، رغم مواظبتكم على أداء الصلوات في المساجد

يوم اعتقد الناس هذا ولا يزال كثير منهم يعتقدونه وأنا واحد منهم؛ لم تكن هذه العقيدة وليدة خلاف حزبي ولا حزازة شخصية، ولم يكن يعوزهم الدليل على صحة عقيدتهم، بل كانت الأدلة المنطقية والمادية قائمة بين أيديهم، متوفرة لديهم ملء السمع والبصر والفؤاد، وإليكم بعضها:

أولاً: نـادى الوفد بالفكرة القومية والوحدة الوطنيـة بين عناصر الأمة الواحدة حتى تقوى الكتيبة ويتوحد الصف أمام الغاصبين والمستعمرين، وهذا موقف طبيعي وعمل جليل وأساس صالح للمطالبة بالحرية في بلد مغصوب،

وقد عمل لذلك الزعماء الوطنيون من قبل، ونادوا بطرح الخلافات المذهبية أمام مطالب الوطن ومستلزمات الجهاد في سبيل خلاصه. والإسلام الحنيف السمح يقر هذا ولايعارضه ويدعو إليه ويأمر به، بل يتجاوز مجرد الوحدة إلى حسن المعاملة والبر بالمخالفين في العقيدة فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ولكن الموقف الغريب المؤلم هو أن أعضاء الوفد وأنصاره فهموا هذه الوحدة فهماً خاطئاً، وظنوا أنها لا تتحقق إلا بأن يتهاونوا في واجباتهم الدينية، وأن يهملوا العمل على إحياء شرائع الإسلام ومظاهر الإسلام، وأن يحذفوا من برامجهم خدمة الإسلام حتى لا يكون في هذا إيلام لغير المسلمين من المواطنين، ودام هذا الشعور بأنفسهم ودأبوا على تغذيته والاقتناع به؛ حتى فترت تماماً حرارة حماستهم للإسلام، وبردت غيرتهم عليه برودة لم تجعلهم يفكرون في مصلحته (وذلك حكم إن شمل المجموع فلن يشمل الجميع طبعاً).

ولكن هذا هو الذي شاهده الناس ولمسوه، ومن هنا رأينا أن كل صوت يرتفع مطالباً بحق إسلامي من ناحية من النواحي أياً كانت يقابل بجواب واحد، هو أن ذلك لا يتفق مع الوحدة الوطنية، ولا نريد أن نمس شعور إخواننا المواطنين غير المسلمين، حتى خيل إلى جمهرة المسلمين اليقظين لمجريات الأمور والحوادث أنه لن يتحقق مطلب فيه خير للإسلام وأبناء الإسلام ما دام هذا السلاح مشهوراً في وجه كل من يريد الإصلاح.

ومن هنا كذلك رأينا أن الاجتماعات الوفدية والتشكيلات الوفدية بعيدة

كل البعد عن الاهتمام بالشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية، فليس ما يمنع عندها من أن تكون الاجتماعات في أوقات الصلوات، وليس ما يمنع من أن يفعل بعض ما يخالف تعاليم الدين على سبيل المجاملات، وليس ما يدعو إلى تشجيع روح التمسُّك بالإسلام والعناية به بين اللجان والتشكيلات؛ ومن هنا كذلك رأينا كثيراً من رجال الوفد يوعزون إلى كثير من أنصاره ورجاله الذي يشتركون في الحركات الإسلامية؛ أو يعملون مع بعض الجماعات الإسلامية؛ أو يشتغلون في الأغراض الإسلامية في المدن والقرى بالبعد عن هذه الجماعات، والانصراف عن تأييدها أو النهوض بها أو الأخذ بيدها، كل ذلك وقع ـ يا باشا ـ والأمثلة عليه كثيرة لا داعي لذكرها، وسببه ومصدره شيء واحد هو: توهم أن مناصرة الفكرة الإسلامية يتنافى مع أساس الوحدة الوطنية والفكرة القومية، وهو وهم خاطئ وظنٌّ بعيد عن الصواب.

ومواطنونا من غير المسلمين لا يريدون هذا ولا يهتمون له، وكل الذي يعنيهم أن يتمتَّعوا بحقوقهم وحريتهم كاملة، وذلك ما لا يعارض فيه أحد أو يأباه عليهم عاقل، ولا يتبرم بهه منصف غيور، وأؤكد لكم أن هذا الموقف أضر بالمسلمين وغير المسلمين؛ فأما ضرره بالمسلمين فهو أنه ضيَّع عليهم وقتاً كبيراً لم يتحقق لهم فيه أمل إصلاحي، وأما ضرره بغير المسلمين فهو أنه أحفظ عليهم القلوب، وأثار ضدهم ثائرة النفوس، وكاد يؤدي إلى عكس المطلوب من الوحدة ويدعو إلى الانقسام والفرقة.

ثانياً: جاء بتصريح رفعتكم في يونيو (حزيران) ١٩٣٥م لمكاتب شركة الأنباء الأناضولية وفيه تقولون بالنص:

«أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك؛ ليس فقط بناحيته العسكرية،

ولكن لعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية الحاضرة أن تعيش وأن تنمو».

جاء هذا التصريح قنبلة مدوية وإن لم يشعر بها إلا القليل من أهل اليقظة، وصدمة عنيفة الآمال وقلوب رجال الإصلاح الإسلامي والغيورين على الدين في مصر خاصة وفي العالم الإسلامي عامة.

وكتبت لدولتكم إذ ذاك راجياً أن تحققوا هذا الكلام بما يبيِّن للناس أنكم لا تقصدون إلا ناحية وطنية صرفة، أو إصلاحات في بعض النواحي المادية البحتة أو نحو هذا من وجوه التأويل والتخريج فلم أظفر بجواب.

هذا التصريح ليس تصريحاً أجوف، وليس تصريحاً يصدر هكذا عن مجاملة أو عن غير روية سابقة، وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى حيز الوجود في الوقت المناسب حين تتهيأ لها الظروف؛ وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير، فأنتم تسجّلون في هذا التصريح أن هناك شيئاً اسمه الدولة الحديثة؛ وهي التي فهمها كمال أتاتورك وشكل على غرارها تركية، وتسجلون في هذا التصريح كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو.

ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية؛ فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنمو في الأحوال العالمية الحاضرة إلا إذا تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركية، وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريدونه لهذا الوطن بعد الانتهاء من قضاياه الخارجية، ولستَ رجلاً من آحاد الناس، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم وتلقى إليه مقاليد الأمة.

واسمح لي ـ يا رفعة الباشا ـ أن أنبه هنا إلى نقطة قد تكون خافية وهي: أن أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده وطرد منها الأجانب، وبث فيها روح العزة والكرامة، ووفر لها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات، وهذا جميل لا غبار عليه؛ وقد وصل إليه أتاتورك وهو مسلم يحمل السبحة ويتلو القرآن في المصحف ويسجد لله على رمال صحراء الأناضول؛ حتى إذا مكن الله له في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح بل وأضعافه معه لو كان متمسكاً بدينه وإسلامه، فلم يكن الإسلام حائلاً دون الوصول إلى المجد، ومن ظُلْم الحقيقة أن ينسب إصلاح مصطفى كمال لتركية إلى الجحود والفجور والإلحاد والرقص والقبعة، وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر.

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن الوفد يعمل على سياسة إن لم تكن تناوئ الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه، ولا تعنى بشأنه، ويسرها أن تتخلص من تبعاته.

ألقيت مقاليد الأمة إلى الوفد منذ بدء النهضة الأخيرة، وقاد الرأي العام فيها، وتعاقبت حكوماته على كراسي الوزارة مرات؛ فماذا فعل للإصلاح الإسلامي، وماذ حقق من آمال المسلمين؟ لا شيء... بل بالعكس فإن كثيراً من مشروعات الحكومة يُراد بها تقليص ظل النواحي الإسلامية كمشروع إصلاح المجالس الحسبية مثلاً.

وهذا الإهمال التام والتناسي المطلق لمطالب المصلحين الإسلاميين مع التصريح بعكس ما يريدون والعمل عليه دليل آخر على ما يرى الناس ويظنون.

قد يقال: إن الوفد كان طول هذه المدة مشغولاً بالقضية السياسية الكبرى

ـ قضية الاستقلال ـ وهو كذلك، ولكن مهما كانت المشكلة كبيرة فإنها لن تنسي القائمين بالأمر علاج هذه الموبقات التي تصطدم مع أبسط المبادئ الإسلامية، ولا يستدعي القضاء عليها وقتاً ولا مالاً ولا يحتاج إلا إلى تأشيرة من وزير.

لقد رأيتم أن موقف الوفد من الإسلام قد أضرَّ به، وأن أمضى سلاح استخدمه خصومكم ضدكم هو الدين، فحولوا بذلك وجهة الرأي العام عنكم. وإن الشعب المصري تربة غير صالحة بوجه من الوجوه للانقلابات الملحدة الفاجرة، فهو شعب مؤمن بفطرته متدين بما ورث عن آبائه وأجداده، معتزٌّ بمجده الإسلامي وزعامته لأمم الإسلام.

والآن وقد فكرتم في الاتجاه نحو الناحية الإسلامية العربية، فأصدرتم قراركم بخصوص فلسطين الباسلة، هل لنا أن نأخذ من هذا أن الوفد جادٌّ في تعديل موقفه الماضي من الإسلام؛ أم لا زالت هذه المظاهرات مناورات سياسية اقتضتها الظروف والحوادث يراد بها الانتصار السياسي على خصوم الوفد والعودة إلى قيادة الرأي العام ثم إلى الحكم، حتى إذا تم ذلك عاد سيرته الأولى في الإغضاء والتجاهل والإهمال لكل إصلاح يمتُّ بصلة إلى الإسلام!.

ثق يا باشا بأنه إذا كانت هذه هي الغاية فإن الله لا يؤيد إلا من أخلص له وصدق توجهه إليه، ولن ينال الوفد شيئاً مما يفكر فيه أو يتطلع إليه؛ فإن الله أشد غيرة على دينه من أن يكون سلّماً للمطامع ومطية للأهواء والشهوات، وإن كانت الأولى، فلندع الماضي جانباً، ولننسه بخيره وشره، ولنضع منهاج المستقبل، فذلك هو الذي يعني الأمة ويؤدي إلى النجاح، وليكن هذا المنهاج مرتكزاً على قواعد الإسلام مستمداً من تعاليمه السامية وأصوله النبيلة النقية،

ولذلك ـ إن صح العزم عليه ـ علامات ودلائل نطالبكم بها ونحاسبكم عليها، فلا قيمة لدعوى بغير دليل وبرهان، ومن هذه الدلائل :

أولاً ـ أن يكون أعضاء الوفد والهيئة الوفدية وعلى رأسهم رفعتكم نماذج صالحة للاستمساك بالإسلام في أنفسهم وبيوتهم وكل مظاهر حياتهم، فيؤدون الفروض، ويؤمون المساجد، ويمتنعون عن غشيان الأندية الفاجرة والذهاب إلى الصالات الخليعة، ويصدرون عن هذه المسالك في تصرفاتهم الخاصة والعامة، وتزدان اجتماعات الوفد بملاحظة الأوقات وأداء الصلوات، وينبه على ذلك تنبيهاً جاداً في كل اللجان الوفدية صغيرة وكبيرة، ويراقب أعضاؤها. هذا ويؤخذون به على أنه القدوة الحسنة من جانبكم وجانب أعضاء الوفد البارزين.

ثانياً ـ أن يعلن الوفد منهاجه الإصلاحي مستمداً من قواعد إسلامية متضمناً لما يأتي :

١ ـ العناية بإصلاح التشريع وتوحيد المحكمة المصرية في ظل الشريعة الإسلامية.

٢ ـ العناية بإصلاح التعليم وتوحيد المدرسة المصرية في ظل الشريعة الإسلامية كذلك.

٣ ـ العناية بتجنيد القادرين في الأمة جميعاً تجنيداً تطوعياً لا يكلف الحكومة شيئاً، باسم الواجب الديني المفروض على كل مسلم؛ واجب الجهاد في سبيل الله الذي يدوي به النفير العام في قوله تعالى : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٤١].

٤ ـ محاربة الموبقات التي يحرمها الله والتي أفسدت أخلاقنا وهددت مجتمعنا والقضاء عليها قضاءً تاماً؛ كالبغاء، والقمار، والخمور، والتهتك، والمراقص، والصالات والأندية الداعرة. . . إلخ. وأخذ كل خارج عن أدب الإسلام بالعقوبة الرادعة.

٥ ـ العناية بمشروعات الإصلاح الاقتصادي والاستعانة في تحقيق ذلك بتنظيم الزكاة جباية ومصرفاً.

٦ ـ مقاومة روح التقليد الأوروبي وتعويد الشعب الاعتزاز بكرامته.

٧ ـ العناية بإصلاح الإدارة والأسرة والقرية وتطهير ذلك كله من كل ما يتنافى مع أدب الإسلام وتعاليمه.

٨ ـ العناية بالسياسة الخارجية التي تربط مصر بغيرها من الأمم الإسلامية؛ تمهيداً لعودة (الخلافة) وتوكيداً للوحدة التي فرضها الإسلام.

٩ ـ دعوة خصوم الوفد السياسيين إلى انتهاج هذا المنهج، وبذلك يقضى على الحزبية السياسية.

هذه نماذج مما يجب أن يعلنه الوفد في منهاجه الجديد على الأمة، لم نقصد بإيرادها الاستقراء التام ولا الاستقصاء الكامل ولكن نسوقها كأمثلة مما يجب أن يكون.

إذا وافقتم على هذه الخطة ـ يا رفعة الرئيس ـ فتقدموا بها إلى هيئة الوفد الموقرة، واطلبوا إليها إقرارها وإعلانها، وإذاعتها على لجانها وهيئاتها وأنصارها، وحينئذٍ ثقوا بأنكم سترون من الشعب المصري الكريم نجاحاً تاماً وتأييداً كاملاً وموافقة شاملة، وحينئذٍ تتوحد القوة وتتجه الأمة إلى الخير مجتمعة

ويكتب الله لكم أجر العاملين المخلصين.

هذه كلمة ليس مصدرها حب الشهرة ولا التشهير وإنما هي النصيحة الخالصة، يتقدم بها إليكم قلب يضن بخطواته أن تكون لغير الله والإسلام؛ فانظروا ماذا ترون؟.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والسلام عليكم ورحمة الله.

-٣-

كان المرشد العام أن يكتب إلى الملك مبلغاً كلمة الإسلام[(١)]:

«بالنيابة عن مئات الألوف من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بمصر أرفع إلى جلالتكم هذا الرجاء؛ لا يدفع إلى ذلك إلاّ حبُّ الخير الذي تحرصون عليه لأمتكم المخلصة. وقد أخذ رسول الله ﷺ العهد والموثق على كل مسلم أن يجهر بالحق ويتقدم بالنصيحة «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

مصر الناهضة في حاجة إلى الوحدة والاستقرار حتى تتفرغ إلى الإصلاح الضروري في كل مظاهر حياتها، وتدعم نهضتها على أصول ثابتة من التعاون الوثيق والعمل المنتج؛ ولكنّ الحزبية السياسية التي تفشت بين الناس فرقت

---

(١) كتب له في ربيع الأول ١٣٥٧هـ.

الكلمة، ومزقت الوحدة، وأضعفت القوة، وذهبت بمعنى التعاون على الخير في شعب أشد ما يحتاج إلى التضافر والاتحاد؛ فأفسدت الحزبية السياسية كل الأعمال، وعطلت كل النواحي من الخير، وأتت على كل جوانب الإصلاح.

عبثت بالإخلاق والضمائر، وباعدت بين أبناء الأسرة الواحدة والبيت الواحد، وغرست البغضاء والحزازة في نفوس الأخوة والأقارب والأصهار فضلاً عن الأجانب والأباعد، وجاوزت المدن إلى القرى والكفور والنجوع، ففي كل قرية خلاف حزبي، وفي كل نجع حزازة حزبية، وكل فريق يتربص بالآخر الدوائر، ويكيد له المكايد، ويتفانى في القضاء عليه والنيل منه، ويشتغل بذلك عن الواجبات الشخصية والوطنية والإنسانية، ويضحي في سبيل الانتصار على خصمه السياسي بكل نفيس من خلق ومال وأواصر وصِلات، وصار من المستحيل على أي مصلح أن ينهض بمشروع نافع في أي بلد من بلاد القطر؛ إذ تحول الخصومة الحزبية بين أعيان البلاد دون الاجتماع على النجاح، ولا يترك فريق منهم الآخر يعمل دون أن يعاكس جهوده، ويقضي على ما يلقى من تعضيد وتأييد، وبذلك تعطلت مظاهر النشاط، وصارت القوى وقفاً على المعاندة والمخاصمات، وذلك موقف لا يطاق في أمة تناديها الدقائق قبل الساعات بوجوب الجد والعمل والتكوين والنهوض الصحيح.

إن الأحزاب السياسية القائمة في مصر أوجدتها ظروف وحوادث وغايات قد انتهت كلها ولم يبق منها شيء، وليس هناك من تباين جوهري في برامجها يدعو إلى تعددها تكاثرها، وكل حزب منها يدّعي أنه يعمل للإصلاح في كل نواحي الحياة، مع أن الحقيقة أنها لم تفكر بعد في أي برنامج عملي منتج تعمل على أساسه، فلا معنى لبقاء هذه الأحزاب بهذه الصورة الشكلية الجوفاء،

واشتغالها بالتناحر والتهاتر حول الأسماء والمصالح الخاصة والأمور الشخصية التافهة، وجرها الأمة معها في خلاف شديد لا نتيجة له إلا أن يكسب رؤساء الأحزاب داخل الحكم وخارجه على حساب الفلاح والعامل والصانع وغيرهم من عامة الشعب الطيب القلب، الذين يقومون وحدهم بكل التضحيات.

لقد برهنتم في كل موقف على اعتزازكم بتعاليم الإسلام، وحرصكم على أن يسود الروح الإسلامي النبيل مظاهر حياة الأمة، ومصر زعيمة العالم الإسلامي فلا يمكن إلا أن تكون صورة واضحة للحياة الإسلامية الصحيحة، فعنها يأخذ المسلمون وبها يقتدون، والإسلام دين وحدة واجتماع، وتعاون على البر والتقوى، وتواصٍ بالحق والصبر، وحثٌّ على الوفاق والوئام، وإرشاد إلى سلامة الصدور وطهارة القلوب ونقاء السرائر والإخاء بين الناس، وحض على الجماعة في كل الشؤون والأمور.

لا يعرف الإسلام الفرقة ولا يقر الخصومة، ولا يعترف بهذا التمزيق بين قوى الشعب المسلم الواحد، وإنه ليتوعد المختلفين المتفرقين بعقوبة الدنيا من وهن العزائم والبعد عن النجاح، وبعقوبة الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن الأمم الغربية التي ليس لها كتاب قيم ككتابنا، وليست لها شريعة مطهرة كشريعتنا؛ أدركت بحكم مصلحتها الحيوية ضرر الخصومة الحزبية، فقضت عليها من أساسها واستأصلتها من ديارها، وقذفت بها من حالق، وطهرت أرض

الوطن من الفرقـة والخلاف، حتى إنكلتـرا ـ أعرق البلاد في النظام الحزبي كما يقولون ـ لا يكاد يرى فيها أثره أو تلمس فيها نتائجه، وهي أمام الأخطار التي تتهدد العالم تبـدو حكومة قومية، وشـعباً متعاونـاً، وأمة واحدة. وإن فرنسة ـ وهي مثال التناحر الحزبي ـ قد ارتفعت صيحات زعمائها بوجوب تعديل هذه النظم الحزبية؛ حتى تستقر الأمور وتتمكن الحكومات من العمل والإصلاح.

إن الإسلام ـ الذي يحرم هذه العصبية الحزبية ـ يشجع حرية الرأي، ويدعو العقول إلى التفكير والنظر، ويوجب النصح والبيان؛ وكل ذلك في حدود الوحدة المتماسكة والكتلة المتراصة، يظهر كل إنسان رأيه ويقول كل ما يريد أن يقول، ويترك للجماعة بعد ذلك أن تحكم وأن تسير.

يلتمـس الإخوان جمع كلمـة الزعمـاء بتأليف هيئـة قوميـة واحـدة من جميعهم، ومعهم كـل أهل الكفايات والمواهب، تضع برنـامجاً للإصلاح والنهضة في كل النواحي على أساس من الإسلام القوي العزيز الفاضل النبيل، مع تنازل كل حزب عن اسمه الخاص واندماج الجميع في تلك الهيئة الواحدة.

مع هذا الملتمس التماسات أخرى برجاء الإصلاح الاجتماعي؛ إذ بدت في المجتمع المصري ظواهر خطيرة من التحلل والإباحية والخروج على الدين والفضيلـة، تنذر بأخطار جسـام إن لـم تتدارك بالاصلاح والعلاج، فتداركـوا ـ يا مولاي ـ شعبكم في قادته وزعمائه، وفي منهاج نهضته، وفي كل مظاهر حياته، وسيروا في ضوء القرآن الكريم، وعلى هدي رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده».

- ٤ -

وعندما شُكِّلت وزارة (محمد محمود) ممثلة لجميع الأحزاب والقوى السياسية ـ ما عدا الوفد ـ توجه حسن البنَّا إلى رئيسها برسالة تاريخية:

«من حق هذا الوطن علينا الصراحة في القول والجرأة في العمل، فإنَّ الوقت لا يحتمل الإبطاء، والظروف تلح في وجوب الإسراع بالعلاج، وإنَّ مظاهر الفساد في حياة الشعب المصري من كل النواحي أوضح من أن يتناولها بيان.

لا تظنوا أنَّ الشعب المصري ضعيف إذا وجد القائد، وأقسم لكم إنْ سرتم به في طريق الفضيلة والخلق والإسلام الصحيح؛ لوجدتم منه شعباً هو أبسل الشعوب، يجود بالنفس والمال في حماية عقيدته والذود عن حياضه، فأعلِنوها كلمةً باسم القرآن الكريم، وارفعوها رايةً ترفرف عليها روح رسول الله ﷺ، وتهب نسمات النصر والتأييد من الملأ الأعلى، وأنا زعيمٌ لكم، وأراهن عليها بدمي أنكم سترون من هؤلاء الفلاحين المندثرين في خفايا القرى وزوايا الحقول جنداً لله ورسوله، يصغر أمامه جند (هتلر)، ويضعف معه جيش (موسوليني)، وتحتمي بهم قوات بريطانية، يدفعون العادية لا عن قناة السويس وحدها، وليس في عشرين سنة[1] بل في عشر سنين، وعند جيش إبراهيم باشا الخبر اليقين، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

قد يقال: كيف ننادي بالإسلام والإنكليز لا يزالون في مصر

---

(١) كانت المعاهدة التي عقدتها مصر مع بريطانية قد أعطت فرصة عشرين سنة لتكوين الجيش المصري.

بالمرصاد؟! ونقول: إنَّ الإنكليـز لا يعنيهم من نظامنـا الداخلي شيء، وقد تركوا لنا أن نتصرَّف فيه كيف نشاء، ومن مصلحتهم أن نكون أقوياء، ألسنا لهم حلفاء؟! حجـةٌ مدفوعة، وقالـةٌ مردودة، فإنْ كان صحيحـاً أنَّهم يعارضون ولا يوافقون وجب إعلان الجهاد واستئناف العمل معهم من جديد حتى نطمئن على حريتنا ونتمتع باستقلالنا، ولا خير في استقلالٍ سياسيٍّ صوريٍّ يحول بيننا وبين حقوقنا الطبيعية، بل يقيد استقلالنا الفكري والاجتماعي بأثقل القيود.

وإذا كانت الوزارة تخشى أن توصف بأنها إسلامية وتحسب حساباً لهذه التهمة؛ وتحب أن تظهر أمام الناس بمظهر البعيد عن الإسلام، الذي لا يعنيه أمرُه ولا يهتم لشأنه؛ فيالضيعة الآمال، ويالطول شقاء هذا الشعب الذي لا يريد قادتُه أن يستقيموا به على الصراط المستقيم؛ ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٣]، وكأنهم جميعاً في ذلك على اتفاقٍ سواء.

إنَّ الدواء بين أيدينـا، أثبتَ فائدتَه البحث والنظر، وأيَّـدَهما التاريخ والعمل، وليس بيننا وبين الشفاء والقوة إلا أن تمتدَّ يدٌ جريئة مخلصة إلى هذا الدواء، فتؤمن به إيماناً عميقاً، وتتعاطاه وتقدِّمه للأمة في وضوحٍ وفي جرأة وفي إلزام، وليس ذلك الدواء إلا تعاليم الإسلام وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥].

تقدَّم إليها خطوةً لله وللوطن، وقد أدى العلماء رسـالتهم على لسـان

شيخهم من منبر الأزهر الشريف حيث قال الأستاذ الأكبر في خطبته عقب يمين الجيش :

أيها المسلمون : اسمعوا في دينكم قول الله الحق وقول رسول الله ﷺ. يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

ويقرر القرآن نفيَ الإيمان عن الذي لم يرضَ بأحكام الله رضًى يزيل الحرج عن صدره ، ويملأ قلبَه استسلاماً وطمأنينة ، ويصف بالنفاق مَنْ يصدّ عن الداعي لله ورسوله .

إنَّ الدين ـ أيها المسلمون ـ مهما امتدّت آفاقه وتأوَّل فيه الماديون ، فهو لا يحتمل هذا الإلحاد ، ولا هذه الإباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حدّ ؛ وإنما يحتمل مدنيةً فاضلةً تقوم على علم كامل وعمل صالح .

والمسلم الذي لا يعرف أنَّ الدين حقٌّ كلُّه ، وخيرٌ كلُّه ، ويقول : إنَّ بعض قواعده ضارة بالمجتمع أو ضارة بالمدنية أو السياسة ـ مسلمٌ مرتدٌ عن دين الله ، لا يقبل الله منه صلاةً ولا صوماً .

هذا حكم الله أجاهر به ليكون المسلمون على ذكرٍ منه ، ذلك بأنَّ الله أنزل الكتاب بالحق ، وإنَّ الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاقٍ بعيد .

إنَّ إضعاف سلطان الدين على النفوس ؛ والتفريق بين قواعده ، وانتزاع سلطانه على الحياة الاجتماعية ؛ يُضعف نفسَ المسلم ويبعده عن دينه ، ويُضعف خُلقَه ، ويجعله أهلاً للاستكانة .

والمؤمن محكومٌ له بالعزة من الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، أولئك الذين يحاولون إبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية، ويحاولون إخفاء شعائره ومظاهره؛ هم في الواقع أعداء الإسلام».

هذا رأي شيخ الأزهر، فلم يبقَ إلا الوزارة وهي أداة التنفيذ.

وقد يقال: إنَّ الأجانب يقلقون لذلك ويتأثَّرون به وهم عصب البلاد الاقتصادي، ولهم بين أيدينا مئات الملايين من الجنيهات؛ حسنٌ جداً، فلندعُ زعماءَهم ورؤساءَهم ونتفاهم وإيَّاهم، وسيرَوْن في الإسلام وحكم الإسلام وتعاليم الإسلام ضماناً لحقوقهم، وحفظاً لأرواحهم، وتطميناً على أموالهم ومصالحهم وذلك ما يريدون.

قد يقال: إنَّ في الأمة عنصراً ليس مسلماً لا يرضى حكم الإسلام، وجواب ذلك مدفوعٌ بالواقع، فقد عايش هذا العنصر المسلمين قروناً عدة؛ فلم يرَ إلا العدل الكامل والإنصاف الشامل، ولا تزال كلمات الخليفة الثاني لأميره في مصر مدوّيةً في الآذان، مردَّدةً على كل لسان: «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؟! وليس ذلك بِدْعاً من إمام يناديه كتابه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويوصيه نبيه ﷺ: «ستُفتح عليكم مصر؛ فاستوصوا بأقباطها خيراً، فإنَّ لكم منهم رحماً»[(١)].

---

(١) هذا الرحم هو السيدة هاجر أمُّ النبي إسماعيل عليه السلام، وكانت مصرية.

والأمر أوضح من الصبح، وإن كانت هناك عقبةٌ فهي عقبة واحدة، ولكن صرحاء في تعرُّفها والإفصاح عنها؛ تلك هي أنَّ زعماء مصر أنفسهم لم يتشبَّعوا بالإسلام، ولم يتّصلوا بتعاليم الإسلام، ولم يفتنوا بجمال الإسلام، كرعوا من معينٍ غير معينِه، ودرسوا في كتابٍ غير كتابه، فهم به لا يقتنعون، وعلى حكمه لا ينزلون، وأظن أنَّ الأحداث قد دلَّتهم على خطأ نظريتهم، ونادتهم بوجوب العودة إلى عقيدتهم والتمسُّك بتعاليم دينهم، وذلك ما نستبشر به ونحمد الله عليه.

إنَّ كثيراً من الدول الشرقية الناهضة كان من شأنها أن اتجهتْ وجهةً غير إسلامية، ولقيت في ذلك بعض النجاح المادي الظاهري، فأغرى سواها بتقليدها وسلوك سبيلها، وأوقعَ في روع كثيرٍ من قادة النهضات في الشرق، أنَّ النهضة الصحيحة لا تكون إلا إذا أهملنا جانب التعاليم الربانية، وخرجنا على شرعة الإسلام، ونادينا بالقومية المجردة من كل شيء، البعيدة عن اعتبار كل ما سواها، وسَرَتْ هذه العدوى إلى مصر، فسمعنا من بعض زعمائها[1] من يشيد بفهمه لمعنى (الدولة الحديثة) التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية الحاضرة أن تعيش وتنمو، وسمعنا وزيراً من وزرائنا يعجب بالإصلاحات الجوهرية في دولةٍ أعلنتْ أنَّها لا دينية في إصلاحاتها.

هذا ما يمسّ الإسلام وينقض تعاليمه من الأساس، ولا نريد بهذا أن نتعرض لشؤون غيرنا من الأمم، ولكنا نريد أن نقول: إنَّ العدوى سرت إلينا وانتشرت فينا، وأصبحنا نفكر بعقولٍ بعيدةٍ عن فكرة الإسلام، ونفوسٍ خاليةٍ

---

(١) مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد.

من روحانية الإسلام. فإن كان هذا حقّاً فهي نكبة النكبات، وإن كان مجاملةً فإنَّ وقت المجاملة قد فات، وتلك هي العقبة الأولى ولعلَّها الأخيرة أيضاً، إن صحَّت العزائم وصدقت النيات.

ليست مصر وحدها في إيمانها وموقفها ومنزلتها من رعاية الإسلام والمسلمين كهذه الشعوب التي رضيتْ أن تبني سياستها على غير أساس الدين الحنيف. وذلك إجمالٌ له تفصيلٌ ليس هذا موضعه، فحسبنا أن نقرر هذه الحقيقة ناصعة البيان، واضحة الحجة والبرهان، فلتنفرد حكومتك بهذا الفخر، ولترفع صوتها عالياً بكلمة الإسلام، ولْتجعل شعارها العمل على تحقيق مراميه والذود عنه، ولتدعُ إليه في مصر، ولتنادِ به في أوروبة، ولتقِمْ نفسها وصيةً على العالم باسم الله وحكم الشريعة.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

ولابدَّ من تلقيح الأفكار المصرية والنفوس المصرية والأرواح المصرية بدمٍ جديد وغذاء جديد، تقوى النهضة فيه وتستمدّ النور منه، ولابد أن ينصب لهذا الشعب هدفٌ يحدى به ويتطلع إليه، فلا تجعلوا هذا الهدف غير الإسلام ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ [النحل: ٩٤]، وتذوق مرارة تجربةٍ أليمةٍ ما كان أغنانا عنها.

إنَّ لكل دعوةٍ أئمة يهدون إليها وينهضون بها، وإنما ينجحون إذا آمنوا هم بدعوتهم وعملوا بأحكامها وكانوا هم أنفسهم أول المنفِّذين لها، وبدون هذه القدوة لا تفيد العظة ولا تتمكن الغيرة، ولا تنجح الدعوة.

فأول واجب على الحكومة ـ إن صحَّ عزمها على مؤازرة الفكرة الإسلامية المنصفة العادلة ـ أن تكون حياة رئيس الوزراء نفسه والوزراء من بعده في حقيقتها ومظهرها صورةً رائعة قوية من الاستمساك بالإسلام، وأن تمنع بتاتاً هذه الحفلات الخليعة، ساهرة وغير ساهرة، التي تُشرب فيها الخمور، ويختلط فيها النساء والرجال، وتُتَحدَّى بها شعائر الله، وهي مع ذلك حفلات رسمية تقام باسم الحكومة الإسلامية، ويُنفق عليها من أموال فقراء هذا الشعب.

ويجب ألا تُدعَى إلى الحفلات سيدةٌ أياً كانت مصريةً أو أجنبية، ولئن كان العرف الدبلوماسي يقضي بمثل هذه الدعوات؛ إنَّ الشرع الإسلامي لا يبيحها بحالٍ من الأحوال، ونحن أحرار في إنفاذ تعاليم ديننا في بلدنا، فمن أجابنا فبها ونعمت، ومن أعرض عنا فله رأيه، ولن يضرّنا إعراضه، وهذه تقاليد معمولٌ بها في الدول الإسلامية دون أن يعترض عليها أحد؛ بل إنَّ ذلك أدعَى إلى الاحترام لما فيه من معنى الشعور بشخصية الأمة والاعتزاز بدينها وتقاليدها كدولة مسلمة، وإباء التفريط في هذه الشخصية لإرضاء الأجانب، أو تألُّف الغربيين الذين لا يرضيهم منا ـ مع ذلك ـ إلا أن ننسى ديننا، وننكر شريعتنا وأخلاقنا ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠]

وأن يمتنع الوزراء ورؤساء المصالح وكبراء الدولة عن الذهاب إلى المجامع والأندية التي يُلعب فيها القمار، أو يُحتسَى فيها الخمر، وأن يتجنَّبوا ميادين السباق ومحافل اللهو الشائن؛ حتى يضربوا المثل الصالح في الاستقامة للشباب. وأن يكفَّ كبار رجال الدولة عن نشر صور نسائهم وفتياتهم في الصحف، فهؤلاء هم القدوة والناس لهم تبعٌ، وفي نشر هذه الصور إيقادٌ لنار الفتنة وإغراءٌ لذوي النفوس المريضة، ويجب أن يُحاكَمَ الكتَّاب الذين يتدخَّلون

في شؤون الأسر وأسرار البيوت؛ ويذيعون على الناس هذه المفاتن بكتاباتهم البذيئة.

وأن يتواصى الحكام فيما بينهم بأداء الفرائض الإسلامية جميعاً ولاسيما الصلاة، التي يجب أن يقصدوا المساجد لإقامتها في الجمعة وغير الجمعة، شعبيةً مجردةً من المظاهر الرسمية وإتيان ذلك في إعلانٍ وبيان، وعن عقيدة وإيمان؛ لتسري هذه الروح ويقتدي بالكبار غيرُهم من الصغار.

وأن يعمل كبار رجال الدولة على أن يكون المظهر الغالب في بيوتهم إسلامياً، فالأحاديث باللغة العربية، والمربِّيات من الأسر المصرية، والمدارس الحكومية إسلامية، فلا يخفى أنَّ كل بيوت العظماء لا تكاد تمتّ إلى مصر؛ ولا إلى الإسلام بصلةٍ ما، وفي هذه البيوت سيتخرَّج الوزير والموظف الكبير؛ وكيف يكون لهم في المستقبل الحظ الكافي من الغيرة على مصالح بلادٍ تعلَّموا في مهدهم غير علمها، وتحادثوا وأهلها بغير لغتها، وتربّوا في نشأتهم على غير أيدي أبنائها!!.

ومن غير المعقول أن يكون الموظف دائم السهر في المواخير والحانات ثم يقال إنَّه كفءٌ في عمله، أو قائمٌ بواجبه.

ولتوضع التشريعات لما يقع تحت طائلة التشريع من ذلك، والله شاهدٌ والناس رقباء، والألسنة تملك الكلام وتستطيع إظهار الشعب على الحقائق المؤلمة، حتى لا يغفل عن واجبه في توجيه القادة وحمل الناس على الاستقامة، وإنْ أسكتَتْه القوة، فسينطقُه الضيق، والضغط يولِّد الانفجار!!.

ومجتمعنا المصري كما تعلمون تحطَّمَت فيه المقاييس الخُلقية، وتدهورَ مستوى الفضائل تدهوراً يدعو إلى الأسف الشديد، وتظاهرت عليه

معاول الهدم من كل جانب، فالشبان والشابات والأسر والأفراد، والجسوم والأرواح كلها محطمةٌ تحطيماً يدعو في منتهى السرعة إلى الإصلاح والترميم، وذلك إنما يكون بوسائل كثيرة في أصولها الأساسية:

أولاً - إصلاح منابع الثقافة العامة:

ومنابع الثقافة العامة في كلِّ أمة هي المدارس، والصحف، والمطبوعات، والسينما، والتمثيل، والإذاعة، وهذه كلُّها تحتاج إلى إصلاح.

أ - ففي المدارس لا بد من وضع سياسة ثابتة للتعليم، يكون من شأنها استقرار المناهج، والتقريب بين الثقافات وتوحيد الأنواع المتشابهة من المعاهد؛ توفيراً للمال والجهد والتبعات، وتحديد الاختصاصات، والتفريق بين مناهج البنين والبنات، وتشجيع الناحيتين العملية والاستقلالية ما أمكن، والفصل التام بين الجنسين في دور التعليم وخصوصاً في الجامعة؛ فإنه من المستحيل أن يكون في كلية الآداب مثلاً نحو مئتي فتاة كلُّهنَّ في سنّ النضج يختلطن صباح مساء بفتيان الكلية، ثم لا يكون من ذلك فساد وأيُّ فساد!! والواقع أنَّ ذلك أفسد من أخلاق الجنسين وأرواحهم مهما كابر المكابرون وأنكر المغرضون. كما يجب القضاء على الدروس التي تتنافى مع الفكرة الإسلامية في المدارس الفنية كدروس الطبيعة الحيّة مثلاً، ويجب العناية بالتاريخ الإسلامي والسيرة النبوية والدين، وصبغ المدارس من بنين وبنات بروحٍ إسلاميٍّ فاضل، يجعل الجميع يتمسّكون بآداب الإسلام في مظاهرهم الخاصة من الزي والهيئة، وأداء الفرائض بمصلّيات المدارس ومساجدها، وفي مظاهرهم العامة متجلّياً هذا الروح في الحفلات والرحلات.

ب - وفيما يتعلق بالصحف والمطبوعات والسينما والتمثيل والإذاعة؛

تُراقَب كلُّ هذه النواحي مراقبةً فعَّالةً منتجة، ويُنَصّ في القانون على عقوباتٍ زاجرة رادعة، وأساس ذلك أن يُختار المراقبون من الأمناء على دينهم، الموثوق بأخلاقهم؛ بحيث لا تكون الناحية الفنية وحدها هي الأساس في الاختيار، فكم يُحارَب الفنّ باسم الفنّ، وكم يعدل الفنيّون عن الحقائق إلى الأهواء، وما كلُّ فنٍّ يُذاع، وليس كل ما دُرس في أوروبة يطبَّق في مصر.

فلتختر الحكومة لجان المراقبة على أساسٍ صالح، لتنتج مراقبةً صالحة، ولتوضع مناهج الإذاعة بدقّة، فإنَّ الراديو بقدر ما أفاد غيرنا جنى على أخلاقنا، ومن الإجرام أن يستخدمَه غيرنا في إنهاض الشعب، ونستخدمَه نحن في الحب والغرام والأنواع الرخيصة من الأغاني.

ولتصادَر الصحف الماجنة الخليعة التي يتشرَّب روحَها أبناؤنا الأطهار وفتياتنا الصغار، فتفسد عقولهم وأرواحهم وعواطفهم وشعورهم؛ سواء أكانت أجنبيةً أم مصرية.

ولنهتمّ بتهذيب الأغاني والأناشيد، فأثرُها في التكوين الروحي للشعب جدّ خطير!!

ثانياً ـ إصلاح القانون:

وإنما يكون ذلك الإصلاح بصبغه بالفكرة الإسلامية، وتأليف اللجان من جديد للنظر في التوفيق بين القوانين القائمة والقوانين الشرعية، حتى يشعر الإنسان بأنه محكومٌ بقانون الله السماوي لا بقانون الناس الوضعي، فتكون له من المهابة في نفسه ما يتحقّق به الغرض من وضعه، وبذلك تتوحد الأمة المصرية، ويُقضى على ذلك الاضطراب في الاختصاصات، وكل ما يعترض ذلك من عقبات تذلِّلُه الهمة وتتغلَّب عليه العزائم.

ثالثاً ـ القضاء على الموبقات المهلكات في المجتمع المصري:

وذلك بإلغاء البغاء بنوعَيه السرّي والعلني، والقمار بأنواعه، ومنها اليانصيب بكلِّ صوره ولأيِّ غرض، فهو مصدر إضاعةٍ للأموال، وزرعٍ للضغائن والأحقاد، والخمر أمُّ الخبائث، وأصل الشر في كل مجتمع، يجب أن تحارَب كما حوربت المخدرات.

والمراقص والصالات والأندية التي هي في حقيقة أمرها بيوتٌ سريّةٌ لا أنديةٌ أدبية، هذه الأماكن التي تنتحر فيها الفضائل، وتُراق فيها دماء الأخلاق، وتذهب باللبِّ والقلب والعقل والمال، يجب أن تُغلَق.

كما يجب القضاء على التسوُّل والبطالة، وكلِّ أمرٍ آخر غير شرعي من دجلٍ وشعوذة باسم الدين أو الطب، والعادات الضارة في المآتم والأفراح والزار والمصايف، وما فيها من خلاعةٍ ومجون وتهتّك وفساد، وكذلك الأزياء الخليعة والاختلاط الشائن.

* * *

ويأتي بعد ذلك توجيه الشعب إلى الانتفاع بوقت الفراغ، وتشجيع الروح العسكرية والرياضية في نفوس الشباب ولا سيما الملاعب، وأن تفرض على هذه الوحدات التمسُّك بالآداب الإسلامية والمحافظة على أداء الفرائض.

وعلينا أن نعنَى بعد ذلك بتوحيد الجهود وتضافر القوى على تحقيق الغايات، والسير صفاً واحداً إلى الهدف المنشود؛ بالقضاء على الحزبية السياسية بشكلها البغيض والدعوة إلى الوحدة. (١٣٥٧ هجرية).

- ٥ -

وكان لا بد أن يصدع بالحق في وجه القائمين على القانون، داعياً إلى وجوب العمل بالشريعة الإسلامية وهذه رسالته إلى (أحمد خشبة وزير الحقانية)[1]:

لست في حاجةٍ إلى أن أقدِّم إليكم البراهين الكثيرة والحجج المتضافرة؛ على أنَّ ورائي هذه الأمة الجادة في رجوعها إلى هدي الإسلام في كل الشؤون، وأول هذه الشؤون الشؤون القانونية، فأنت بحمد الله فيما أعتقد مقتنعٌ بهذه الفكرة، سمعتُك تتحدَّث عنها وتدلل عليها وتعمل لها خارج الحكم.

إنَّ صدور الأمة محرجةٌ أشدّ الحرج لشعورها بأنها تحكم بغير كتاب الله وقانونه وشريعته، وإنَّ الشعوب التي تعوَّدت الصبر حيناً؛ فإنَّ الانفجار نتيجةٌ طبيعيةٌ لهذا الصبر في كثير من الأحيان، وليس يجرح النفس شيءٌ أكبر من الاصطِدام بالعقيدة الراسخة الثابتة، وإنَّ قوانيننا الحالية تنافي الإسلام وتصدمُه وتحطِّمُه في نفوس المؤمنين به، وهم كل هذا الشعب، وقد تفتَّحت أذهان الأمة وأدركت بُعْدَ ما بينها وبين دينها في هذه الناحية، فشعرتْ بالحرج الشديد إن بقيتْ الحال على ما هي عليه، فلا تلجؤوا الناس إلى عصيان القوانين واحتقار الشرائع، والتبرُّم بالقضاة وبالأحكام.

لنقف معاً بين يدي الله ونسمع معاً؛ ألم يقل الله تبارك وتعالى:

١ - ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) أي وزير العدل.

٢ ـ ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

٣ ـ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

* * *

هذا من الناحية الكلية، ومن الناحية الجزئية قد بيَّن القرآن كثيراً من الأحكام في كثيرٍ من الشؤون المدنية والجنائية والدولية والتجارية، وما إلى ذلك، وأكَّدتْ الأحاديث الصحيحة كل ذلك وأيَّدَته، وما أنزل الله هذه الأحكام إلا ليعمل بها المسلمون، ويتنبَّهوا إلى حكمه فيها، ويستمدُّوا منها ويطبّقوها. فإذا كانت قوانيننا وشرائعنا والدستور نفسه مستمدَّةً من معينٍ غير هذا المعين، مستقاةً من مصادر أوروبية بحتة ـ بلجيكية، وفرنسية، ورومانية ـ وهي في كثيرٍ من كلياتها وجزئياتها تتناقض تناقضاً صارخاً مع التعاليم الإسلامية الصريحة؛ فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكتابه فيما إذا عرضتْ له قضيةٌ حُكِمَ فيها بغير ما أنزل الله، وكان الحكم مناقضاً لدين الله؟! وكيف يستحلّ القاضي هذه المخالفة وكيف يستسيغها؟! وكيف يتحملّ تبعتَها شيخُ القضاة ووزير العدالة والتشريع بين يدي الحاكمين؟!.

أنقذونا من هذا الحرج، وأخرجونا من هذه الورطة، ولا تجعلوا أعمالنا تصطدم بعقائدنا، وأنا أعرف أنَّ كثيراً من الناس يفضِّل ضياع حقوقه ـ مدنية،

أو جنائية، أو تجارية ـ على أن يقف بين يدي قاضٍ يحكم بغير ما أنزل الله. إنَّ التبعة كبيرة، ولئن كان هذا الحساب شديداً فإنَّ حساب الله أشدّ، ومهمتنا التذكير ولا يغني أن نتعلّل بالمعاذير، فإنَّ الله لا ينظر إلا إلى القلوب والأعمال.

ومن الوجهة القانونية، ألم يعترف كبار رجال القانون ـ من مصريين وأجانب ـ أنَّ الشريعة الإسلامية من أخصب منابع التشريع وأزكاها وأدقّها وأسلمها، ولم يُنس بعدُ تصريح المسيو (بيولا كازللي) بوجوب تصحيح القواعد الفاسدة في القانون الفرنسي المعمول به في مصر طبقاً للشريعة الإسلامية. ولا ننسى كذلك محاضرات المسيو (لامبير) وتصريحاته الخطيرة الواضحة في هذا الشأن. ولم ننسَ بعدُ تقارير مؤتمر (لاهاي) في الإشادة بالشريعة الإسلامية، وامتداح نظريتها القانونية وغناها بالبحوث القيّمة، وكفايتها في التشريع العام.

وفي مصر كثيرٌ من رجال القانون يؤمنون بذلك، ويصرّحون به، ويودّون أن يكلَّفوا الاضطلاع بهذا العبء. وعجيبٌ أن يكون من بينهم المستشارون في المحاكم المختلطة بَلْهَ المحاكم الأهلية، ومن هؤلاء: محمد صادق فهمي رئيس محكمة المنصورة المختلطة، والأستاذ عبد الرزاق السنهوري عميد كلية الحقوق. كما أشار إلى ذلك كامل مرسي وعبد الفتاح السيد وعلي بدوي من أساتذة القانون في المحاكم وفي كلية الحقوق.

والبحث العلمي أعدل شاهدٍ على صحة النظريات، وما قال هؤلاء ما قالوا إلا بعد دراساتٍ طويلة وبحوث عميقة، خلَّدوا بعضها بكتاباتهم، وبقي بعضها مستقرّاً في نفوسهم إلى الوقت المناسب.

ومن الوجهة العملية فقد عاشرتنا هذه القوانين خمسين عاماً ونيّفاً؛ فماذا أفادت منها الأمة إلا كثرة الجرائم وتزايدها عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم،

أو انتشار الموبقات وارتكاب الجنايات، ذلك أنها لا تتّفق مع طبيعتنا، ولا تصلح في بيئتنا، ولا تجدي في علاج أدوائنا، ولا دليل أصدق من الواقع المشاهَد، وذلك في الوقت الذي نرى فيه البلاد الإسلامية التي أخذتْ بتشريع الإسلام قد استتبّ فيها الأمن، وتوطّدت السلطة، وعمّت السكينة، وساد احترام القانون، واطمأنَّ الناس على الدماء والأموال والأعراض، فهلاّ تريد مصر أن تصل إلى هذه النتيجة المرضية برجوعها إلى تعاليم الإسلام وشرائع الإسلام؟!.

بقيتْ شبهاتٌ يتعلّق بها الذين يقفون في طريق الإصلاح بحسن قصد أو سوء قصد؛ نحب أن نناقشها في إيجاز:

١ ـ يقول هؤلاء المرتابون: إنَّ في مصر عناصر غير إسلامية، إن حكمت بأحكام الإسلام كان ذلك متنافياً مع حرية الدين التي كفلها الدستور للمواطنين، وإن حكمت بغير أحكام الإسلام كان ذلك نوعاً من الامتياز البغيض.

هذه الشبهة مردودةٌ بجزئيها. فإنهم إن عوملوا بتعاليم الإسلام لم يكن في ذلك اصطدامٌ بحرية الدين، فإنَّ الحرية المكفولة هي حرية العقيدة وحرية العبادة والشعائر وحرية الأحوال الشخصية، أما الشؤون الاجتماعية فهي حق الأمة ومظهر سيادتها، فهم فيها تبعٌ للأكثرية، فإذا ارتضت أكثرية الأمة قانوناً في هذه الشؤون الاجتماعية ـ بصرف النظر عن مصدره ـ فهو قانونٌ للجميع، إذ إنَّ محاربة الجريمة من حق الدولة، بدليل أنَّ الأمم الأوروبية وهي التي تفخر باحترامها للحرية والحقوق الشخصية، وتزهى بأنها أقرّت الديمقراطية، ونادت بحقوق الإنسان، مع هذا هي تعامِل كل نزلائها وأقلّياتها بحكم القوانين

الموضوعة المرضية عندها، بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم. فالإنسان في فرنسة وإنكلترة وألمانية وغيرها، سواء أكان نزيلاً يتمتع بجنسيته الخاصة أو مواطناً يخالف الأكثرية في الدين؛ يحاكم بمقتضى قانون البلاد الموضوع دون نظرٍ إلى قانون بلده أو تشريع دينه، وبغير ذلك لا تتحقق سيادة الأمة ولا يتحقق استقلالها الداخلي.

هذا إن عوملوا بأحكام الإسلام وتشريعه، وإن عوملوا بحسب شرائعهم مع الاحتفاظ بحقوق الدولة كاملةً معهم، فليس في ذلك امتيازٌ يخيف، فإنَّ المساواة في الأحوال الشخصية بين المسلم وغير المسلم مفقودةٌ إلا إذا رضي غيره بذلك، ولا يقال: إنَّ إقرارنا لهؤلاء المخالفين على أحكام دينهم في أحوالهم الشخصية امتيازٌ ممنوح لهم يفضلون به على غيرهم؛ بل هو أمرٌ خاص بهم. أما الامتياز المؤلم فهو أن تضيَّعَ حقوق أبناء الوطن في سبيل الأجانب وغير المسلمين بحكم الضعف والاستكانة والذلّة والمهانة!!

والإسلام الفسيح المدى لا يحتّم علينا أيَّ الطرفين، فنحن نختار، والأولى إلينا أحبّ وبحالنا أوجب. ولأمرٍ قال الله تبارك وتعالى في صدد آيات الحكم بتنزيله: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة: ٤٤].

على أننا نعرف كثيراً من أفاضل رجال القانون من مواطنينا المسيحيين، جهروا كثيراً بأنَّهم يودُّون لو عوملوا بأحكام الشريعة الإسلامية في كل شيء.

٢ ـ ويقولون كذلك: إنَّ نصوص المعاهدة تحتّم علينا أن نسير في تشريعنا على أحدث النظريات، وذلك يمنعنا من العودة إلى تشريع الإسلام، وإلا كنا خارجين على أحكام هذه النصوص، وتلك شبهةٌ مردودة كذلك بجزئيها.

فإنَّ تعديل المعاهدة لا يعدّ تملُّصاً وخروجاً في كل حال، فإذا اتّفق الطرفان على التعديل فهو تتميمٌ لهذه المعاهدة واستكمالٌ لنقصها لا نقضٌ لها، وليست هذه المعاهدة تنزيلاً من حكيمٍ حميد، فهي عرضةٌ للتعديل والتحوير في كل وقت حسب ما يطرأ للطرفين من عوامل وظروف. وإلا فلماذا يحقّ للطرف الآخر أن يحوّر ويعدّل في كل وقت كما هو مشاهَدٌ ملموس؟!.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فعلماء القانون من المسلمين - أزهريين وغير أزهريين - على استعداد لأن يثبتوا لكل مخالف أنَّ تشريع الإسلام الحنيف أفضل من كل تشريع حديثٍ يعرفونه بالدليل القاطع والبرهان الناصع. فلا حجة لمخالف، ولا يصحّ أن نقف عن إصلاح شؤوننا إرضاءً للمكابرين الذين لا يرضون منا إلا أن نسير وراءهم، وأن نقيّد خطانا بشهواتهم ورغباتهم.

٣ - ويقولون كذلك: إنَّ كثيراً من هذه التشريعات لا يمكن تطبيقه عملياً، ولنأخذ مثلاً (الربا) فهل نستطيع إبطاله من محاكمنا وقانوننا ونحن مرتبطون بالنظام الاقتصادي الدولي العام.

والشبهة مردودةٌ كذلك، بما نشاهد من أحوال الدول القوية العزائم، التي وضعت لنفسها نظماً اقتصاديةً خاصة، فرضَتْها على أممها، وأجبرت العالم على احترامها، وكان الفضل الأكبر في ذلك صدقُ عزيمة حكوماتها، وحسنُ استعداد شعوبها، فلا عقبة أمامنا في مثل هذا الوَهَن، وتجسيم الأمور والخوف الذي لا مبرر له ونحن - والحمد لله - أمةٌ غنية بمواردها، وكل المواد الحيوية الضرورية موفورة لدينا، ونستطيع الاستغناء إلى حدٍّ كبير عن غيرنا مع حفظ كياننا الاقتصادي لو صحّت عزائمنا.

ماذا فعلت إيطالية حين وقف أمامها بالمرصاد اثنتان وخمسون دولةً فيها

الدول العظمى، وفرضت عليها العقوبات، وحصرتها في داخل ديارها؟! ألم ترغم هذه الدول على احترام مشيئتها، وتقدير عزيمتها، وتنفيذ قرارها بدون سيفٍ ونار، ولكن بغيرة الشعب وعزيمة الحاكمين.

إنَّ الشعوب الأخرى يهمّها أن نكون معها شرفاء في المعاملة، ونحن نلاحظ أنَّ كثيراً من المصارف والدائنين يرضون بالتسويات وفيها نزولٌ عن شيءٍ من الحق الأساسي في سبيل الحصول على الحق نفسه، فإذا منعَ القانون التعامل بالربا، وتشدَّدَ في استيفاء الحقوق؛ كان في ذلك الضمان الكافي للموّلين الآخرين ورضوا به واطمأنّوا إليه، وعاملونا على غير أساس الفوائد والربا المحرّم شرعاً في كل كتاب.

ولماذا لا تكون مصر السابقة بإنقاذ العالم (من نظام الفائدة البغيض) ولماذا لا تبشر حكومة مصر بهذا المبدأ السامي الإنساني الرحيم؟! ولماذا لا ترفع رايةَ الدعوة إلى تحرير الإنسان من رقّ الربا وإقناع الشعوب بوجاهة هذه الفكرة كما رفعتْ بعض الدول الأوروبية رايةَ الدعوة إلى تحرير الإنسان من رقّ العبودية؟! ولِمَ الخوف وفِيمَ اليأس؟ هل نعجز عن أن نقدِّم للإنسانية خدمةً جليلةً ونحن الذين أنقذناها في كثيرٍ من المواقف، وأشعلنا بين كثير من الأمم شعلةَ العرفان والنور.

ولماذا لا تكون هذه الخطوة سبيلاً إلى الحرية الاقتصادية، وطريقاً إلى تعوُّد هذا الشعب ـ الذي طال به عهد الاعتماد على الغير ـ أن يعتمد على نفسه وعلى موارده، وأن يستغني في كثيرٍ من شؤونه عن الناس. وهل هناك فرصةٌ أثمن من هذه؟! أو هل هناك عاملٌ يساق به الشعب المتمسّك بدينه أقوى من الدين؟! وهل هناك إنقاذٌ لهذا الشعب الفقير أعظم من إنقاذه من اللصوص

القساة من المرابين؟!.

هذا مثلٌ أحببتُ أن أتقدَّم به لدحض هذه الشبهة ـ شبهة صعوبة تطبيق الشريعة الإسلامية ـ واخترتُ لذلك أعقدَ المسائل وألصقَها وأمسَّها بحياة الناس؛ حتى لا يكون هناك قولٌ لقائل، ولا حجةٌ لمعتذِر.

يقولون: إننا حين نطبّق الشرائع الإسلامية من قطعِ يد السارق، ورجمِ الزاني وما إلى ذلك؛ نرجع بالأمة إلى عهد الهمجية، ونفوِّتُ عليها فرصةَ الانتفاع بما بلغتْ من مدنيةٍ ورقيٍّ يسلُكها في نظام الأمم المتأخرة المتبربرة. هذا كلامٌ لا يساوي سماعَه، ولا يستحقّ أن يردَّ عليه، وإنما أملاه على هؤلاء الناس تحلُّلُهم من عقدة النظم الاجتماعية، وعكوفُهم على الإباحية في كل شيء، واعتداؤهم على ما ليس لهم من أعراضٍ وأموال، وتخوُّفُهم من أن يكونوا الضحايا الأولى لتطبيق هذه النظم الحازمة، وما كانت الجريمة في يومٍ من الأيام مظهرَ المدنية ولا الرقيّ، ولا كان القانون الذي يستأصل الجريمة ويقضي عليها ـ مهما كان من شدَّته ـ قاسياً ولا رجعياً، ولكنه عينُ التقدُّم ومظهر الارتقاء الصحيح.

وهي إحَنٌ قديمة وأفكار بالية عتيقة، آنَ لها أن تنقرض، وآن للمصلحين ألاّ يعيروها شيئاً من الاهتمام بعد أن رأينا. أنَّ الفكرة العامة للتشريع أصبحت متجهةً إلى أخذ المجرمين بالحزم، واستبدال السبل الرادعة والأحكام الزاجرة بمظاهر الرخاوة القانونية، التي ساعدت على انتشار الجرائم في الأمم، وجعلت القوانين تكاد تكون عديمة الفائدة في تهذيب الناس، وأضاعت على الشعوب كثيراً من الأموال والجهود في المحاكم والسجون.

نحن نريد النتائج العملية؛ ولا عبرة بزخرفة القول وتزويق الكلمات!!

ويقولون: إنَّ ذلك غير ممكن عملاً، فإنَّ رجال الشريعة الإسلامية لا يحسنون التنسيق الواجب، ورجال القانون لا يلمّون بالشريعة الإسلامية الإلمام الكامل، ومتى كان الأمر كذلك فمن يتولّى إخراج القانون الإسلامي الجديد للناس في صورةٍ منسَّقة وصياغةٍ قانونية تامة؟

وتلك شبهةٌ واهية، والتعليق على هذه الصعوبة من أهون المسائل، والدعوى غير صحيحة على إطلاقها، فإنَّ من رجال الشريعة الإسلامية من يُحسِن التنسيق القانوني إلى حدٍّ كبير، ومن هؤلاء الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم بك وكيل كلية الحقوق، وإنَّ من رجال القانون من درس كثيراً من مسائل الشريعة دراسةً تامة ومن هؤلاء الأستاذ السنهوري.

وأخيراً يُرجِف هؤلاء القائلون بفكرةٍ مادية بحتة تدور حول المصالح الشخصية فيقولون: إنكم بهذا تعطِّلون هذا الجيش من رجال المحاكم الأهلية، من قضاةٍ ومحامين ومستشارين محترمين، وتتعصَّبون لرجال المحاكم الشرعية على اختلاف أعمالهم.

وهذه مغالطةٌ مكشوفة، فليس العلم وقفاً على قوم دون آخرين، وفي وسع القاضي الأهلي والمحامي الأهلي أن يدرس أحكام الشرع الإسلامي في بضعة شهور، والنظام في المحاكم لا يتقيَّد بنصوص مواد القانون وإنما يرجع إلى أسباب أخرى كلها تزول إذا صحَّت العزائم؛ على أننا لا نريد بهذا الإصلاح نقصاً لناحية؛ بل نريد أن يزول هذا التفريق كلُّه، ونقضي على هذا الانقسام في حياة أمةٍ تسير إلى الوحدة، ولا قوةَ لديها إلا بالوحدة، فلا محاكم أهلية، ولا محاكم شرعية، ولكن محكمةٌ واحدة إسلامية مصرية، على أدقّ النظم وأحكَم الإجراءات، عمادُ قانونها شريعة الله وحكم الإسلام.

- ٦ -

وهكذا صدعَ بالحقّ، وبلّغَهُ إلى هذه الجهات المسؤولة في الحكومة والدولة والحزب والقصر، وبقي أن يتوجّه إلى رجال الإسلام وعلماء الأزهر لتتمّ عملية المراجعة الكاملة مع كل المنظمات والمؤسسات العاملة.

ومن هنا كانت رسالته إلى الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وعلماء الإسلام ـ ولا نقول رجال الدين فليس في الإسلام رجال دين ـ: «إلى فضيلة الإمام الأكبر وهيئة كبار العلماء الموقّرة، وإلى رجال الجماعات الإسلامية والفكر الإسلامي:

فكرتُ طويلاً في هذا الخلاف العلمي بين الجماعات الإسلامية في مصر أولاً ثم في بلدان العالم الإسـلامي ثانياً، وتلمّستُ طويلاً السـبيل إلى جمع القلوب حول هدفٍ أسمى؛ تلتقي عنده الأرواح المؤمنة وتتجه إليه الجهود العاملة، وتقوم على أساسه النهضة المنتظرة.

إنَّ الإسلام دين وحدةٍ واجتماع، وكل آيات القرآن الكريم وكل أحاديث النبي ﷺ فياضةٌ بمعنى الوحدة والدعوة إلى الوحدة، وبيان أنَّ المؤمنين أخوة وأنَّ بعضهم أولياء بعض، وما كان المسلمون الأوَّلون أقوياء إلا بهذه الدعوة الشاملة التي جمعت قلوبهم وعقولهم حول هدفٍ واحد، فتوحّدت بذلك مظاهرهم وأعمالهم وجهودهم، وكانت حياتهم مثلاً رائعاً للأمة الموحَّدة.

وإنَّ الإسلام دينٌ فسيح مرن يفسح للعقل مجال التفكير، ويحضّ على النظر ولاجتهاد ويصرّح بأن المجتهد إذا أخطأ فله أجرٌ وإذا أصاب فله أجران. وكل ذلك تشجيعاً للمسلمين على النظر والاجتهاد واستخدام الفكر؛ إذ إنَّ شريعتهم لكل زمانٍ ومكان، ولا يتم لها هذا المعنى إلا إذا كانت كذلك فسيحةً

مرنة تتّفق نصوصها مع وجهاتٍ كثيرة من وجهات النظر المتباعدة، ومن هنا كان الخلاف ميزةً من ميزات الإسلام ورحمةً من الله للمؤمنين، وإنما يضرُّهم ويـؤذيهم التعصب للرأي والتشيُّع لفكرةٍ خاصةٍ تشيُّعاً لا يفترض معه أبداً افتراض الصواب في غيرها؛ هذا التعصب هو آفة الوحدة الإسلامية، ولقد انفسحت صدورُ أسلافنا للخلاف فلم تتأثَّر به وحدتُهم العامة، وظلوا مجموعةً متينة البنيان ثابتة الأركان؛ حتى نجمَ قرن التعصب للهوى والجمود على الرأي بينهم، فكان آفة هذه الجماعة الربانية التي بهرت الدنيا بتوحيدها ووحدتها.

إن الخلاف قد يتنـاول فروع الأعمال والعبـادات ولا يـرقى إلى مرتبة العقيدة وصميمها، وهذا الخلاف لا يحرج صدراً، ولا يؤذي وحدةً، وأمرُه دائرٌ بين خطأٍ وصواب؛ فإذا عرفنا أنَّ المخطئ والمصيب مأجوران، هان الخطب واستطعنا ـ في ظلّ الإخاء والحب ـ أن نصل إلى الحقيقة؛ واستطاع حكم الحاكم الشرعي أن يرفع الخلاف.

ومن الخلاف ما يتصل بالعقيدة وصميمها، وأغلب ما بين الجماعات الإسلامية في مصر خاصةً من هذا النوع، مصدرُه عدم تحديد العبارات وعدم تعرُّف المقاصد جليّاً، والجمود على عبارات ومصطلحات لم يتعبدنا الله بالجمود عليها، وأعتقد أنَّه لو حُدِّدت العبارات، وتعرَّف كل فريقٍ مقاصدَ الآخـر، ولـم نتقيَّد بعبـارات ومصطلحات خاصـة ما دام المعنى المقصود سليماً؛ أعتقد أننا لو فعلنا ذلك وحاولنا التقريب بين وجهات النظر لاستطعنا الجمع بين الآراء المتنافرة والفِكَر المتخالفة، ولوصلنا إلى نتيجةٍ محمودة أقلُّها أن نخرج من حيّز (كفر وإيمان) إلى حيز (خطأ وصواب)؛ وبذلك تظل الأخوّة قائمة والوحدة مجتمعة.

إنَّ المسلمين مقدمون على نهضةٍ منتظَرة، ومتأهِّبون لعهد جديد؛ فما أولاهم أن يطيلوا التفكير في جمع شملهم، وتسوية صفّهم، حتى لا تدهمهم الحوادث وهم على غير أهبة.

وقد أردتُ أن أضع أمام أنظار المفكرين من رجال الإسلام هذه (الصيغ) والبنـود التي أعتقد أنها تقرِّب إلى أقصى حدٍّ وجهات النظـر المختلفـة مع مُوافقتِها للحق إن شـاء الله، رجاء أن يطيلـوا فيها النظر؛ فإذا رأوها صالحـةً لجمع الكلمـة اتخذنا منها أساسـاً للأخوّة، وجمعنا عليها شُـعب الخلاف، ورددنا المفترقين إلى هذا الأصل.

وإلى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وهيئة العلماء الموقّرة أولاً ـ بـاعتبار أنَّ الأزهر هو الهيئة المسـؤولة رسمياً عن تمحيص الحقائق وإرشاد الناس إليها ـ، ثم إلى رجال الفكرة الإسلامية فرادى وجماعات أوجِّه القول:

أولاً ـ الإسلام نظام اجتماعي شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً.

ثانياً ـ القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجعُ كل مسلم في تعرُّف أحكام الإسلام، ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلُّفٍ ولا تعسُّف، ويـرجع في فهم السـنّة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات، ومردُّ القيـاس والإجماع إلى هذين الأصلين.

ثالثاً ـ ورأيُ الإمام ونائبه فيما لا نصَّ فيه، وفيما يحتمل وجوهاً عدة، وفي المصالح المرسَـلة ـ يُعمل به، ما لـم يصطدم بقاعدةٍ شرعية، وقد يتغير بتغير الظروف، وهذا الحق ثابتٌ لأهل الحل والعقد كذلك.

رابعاً ـ وكلُّ أحدٍ يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء

عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبِلْناه؛ وإلا فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أولى بالاتباع، ولا نعرض للأشخاص فيما اختُلِف فيه بطعن أو تجريح، ونكِلُهم إلى نيّاتهم؛ فقد أفضوا إلى ما قدَّموا، وكل مسألة لا يبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نُهينا عنه شرعاً، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكلٍ منهم فضلُ صحبته وجزاء نيّته، وفي التأوُّل مندوحة.

خامساً ـ ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كلَّ إرشاد مصحوب بالدليل متى صحَّ عنده صدقُ من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر. والخلاف الفقهي في الفروع ليس سبباً في التفرقة في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف من غير أن يجرّ ذلك إلى المراء المذموم والتعصب المقيت، ورأي القاضي يرفع الخلاف.

سادساً ـ وكلُّ بدعةٍ في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم زيادةً فيه أو نقصاً منه ـ ضلالةٌ تجب محاربتُها والقضاء عليها بأفضل الوسائل حتى لا تؤدي إلى ما هو شر منها، والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلافٌ فقهي لكلٍّ فيه رأيُه وتتمحّص الحقيقة بالدليل والبرهان.

سابعاً ـ ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام،

وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل أو تعطيل، وندع علم حقائقها لله تعالى، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسعَ رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ثامناً ـ ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرف من طيب أعمالهم قربةٌ إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]؛ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم وبعد مماتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم.

وزيارة القبور أياً كانت مشروعةٌ بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بمن فيها أياً كانوا، ونداؤهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم من قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسُّح بها، والحلف بغير الله، وما إلى ذلك ـ كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة، والدعاء إذا قُرن بالتوسل إلى الله بأحدٍ من خَلقه خلافٌ فقهي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

وللإيمان الصادق والمجاهدة نورٌ وحلاوة يقذفهما الله في قلب من شاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، إلا إذا وافقها نصٌّ صريح.

والتمائم والرُّقى والودع والرمل والعرافة والكهانة وادّعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكرٌ تجب محاربته؛ إلا ما كان من آية أو رقية مأثورة.

تاسعاً ـ ولا نكفِّر مسلماً أقرّ بالشهادتين وأدّى الفرائض برأيٍ أو معصية، إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذَّبَ صريح القرآن، أو فسَّره على وجهٍ يصدم قواعد الإسلام، ولا تحتمله أساليب اللغة العربية، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً إلا الكفر.

عاشراً ـ والإسلام يحرر العقل ويحثّ على النظر في الكون، ويرفع قدر العلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها، والنظر الشرعي والعقلي لن يختلفا في القطعي؛ فلن تصطدم حقيقةٌ علمية صحيحة بقاعدةٍ شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما؛ فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع.

ـ ٧ ـ

وهكذا أوفت هذه المرحلة على غايتها بالتبليغ إلى كل من هو في وضع المسؤولية إحقاقاً للحق، وإعلاناً لحكم الإسلام في كل أمر، وبذلك كانت هذه الرسائل بمثابة إبلاغ كلمة الله إلى المسؤولين وأولي الأمر وأهل الحل والعقد، وهي تعطي دلالات واضحة في الجرأة والقوة والصدع بالحق والإصرار على إبلاغ كلمة الله والإنذار لمن يخالفها أو يجفوها.

أما أنَّها لم تجد تجاوباً فذلك أمرٌ مفروغ منه، ولم يكن يتطلَّع إليه صاحب الدعوة ولم يكن ينتظره.

وإنما كان يضع الأساس لما يجيء بعد ذلك، ويبلِّغ كلمة الله كما أمر، ويوصلها إلى ذوي السلطان، هؤلاء الحكام الذين يقودون الأمة على مختلف أحزابهم وألوانهم ومسؤولياتهم.

ولا ريب أن هذه الرسائل وثيقةٌ تاريخية تكشف عن شخصية صاحبها؛ وكيف أوتي عقلاً مرناً، وإيماناً عميقاً، وقدرةً على فهم أدواء المجتمعات، وكيف استوعب فهم الإسلام كنظام اجتماعي وسياسي هو أصدق ما تتطلَّع إليه البيئات؛ وقد أجاب فيها عن كل التساؤلات، وعرضَ لكل الشبهات التي أثيرت حول مفهوم الإسلام الصحيح، ديناً ودولة، ومصحفاً وسيفاً، ونظاماً اجتماعياً وعبادة، في وجه محاولةٍ ضخمة استمرت أكثر من سبعين عاماً لقتل هذا المفهوم والقضاء عليه وانتزاع حق الإسلام من مختلف مجالات القانون والسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية؛ فكان من شأن من يعاود تصحيح هذا الفهم، وتحرير النفس الإسلامية منه أن يشقّ عليه الأمر. وكذلك نرى قوة العارضة وصدق الإيمان وهما متلازمان في بيان الرجل.

وتكشف هذه الرسائل عن ذلك الاقتدار الحق في فهم الأخطار وعلاج الأمراض وكشف وجوه العمل الصحيحة لمعالجتها والقضاء عليها، وهي تشير من قريبٍ أو بعيد إلى الإيمان الراسخ بالفكرة الإسلامية وصلاحيتها كعلاج أساسي لهذه الأمة، بعد أن جرَّبتْ أيديولوجيات الغرب وأنظمتَه، ثم فشلت هذه الأنظمة في أن تحقق شيئاً نافعاً لهذه الأمة.

ولقد كانت بمثابة ضربةٍ عنيفة للنظام الغربي من الحكم الذي كان وشيك الانهيار. وكانت إعلاناً عن التحدي بأنه ما لم يصلح الحاكمون شأنهم فإنهم سينهارون ويذهبون.

ثم إنَّ هذه الرسائل تحمل في طيّاتها - إلى جانب العبارة المرنة البارعة - أسباب الاتهام لهؤلاء، وتحمل معها صورة العجز والتفريط وعدم القدرة على تحقيق منهجٍ صالح، كما أشارت إلى أنَّ الكل كانوا سواء في هذا، فقد قرع

المرشد آذانهم بصوته المدوّي، وهدَّد وتوعَّد بأن الأمة لن تقبل الانتظار على هذه الأوضاع، وأنها لا بد لها أن تلتمس طريقاً أكثر قدرة على تحقيق الهدف من ذلك الطريق الذي تسير فيه.

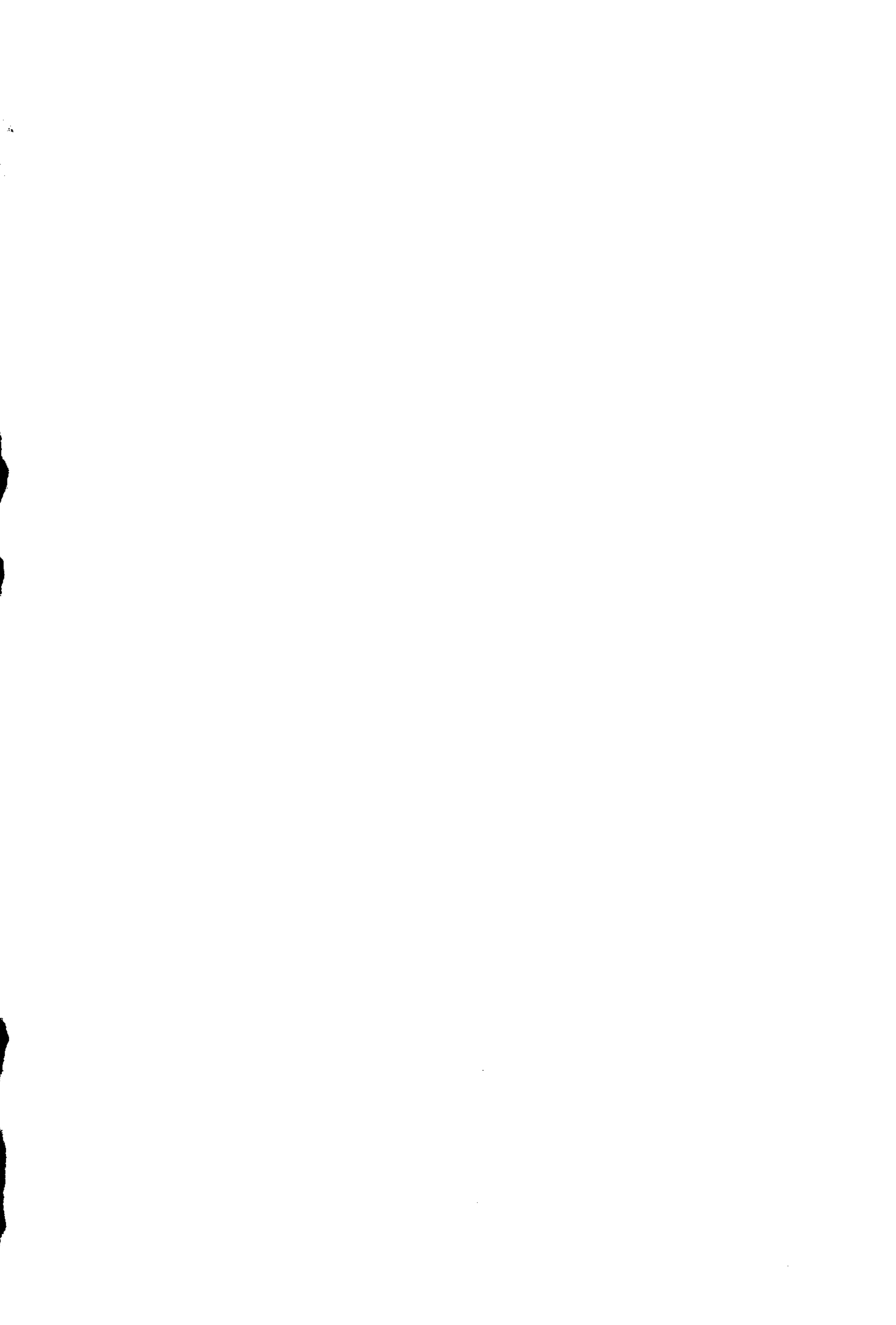
ومن خلال هذه الرسائل الخمس ـ التي هي مجرد نماذج لعشرات من الرسائل التي وجِّهتْ إلى الزعماء والحكام خلال هذه المرحلة ـ تنكشف صورة الأيديولوجية الإسلامية كما فهمها ودعا إليها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية؛ مما لا تزال حيةً تنبض بالقوة، وتتطلع إلى أن تأخذ طريقها.

وهذا الذي كان المرشد يرسم خيوطَه في رسائله لم يكن حتى ذلك الوقت كلاماً نظرياً، ولكنه كان عملاً دقيقاً جرى إعداده وتنظيمه وتنفيذه عن طريق بناء وتربية الشباب المسلم الذي آمن بالدعوة وانضمّ إليها. وبدأ فعلاً في تكوين تلك الجماعة المؤمنة داخل الأمة المسلمة، التي تطبّق على نفسها نظام الإسلام في عملها وحياتها وطعامها ونومها وفق مفهوم القرآن.

هذا هو أبرز ما قام به: بناء ذلك الجيل الذي قام على فهم حقيقة الإسلام.

ولقد كان طبيعياً أن ينتقل الداعية من مرحلة التبليغ إلى مرحلة أخرى، يكشف فيها عن الطريق الذي يسير فيه؛ ذلك أنه كان يمضي دائماً في النور؛ ويضع الناس جميعاً على محجّة الوضوح والصراحة، وهذا ما تابعَه في مرحلة المعارضة.

● ● ●



الفَصْل الثالث

مَرْحَلَة المُعَارَضَة

ـ ١ ـ

جاءت المرحلة الجديدة كامتدادٍ طبيعي للمرحلة التي سبقتها، وتمثَّلت في دعوةٍ كبرى هي المؤتمر الخامس ١٩٣٨م بعد مرور عشر سنوات على بدء هذه الصيحة، وكان الملتقى قد ضمّ الألوف، وجاء الناس من كل مكان يسمعون ذلك الصوت الجديد الذي ظل يعمل في صمت حتى استوت له القوة والقدرة على أن يصدع بكلمة الله.

ماذا يريد وما هي الغاية؟

الغاية هي تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، تعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والوسيلة تنحصر في تغيير العرف العام، وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوةً لغيرهم في التمسُّك بها، والحرص عليها والنزول على حكمها.

وقد كان السؤال: هل في منهاج الدعوة الوصول إلى الحكم؟ وكانت الإجابة: الإسلام الذي نؤمن به يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقديماً قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إنَّ الله ليَزَعُ بالسلطان ما لا يزعُ بالقرآن». وقد جعل النبي ﷺ الحكمَ عروةً من عرى الإسلام، والحكم معدودٌ في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع. فالإسلام حكمٌ وتنفيذ كما هو تشريعٌ وتعليم كما هو قانونٌ وقضاء لا ينفكّ واحدٌ منهما عن الآخر، والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول؛ وتركَ أهلَ التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره؛ فإن النتيجة الطبيعية أنَّ صوت هذا المصلح سيكون صرخةً في وادٍ ونفخةً في رماد كما يقولون.

قد يكون مفهوماً أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاءً لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه وانصياعاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ.

أما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في وادٍ والتشريع الفعلي والتنفيذي في وادٍ آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفِّرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف، وهذا كلامٌ واضح لم نأتِ به من عند أنفسنا، ولكنا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف. وعلى هذا فنحن لا نطلب الحكم لأنفسنا؛ فإن وجدنا من الأمة من يستعدّ لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاجٍ إسلامي قرآني فهُمْ جنودُه وأنصاره وأعوانه، وإن لم

يجدوا فالحكم من مناهجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفِّذ أوامر الله.

ومع هذا فنحن أعقل وأحزم من أن نتقدَّم لمهمة الحكم ونفوسُ الأمة على هذا الحال، فلا بد من فترةٍ تنشر فيها المبادئ وتسود، ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثِرُ المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

وكلمةٌ لا بد من أن نقولها: إننا لم نجد في حكومة من الحكومات من ينهض بهذا العبء أو مَن يبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلتعلم الأمة ذلك، ولتطالب حكامَها بحقوقها الإسلامية؛ ولم تكن هذه الدعوة في أيِّ عهد من العهود مطيةً لحكومة من الحكومات، أو منفِّذة لغايةٍ غير غايتها، أو عاملة على منهاج غير منهاجها.

إذن ما الموقف من الدستور؟

يقول: أحب أن نفرق دائماً بين (الدستور) ـ وهو نظام الحكم العام الذي ينظِّم حدود السلطات وواجبات الحاكمين ومدى صلتهم بالمحكومين ـ وبين (القانون) وهو الذي ينظِّم صلة الأفراد بعضهم ببعض ويحمي حقوقَهم الأدبية والمادية ويحاسبهم على ما يأتون من أعمال.

الواقع أن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واسترداد السلطة من الأمة، وعلى مسؤولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال وبيان حدود كل سلطة من السلطات؛ هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونُظُمه وقواعده في شكل الحكم.

ولذلك نعتقد أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاماً آخر.

بقي بعد ذلك أمران:

أولهما: النصوص التي تصاغ في قالبها هذه المبادئ وطريقة التطبيق التي تفسر بها عملياً هذه النصوص.

إن المبدأ السليم القويم قد يوضع في نصٍّ مبهم غامض فيدع مجالاً للعبث بسلامة المبدأ في ذاته، وإن النص الظاهر الواضح للمبدأ السليم القويم قد يطبَّق وينفَّذ بطريقة يمليها الهوى وتوجبها الشهوات، فيذهب هذا التطبيق بكل ما يرجى من فائدة.

إذا تقرر هذا فإن من نصوص الدستور المصري ما نراه مبهماً غامضاً يدع مجالاً واسعاً للتأويل والتفسير الذي تمليه الغايات والأهواء، فهي في حاجةٍ إلى وضوحٍ وإلى تحديدٍ وبيان.

هذه واحدة، والثانية: هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور ويتوصل بها إلى جني ثمرات الحكم الدستوري في مصر طريقةٌ أثبتت التجارب فشلها، وجنت الأمة منها الأضرار لا المنافع، فهي في حاجة شديدة إلى تحوير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية.

لهذا نعمل الجهد حتى تحدَّد النصوص المبهمة في الدستور المصري، وتعدَّل بالطريقة التي ينفذ بها هذا الدستور في البلاد.

نحن نسلِّم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستوري باعتبارها متفقة بل مستمدة من نظام الإسلام، وإنما ننتقد الإبهام وطرائق الإنفاذ.

ما الموقف من القانون؟

إن الإسلام لم يجئ خلواً من القوانين، بل هو قد أوضح كثيراً من أصول التشريع وجزئيات الأحكام، سواء أكانت مادية أم جنائية أم تجارية أم دولية.

والقرآن والأحاديث فيّاضةٌ بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنيةٌ كل الغنى بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسُهم بهذه الحقيقة، وأقرّها مؤتمر (لاهاي) الدولي أمام ممثلي الأمم من رجال القانون في العالم كله.

فمن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمةٍ إسلامية متناقضاً مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنة نبيها ﷺ، مصطدماً كلَّ الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله ﷺ، وقد حذّر الله نبيه ﷺ من ذلك من قبل، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠]، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، والظالمون، والفاسقون.

فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البينات وغيرها من الأحاديث والأحكام؛ ثم رأى نفسه محكوماً بقانون يناقضها ويصطدم معها؟! فإذا طالب بالتعديل قيل له: إن الأجانب لا يرضون بهذا ولا يوافقون عليه، ثم يقال: ـ بعد هذا الحجر والتضييق ـ: إن المصريين مستقلون وهم لم يملكوا بعدُ أن يتمتعوا بحرية الدين وهي أقدس الحريات!!

على أن هذه القوانين الوضعية كما تصطدم بنظام الدين ونصوصه،

تصطدم بالدستور الوضعي نفسه الذي يقرر أن دين الدولة هو الإسلام، فكيف نوفِّق بين هذين يا أولي الألباب؟!

وإذا كان الله ورسوله قد حرّم الزنى وحظر الربا ومنع الخمور وحارب الميسر؛ وجاء القانون يحمي الزانية والزاني، ويلزم بالربا، ويبيح الخمر، وينظم القمار، فكيف يكون موقف المسلم بينهما؟!

أيطيع الله ورسولَه ويعصي الحكومة وقانونها والله خير وأبقى، أم يعصي الله ورسوله ويطيع الحكومة فيشقى في الآخرة والأولى؟!

نريد الجواب:

أمّا نحن فلا نوافق على هذا القانون أبداً ولا نرضاه بحال، وسنعمل بكل سبيل على أن يحلّ مكانَه التشريع الإسلامي العادل الفاضل في نواحي القانون. هذا موقفنا الذي عملنا وسنعمل له متخطّين في سبيله كل عقبة، موضحين كل شبهة، حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كله لله.

وأجاب حسن البنَّا على تساؤل آخر: **هل في النية استخدام القوة في تحقيق الغاية:**

إن أول درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح. ولا يصح أن توصف جماعةٌ بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعها، وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال، مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعارُه ـ باستخدام القوة في كلّ الظروف والأحوال أم حدَّد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجَّه القوة توجيهاً محدوداً؟ أما الثورة ـ وهي أعنف مظاهر القوة ـ فنظرُنا إليها أدقّ وأعمق وبخاصة في وطنٍ كمصر جرّب حظه من الثورات فلم يجنِ من ورائها إلا ما تعلمون.

إننا نستخدم القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثبتون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء، وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك، ثم يقدمون في كرامة وعزة ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح. أما الثورة فلا نفكر فيها ولا نعتمد عليها ولا نؤمن بنفعها ونتائجها، وإن كنا نصارح كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في إصلاحٍ عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل؛ فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عملنا ولا من دعوتنا، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال وإهمال مرفق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها إلا نذيراً من هذه النُذُر.

وهكذا كشف الغطاء عن الأحداث بعد أن فصَّل موقفه في وضوح.

هذا الموقف الذي تبلور من بعد عن أسلوبٍ للعمل في مجالات المعارضة الصريحة، في الجامعة، والبرلمان، والصحافة.

وهو ما استتبع اتخاذ الطريق الدستوري، وهو الدخول في انتخابات البرلمان كواحدة من الوسائل العملية.

ـ ٢ ـ

تجلَّى في هذه المرحلة طابع المعارضة والكشف عن جوانب الضعف في المجتمع وفي أسـلوب الحكم، فقد أخذ المرشد نفسه بالحملة على كل أسباب التخلف وردّها إلى الانفصال عن أحكام الله ونظامه وقرآنه.

أيها الناس: إن الله بعث لكم إماماً ووضع لكم نظاماً، وفصَّل أحكاماً وأنزل كتاباً، وأحلَّ حلالاً وحرَّم حراماً؛ فهل اتبعتم إمامه واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه وأحللتم حلاله وحرَّمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترَون الحقيقة، واضحةً أمامكم: إن كل النظم التي تسـيرون عليها في شـؤونكم الحيوية نظمٌ تقليدية بحتـة لا تتصل بالإسلام ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه!!

نظام الحكم الداخلي، نظام العلاقات الدولية، نظام القضاء، نظام الدفاع والجندية، نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد، نظام الثقافة والتعليم، نظام الأسرة والبيت، نظام الفرد في سلوكه الخاص.

إنَّ الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين ويشكِّل مظاهر الحياة على اختلافها كلُّ ذلك بعيدٌ عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

من الحق أن نعترف بأنَّ موجةً جارفة وتياراً شديداً دفاقاً قد طغى على العقول والأفكار في غفلةٍ من الزمن وفي غرورٍ من الشعوب المسلمة وانغماسٍ منهم في الترف والنعيم، وغـزت الأمةَ الإسـلامية في عقر دارها، وأحاطتْ بالمسـلمين في كل مكان، ودخلت بيوتَهم ومخادعهم؛ بـل احتلّت قلوبَهم وعقولهم ومشاعرهم!!

ونشأ في كل الشعوب الإسلامية جيلٌ مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدَّر في تصريف أمورها واحتلّ مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب الغافلة إلى ما يريد، إننا بعُدْنا عن هدى الإسلام وأصوله وقواعده!!

حقاً لقد تقدَّم العلم والطب والفن والفكر، وتزايد المال، وأخذت الأرض زينتها وازَّينت، وأُترف الناس ونُعِّموا، ولكن هل جلب هذا لهم شيئاً من السعادة، وهل أمَّن لهم شيئاً من الحياة الكريمة؟!

هل حُوربت الجريمة واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟!

هل استغنى الفقراء وأشبعَتْ الملايين التي تفوق الحصر من بطون الجائعين؟!

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التي ملأت الفضاء وسرتْ مسرى الهواء العزاءَ إلى المحزونين؟!

هل تذوَّقتْ الشعوب طعمَ الراحة والهدوء، وأمِنتْ عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟!

لا شيء من هذا!!

أيها الناس فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات؟!

ألسنا نرى هذه النظم والتعاليم والفلسفات حتى في العلوم وفي الأرقام يحطِّم بعضُها بعضاً، ويقضي بعضها على بعض؟!

ما مهمتنا إذن؟

أما إجمالاً: فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة،

وحضارة المتع والشهوات، التي جرفتْ الشعوب الإسلامية فأبعدَتها عن زعامة النبي ﷺ وهداية القرآن، وحرمتْ العالم من أنـوار هديهما، وأخَّرتْ تقدُّمَه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا.

ولسنا واقفين عند هذا الحدّ، بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها حتى يهتف العالم كلُّه باسم النبي ﷺ، وتوقن الدنيا بتعاليم القرآن وينتشر ظلّ الإسلام الوارف على الأرض.

وحينئذٍ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنةٌ، ويكون الدين كله لله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

هذه مهمتنا إجمالاً.

أما في التفاصيل: فهي أن يكون في مصر أولاً ـ بحكم أنَّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ثم في غيرها كذلك ـ:

نظامٌ داخلي للحكم يحقق قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ونظام عملي للقضاء يستمَدّ من الآية الكريمة:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ٤١].

ونظام اقتصادي استغلالي للثروة والمال، للدولة والأفراد، أساسُه قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥].

ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة، ويطابق جلال الوحي في أول آية نزلت من كتاب الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ونظام للأسرة والبيت ينشئ الفتى المسلم، والفتاة المسلمة، والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

وروحٌ عام يهيمن على كلِّ عامل في الأمة من حاكم ومحكوم قوامُه قوله تعالى:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص: ٧٧].

نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم،

والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الشعوب الإسلامية وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدَهم وتردّ عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل بعد ذلك علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله حتى نُسعد العالم بتعاليم الإسلام.

سيقول الذين يسمعون هذا: إنه الخيال بعينه، وإنه الوهم، وإنه الغرور، وأنّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاموا هذه القوى المتألِّبة المجتمعة والأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقِّهم وهو بين ذراعَي وجبهة الأسد.

سيقول كثيرون هذا، ولعل لهم بعض العذر؛ فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقوي القادر، أما نحن فنقول: إنها الحقيقة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونحن نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنَّ الذين فتحوا أقطار الدنيا ومكّن الله لهم في الأرض من أسلافنا؛ لم يكونوا أكثر عدداً ولا أعظم عدة، ولكنهم كانوا مؤمنين مجاهدين وكفى».

* * *

وهكذا وضع الرجل نفسه على حافة طريق الخطر.

لقد بدأ معركةً مع كل القوى في سبيل الكشف عن زيف تلك الصورة اللامعة الخادعة التي كان يعيشها المجتمع عام ١٩٣٩م، فأعلن منهج الإصلاح:

أن توزنَ كل الأعمال بميزان الأحكام الإسلامية، وأن يجري تطهير

المجتمع من مختلف الأدران، وأن يجـري إصلاح القانـون حتى يتفق مـع التشريع الإسلامي وخصوصاً في الجنايات والحدود، والقضاء على القمار والبغاء، ومحاربـة الخمر، ومقاومـة التبرج وإعادة النظر في مناهج التعليم، وعلاج قضية المرأة علاجاً يجمع بين الرقي بها والمحافظة عليها وفق تعاليم الإسلام، وإعادة النظر في مناهج تعليم البنات، ومقاومة العادات الضارّة اقتصادياً أو خُلقياً، وتحريم الربا وتنظيم المصارف.

وحملت الصحافة الإسلامية لواء العمل في قوةٍ وحزم فأثارت عشرات القضايـا وهاجمت عشرات الأوضاع، وبدأت حلقات من الأبحاث العلمية القانونية حول التشريع الإسلامي والربا، والمرأة والمجتمع والتعليم.

ولقد كان حريصاً منـذ اليوم الأول أن يكون له منبرٌ وصحيفة، وكـان حرصُه أشدّ على أن لا يكتب كلمةً واحدة في الصحف السيّارة، فما عُرفت له كتابـاتٌ في (الأهـرام) أو (المقطم) أو غيـرهما، أو في المجلات الأدبيـة كـ(الرسالة) أو (الثقافة).

ذلك أنه كان حريصاً على أن يصل إلى أتباعه وقرّائه عن طريق صحفٍ تحمل مسـؤولية الفكرة كاملة، ولو كانت في مجلات متواضعة كـ(الإخوان) أو (التعارف) أو (النذير).

وفي هذه المرحلة اشتدّ ساعد النقد لأخطاء المجتمع مع العلاج الصحيح في أسلوب الإسلام الرفيق الواضح؛ دون استعلاءٍ أو تهكم أو جنوح إلى تلك الألوان الرديئة من الهجاء التي كانت تعرفها الصحافة الحزبية في هذه المرحلة، فإذا ذهب أحد أبنائه إلى النقد ذلك المنحى، رفض ذلك في قوة:

«نحن قوم لا يزيدنا جهل الجاهل علينا إلا حلماً، ولا يخرجنا عدوان

الناس عن خطة الأناة والتشبث بالرفق، ونحن لا نكشف مَن ستر عنا خصومَته، ولا نهاجم إلا من أبدى صفحتَه، فعسى أن يثوب إلى رشده من قريبٍ أو من بعيد.

ومنهاجنا أن نتجافى ونبتعد عن تلك الألفاظ النابية التي لاكتها ألسنة الحزبيين وأقلامهم وتداولوها فيما بينهم.

فإذا كان الأمر متعلقاً بإحدى القضايا الأساسية فالكلمة سديدة وحاسمة وجريئة في آن».

ولقد أجرت إحدى الوزارات تعديلاً في تشكيلها، وأعلنت أنَّ الحكم في حاجةٍ إلى دماء جديدة وعناصر جديدة، فكتب حسن البنَّا يقول:

«أيها الناس، إنَّ هذا الكلام لا يساوي ثمن الحبر الذي كُتب به، ولا يجدي الأمةَ فتيلاً، ولا يغير فساداً ولا يأتي بإصلاح، أجل لا بد من جديد في هذه الأمة؛ ولكن أتدرون ما هو الجديد الذي لا بد منه، ولا إصلاح بدونه؟ إنه تغيير القلوب، وتبديل النفوس، وتطهير الأرواح، وتزكية السرائر والضمائر، والعودة إلى الله من جديد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الجديد هو تغيير هذه النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجنِ منها الأمة إلا الشقاق والفرقة، هذه الأوضاع البالية الفاسدة التي نُقلت إلينا من أرضٍ غير أرضنا وبلدٍ غير بلدنا، ولم تُصلح أهلها فضلاً عن إصلاحنا.

الجديد هو العودة إلى كتاب الله ونظم الإسلام في الحكم والقانون والسياسة.

أيها الزعماء: مادمتم ضعاف العزائم والإرادات فلن تصلح على أيديكم مصر ومادمتم تحبون أنفسكم أكثر من هذا الوطن وتعملون لمصالحكم الشخصية أكثر مما تعملون لهذه الأمة؛ ستظل هذه الأمة كحمار الرحى يدور والمكان الذي بدأ منه هو الذي ينتهي إليه، وستُحَلُّ وزارة بعد وزارة.

وأنت أيها الشعب، إنَّ القومَ يغررون بك ويخدعونك عن دينك. ضعوا عن أبصاركم هذه المناظير الملونة التي قدمتها لكم أوروبة وروّجها عليكم ساسة العصر، وانظروا إلى الإسلام بنور الله الذي هداكم به».

* * *

هكذا مضت المعارضة وامتدّت إلى نقد الوزراء في حفلات السباق والمراهنة وفي حفلات الخمر والرقص، إيماناً بأن أعظم الجهاد كلمةُ حقٍ عند سلطان جائر.

ولما ذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وهو وزير ـ إلى إحدى الحفلات الراقصة بعمامته، كتبت صحيفته تقول: إلى الله نبرأ من هذه العمامة.

ولما وقف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ليعترض على الشريعة الإسلامية ويسخر بها؛ تعرّض له في حزمٍ وأدبٍ إسلامي جمّ وبراعة فائقة:

«لقد تصوّر (رفعة الباشا) هذه الحركة بأنها وليدة مؤامرة يُراد بها تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات، ويعترف بأن الحدود مقررة في شريعتنا، ولكنها لا ترضي الأجانب، ثم ذكر أنَّ القائمين بهذه الحركة لا قيمة لهم ولا وزن، ثم بيّن أنه ليس المراد بهذه الحركة وجه الله ولا إعلاء كلمة الله، فإن الإسلام بحمد الله عالي الجنبات.

هذا كلامٌ يجب أن لا يمرّ على الأمة دون أن نبين ما فيه :

إن المطالبة بالشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع الوضعي ليست مؤامرةً ولكنها شعورٌ قويّ فيّاض يجيش به قلب كل مسلم، وأمنية عزيزة كريمة يراها المصريون جميعاً أسمى أمانيهم، وواجبٌ حتم مفروض، إنْ لم يقم به الناس فقد أثموا إثماً عظيماً، وعرَّضوا أنفسهم في الدنيا لعذاب الجريمة واضطراب الأمن وفساد الخُلق، ولعذاب الله في الآخرة :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩].

وسيظل الإخوان يطالبون بإعادة التشريع الإسلامي كركنٍ من أركان حياة مصر الإسلامية حتى يحقق الله غايتهم أو يموتوا دونها .

أما أنَّ الأجانب لا يرضيهم هذا فنحن نعيش في بلادنا لأنفسنا لا للأجانب، وإن قهرتنا الظروف في بعض الأحيان على المجاملة واللين فلن ينسينا ذلك أن لنا حقاً مهضوماً لا بد أن نناله، ولا ينسينا ذلك أن ننتهز الفرص لنتحرر من هذا الرقّ والتحكم في شؤون حياتنا المصرية ممن لا يمتّون إلينا بصلة، وكان على الزعماء أن يصارحوا الأمة بأننا غير أحرار في تشريعنا وغير أحرار في أموالنا، ويهيبوا بنا أن نعمل جاهدين لنستكمل الاستقلال الحقيقي في الإدارة والحكم والشريعة والاقتصاد، ولكن الزعماء ـ عفا الله عنهم ـ قنعوا من الاستقلال بوثيقةٍ لا قيمة لها وتركوا الشعب مكبّلاً في كل ناحية من نواحي حياته .

أما المطالبون بالتشريع فليسوا قلةً بحيث لا يقام لهم وزنٌ ولا يُرهَب جانبُهم، بل هم المسلمون جميعاً والمنصفون من غير المسلمين كذلك، إنهم

الشعب المصري. وسيعلم الزعماء ـ إن لم يكونوا يعلمون ـ أنَّ هذه الغاية ليست غايةَ فردٍ ولا جماعة، ولكنها غايةُ كل مصري يعيش في هذا البلد، ولئن ضبطت الأمة شعورها وآثرت الحكمة في السير، فليس معنى هذا أنها نسيت أو تغافلت، وستأتي الساعة التي يدوّي فيها هذا الصوت رائعاً قوياً رهيباً يصمّ الآذان ويخلع قلوب المترددين المتحللين؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٥١]!!

بقي أن الإسلام عالي الجنبات رفيع الذرى، وإنه لكذلك، وإن الله له لحافظ، وإن أرواح المسلمين له فداء، ولكن الزعماء ـ هداهم الله ـ في ناحيةٍ وهذا الإسلام العالي الجنبات في ناحية أخرى.

أنت معنا بنصّ هذا الخطاب في أنَّ قطعَ يد السارق، ورجم المحصن، ومنع التعامل بالفائدة من القواعد المقررة في شريعتنا السمحة، وطبعاً إنَّ محاكمَنا وقوانيننا تتعامل بغيرها، فنحن إذن على اتفاق في أننا نتحاكم إلى غير كتاب الله ونظام الإسلام ونحن مع هذا مسلمون!!

فهل أنتم راضون عن هذا أو ساخطون عليه؟

إن كانت الأولى فقد حاربتم الإسلام ورضيتم بضياع أحكامه؛ وإن كانت الثانية فهلاَّ فكرتم في أن نتعاون جميعاً على إزالة هذا المنكر، والمطالبة معاً بتشريع الإسلام وتذليل العقبات في هذا السبيل، ومصارحة الأمة بأنه لا يصلحها إلا هذا، وتقويتها تقويةً تامة للوصول إلى هذه الأهداف، وحينئذٍ تتخلَّصون من التبعة بين يدي الله وتنصحون الأمة».

- ٣ -

ومن الصحافة إلى البرلمان، فهذا مجلس النواب يناقش الاستجواب الخاص بالدكتور طه حسين مراقب الثقافة العامة.

ويحضر جلسة البرلمان ثم يخرج ليناقش الموقف من وجهة نظر الإسلام:

«تردد في القاعة ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة تصريحاً أو تلميحاً من أنَّ الدين شيء والسياسة شيء آخر.

ومن أنَّ الدين شيء والقومية شيء غيره.

ومن أن الدين شيء والعلم شيءٌ سواه.

وأنَّ وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساساً لتكوين الدول.

وإن هذا التفريق بين الدين وبين السياسة والقومية والعلم أصلٌ من أصول الحياة الحديثة التي نقلناها عن أوروبة.

فأما أنَّ هذا التفريق والفصل أصل من أصول الحياة الحديثة في أوروبة فأمرٌ لا نخالف الدكتور طه ولا غير الدكتور طه فيه.

ولاندّعي غيره؛ بل نستطيع إن نقول إنَّ أوروبة استفادت من هذا التفريق والفصل أجزل الفوائد، ولعلها ما كانت تستطيع النهوض بغير هذا. وأما أننا نقلنا بعض هذه الأفكار من أوروبة، وتأثَّرنا بها إلى حدٍّ كبير أو صغير، وجرت عليها سياستنا العملية في كثير من مظاهر حياتنا؛ فأمرٌ لا نخالف فيه كذلك، وسببه واضحٌ بيِّن: هو أننا أسلمْنا قيادَنا أو أسلمتْنا الحوادث بعبارةٍ أدقّ إلى ساسةٍ أوروبيين ومعلمين أوروبيين ومشرّعين أوروبيين، فصاغونا كما يريدون

وكما يعلمون، واصطبغت سياستنا العملية في معظم شؤوننا بهذه الصبغة الأوروبية.

فنحن لا تخالف الدكتور طه ولا غيره في أن حياتنا العملية في كثيرٍ من مظاهرها العامة والخاصة قد انحرفت إلى معنًى أوروبيٍّ بفعل الحوادث المتعاقبة طوال هذه السنين الطويلة.

وهذا الانحراف نفسُه الذي يتخذه الدكتور ومن نحا نحوَه حجةً على وجوب رضانا بأوروبة والاندفاع في تقليدها فيما بقي لنا من مظاهر الحياة، هو نفسه الذي يدفعنا نحن إلى تحذير الأمة من التقليد، وإلى وجوب رجوعها إلى تعاليم الإسلام، وعرض هذه الحضارة الأوروبية عليها؛ فما وافقها قبلناه وما خالفها رفضناه، ونحن لم نجنِ بعدُ من هذا التقليد الخاطئ إلا الصاب والعقم واضطراب الحياة في كل ناحيةٍ من نواحيها.

ولكن الذي نخالف فيه الدكتور طه وغيره ممن يؤمن بفكرته هذه؛ ادّعاءُ أنَّ هذا التفريق بين العلم والسياسة، وبين الدين والقومية، وبين الدين والعلم نافعٌ لنا، متفقٌ مع تعاليم ديننا.

هذه دعوى ينقضها الدليل النظري والدليل التاريخي، وتتنافى تماماً مع مصلحتنا ومع مقوِّمات نهضتنا.

والذي يريد أن يجرِّد الإسلام عن معناه السياسي وعن معناه القومي وعن معناه الثقافي يريد بمعنى آخر ألاَّ يكون هناك شيءٌ اسمه (الإسلام) تؤمن به هذه الأمة، وهو عند نفسه وعند الناس يخدع هذه الأمة ويخاتلها، ويعدل بها عن الإسلام الحق إلى إسلامٍ من عند نفسه، لا يتّصل إلى الإسلام الصحيح بسبب، وإنما هو في الحقيقة مسيحيةٌ سمّاها هو الإسلام.

إنَّ أوروبة حينما فصلت بين الدين والسياسة وبين الدين والقومية وبين الدين والعلم؛ كانت مدفوعةً إلى ذلك بعوامل قهرية ضرورية.

فالدين الذي كان يسودها وتؤمن به شعوبها خالٍ تماماً من التشـريعات العملية والمعاني السياسية، وهو وصايا روحية محدودة في الكتب المقدسة، وطقوس كهنوتية بين جدران الهياكل والمعابد. والرجال الذين كانوا يمثِّلون هذا الدين كانوا شَجاً في حلق الدولة والعلماء بما لهم من سـلطانٍ مطلق أكسبتهم إياه هذه التعاليم.

وتاريخ أوروبة القديم والوسيط سلسة نزاع بين الأمراء والباباوات من جهة وبين العلماء والكنيسة من جهةٍ أخرى، بل تعدَّى الأمرُ في هذا النضال إلى الشعوب نفسها، فكان النضال كثيراً ما يكون بين الشعب بأسره وبين الكنيسة.

هذه الأمور الثلاثة: طبيعة الدين الأوروبي، وهيمنة رجاله على الدولة والعلم، والنضال الطويل بين نواحي الجهات الأوروبية المختلفة؛ كلُّ ذلك دعا أوروبة إلى أن تفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والقومية، وبين الدين والعلم. فهل هذه المعاني تنطبق على الإسلام؟

أحبُّ أن يفكر السادة الباحثون في الجواب على السؤال بإنصاف، وهم سيقولون بعد ذلك بملء الفم: لا ثم لا.

إنَّ طبيعة الإسلام ليست طبيعةً روحية بحتة، فهو دينٌ روحي وعملي معاً، وهو لم يحصر نفسه في حدود المساجد والمعابد، ولم يحفل بالطقوس والمظاهر، وإنَّ الدين الذي يقول لبنيه: (ابنوا مساجدَكم جماً) أي غير مزيّنة ولا مزخرفة ولا مبالَغ في بنائها ورفعها (وابنوا مدائنكم مشرفة) أي محصّنة مسوّرة، مجهّزة بأدوات الدفاع وما إليها، إن الدين الذي يجعل هذا من شعاره

لعظيمُ العناية بشـؤون الدنيا ومصالح الناس، كما يعنى تماماً بصلاح الروح والآخرة.

وشعار الإسلام: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

الدولة والعلم من أعظم أركان الإسلام وأثبت قواعده وشعائره؛ فأين هذا من بُعد الدين الأوروبي عن مظاهر الحياة العامة، وإن رجال الإسلام في كل عصرٍ من عصـوره إلى الآن لم يدّعوا لأنفسـهم سلطةً أكبر مما يؤهِّلهم لها علمهم بهذا الدين وصلتهم به، ولم ينازعوا الأمر أهله بعضاً من الأيام، ولم يُعرَف عنهم إلا إنكار المنكر حين يشيع وتشجيع المعروف حين يظهر والوقوف عند حدود الله.

وإذا كان شعار الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [الكهف: ١٢٠]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢٢]، فأين هذا من سلطان الإكليروس في أوروبة وما ادّعوه لأنفسهم من سلطانٍ على قلوب الناس وإيمان الناس وحياة الناس الدنيوية والأخروية!!

وتبعاً لهذا كان تاريخ الإسلام مع الدولة ومع العلم صفحاتٍ مجيدة من التعاون والتآزر والسلام؛ فكيف يقال بعد ذلك إن هذا الأصل الذي سارت عليه أوروبة في فصل سياستها وعلومها وقومياتها عن الدين يجب أن يطبَّق عندنا، ويجب أن نتلقّاه على أنه أصلٌ صالح لنا؟!

نريد أن نتفق على أصلٍ صالح للنهوض، ونريد أن نحدد الهدف معاً،

حتى لا نختلف ولا نضلّ، ونريد أن نتبع الهدى الواضح والنور اللائح حتى لا نفشل ونقاسي من الآلام، ولا ينفعنا في ذلك إلا العودة إلى هدى الإسلام.

إن كنتم آمنتم بهذه الأصول في حياة أوروبة على أنَّها حقائق لا تقبل النقض، فاعلموا أنها لا تتفق مع الإسلام، وأنكم بذلك تصطدمون بإسلامكم، فكونوا شجعاناً وكونوا صرحاء في إعلان الخروج على الإسلام حتى لا تخدعوا أنفسكم وتخدعوا الناس، وإن كنتم آمنتم بالإسلام على أنه حقٌّ ثابت فنحن نرضى أن نتحاكم جميعاً إليه، وحينئذٍ سنلتقي ونتفق وستعلمون أنَّ الدولة وأنَّ العلم من أركان الإسلام.

- ٤ -

ومضى الرجل وصحيفته وجماعته في مواجهة أخطاء المجتمع والسياسة بقوة (متى يستقيم الظلّ والعود أعوج، على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً).

(أيُّ دينٍ يبيح لكم هذا: في حفل وزير الخارجية الرسمي رقصٌ وشراب واختلاط!! اللهم إنَّ الإسلام لا يبيح هذا ولا يرضاه).

وندَّدت (النذير) بما نشرته الصحف عن سباق الخيل باعتباره باباً لزيادة إيرادات الدولة.

وقالت: «هل ضاقت بوزير المالية مصادر الزيادة في الإيرادات فلم يجد أمامه إلا باب الميسر والمال الحرام»!!

ولما قصد وزير المالية والنائب العام إلى ميدان السباق قالت: «إنَّ هذا فرعٌ من الميسر لا شك فيه قد نهانا عنه الشرع وحرّمه الدين.

لئن ربح النائب العام جنيهات معدودة لقد خسر رضاء الله وثقة المسلمين»

وهاجمت (النذير) حديثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق حين قال: «أنا لا أقرّ فضيلة الشيخ أبي العيون على مقترحاته بخصوص الآداب على الشواطئ ولا أذهب مذهبه».

وقالت: «لقد عرف الجميع عصريّته التي قد تخالف الحياة الإسلامية الصحيحة، ولكن ما كان أحدٌ يتصوّر أن يذهب إلى مثل هذا الجواب الملتوي، كنا نتصور أنَّـه موافقٌ مثلاً على اختلاط الجنسين في الجامعة، ولكن ما كنا نتصور أنه لا يقرّ مقترحات الشيخ أبي العيون التي يرمي بها إلى القضاء على الفساد الذي يُرتكب في الشواطئ أمام بصر الحكومة وسمعها.

وما كنا نظن أنَّ الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ خريج الأزهر الأغر ـ يسكت عن إبداء رأيه في مقترحات الشيخ أبي العيون بما يُفهم منه عدم رضاه عنها».

وعارض الأستاذ البنَّا شيخَ الأزهر حين أعلن موافقَته على أن يلبس رجال الجيش القبَّعة شبيهاً بالجنود الأجانب.

وقال: «إنَّ لبس القبعة أمرٌ يحرِّمه الدين أشدَّ التحريم، لما يستتبعه من مفاسد وأضرار، فقد حرَّم الإسلام كلَّ لباسٍ يُضعِف في نفس المسلم معنى الفكرة الإسلامية بأن يجعله شبيهاً بالكفار في الهيئة وإن لم يكن هذا اللباس خاصاً برجال دينهم، وقد وضع الإسلام في ذلك وغيره قاعدته المعروفة: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم».

وعندما علت صيحة فلسطين كان أولَ الفاهمين لها والعاملين لها في شتى المجالات فقد فهم أبعادها وقال:

«إنَّ أشدَّ ما يمكِّن لأعدائكم في دياركم قعودكمْ عن نصرة إخوانكم، فقد كانت الأندلس تُغتصَب في الوقت الذي كانت فيه مصر القومية تصادق فرنسة المغتصِبة».

وعندما جاء العيد الخمسون للمحاكم الأهلية واحتفلت به دوائر الصحافة والحكومة أعلن صيحةً مدوّية:

إنَّ المحاكم الأهلية بنظامها الحالي وتشريعها الحالي تصطدم بتعاليم الإسلام في عدة نواحي:

أولاً: في الحدود التي ذكرها القرآن وأثبتتها السنة الصحيحة للسارق والزاني والشارب ونحوهم من قطع اليد والجلد والرجم.

ثانياً: في إعفاء الزانيين من العقوبة إذا رضيا عن هذا الزنى في سنٍّ محدودة.

ثالثاً: في إباحة الفائدة في الربا.

إن التشريع الحالي في المحاكم يصطدم بتعاليم الإسلام وأحكامه في هذه النقاط وفي غيرها، ومعلوم أن الأمة التي تحتكم إلى هذه المحاكم وتطبق عليها هذا التشريع أمةٌ إسلامية تدين بالإسلام، وتنزل على حكمه، وتعتزّ به وبتعاليمه؛ فلا بدَّ من تعديل التشريع الحالي بما يتناسب مع الدستور ومع القوم الذين يطبّق عليهم التشريع لرفع هذا التناقض القائم بين القانون الكلي للدولة وهو الدستور وبين القانون الجزئي وهو تشريع المحاكم الأهلية.

وهو لا يتوقف عن مواجهة كل كاتب وباحث إذا ما خالف الطريق.

ومن ذلك ما وجَّهَه إلى صاحب مجلة الحديث (سامي الكيالي):

«يا أستاذ سامي: إنك مسلمٌ عربي، الإسلامُ فخارُك ولا مجد لك إلا به، والعربيةُ قوميتُك فلا عزة لك بدونها، وإن تشدَّق التركي بطورانيته والمصري بمصريته فلن تجد لك إلا العرب والإسلام، فأنت من بيتٍ كان أولى الناس بالدفاع عنهما والانتصار لهما؛ فلتنفض يدك من هذه الشيعة الشعوبية المارقة، ولتطهِّر (الحديث) من مغامزهم.

ولا يهولنك قطع الصلة بهؤلاء؛ فلأن تصل الحقَّ أولى وأجلّ، وليبدلنَّك الله منهم أرضاً بأرض وإخواناً بإخوان.

لقد حشوتَ مجلتك بتعسُّفات الدكتور طه في العلم والدين والأدب، وتبجُّحات سلامة موسى وإسماعيل مظهر والشاعر الزهاوي، وبالغتَ في صوغ عبارات المدح والثناء لهم؛ وهم الذين هاجموا الإسلام في أرسخ قواعده، وكادوا للقومية العربية في أظهر مزاياها.

ورأيناك تقرظ كتاب (حرية الفكر) وفيه من المغامز ما لا يتسع المقال لنقله، وتشيد بذكر كتابَي (الشعر الجاهلي) و(الأدب الجاهلي) وتنتصر فيهما لأستاذك؛ وقد أجمع العقلاء على ردِّهما، وتنشر القصيدة التائية للزهاوي وكلُّها إنكارٌ للبعث والروح، وتنشر لكاتبٍ ألمانيٍّ مقالاً بعنوان (خديجة) أساء بها إلى مقام الرسول الأعظم ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها، إلى ما فيه من خلطٍ وشطط؛ ولم تعلِّق عليه بكلمةٍ غير أن نقلتَ حديث الإفك من البخاري.

شيءٌ آخر، ذلك هو أنَّ الناس جميعاً يعلمون أنَّ هذا الانقلاب التركي وما كان ينويه (أمان الله) في الأفغان هو عداءٌ كامن للعربية ومحاربة صريحة للإسلام وانسلاخٌ عن شريعته، ومع هذا فأنتم تحبِّذونه، وتنشرون فيه كلمات التشجيع والإغراء.

أمرٌ ثالث: ما نشرتموه للأستاذ (فيليب حتّي) وفي آخره يغضُّ من فضل العرب على أوروبة، ويعدُّ الذين كتبوا في ذلك من المستشرقين مبالغين، ويرضى لنفسه أن يكون أقلَّ في وفائه لقومه من المستشرقين.

● ● ●

الفَصْل الرابع

بنَاءُ القَاعِدَة

- ١ -

لم يكن في مقدور الداعية أن يبدأ خطواته في التبليغ والمعارضة إلا بعد أن اطمأنّ إلى ذلك الرعيل الذي آمن بها وبايع من أجل العمل لها. لقد كان حسن البنّا صادقاً، وكان قدوةً لكل من التقى به، فوجد قلوباً متفتحة ونفوساً متطلِّعة، وقد جاء أسلوبه مختلفاً عن أساليب الأحزاب، فقد لمس القلوب، ودعا إلى الله وكتابه، فسارت دعوته كالنار في الهشيم، حتى استطاعت في خلال عشر سنوات أن تصل شمال القطر بجنوبه، وأن تصل إلى عديدٍ من بلاد العالم الإسلامي.

وقد جاء حسن البنّا بعد عشر سنوات يكشف هذا السر الذي حيَّر الأحزاب والكتّاب والمراقبين الأجانب فقال: إنه الحب العميق، والتعاون الوثيق، والارتباط المتين، والالتفاف العام حول محور الدعوة ومركزها، والوحدة الشاملة في الألم والأمل، والجهاد والعمل، وفي الوسائل والغايات، والمناهج والخطوات.

لهذا كله أقبل الشباب على الدعوة من كل مكان ومن مختلف الأوساط، وأغلبها الطبقات الوسطى والعاملة، يؤمنون بها ويناصرونها ويعاهدون الله على النهوض بحقّها.

وقد انتقلت الدعوة من مرحلة «كنا نوجّه الدعوة ونعمل على انتشارها» إلى مرحلة «صارت فيها الدعوة تسبقنا إلى البلاد والقرى، وتضطرنا إلى ملاحقتها وأداء حقوقها».

والسر عندنا يرجع إلى الأسلوب: أسلوب التربية وبناء الأفراد، ذلك أنَّ حسن البنَّا تميَّز عن جيلٍ متصل من الدعاة ـ منذ أن بدأت اليقظة الإسلامية الحديثة ـ بشيءٍ واحد: هو التربية.

«الأمة الناهضة التي تطلب سبيل الحياة وبناء المستقبل في أشد الحاجة إلى نوع من أنواع العلاج والمجاهدة؛ قد يكون أجدى الأنواع وأقرب السبل الموصلّة إلى الغاية؛ هو التربية وصياغة نفوس الأمة على نسقٍ يضمن لها مناعةً خُلقية قوية، ومبادئ فاضلة ثابتة، وعقائد صادقة راسخة.

هذه الغاية هي: إنشاء النفوس، وبناء صرح الأخلاق، وتثبيت العقائد الصادقة التي تدفع إلى جلائل الأعمال».

ذلك هو العمل الصعب الذي اجترأ عليه هذا الرجل العظيم ونجح فيه، فلم يلبث بعد قليل أن أقام مجتمعاً إسلامياً جديداً.

كانوا يقولون له: لِمَ لَمْ تؤلف الكتب؟ فكانت إجابته:

«إنني أؤلف الرجال».

وصدق، فقد كان عالماً بالنفس الإنسانية، قادراً على كسب من يتصل به، ودفعه إلى طريق الله في قوة.

وكان هؤلاء الذين يربيهم بالقرآن والتوحيد يدفعون أقواتهم وأوقاتهم وجهودهم في سبيل إنماء هذا العمل.

لقد تدرَّج العمل من دعايةٍ وتعريف إلى تكوين وإعداد.

وهذه هي الخطوة التي تبدأ بها الدعوة السنوات العشر الثانية من حياتها؛ وتتمثل في صياغة الفرد المسلم من خلال:

١ ـ كتائب يراد بها تقوية الصف بالتعارف وتمازج النفوس والأرواح، ومقاومة العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تعالى واستمداد النصر منه.

٢ ـ فرق رياضية يراد بها تنمية الجسوم، وتعويدها الطاعة والنظام، وإعداد الفرد للجندية الصحيحة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم.

٣ ـ ثقافة تستهدف تنمية الأفكار والعقول بدراسةٍ جامعة لأهم ما يلزم المسلم معرفته لدينه ودنياه.

ومن خلال ذلك قامت تقاليد خاصة تطبع هذه التربية أبرزها البعد عن مواطن الخلاف.

ذلك «أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، وليس العيب في الخلاف؛ ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم».

هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلماً كما قال زيد رضي الله عنه.

كذلك حرصت الدعوة على البعد عن هيمنة الكبراء والعظماء، والبعد عن الاتصال بالهيئات والأحزاب؛ وذلك حتى لا يطمس لونَها الصافي لونٌ

آخر من ألوان الدعوات التي يروِّج لها الكبراء، وحتى لا يحاول أحدٌ منهم أن يستغلها أو يوجهها في غير الغاية التي تقصد إليها.

ـ ٢ ـ

أما في مجال الجامعة فقد أحرزت الفكرة الإسلامية نجاحاً كبيراً.

«تقدَّم ستة من شباب الجامعة منذ سنوات يهبون لله نفوسهم وجهودهم، وعلم الله منهم صِدق ذلك فأيَّدهم وآزرهم، فإذا الجامعةُ كلُّها من أنصار الدعوة الإسلامية، تحبهم وتحترمهم وتتمنى لهم النجاح، وإذا من شباب الجامعة فئةٌ كريمة مؤمنة تتفانى في الدعوة وتبشِّر بها في كل مكان.

كان الشباب ضالاً فهداه الله، وكان حائراً فأرشده الله، وكانت المعصية له عادةً فوفَّقه الله إلى الطاعة، وكان لا يعرف له غاية في الحياة فوضحت أمامه الغاية.

وقل مثل ذلك في الأزهر الشريف، والأزهر بطبعه معقل الدعوة الإسلامية، وموئل الإسلام، فليس غريباً عليه أن يعتبر دعوةَ الإخوان دعوتَه، وأن يعدّ غايتَها غايتَه، وأن تمتلئ الصفوف والأندية بشبابه الناهض وعلمائه الفضلاء ومدرِّسيه ووعاظه، وأن يكون لهم جميعاً أكبر الأثر في نشر الدعوة وتأييدها والمناداة بها في كل مكان.

وكانت ظاهرة تحوُّل الجامعة وكلية الآداب بالذات إلى الإسلام من العلامات الخطيرة والبعيدة المدى في تاريخ هذه الكليات، وأثر الدكتور طه حسين وأتباعه في تحريرها من كل مظاهر الدين وجرأتهم على كتاب الله وعلى الفكر الإسلامي لا يجهله أحد.

ولذلك فسرعان ما برز طابع الإسلام، وأخذ يهاجم كل انحرافٍ يراه، وكان ذلك واضحاً في معارضة كتاب (برناردشو) الذي يصور أتباعَ النبي ﷺ بأنهم حمقى وبلهاء، وهنا كانت صيحة الشباب المسلم غضباً لاستقلال الجامعة وحريتها، ودعوتهم إلى تحرير كلية الآداب من الاستعمار الفكري والعلم الحرام، وتنكيس هذا العلم الذي ارتفع منذ عهد (دنلوب).

واقتحم طلبة كلية الآداب مكتب عميد كلية الآداب وأغلظوا له القول، وأهانوه حين صمَّم على بقاء الكتاب، وأنهم لا حقَّ لهم في المعارضة. وذهب طلبة الأزهر إلى شيخ الأزهر يحتجّون، واضطر طه حسين إلى أن يهرب وأن يقدِّم استقالته. وكانت هذه الظاهرة بعيدة المدى عام ١٩٣٩م بعد أن جال طه حسين وصال منذ عام ١٩٢٦م في الشعر الجاهلي، واتَّهام عصر الإسلام الزاهر بأنه عصر فسقٍ ومجون.

وكتب الأستاذ حسن البنَّا معلقاً على الأحداث:

«هناك ملاحظة عامة هي جهل طلبتنا بالدين، وبعدهم عن روح التمسك بالدين، وخلوّ المدارس من هذه الناحية وخلو الجامعة هي الأخرى منها.

وعلِمْنا وعلمَ الناس أنَّ كتباً تتحامل على الإسلام تُدرَّس على أنها كتبٌ مسلمة؛ يتلقّاها أبناؤنا على أنها مقررات رسمية قدَّمها لهم أساتذتهم، ليعلموا ما فيها ويؤمنوا بها، لا على أنها كتبٌ فيها ما يتنافى مع عقائدنا، ونحن ندرسه لنرده، ولنعلم ما يقول عنا غيرنا من الناس.

فهل يستطيع قائل أن يقول: إنَّ مدرس كلية الأدب الإنكليزي حين يدرِّس للطلبة المحادثات الإنكليزية أو مسرحية (جان دارك) أوقفهم على ما فيها مما يتنافى مع عقائدهم الإسلامية؟! ومع ذلك فهل إباحة التفكير أو حريتها تبيح لكل

أحد أن يتعاطى ما لا يدرك وما لا شأن له به!!

وبلغتْ حركـة الإلحاد في الجماعة مجلـس النواب، وفتحت أوسـع الأبواب للحديث عن هذا الخطر، وتحدَّث (عبد الحميد سعيد) عن الرجل الذي ينفث سمومه الإباحية والإلحادية في نفوس النشء من المسلمين.

ومن ناحيةٍ أخرى نشرت المجلة الإسلامية نِسَبَ النجاح بين الإخوان الطلاب والتي تصعد فوق (٩٠) في المئة، وكيف أنهم موضع الاحترام العلمي في بيئـاتهم وأنَّ وفاءهم بحقوق دعوتهم وتمسكهم بها لم يمنعهم من العمل للتفوق في مجالاتهم في كليـة الزراعة والهندسـة والطب والعلـوم والآداب والحقوق.

وتابع الأستاذ البنَّا التغيرات في الجامعة، فكان يراسل العمداء، ويبين لهم الطريق.

سيدي الأستاذ الجليل أحمد أمين عميد كلية الآداب.

السلام عليكم ورحمة الله.

أما وقد أُسندتْ إليك عمادة كلية الآداب وهو اختيارٌ وافقَ أهله إن شاء الله؛ وكلية الآداب ـ يا سيدي العميد ـ أحاطت بها ظروفٌ صبغتها ولو في عرف النـاس بصبغةٍ بعيدة عن روح الثقافة الإسـلامية؛ رغم الصلة الوثيقـة بين كثيرٍ مما يدرَّس فيها من المواد وبين أدب الإسلام.

وكلية الآداب كذلك تمتاز بين الكليات بأكبر عددٍ من الفتيات؛ مما يجعل الاختلاط بينهنَّ وبين الفتيان أمراً له خطره وأثره. وأنت يا سيدي رجلٌ نشأتَ في بيتٍ مسـلم، وتلقيتَ عن أبٍ كريم من صالحي المسـلمين، ودرسـتَ تعاليم

الإسـلام دراسةً وافية عميقة، وقضيتَ شـطراً من حياتك في القضاء الشرعي الإسلامي؛ فأنت بهذا أمينٌ على الفكرة الإسلامية، مرجوٌّ لمناصرتها والعمل لها وخدمتها أينما كنت ولا عذر لك في التقصير.

فليس غريباً بعد هذا أن ننتظر لكلية الآداب في عهد عمادتك اتجاهاً جديداً إلى عنايةٍ كاملة بالثقافة الإسلامية العالية، إلى استمساكٍ تام بروح التقدير والاحترام للأدب العربي الإسلامي يعمّ هؤلاء الطلاب، وإلى الحدّ من الاختلاط بين الفتيان والفتيات والعمل على التخلص منه اتقاءً لشرِّه ودفعاً لأخطاره، سدَّد الله في الخير خطاك وأجراه على يديك.

-٣-

ولقد حرص الأستاذ البنَّا على إعداد الشباب إعداداً إسلامياً صحيحاً.

«إنَّ لكل دعوة غاية، ولكل غاية سبيلاً، ولكل سبيل أعمالاً، ولكل ذلك رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فالدعوة إذاً تطلب منا رجالاً صادقين عاملين قادرين، والرجل لا يوجد بغير تكوينٍ منتظم وإعداد سليم، فالطفل يدخل الحيـاة وهو صفر اليدين من كل شـيء، فإذا نما وترعرع نمت فيه خصائص الإنسـان وتبيَّنت له الأهداف واتّضحت أمامه الوسائل شيئاً فشيئاً، وبقي عليه الاختيار.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملِهُ شبَّ على ... حبِّ الرضاعِ وإن تفطمْهُ ينفطِمِ

ونحن ـ وقد جعلْنـا اللهَ غايتنـا، والرسـولَ قدوتنا، والجهادَ سـبيلنا، والأخوة رباطنا، والطاعة مبدأنا والثبات شعارنا ـ وجب أن نكون كفؤاً لكل ذلك، وأن نتكوَّن ونتربَّى لنقدر على حمل تلـك الأمانة التي بها هتفنـا، وعلى نصرتها عاهدنا. حتى ندفع بسواعدنا الفتية عنها عدوان المعتدين، ونعدَّ من صدورنا لها درعاً يردّ كيد المبطلين، والجهاد ليس ألفاظاً وأحلاماً وأماني؛ بل هو عملٌ وصبر وإخلاص وإعداد. قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فليأخذ كلٌّ منكم يا شباب طريق التقدم والرقيّ والتكوين والبناء، فإن الدعوة في حاجةٍ إلى رجالٍ عمليين يفهمونها جيداً، ويطبقونها على أنفسهم وأهليهم وإخوانهم وكل من يتصل بهم، حتى نكفي حاجةَ العالم المتّسع الكبير، وطوبى لمن شرح الله صدرَه للإيمان، وجعله على صراطٍ مستقيم».

* * *

ثم يأتي بعد ذلك دور التشكيل.

إنَّ من حق الدعوة عليك لتكون أخاً عاملاً حقاً أن تقوم بهذه الواجبات:

أولاً ـ لبدنك:

أن تهتم بأسـباب القوة البدنية والوقايـة الصحية، وتبتعد عن أسباب الضعف، وأن تتجنب الإسراف في المشروبات المنبهة، وتمتنع عن التدخين، وتعنى بالنظافة وتزاول نوعاً من الرياضة، وأن تتجنب الخمر والمسكِر والمفتِر.

ثانياً ـ لعقلك:

أن تجيد القراءة والكتابة، وتكثر من مطالعة رسائل الدعوة وصحفها،

وأن تتبحّر في علمك وفنّك إن كنت مختصاً، وأن تلمّ بالشؤون الإسلامية العامة إلماماً يمكّنك من تصدّرها، والحكم عليها حكماً يتفق مع مقتضيات الدعوة، وأن تحسن تلاوة القرآن والتدبّر في معانيه، وتدرس السيرة المطهرة وتاريخ السلف، وتلم بالضروري من قواعد العقائد وفروع الأحكام وأسرار التشريع.

ثالثاً ـ لخُلقك:

أن تكون حييّاً، دقيق الشعور، سريع التأثر بالحسَن وضدّه من الأقوال والأفعال، وأن تكون متواضعاً في غير ذلةٍ ولا خضوع، وأن تكون صادقاً فلا تكذب أبداً، قويَّ الإرادة فلا تتردد أبداً، وفياً لا تخلف وعدك مهما كانت الظروف.

وأن تكون شجاعاً عظيم الاحتمال، وأفضلُ الشجاعة الصراحةُ في الحق، وكتمان السر، والاعتراف بالخطأ، والإنصاف من النفس وضبطها عند الغضب، وأن تكون وقوراً تؤثر الجدّ والرزانة، ولا يمنعك الوقار من المزاح الصادق والضحك في تبسُّمٍ والتبسُّط في غير تبذُّل.

رابعاً ـ لجيبك:

أن تزاول عملاً تكسب منه مهما كنت غنياً، وأن تُقدِم على العمل الحرّ، وتزجّ بنفسك فيه مهما كان ضئيلاً، وتثابر لتنجح، وألا تحرص على الوظيفة الرسمية ولا ترفضها إذا أتيحت لك، ولا تتخلى عنها إلا إذا تعارضتْ مع واجبات الدعوة، وأن تبتعد عن الربا في المعاملات، وأن تتجنب الميسر بكل أنواعه، وأن تدّخر للطوارئ، وأن تحارب أماكن اللهو فضلاً عن أن تقربها.

خامساً ـ لغيرك :

أن تكون عادلاً صحيح الحكم في جميع الأحوال، لا تنسى الحسنات للغضب، ولا تغضي عن السيئات للرضا، ولا تحملك الخصومة على نسيان الجميل، وتقول الحق ولو على نفسك أو أقرب الناس إليك، وأن تكون عظيم النشاط، مدرَّباً على الخدمات العامة، وأن تكون رحيم القلب سمحاً تعفو وتصفح وترفق حتى بالحيوان، جميل المعاملة، حسن السلوك مع الناس، محافظاً على الآداب التي طبع بها الإسلام المجتمع .

سادساً ـ لدعوتك :

أن تتخلّى عن صلتك بأيِّ هيئةٍ أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة الدعوة وبخاصة إذا أُمرتَ بذلك .

وأن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية ومحاربة العادات الأعجمية في كل نواحي الحياة، ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزيّ ومواعيد العمل، وأن تقاطع كل محكمةٍ غير إسلامية، فلا تذهب إليها إلا مضطراً، وأن تقاطع الأندية والصحف والجماعات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعةً تامة .

وأن تشترك في الدعوة بجزءٍ من مالك، وأن تؤدي الزكاة الواجبة، وأن تعمل على نشر دعوتك في كل مكان، وأن تطبع بها بيتك وأهلك ومن يتصل بك، وأن تحيط القادة علماً بكلِّ ظروفك، وأن تستأذن في كل الخطوات الهامة، وأن تعتبر نفسك جندياً في الثكنة تنتظر الأمر .

سابعاً ـ لربك :

أن تديم مراقبة الله تبارك وتعالى، وتخلص النية له في كل عمل، وتذكر

الآخرة وتستعدّ لها، وتتقرّب إليه سبحانه بنوافل العبادة، وتكثر من الذكر على كلِّ حال، وتتحرّى الدعاء المأثور عن النبي ﷺ في كل شأن.

وأن تُحسن الصلاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، وأن تجدِّد التوبة والاستغفار، وأن تجاهد نفسك جهاداً عنيفاً، حتى يسلس لك قيادُها، وتغضّ طرفك وتضبط عاطفتك، وتقاوم نوازع الغريزة في نفسك، وتسمو بها دائماً إلى الحلال الطيِّب، وأن تستصحب دائماً نيّة الجهاد.

ـ ٤ ـ

وعلى هدي هذه النظم والأساليب تشكَّلتْ الجماعة المؤمنة، وفي مطلع عام ١٩٤٠م بدأ الرجل ما أسماه:

الخطوة الثانية

يقول: «انصرف الإخوان منذ بدء الدعوة إلى ميدانٍ مثمر منتج: هو ميدان تربية الأمة، وتنبيه الشعب، وتغيير العرف العام، وتزكية النفوس، وتطهير الأرواح، وإذاعة مبادئ الحق والجهاد والعمل والفضيلة بين الناس.

وأعتقد أنَّهم نجحوا في ذلك إلى مدًى يحمدون الله عليه، ويسألونه المزيد منه، فقد أصبح للإخوان دارٌ في كلِّ مكان، ودعوةٌ على كل لسان، وأكثر من ثلاثمئة شعبة تعمل للفكرة وتقود إلى الخير وتهدي إلى سواء السبيل.

وأصبح كذلك في مصر شعورٌ إسلامي قوي دفاق يركن القوي إليه، ويعتزّ الضعيف به، ويأمل الجميع في ثمراته ونتائجه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أقول لكم فاسمعوا:

سننتقل من حيّز دعوة العامة فقط إلى حيز دعوة الخاصة أيضاً، ومن دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال.

سنتوجّه إلى المسؤولين من قادة البلد وزعمائه ووزرائه وحكامه، فإن أجابوا الدعوة وسلكوا السبيل إلى الغاية آزرناهم، وإن لجؤوا إلى المواربة والروغان وتستَّروا بالأعذار الواهية والحجج المردودة؛ فنحن حربٌ على كلِّ زعيمٍ أو رئيس حزب أو هيئة لا يعمل لنصرة الإسلام، ولا يسير في الطريق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام.

سنعلنها خصومةً لا تسليمَ فيها ولا هوادة معها، حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين.

لقد تقَوَّل الناس عليكم، والله يعلم والعارفون بكم أنكم من كل ذلك بريئون، فما اتبعتم غير رسوله ﷺ زعيماً، وما ارتضيتم غير كتابه منهجاً، وما اتخذتم سوى الإسلام غاية.

فدعوا كلام الناس جانباً وخُذوا في الجدّ، والزمن كفيلٌ بكشف الحقائق ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ستخاصِمون هؤلاء جميعاً في الحكم وخارجه خصومةً شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم، ويتخذوا تعاليم الإسلام منهاجاً يسيرون عليه ويعملون له، وسيكون هؤلاء جميعاً منضمّين لكم في وحدةٍ قوية وكتلة متراصّة متساندة.

لسنا في ذلك نخالف خطتنا أو ننحرف عن طريقنا أو نغيِّر مسلكنا بالتدخّل في السياسة كما يزعم الذين لا يعلمون؛ وكنا بذلك ننتقل خطوةً ثانية في طريقتنا

الإسلامية وخطتنا المحمدية ومنهاجنا القرآني .

ولا ذنب لنا أن تكون السياسة جزءاً من الدين، وأن يشمل الإسلام الحاكمين والمحكومين؛ فليس في تعاليمه «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ولكن في تعاليمه: قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار.

وتعلمون أنكم ستواجهون صعاباً قاسية في سبيل دعوة الحق، تختلف أشكالها وألوانها ومصادرها ومواردها، ولكنكم بايعتم الله على الجهاد والاحتمال.

إنَّ هناك صعاباً سيقيمها كثيرٌ من المسلمين أنفسهم، بل المتمسكون منهم ببعض تعاليم الإسلام؛ لأنهم يجهلون هذا المعنى الجديد، بل التليد من معاني الإسلام الحق، أو لأنهم يرون في هذه الدعوة حائلاً دون المطامع والأهواء ـ وكثير منهم إنما يعيش بالمطامع والأهواء ـ أو لأنهم جمدوا على ناحيةٍ من نواحي الفكرة الإسلامية فلم يروا غيرها شيئاً مذكوراً، بل رأوا أنَّ كلَّ قيادةٍ بغيرها من أركان الإسلام صرفٌ للناس عنها وانتقاص منها، وقد عاهدوا الله أن يغيروها، ولا يكون ذلك إلا بالوقوف في وجه كل فكرة وكل دعوة سواها وإن كانت في حقيقة الأمر قوةً لدعوتهم، وتأييداً لفكرتهم، ولكنهم لا يعلمون.

إنَّ صِعاباً أخرى ستقيمها الهيئات الحديثة التي لم تؤمن بعد بقضية الإسلام من رسميةٍ وشعبية، سياسية وغير سياسية، إما إخلاصاً لمبادئ لا تُسمن ولا تُغني من جوع، وإما حرصاً على وجاهة المناصب وموارد المال والجاه.

وهناك صِعابٌ من نوعٍ ثالث سيقيمها خصوم الإسلام في بلاده وخارج هذه البلاد. وبدهيّ أن يضع هؤلاء الخصوم في طريق كلِّ عاملٍ ناجح للإسلام

ألف عقبة وعقبة، وألا يتركوه هادئاً إلا بقدر ما يشغلهم عنه ما هو أهم في نظرهم منه.

ويعلم الإخوان مبلغَ قوة كل هذه النواحي التي يواجهونها في دعوتهم هذه وما تملك من جاهٍ ونفوذ وسلطة ومال، ولكنهم مع ذلك يستمدون نجاحهم، وينعشون أملهم بالاستناد إلى الله الذي تكفَّل بنصرة المؤمنين وتأييد المحسنين.

فالإخوان يعتمدون على الله في كل شأنهم، ويرون في معونته ـ تبارك وتعالى ـ إياهم على طهارة أنفسهم من المطامع والأهواء أياً كانت، فهم لفكرتهم وحدها يعيشون، وفي سبيلها وحدها يجاهدون، ثم في صبرهم على غضاضة الجهاد بل استرواحهم إلى ما في الجهاد من ألمٍ ومشـقَّة مستعذِبون، ويرونـه السبيل إلى النصر في الدنيا والفوز في الأخرى.

يرى الإخوان في كل هذه المشاعر ما يكفل لهم الطمأنينة التامة، حتى يؤدّوا رسالتهم كاملةً، وينهضوا بواجبهم غير منقوص، ولله الأمر من قبل ومن بعد».

هكذا قال الرجل وقد صدق، وأثبتت الأيام صِدقَ ما ذهب إليه.

● ● ●

الفَصْل الخامِسْ

إقامَـــة الحُجَّـــة

وهكذا بـرز ضوء الدعوة للنـاس في صورتـه الباهرة، فكيف واجهتْـه الأحزاب والهيئات، هل رضيت عنه وتقبَّلته بالإعجاب، أم عارضته وتآمرت عليه؟ ذلك ما يصوره الإمام المرشد في حديثٍ طويل:

لقد تشكَّك الوفد في الإخوان المسلمين من أول نشأتهم، وظنَّهم أداةً من أدوات خصومه أُعدَّت لحربه، وأوعز فيما مضى بذلك إلى لجانه وأنصاره في البلاد، ولكن مضى الإخوان في طريقهم تألُفُهم القلوبَ بما وجَّههم إليه الإسلام من أدبٍ، ودفع بالتي هي أحسن، لم يكن لهذا التشكيك أثرٌ عمليٌّ، وكان كثيرٌ من الـوفديين في البلاد ينـاصر الدعوة ويسـاعدها؛ مع أنَّ الإخوان ـ على قاعدتهم ـ كانوا حريصين أشدّ الحرص على ألا تُبنى تشكيلاتهم الأساسية على أشخاصٍ من الحزبيين؛ لأنهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من ضعف إذا تعارضت التوجيهات الحزبية مع حق الدعوة ومقتضياتها.

ولم يهمل الإخوان واجبهم في التقدم بالنصح إلى هيئة الوفد في الحكم وخارج الحكم، وبعثوا بخطابهم (في جمادى الثانية ١٣٥٧هـ) إلى مصطفى النحاس.

وفي إبّان الحرب العالمية الثانية، وفي عهد حكومة (حسين سري) اشتدّ

الضغط من السفارة الإنكليزية والقيادة، وصودرت مجلتا (التعارف)، و(الشعاع) الأسبوعيتان، كما صودرت مجلة (المنار)، ومُنع منعاً باتاً طبعُ أيِّ رسالة من رسائلهم، حتى إعادة طبع رسالة (المأثورات) التي لا تشمل على غير آيات وأحاديث من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ!! وأُغلقت مطبعتهم، وحرِّم على الجرايد أن تذكر شيئاً عنهم، كما منعت اجتماعاتهم، ثم عمدت الحكومة إلى تشريد رؤساء الجماعة، فنُقِل المرشد إلى (قنا) في قصةٍ طويلة كما نقل غيره، ثم أُعيدوا تحت ضغط الحملة البرلمانية التي أثارها النائب المحترم الأستاذ محمد عبد الرحمن نصير. ولكن الحكومة لجأت بعد ذلك إلى ما هو أعنف، فاعتقلت المرشد وبعض المسؤولين في معتقل الزيتون شهراً، ثم أفرجتْ عنهم اتّقاءَ ما أحدثه هذا الإجراء من حرجٍ في صدور الإخوان في كل نواحي القطر[1].

ومضت حكومة حسين سري على هذه الصورة:

إرهاق وإعنات من جانب الحكومة، وصبرٌ واحتمال ودفع بالتي هي أحسن من جانب الإخوان.

* * *

وجاءت بعد ذلك حكومة الوفد (مصطفى النحاس) وحلَّ مجلس النواب القائم حينئذٍ، ودُعيت الأمة إلى انتخاب مجلسٍ جديد؛ ورأى الإخوان أنه لا غنى لهم عن صوتٍ منهم ينطق بلسانهم، فتقدم المرشد في دائرة الإسماعيلية، وكان الإجماع منعقداً على نجاحه، وظهرت بوادر ذلك جليةً في

---

(١) مقالات (نحن)، للأستاذ حسن البنا، جريدة الإخوان، ١٩٤٦م.

كل أنحاء الدائرة، فثارت ثائرة الدوائر البريطانية، وطلب النحاس باشا من المرشد أن يقابله في (مينا هاوس) وصارحه بحرج الموقف، وطلب إليه التنازل عن هذا الترشيح.

ورأى الأستاذ المرشد أنَّ من الخير للدعوة ألاَّ تصطدم بأحدٍ في مثل هذا الظرف وحول كرسيٍّ من كراسي البرلمان، فوافق على ذلك.

وقد كشفتْ الحوادث بعد ذلك عن عظيم توفيق الله للإخوان في هذا الموقف الذي وقفوه بعد تردُّد طويل، لخير الدعوة لا لفائدةٍ مادية ولا لمصلحة شخصية، ولا لغرض دنيوي، وتأوَّلوا به الأسوة الحسنة في موقف الرسول ﷺ في الحديبية.

وتبع ذلك أن سمحت الحكومة للإخوان باجتماعاتهم، وصرَّحت لهم بإخراج مجلتهم وفتح مطبعتهم.

ثم حدث أن أغلقتْ الشُّعَب في كل أنحاء البلاد ما عدا المركز العام، وضُيِّق عليهم في اجتماعاتهم ومطبوعاتهم ونواحي نشاطهم.

وكان الإخوان خلال ذلك على طبيعتهم؛ صابرين محتملين، يكتسبون بالصبر والأناة أكثر مما ينالونه بالعنف والشدّة، حتى اضطرت الحكومة أن تعدل عن هذه الخطة بعد ثلاثة شهور.

* * *

ثم وقع حدثٌ هام[١] أنْ توجَّه مجموعةٌ من الوزراء لزيارة دار الإخوان وفي مقدمتهم: فؤاد سراج الدين، عبد الحميد عبد الحق، محمود سليمان

---

(١) يونيو ـ حزيران ـ ١٩٤٣م.

غنام، أحمد حمزة، دكتور محمد صلاح الدين، وتحدَّثوا بكلامٍ طيب أعلنوا فيه تأييدهم لفكرة الإخوان.

وتحدث الأستاذ حسن البنَّا فأعلن أمرين:

أولهما:

أنَّ هذه الدعوة لم تكن يوماً من الأيام أداةً في يد أيٍّ هيئة أو حزب.

ثانيهما:

صَكَّ آذان المستمعين بكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان مما قال:

«من خصائص هذه الدعوة أنها منذ نشأَت ـ وقد مضى عليها الآن خمس عشرة سنة عاصرَت فيها مختلف الهيئات والحكومات ـ لم تنحدر يوماً من الأيام إلى المزالق السياسية، ولم تتلوَّن بالألوان الحزبية، ولم تتورط في المنافع الشخصية، ولم تخضع لهيمنة عظيمٍ من العظماء أو سلطان وجيهٍ من الوجهاء، ولم تعمل ساعة من نهار لحساب شخص أو هيئة أو حزب أو دولة، لأنها صبغةُ الله ومن أحسن من الله صبغة، ودعوةُ الإسلام وهل أقدسُ منها دعوة، وهداية الله للناس أجمعين لم تنفرد بها أمةٌ دون أمة، وهي ميراث رسول الله ﷺ، فهي أكرمُ على الله وعلى القائمين بها من أن تكون وسيلةً لمغنم حزبيٍّ أو تورط سياسي أو استغلال شخصي ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقد قام الإخوان بدعوتهم معتمدين بعد الله على أنفسهم، لا يتوجَّهون إلا بوحيٍ من ضمائرهم، ولا ينفقون إلا من ذات يدهم، ولا يستمدُّون من

أحد عوناً إلا الله، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً.

وهم يعتقدون أنَّ ذلك سرُّ نجاحهم، فهم به مستمسكون، وعليه ثابتون إن شاء الله، ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز».

وقال لهم:

«كلمةٌ خاصة أوجهها إلى أصحاب المعالي الوزراء خاصةً، وإلى أولياء الأمور عامةً، بعاطفة الوطني لا بلسان السياسي، وهي النصيحة الواجبة لا معدى عنها ولا مناص منها، وقد قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله، قال: لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامّتهم».

إنكم أولياء الأمر ورعاة الشعب، وأنتم المسؤولون بين يدي الله عما استرعاكم، وقد قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته» وفي أيديكم سلطاتٌ واسعة لا يحجزكم شيءٌ عن استخدامها والانتفاع في خير هذا الشعب بها، وقد قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، فاقدروا هذه التبعة وإنها لعظيمة، واستخدموا هذه السلطات في محاربة المنكرات الفاشية وعلاج الآفات الكثيرة، والقضاء على المعاصي والآثام المنتشرة، وتقرَّبوا إلى الله بمناصرة المعروف وتغيير المنكر وصالح العمل ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

* * *

لم يكن هذا الموقف مما يغير من الطريق الذي رسمه الرجل شيئاً، فقد كان مما جرى خلال ذلك ما تقدم به بعض الزعماء من وجوه القول: أن تجعلوا

لبَّ دعوتكم المعنى الوطني المصري الخالص، فإنكم بذلك تستطيعون أن تظفروا بهدفٍ محدد، وتستطيعون أن تتقوا كثيراً من الشبهات والظنون، وأن تسايروا الفكرة العالمية، التي ترحب بالجهاد الوطني وتنفر من كل نزعةٍ دينية، وبذلك تزول من طريقكم عقبات كثيرة، وأنتم تعلمون أن أوروبة وأمريكة والدول المتمدِّنة تنفر كلَّ النفور من هذه الدعوات، وأنَّ المعاهدات المعقودة بيننا وبين هذه الدول ـ وآخرها معاهدة (مونترو) مثلاً ـ تأبى علينا أن نسير في هذا الطريق.

فلهذا أحبُّ أن تعدلوا عن نسبة فكرتكم إلى الإسلام، وتجعلوها فكرةً قومية وطنية، فإنَّ الجهود الجبارة التي يبذلها شباب الإخوان حرامٌ أن تضيع من غير طائل، وأن تتحطم على صخرة هذه العقبات، ثم إنكم إذا أردتم مع هذا أن تتخذوا الدعوة الدينية ستاراً تجمعون به دهماء الناس وعوامّهم على فكرتكم وتقودونهم من هذا الزمام، على اعتباره أقرب الوسائل إلى قلوبهم، فإنَّ لكم ذلك، وهي حكمةٌ في الدعوة أقرُّكم عليها ولا أخالفكم فيها.

هذا هو رأي الزعيم الذي تقدم به إلى الداعية وألبسَه ثوب النصيحة.

لكن الأستاذ المرشد ردَّ عليه قائلاً:

إنَّ من رأينا أن نرحب بكل من يتقدم إلينا بنصحٍ أو توجيه وألا نعتقد في أنفسنا الكمال، بل نفترض فيها الخطأ والنقص، على ثقتنا والحمد لله بتوفيق الله إيانا، ونحن نرحب بكل من يتقدم إلينا بفكرةٍ أو رأي أو نصيحة، ونحن لهذا نشكرك ولكن لنا رأينا في نظرتك وفكرتك أيها الصديق:

أما أن نتخذ من الفكرة الدينية ستاراً نجمع به دهماء الناس، ونقودهم بزمامه؛ ونحن إنما نريد بهم سبيلاً غير سبيل الدين القويم، أو صراطاً غير صراطه

المستقيم، فهذا ما لايدور لنا بخلدٍ، ولايخطر لنا ببال، وهو الخديعة كلُّ الخديعة والنفاق والخبال، وما كان لفكرة حق ولا لنهضة شعب أن تقوم على المخادعة والختل والتزييف والمكر.

وأسوأ قادة الأمة أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون ما لا يُبطنون، والله أعلم بما يُوعون، فبشِّرهم بعذاب أليم.

وهو المقت كل المقت، وقد نُهينا عن ذلك بصريح قول الله العلي الكبير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، فنحن نخالفك فيما ذهبتَ إليه، ولا نرى أنَّ فكرة تبرير الوسيلة بالغاية فكرةٌ صحيحة في بناء النهضات الخالدة وهداية الأمم إلى سبيل الرشاد.

أما أنَّ دعوتنا الإسلامية - لأنها دعوةٌ دينية - تخالف وجهة النظر العالمية التي ترمي إلى التحلل من التدين والقضاء على البقية الباقية من شعائر الأديان ومظاهرها؛ فلا أظنك على حقٍّ فيما ذهبتَ إليه من ذلك، فإن العالم بعد هذا الدرس القاسي والهوة السحيقة التي أردَتْه فيها المطامع المادية والآراء الإلحادية والشهوات الزائفة الزائلة، قد أخذ يتجه إلى هدى السماء ويتلمّس فيه ضياءً يهديه ودواءً يشفيه.

على أننا لا يضيرنا أن نخالف من لا يرى رأينا ما دمنا نعتقد أننا على الحق وغيرنا على الباطل، وأن نجاهر بفكرتنا ما دمنا نؤمن بأنها فكرة الإنقاذ وسواها لا يؤدي إلا إلى الهلاك والدمار، والواقع يؤيدنا والحوادث تزكّي ما نقول. ولقد قال الواقع وصدَّقت الحوادث أنَّ هذه المدنية المادية الحالية خاطئةٌ وناقصة وليست كاملةً أبداً؛ لأنها عجزتْ عن أن تقرّ السلام في الأرض، وتسوق الإنسانية لبني الإنسان، فما ندعو إليه من الرجوع إلى هدى السماء،

والأخذ بتعاليم الأديان يصحِّح خطأها، ويُكمل نقصها، فلا علينا من بأسٍ أن نجاهر الناس بهذه الحقائق، بل إنه من العقوق لأنفسنا وللعالم أن نسكت عن هذا البيان.

أما أنَّ هذه المعاهدات تحول بيننا وبين ما نريد من محاربةٍ للمنكرات، وضربٍ على أيدي المجرمين، وقضاءٍ على الفساد في الأرض، فليس في الدنيا أمـةٌ تقبل على نفسها أن تتّصف بـأنها تحمي الحريـة وتدافع عن المجرمين الأشرار.

أما خوف المواطنين من غير المسلمين من أن تسود فكرة الإسلام فذلك وهمٌ لا وجود له، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ثم إننا حين ننادي إلى الإسلام فإننا نخدم الفكرة القومية بأقوى الدوافع إلى خدمتها، وندخل إليها من أوسع أبوابها، فترتقي هذه الخدمـة من مرتبـة المشاعر إلى مرتبة الواجبات والفرائض، ويتجدَّد لها بين حنايا الضلوع حافزٌ من مراقبة الله وهو لا يغفل ولا ينسى».

● ● ●

الفَصْل السَّادِس

مَرْحَلَةُ المُوَاجَهَة

- ١ -

وضحَ الصوت، وبرزَ الضوء، واهتزّت مختلف الدوائر ومضت تتساءل عن هذه القوة الجديدة، وسارعت أقلامٌ كثيرة ووجوه كثيرة إلى لقاء هذا الرجل والاستماع إليه، وتحدّث الرجل إلى الجميع، ورسم كلٌّ منهم له صورةً ما.

هذا محرر مجلة روز اليوسف يسارع إلى اللقاء ويكتب تحت عنوان ضخم: (الرجل الذي يتبعه نصف مليون)[1].

اركب أيَّ سيارة أجرة وقل للسائق: (الإخوان المسلمين يا أسطى) ولا تزد، ولن يلتفت إليك السائق ليسألك ماذا تقصد بالإخوان المسلمين، ولا أين تقع هذه الدار التي يطلق عليها هذا الاسم، بل سيقودك إلى هناك دون سؤال، بعد أن يرحب بك بابتسامةٍ لم تتعوّد أن تراها على وجوه سائقي سيارات الأجرة، وقد يرفض أن يتناول منك أجراً.

ولا شك أنه سيحمّلك سلامَه - قبل أن تغادره - إلى فضيلة الأستاذ حسن

---

(١) روز اليوسف، ١٢ سبتمبر - أيلول - ١٩٤٥م، إحسان عبد القدوس.

البنَّا المرشد العام للإخوان المسلمين. وستمرّ في طريقك داخل الدار بمخازن الذخيرة التي يمتلكها الإخوان: وهي الشباب، شبابٌ امتلأت بهم حجرات الدار على سعتها، ترى على وجوههم نور التقوى والإيمان وفي عيونهم حماسة الجهاد، وبين شفاههم ابتسامةٌ تدعو إلى المحبة والإخاء، وفي يد كلٍّ منهم سبحةٌ انحنى عليها بروحه يذكر اسم الله.

وهم مع كل ذلك شبان (مودرن) لا تحسّ فيهم الجمود الذي امتاز به رجال الدين وأتباعهم، ولا تسمع في أحاديثهم التعاويذ الجوفاء التي اعتدنا أن نسخر منها، بل إنهم واقعيون، يحدثونك حديث الحياة لا حديث الموت، قلوبُهم في السماء، ولكن أقدامهم على الأرض، يسْعَون بها بين مرافقها ويناقشون مشاكلها، ويحسّون بأفراحها وأحزانها، وقد تسمع فيهم من (ينكِّت) ومن يحدثك في الاقتصاد والقانون والهندسة والطب.

إنهم ذخيرةٌ وستنطلق عند الشرارة الأولى فاحذروا، ويستقبلك الأستاذ حسن البنَّا بابتسامةٍ واسعة، وآية من آيات القرآن الكريم، يعقبها بيتان من الشعر يختمهما بضحكةٍ كلُّها بِشرٌ وحياء.

والرجل ليس فيه شيءٌ غير عادي، ولو قابلتَه في الطريق لما استرعى نظرك اللهم إلا بنحافة جسمه ولحيته السوداء، التي تتلاءم كثيراً مع زيّه الإفرنجي وطربوشه الأحمر الغامق.

ولن تملك نفسك من التساؤل كيف استطاع الرجل أن يجمع حوله كل هؤلاء الإخوان؟ وكيف استطاع أن ينظِّمهم هذا التنظيم: بحيث إذا عطس فضيلتُه في القاهرة، صاح رئيس شعبة الإخوان في أسوان «يرحمكم الله»؟!!

ولكنك لا تلبث إلا قليلاً حتى تقتنع بأنَّ قوة الرجل في حديثه، وفي

أسلوبه الهادئ الرزين، وفي تسلسل أفكاره التي يعبِّر عنها تسلسلاً منطقياً.

وربما كان أغرب ما في حديثه أنه يحسّ بما يقوم في نفسك من اعتراضات، فيجيبك عنها ويفنِّدها لك قبل أن يترك لك الفرصة لتصدمه بها.

وهو لبقٌ يستطيع أن يحلل شخصيتك ويدرس نفسيتك من النظرة الأولى، وربما أحسُّ أني دخلت إليه وتحت لساني مئة تهمة أستطيع أن أوجهها إليه، فكان من لباقته أن عرضَ عليَّ قبل أن أغادره تقريراً عن الحسابات المالية لجماعته.

وفي هذا التقرير تقرأ عجباً:

فهذا (أخ) أراد أن يساهم في شراء دار الإخوان ولم يملك مالاً فباع أرضَه وخصَّص ثمن أربعمئة متر منها للجمعية، وصورة العقد والتخصيص منشورةٌ بالزنكوغراف ضمن التقرير.

وهذه زوجةٌ لم تجد لديها ما تقدِّمه فوهبتْ قرطَها الذهبي وكان حليتها الوحيدة للإخوان، وصورة القرط منشورة أيضاً ضمن التقرير.

وهذا رجلٌ من مسلمي بومباي في الهند تبرَّع بفتح اكتتاب بين أبناء بلده للمساهمة في بناء الدار.

وهذا زوجٌ اختلف مع زوجته فهو يريد أن يتبرع للجمعية بجنيه واحد وهي تريده أن يتبرع بثلاثة جنيهات، وجاءا ليحتكما إلى الأستاذ البنَّا فحكم بينهما أن يتبرعا بجنيهين اثنين حسماً للنزاع.

وهذا رجلٌ من العراق يرسل تبرُّعَه عن طريق سعادة عبد الرحمن عزام باشا، وآخر يتعهد بكل ماله لتغطية ما تحتاجه الجماعة من مالٍ و... و.. وبين أسماء المتبرعين أعضاء في مجلس النواب وشخصياتٌ كثيرة وشباب لم

أكن أحسب أنهم يدخلون ضمن النصف مليون الذي يؤمن بالأستاذ حسن البنَّا .

نصف مليون وأكثر انتظموا في أكثر من ألف وخمسمئة شعبة انبثّت في كلِّ قرية وكل كَفْر؛ بينهما مئتان وخمسون شعبة في القاهرة وحدها ، وهناك شُعَبٌ في باريس ولندن وجنيف قبل قيام الحرب .

* * *

وحدثني فضيلتُه عن فكرة الإخوان وكيف نبتت وكيف تحققت :

لقد وَجد القائمينَ على أمر الإسلام قد عجزوا عن تطبيقه تطبيقاً صحيحاً، فالإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه نظامٌ سياسي واقتصادي واجتماعي .

وقد وجد مصر من حوله ينقصُها الخُلق وينقصها الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ولم يقصر تفكيره في الإصلاح على ناحيةٍ واحدة من هذه النواحي كما فعلت الأحزاب فقصرتْ جهودَها على الناحية السياسية ، أو كما فعلت الشيوعية فقصرت جهودها على الناحية الاقتصادية ، إنما أراد أن يصلح كل نواحي النقص الذي تعانيه مصر ويعانيه الشرق، فلم يجد نظاماً شاملاً جامعاً يستطيع أن يلجأ إليه سوى الإسلام وقانونه الأساسي القرآن .

وهو يسعى أولاً إلى إفهام المسلمين دينَهم فهماً صحيحاً لا تشوبه الخزعبلات ، وإلى إيجاد المحبة والأخوة بينهم، ثم تطبّق النظم الاجتماعية والاقتصادية التي جاءت في الدين عليهم .

وهو يعتقد أنَّ مصر ـ كبقية بلدان الشرق ـ حسَّاسةٌ من ناحية الدين ، وأنه

ما من حركةٍ صالحة أو خطوة خَطَتْها إلا كانت باسم الدين دائماً، فأنت تستطيع أن تجعلهم ـ أي المصريين ـ يحبون وطنهم باسم الدين، ويحبُّون بعضهم بعضاً باسم الدين، ويجاهدون وينتظمون باسم الدين، وكلُّ دعوةٍ قامت في مصر ولم تكن على أساسٍ من الدين فشلتْ.

قلت: ولكننا اليوم لانستطيع أن نطبِّق الدين والقرآن على جميع مرافقنا، فهناك مثلاً قوانين الملاحة والطيران كيف نستطيع أن نحلَّ محلَّها القرآن؟!

وأزاح فضيلتُه طربوشَه إلى مؤخرة رأسه وقال:

ـ إنَّ القرآن وُضِع ليكون قانوناً أبدياً ينطبق على كلِّ عصرٍ منذ انتهاء الجاهلية إلى قيام القيامة، ولو بحثتَ في القرآن لوجدتَ بين سطوره الكريمة صورةً للقانون الذي تبحث عنه الدول العظمى الآن، لتحديد طريقة استعمال القنبلة الذرية في الحروب.

ونحن لا نقول: إنَّ كلَّ قانونٍ سنحتاج اليه قد جاء بتفاصيله ومواده وحيثياته من القرآن، إنما يجب علينا أن نجتهد في وضع هذه القوانين في حدود المبادئ الأولية والمُثُل العليا التي جاءت في الدين.

وقد انتشر اعتقاد الناس بقصور القرآن عن شمول كل مرافق الحياة للجمود الذي أحاط بهم منذ أُقفِل بابِ الاجتهاد واستنباط القوانين من بين سطوره، وقد نُكب الإسلام حقاً منذ أُغلِق باب الاجتهاد في وجوه العلماء، والاجتهاد يتَّسع لكل فرضٍ يخطر على بالك، وقد سئل أحد العلماء مرة: هل الخلوة الصحيحة في مسائل الزواج تثبت إذا كان مع الرجل والمرأة كلب.

وأجاب العالم: إنَّ الخلوة تثبت إذا كان الكلب مِلْكَ المرأة، وتفسد ولا تعتبر صحيحةً إذا كان الكلب ملك الرجل لأن الكلب إذا كان للمرأة ولم

تكن الخلوة بإرادتها ينبح ويتهجَّم على الرجل مدافعاً عن سيِّدته. أما إذا سكت الكلب واستكان فدليلٌ على أنَّ الخلوة بإرادة المرأة وإذن فهي خلوةٌ صحيحة.

والفرض بعيدٌ ولكنه يدلُّك على أنَّ الاجتهاد يعمُّ كلَّ مسألةٍ تخطر لك.

قلت: ولكن هل تعتقد أنَّ الأجانب المقيمين بيننا يرضون ومن ورائهم دولهم بتطبيق قوانين القرآن كقطعِ يدِ السارق مثلاً.

وهنا خبط الأستاذ بيده على مكتبه في ثورةٍ وقامت مناقشةٌ حادَّة بينه وبين نائبٍ وطبيبٍ ومحامٍ كانوا يشتركون معنا في الحديث وقال: لو كان الإنكليز من المسلمين وطبقوا في بلادهم قوانين الإسلام لما قام واحدٌ فيهم يسأل هل يرضى الأجانب بقطع يد السارق أو لا يرضون، إنما هو ضعفُنا وخنوعُنا الذي ألجأنا إلى هذا السؤال، وألجأنا إلى استعارة قوانين أوروبة لتطبيقها على أنفسنا الذي بدَّل الشريعة الإسلامية اعترف أخيراً مؤتمر محكمة العدل الدولية بأنها شريعةٌ قابلة للتطور.

وقد حدث في شبه جزيرة العرب أن حُكِم على جنديٍّ أمريكي بقطع يده لأنه سرق فاحتجّ قائده، فأبلغه ابن سعود أنه إما أن ينفِّذ الحكم وإلا فلن يكون مسؤولاً عن أموال أمريكة في بلاده، فرضخت أمريكة، ونُفِّذ الحُكم.

ثم استلم الملك من الرئيس روزفلت خطابَ شكرٍ لحرصه على سلامة أموال الدولة.

ثمَّ إنَّ هذه الحدود ـ أي العقوبات ـ تنفيذُها متروكٌ لأمر القاضي، وتقديره، طبقاً لقوله ﷺ:

«ادرؤوا الحدود بالشبهات».

وهو يستطيع أن يتدرَّج فيها بين الشدَّة والتخفيف.

قلت: ألا تعتقد أنَّ دعوتَك دعوةٌ رجعية قد تؤدِّي بنا إلى خلافاتٍ طائفية قد تستغلُّها إنكلترة للتدخل في شؤوننا كمايحدث الآن في الهند.

قال: إنَّ الإسلام أوصى خيراً بأهل الكتاب، ونحن نشجع كل حركة تقوم على أساس الدين الصحيح. وجميع الأديان متفقةٌ في أُسُسها ومُثُلها العليا.

وعلاقتنا حتى اليوم علاقةٌ طيبة مع كثيرٍ من أصحاب الأديان الأخرى.

قلت: هل تسعون لتولِّي الوزارة؟.

قال: إننا نؤيِّد أيَّ وزارةٍ تنفِّذ برنامجاً قائماً على الدين الصحيح، سواء أكنَّا نحن الذين نتولاّها بأنفسنا أم كان غيرنا، وفي الدستور الحالي سندٌ لنا فيما أقول، لأنه ينصّ في مادته الأولى على أنَّ دين الدولة الإسلام، ومعنى هذا أن تكون جميع نظمنا وقوانيننا وتصرفاتنا مبنيةً على قواعد الإسلام.

-٢-

ونشرت مجلة آخر ساعة[١] حديثاً مستفيضاً تحت عنوان:

«شعارنا سيفان، دستورنا القرآن».

«هبِّي يا رياح الجنة على رهبان الليل وفرسان النهار».

* * *

---

(١) آخر ساعة، ٥ مارس - آذار - ١٩٤٦م، محمد التابعي.

رأيتُ الأستاذ حسن البنَّا المرشد العام للإخوان المسلمين منذ عامين مرتين: رأيته في الأولى يخطب جماعةً من طلبة الطب، ورأيته في الثانية يناقش مجموعةً من الشبان المثقفين، ورأيت سامعيه في الحالتين يقابلونه بالابتسام والضحك والسخرية بل والصفير، ولكنه تكلَّم وخلبَ وسيطر، وانتصر بسهولةٍ على معارضيه في كلتا الحالتين.

رأيته فيهما صامتاً ورأيته يتكلم. وجهُه على الحالين مشوبٌ بمسحة وقارٍ لطيف، حادّ الملامح، بيِّن التعابير، تحت جبين عريض لمّاح بقبسٍ من الذكاء، يقتعد وسطه (زبيبة صلاة) كبيرةٌ داكنة من أثر السجود.

عيناه هادئتان بسيطتان، في بساطتهما لمحةٌ من (عيون المقطم) تحسبُها قليلة الغور، فإذا أُلقيتْ فيها الحجر، ظلّ يتدحرج، ويتدحرج، وتتعاقب الثواني على صوته وهو يتدحرج، ويفنى الصوت وهو ما زال يتدحرج إلى غير قرار.

دائمُ الابتسام، فارِهُ القامة، رحبُ الهيكل، يبدو قوياً كشجرة السنديان، في صوته عمقٌ وعرض وطول، ولِلسانه سحرٌ إذا تكلَّم يتلاعب فيه بالألباب، والأحاديث وأمجاد الجهاد الإسلامي يطلقها من فمه كالمدفعيّ الماهر، في أنسب وقتٍ وأنسب مكان، فيكون لها فعلُ القذائف في مُعارضيه.

ترى هل يمكن أن تتألف من مجموعة هذه الألوان والخطوط صورة زعيم؟!

* * *

على أيِّ صوتٍ تستيقظ مصر هذه المرة.

من أيِّ بابٍ تهبُّ رياح الفجر الوليد.

من أيِّ دمٍ تكتب مصر عندما تفيق صفحتَها المجيدة الجديدة في تاريخها الحديث. يقولون: إنَّ عِلْمَ هذا عند الله وعند جماعة الإخوان المسلمين، فمن هم الإخوان المسلمون؟

هؤلاء الذين يزعم الرواة أنَّهم وراء كل مظاهرةٍ وكل حركة إضراب، وأنهم القوة المحركة الدافعة لهذه الفورة الجديدة التي توجِّه الشعور الوطني هذه الأيام.

وأنهم استطاعوا في يومٍ واحد أن يوزِّعوا مئة ألف شارة من شارات الجلاء، وأن يعلِّقوها على صدور مئة ألف مصري رشيد.

من هم هؤلاء الإخوان؟

* * *

مدرِّسُ خطٍّ ومع ذلك فإنَّ خطَّه بشهادته هو نفسه ليس جميلاً بل ولا مقروءاً. وزعيمٌ لمليون من المصريين ولكنه بشهادته هو أيضاً ليس زعيماً وإنما هو مدرِّسٌ فقط؛ ولعل هذا هو مصدر لقبه الرسمي وهو المرشد العام.

أما الإخوان ـ أعني الجمعيةَ نفسها ـ فهي شعارٌ مكوَّنٌ من سيفين متقاطعين بينهما مصحفٌ كتبوا تحته كلمة (وأعِدُّوا).

ثم المرشد العام: ذلك الرجل الملتحي ذو العينين البرَّاقتين والصوت الحازم القوي المكين، وليس هناك بعد ذلك إلا مليون رجل فقط على استعداد لبذل آخر قطرةٍ من دمائهم عندما يأمر بذلك المرشد العام.

وهذا هو كلُّ شيء.

سألتُ الأستاذ حسن البنَّا المرشد العام عن السيفين فقال:

هما رمز الجهاد.

والمصحف؟

دستورُه.

قلت: والكلمة المكتوبة بين السيفين: (وأعدوا)؟

قال: هي الكلمة الأولى من الآية الكريمة:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولم نستطع أن نكمل الحديث، لأنَّ خمسة آلاف من أنصاره جاؤوا يتلقَّون تعليماته بعد حوادث يوم الجلاء.

ويظهر أنَّ ميزة الرجل الكبرى هي أنَّه يعرف كيف يخاطب الناس وكيف يُلهِب شعورَهم.

والذي يسمعه وهو يقول لهم: «اسمعوا يا خير أمةٍ أُخرجتْ للناس» أو يناديهم «اسمعوا يا جند محمد، ويا جيش الخلاص، ويا كتائب الإنقاذ، ويا رهبان الليل وفرسان النهار».

الذي يسمعه وهو يقول هذا، ثم يسمعهم يجيبون عليه بدوي كهزيم الرعد: «الله أكبر، الله أكبر، وللمؤمنين النصر» يدرك فوراً أنَّ هذا الرجل أوتيَ قدرةً خارقة على فهم نفسية الجماهير، وكيف يُلهب مشاعر الجماهير.

وتسمع الشيخ بعد هذا يحدِّثهم عما جرى أخيراً فيقول: إنه يأسفُ لأنه كان يريدُها مظاهراتٍ سلمية؛ لا لأنه يعتقد أنَّ حقوق مصر تُنال بالمظاهرات السلمية فقط، ولكن لأنه يرى أنَّ الوقت لبذل الدم لم يحن بعد، وأنَّ كلَّ القوة وكل البأس يجب أن يُدَّخرا ليوم الدم. ولكنه مع أسفه لهذه الحوادث يؤمن بأنَّ هذه هي إرادة الله وما يريد الله إلا الخير للعباد.

وتسمع بعد ذلك هزيم الرعد «الله أكبر ولله الحمد» ويُسكتُه المرشد فترةً ثم يقول:

«الآن يا شباب انصرفوا إلى أعمالكم، وسوف تصلكم تعليماتي بالطريقة المعتادة، أيها الأخوة الأعزَّة الفُضلاء».

وفي دقيقةٍ واحدة ينصرف الخمسة آلاف، ويعود إلينا الأستاذ حسن البنَّا ليتّخذ مجلسَه بيننا كأنما لم يحدث شيء.

وكأنه لم يكن منذ لحظةٍ يلعب بعواطف خمسة آلاف، من رهبان الليل وفرسان النهار.

وتحدث إلينا بعد عودته فقال:

ـ لا أستطيع أن أحدِّد متى وكيف نشأت الدعوة، فهناك أفكارٌ تنشأ مع الإنسان يومَ نشأ، على أنها برزت عقب تخرُّجي من دار العلوم في شعبتين: إحداهما في الإسماعيلية حيث كنت أقيم، والأخرى في شبراخيت.

قلت: وكم عدد الشُّعَب المنتمية للجمعية الآن؟

قال: في مصر ألف وخمسمئة شعبة، تضمّ مليوناً من الإخوان، ولنا شُعَبٌ أخرى في الشرق كله تجعل منا مليوناً ونصف مليون من الإخوان

العاملين؛ عدا الإخوان المناصرين وهم كثيرون؛ يؤمنون جميعاً مثلناأنه يجب أن تكون لنا فلسفةٌ روحية مستمدّة من تعاليم الإسلام السمحة الغرّاء.

قلت: ولكنكم دون شك تحوّلتم في السنوات الأخيرة إلى ناحية النشاط السياسي؟.

قال: النشاط الوطني تقصد، فما لنا بالسياسة علاقة، ولقد حرصنا دائماً على ألاَّ نحتكَّ بالأحزاب ولا بالهيئات، فلما نشبتْ الحرب حرصوا هم على أن يحتكّوا بنا، وتولَّدتْ من الاحتكاك (الشرارة) التي لفتت إلينا الأنظار.

قلت: هل تشترك في الانتخابات إذا أُجريتْ انتخاباتٌ قريبة؟

قال: نعم.

قلت: وهل تضمن النجاح؟

قال: أستطيع في انتخاباتٍ حرّةٍ أن أحصل على أغلبيةٍ ساحقة، هذا لو أنني أردتُ ذلك، ولكنني في الواقع لا أريده، فمكاننا في صفوف الشعب أكثرُ منه في صفوف الحكام؛ ولهذا لن نتقدَّم إلا في عددٍ صغير من الدوائر.

قلت: هل معنى هذا أنك لا تقبل رئاسة الوزارة إذا عُرضتْ عليك؟

قال: بل أقبل، والحُكْمُ ليس متعةً، وإنما هو جهاد، فأنا إنْ قبلتُه فإني أقول للإنكليز: إما أن يتمّ الجلاء، وإما ـ وهذه أقولها للمصريين ـ «أيتها الأمة جاهدي، فالجهاد سبيلكِ الوحيد». لقد سألتُ النقراشي باشا يوماً أن يطالب بالجلاء صراحةً، فإن ماطلَ الإنكليز فلا يستقيل، وإنما ينتضي السيف ويقود الأمة في ميدان الجهاد.

قلت: وهل كنت تتعاون معه؟

قال: أنا وراء كل رئيس وزراء يدعو إلى الجهاد.

قلت: هل عندك قوة؟

قال: عندي مليون.

قلت: السلاح؟.

قال: سلاحُنا الإيمان.. وكلُّ أخٍ من الإخوان يؤمن بأنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفســهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنـة يجاهدون في سـبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وستجدنا يوم الجهاد نستقبل الرصاص صائحين: هبِّي يا رياح الجنة.

قلت: وهل عندك المال؟.

قال: نحن أفقر جمعية وأغنى جمعية، مالُنا الرسمي اشتراكات الإخوان ومالنا الحقيقي خزائن الإخـوان، أردنا شراء هذه الدار، ولم يكن في خـزائن الجمعية من ثمنها شيء، فدفع الإخوان ستة عشر ألف جنيه في يومٍ واحد، وأعلنّا في أول فبراير (شباط) عن حاجتنا إلى جريدةٍ ودار للنشر ومطابع قدَّرنا ثمنها بربع مليون جنيه لتكون أكبر مؤسسةٍ من نوعها في الشرق، فدفع الإخوان في أسبوعين مئة وعشرين ألفاً من الجنيهات!!

قلت: هناك عدة أشياء لا تعجبني فيكم.

قال: ما هي؟

قلت: الدعوة الدينية فإنها تمزق وحدةَ الأمة.

قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قلت: ولماذا تطلبون من الأعضاء أن لا يُكثروا من الجدل؟.

قال: لأنَّ المِراء لا يأتي بخير.

قلت: ولماذا تطلبون منهم ألا يُكثروا من الضحك والمزاح.

قال: لأنَّ القلب الموصول بالله ساكنٌ وقور، ولأن الجدَّ وحده هو شعار الجهاد.

-٣-

ونشرتْ مجلة الحرية[١] حديثاً ثالثاً يكشف جانباً آخر من الحوار تحت عنوان:

«المرشد العام: الذي يعرف وجوه وأسماء نصف مليون من أتباعه».

في أواخر شهر رمضان الماضي كنت أحضر حفل الإفطار الذي أقيمَ في منزل طلعت حرب لمناسبة ذكراه، ولمحتُ فضيلة الشيخ حسن البنَّا المرشد العام للإخوان المسلمين جالساً فأخذتُ مكاني بجواره، وتناولنا طعاماً خفيفاً، وتواعدنا على الانصراف سوياً، وما كاد الشيخ يسير خطواتٍ حتى تجمَّع حوله عشرات من معارفه وأنصاره يحيُّونه، ولم يشقّ طريقه في زحمة هذا الجمع الذي يمثّل خلاصة المستنيرين من رجال الاقتصاد والفكر إلا بمشقّةٍ كبيرة.

وقفتْ بنا سيارةٌ كبيرة عند مسجد (أولاد عنان) لصلاة المغرب، ولمّا انتهت الصلاة تجمَّع حوله عشراتٌ ممن بقوا في المسجد أو كانوا خارجه

---

(١) مجلة الحرية، محمد صبيح، ١٨ سبتمبر ـ أيلول ـ ١٩٤٦م.

يلثُمون يده. ودار بيننا حديثٌ طويل صريح عن حركة الإخوان واتّصالاتها وعن السياسة العامة وشؤونها.

وقبل مضيّ أسبوع كنت في حلوان أحاضر عن السودان في معسكرٍ من معسكرات الإخوان الكشفية؛ وإذا بفضيلة المرشد يأتي ويجلس إلى حلقة النار، يسمع ويقول، ثم ننصرف جميعاً في طريق القاهرة، وأعلمُ أنه سيسافر إلى الإسكندرية في الصباح الباكر.

وبعد يومين كنت في مركز الإخوان المسلمين أُعرِّفُ فضيلة المرشد بصحفيِّ العراق وكاتبِه المعروف الأستاذ (روفائيل بطي) ودار بين ثلاثتنا حديثٌ مستفيض في كل شأنٍ من الشؤون، علمتُ على أثره أنَّ الشيخ سيستقلّ قطار الصباح إلى (قنا).

وكنت قد أشرت في الأعداد الماضية إلى ضرورة تآلف بعض العناصر الوطنية السليمة؛ على أن تتألف جبهتُها من: علي ماهر وأعوانه، والحزب الوطني ورجاله، ومكرم عبيد باشا وكتلته، وصالح باشا وشبابه، والأستاذ حسن البنَّا وإخوانه.

وجاءني بالبريد صدى هذه الدعوة. وكان أطرف ما فيها كاتبٌ يقول: إنَّ حسن البنَّا استطاع أن يشتري بماله الصحف وأنّا كنّا بعض البضاعة التي اشتراها مرشد الإخوان.

وقلت لفضيلة المرشد: إنَّ هذا الكاتب يزعم أنَّ حركتكم تعتمد على المأجورين من رجال القلم تشتريهم بالمال؛ فكم دفعتَ فينا؟ فتبسّم الشيخ ضاحكاً وقال:

«الحمد لله أنْ وُجد الآن قومٌ يزعمون أننا نشتري غيرنا بالمال، وكنا

دائماً نُتّهم بأننا نحن الذين نُشترى من جميع الجهات».

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي جرى فيها حديث المال وصفقات الإخوان، فقد أكدت جهاتٌ كثيرة أنَّ الأستاذ التابعي «قبض» حسبةً طيبة من المال لقاء مقالٍ نشره في (آخر ساعة) عن رهبان الليل وفرسان النهار.

وإذن فقد رسخ في ذهن الكافة أنَّ حركة الإخوان المسلمين أصبحت مدعَّمةً بخزينةٍ عامرة بالمال، وهذا الاعتقاد في ذاته هو أقوى أساسٍ من أُسس الدعاية التي تعتمد عليه حركةٌ من الحركات العامة. ولم يدّخر الإخوان وسعاً في أن يظهروا بمظهر الثراء، فالصحف تنشر عن مزارعهم النموذجية، التي تصل مساحتها إلى مئات الأفدنة، وشركاتهم للنقل والصناعة، ومؤسساتهم التعاونية أخذت تشتدّ وتقوى، وجريدتهم اليومية ومجلاتهم الأسبوعية ومطابعهم الجديدة. وهذه السيارات التي تزحم الطريق إلى دُورهم، بل هذه الدور نفسها التي اشتُرِيَتْ بآلاف الجنيهات، كل هذا يشهد بأنَّ الحركة قد رسخت وثبتت قواعدها على أُسسٍ من التنظيم المادي يصعب أن ينهار.

* * *

ولا ينكر أكثر الناس خصومةً لحركة الإخوان المسلمين أنها أصابت حظاً من النجاح لم تفز به هيئةٌ من الهيئات الدينية أو السياسية في مصر خلال السنوات العشرين الماضية، ففي مدائن مصر وريفها وفي أنحاء قريبة ـ وأخرى بعيدة ـ من العالم الإسلامي تجد زُمراً من الناس ينضوون تحت لواء الإخوان المسلمين، تسمع عنهم في الهند وفي الكويت وفي العراق وفي سورية وفي فلسطين وفي شرق الأردن.

وتسمع عنهم بِوادي الحجاز وفي السودان، وأينما ذهب الداعي باسم

الإخوان فإنه يجد قوماً يحسنون الإصغاء إليه ويحسنون الاقتناع، وهذا النجاح الذي صادف حركة الإخوان المسلمين إلى أيِّ العناصر يرجع؟ هل مردُّه إلى طبيعة الدعوة أم إلى صفات الداعي؟

أما دعوة الإخوان المسلمين فقد قامت على أسسٍ دينية وصادف النداء بها وقتاً كان الشعب المصري ومن حوله شعوب الإسلام يشكو مجاعةً روحية لا شك فيها، فقد هُدمتْ أصنام الزعامات القديمة التي كان تمجيدها يشغل خواء النفوس، وعادت الأفئدة فارغةً كما كانت أيام الحرب العالمية الأولى، وليس أسهل على نفوس شعوبنا الشرقية من أن تستجيب لنداء الله إذا خَفَت نداء الناس.

العودة إلى الله وإلى كتابه وتعاليم نبيّه: هذا كلامٌ يتسلَّل إلى القلوب بغير استئذان، ولكن هل هذا هو كل شيء، إننا نعلم أن أئمة المساجد يردِّدون مثل هذا الكلام من فوق منابرهم خمسين مرة ومرتين كلَّ عام، ومع هذا فقد زاد المضِلُّون ضلالاً، والزائفون زيفاً وفساداً.

وهنا يأتي الرد على السؤال الثاني: وهو أثر الداعي في الدعوة؛ فلا شك أن في الأستاذ البنَّا مزايا مكَّنَتْه من أن ينجح في دعوته أكثر مما نجح آلاف الخطباء والوعَّاظ على مرِّ السنين والقرون.

وليس عسيراً أن يكشف عن هذه المزايا، فوالده الشيخ الساعاتي رجلٌ من المتصوفين أهل الزهد، وقد تلقَّى عنه ابنه أسرار التصوف، وفي التصوف الإسلامي إذا لُقِّن على أصولِه رياضاتٌ نفسية عظيمة التأثير، هي التي مكَّنَتْ السنوسي والإدريسي ومحمد أحمد المهدي والمرغني في العصر الحديث من أن يقودوا ملايين من المسلمين. وتابع حسن البنَّا تعليمه حتى أتمَّ دراسته في

دار العلوم، ثم اشتغل بالتدريس، فجمع إلى كتب التصوف ودراسته فنوناً من الدراسات العصرية التي تلقِّنُها دار العلوم لأبنائها، ويظهر أنه انغمس من فورِه في دعوته، إذ إنَّ الوقت لم يتّسع لكي يكمل ثقافته بإتقان لغةٍ أجنبية.

وهنا تجلّت في الشيخ ميزتان عظيمتان:

الأولى - نشاطه الذي لا يفتر ولا يكلّ فقد جابَ مصرَ من شمالها إلى جنوبها، ولم يترك فيها شقاً إلا نفذ إليه مرةً ومرتين، وعاونه على كثرة الرحلة والتجوُّل بنيةٍ سليمة لم ينهكها إفراطٌ ولا تفريط.

الثانية - ذاكرته الحادة التي تعدّ أعجوبةً من أعاجيب العصر.

حدث في أثناء هذه الحروب أن وفدَ إلى مصر أستاذٌ إنكليزي أُلحِقَ بأقلام المخابرات، وهو المستر (جمال الدين هيورت دن) وكان يريد أن يلعب دور (لورنس) في هذه الحرب، وكان مِن أظهر مزاياه أنَّه لا يكاد يلمح شخصاً في طريق إلا يستطيع تذكُّرَه إذا رآه مرةً أخرى في أيِّ مكانٍ آخر مهما بَعُد الزمن بين المقابلتين.

وقد أخفق (جمال الدين هيورت دن) في مهمته لأنَّ شعوب الشرق كانت في الحرب الأخيرة أرشدَ منها في الحرب الأولى.

فلما عرفتُ الأستاذ البنَّا وعرفتُ فيه هذه الميزة العجيبة تضاءلتْ أمامي قدرة هذا المستشرق الإنكليزي.

ولا نبالغ إذا قلنا أنَّ حسن البنَّا يعرف أسماء ووجوه نصف مليون من أنصاره، ويستطيع أن يحدث كلَّ واحدٍ منهم عما قد يكون وقع له من أنبائه الخاصة، وبهذا ربطَ جميع الإخوان المسلمين به برباطٍ خاص.

هاتان الميزتان هما اللتان مكَّنَتا لشخصية المرشد العام في نفوس أتباعه، ونضيف إليهما قدرتَه الخطابية، ومهارته في اكتشاف صيغ قصيرة ـ قد لا تكون عميقة المعنى ـ تلخّص حركتَه مثل قوله: القرآن دستورُنا، ورهبان الليل وفرسان النهار.

ولم يصنع هتلر بالألمان أكثر من أنه كان كثير الرحلة إليهم، وأنه استطاعَ أن يلخص أهداف الألمان في كلماتٍ قصيرة ظلّ يكررها حتى أصبحت عقيدةَ كلِّ شخص.

* * *

والآن وبعد مضيّ نحو عشرين سنة على الكفاح المضني الذي كافحَه حسن البنّا وأعوانُه نجد هذه الحركة تقف في أول الطريق إلى القوة والنفوذ، فهي الحركة الشعبية التي تواجه الوفد وتناظِره، وتستطيع أن تصطدم به إذا لزم الحال؛ ولو أنَّ خطة الأستاذ البنّا ألا يصطدم بأحد.

وهي الحركة التي ينظر إليها الإنكليز بأعظم مظاهر الحذر. وكان المطران (جوين) شديد الحملة عليها، فلما علم الأستاذ البنّا بهذا النبأ أسرع يقابل المطران العجوز، ودار بينهما حديثٌ ممتع شائق عاد به المطران إلى الإمام محمد عبده ومحاوراته معه في العقائد الإسلامية، وخرج المرشد من بيت المطران بعد أن أكَّد له أنَّ الإخوان لا يرجمون الكنائس، ولا يبثُّون التعصب الديني، وقدَّم له الأدلة على حُسن نواياه وتمسُّكه بآداب الإسلام التي تدعو إلى التجمع لا التفرُّق، وإلى الأخوَّة لا التحزُّب.

ولا يخشى الأستاذ البنّا من هذه الحركة الجديدة التي تريد أن تنشئ هيئةً تسمى (الإخوان المصريين)، فهو يعلم أنه عندما أنشأ عبد الحميد سعيد،

والشيخ جاويش، والدكتور الدرديري جمعية الشبان المسلمين قام (ويصا واصف) يناوئهم، وظهرت حركةٌ من هذا النوع وضع السنهوري باشا لائحتها في ذلك الوقت.

وللآن تظهر هذه الحركة من جديد ويرعاها (قليني فهمي) وتريد أن تكرر نفس الدور، ولكن عاشت حركة الشبان المسلمين، وأخفقتْ هذه الدعوة المضادّة.

هذه لمحةٌ عامة عن الدعوة والداعي. الدعوة التي أصبحت في حياة مصر وفي حياة العرب وفي حياة المسلمين شيئاً مذكوراً، والداعي الذي قامت على عاتقه صروح هذا البناء.

ـ ٤ ـ

وهذه مجلة الخبر[١] التي يصدرها محمد السوادي تسارع إلى محادثة المرشد العام تحت عنوان: (رهبان الليل وفرسان النهار).

ـ من أنتم، جمعيةٌ دينية أم حزبٌ سياسي؟

نحن لسنا جمعيةً دينية بالمعنى الذي تعارف عليه الناس؛ وإنما نحن هيئةٌ إسلامية جامعة، تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام، ولا يتأتّى ذلك التحقيق إلا في ظلّ حريةٍ يتنافى معها هذا الاستعمار، وفي ظل عدالةٍ وحكم صالح.

لسنا حزباً نناوئ الأحزاب أو نتحصّن ضدّها، وإنما نحن دعوةٌ إصلاحية تقوم على تعاليم الإسلام الحنيف، وترجو أن تُفتح أمامها أبـواب الأحزاب

---

(١) مجلة الخبر، ٢٤ مارس ـ آذار ـ ١٩٤٦م.

والهيئات وقلوب الناس جميعاً.

إنَّ لنا قاعدةً ذهبية نؤمن بها ونحرص عليها وهي «نتعاونُ فيما اتفقْنا عليه ويعذرُ بعضُنا بعضاً فيما اختلفْنا فيه». فإذا أبتْ بعض الهيئات أو كل الهيئات إلا أن تهاجمنا فسيكون شعارُنا قول الله تبارك وتعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥].

نحن سنلتزم بأدب القرآن.

ـ القرآن دستورُكم، إذن أنتم لا توافقون الدستور المصري؟

اسمع يا أخي، إنَّ الناس يخلطون كثيراً في هذه النقطة، ولا يريدون أن يجتهدوا في تحديد المقصود منها.

ما يقصدُه الإخوان بقولهم «القرآن دستورنا» أنَّ الدستور المصري ينصّ في المادة (١٤٦) منه على أنَّ دين الدولة الإسلام، واللجنة التي وضعتْ الدستور المصري كان فيها من أفاضل العلماء ومنهم فضيلة الشيخ المطيعي، ولهذا اجتهدتْ في أن تصوغ المواد صياغةً لا تتعارض مع أحكام الإسلام الحنيف.

والمبادئ الدستورية التي قام عليها هذا النظام من حيث الشورى والحريات وسلطان الأمة هذه كلُّها لا تتعارض مع الإسلام، فمعنى قول الإخوان: «القرآن دستورنا» أنَّهم يريدون أن تسود روح القرآن الغالبة أولئك الذين ينفِّذون هذه التعاليم، وأن تحدَّد بعض النواحي المطلقة في الدستور

المصري بحيث يتّفق وتعاليم الإسلام الحقيقية، فعندك مثلاً مادة (حرية الاعتقاد مطلقة) يجب أن يحددها القانون بأنها لا تنطبق على المرتدين، فحكم الرِدَّة في الإسلام القتل.

والإخوان مع هذا لا يحجمون عن المناداة بأنَّ بعض مواد الدستور المصري من حيث فنّية التشريع وتطوُّر الشعور الوطني وتقلُّب الحوادث؛ تحتاج إلى تعديلٍ يماشي هذه التطورات، كالمواد التي تتصل بعضوية الوزراء في الشركات، وإباحة استخدام غير اللغة العربية بلا قيدٍ ولا شرط. وقد رسم الدستور نفسُه طريق التعديل، فلا تعتبر المطالبة من هذا الطريق خروجاً على الدستور.

وهناك نقطةٌ هامة أحبُّ أن أنبِّه إليها، وهي أنَّ الناس يخلطون بين الدستور والقانون فيظنُّون أنَّ العقوبات مثلاً ومنها الحدود من اختصاص الدستور، وفاتَهم أنها من اختصاص القانون، ونحن نطالب بأن يكون المصدر الأول للتقنين في مصر والبلاد العربية هو التشريع الإسلامي ولا شأن للدستور بهذه الناحية.

* * *

وقال الكاتب:

الإخوان المسلمون جوادٌ جديدٌ في حلبة السياسة المصرية، وللإخوان وسائل جبارة في كسب القلوب وتأييدها، والفضل المطلق في ذلك لزعيمهم الداهية الذكي.

ويصدق في هذا قول الصحفي الغربي الذي زار الإخوان ثم كتب يقول: قد يكون حسن البنَّا أعظم رجل في القرن العشرين إذا لم تكن الحوادث أكبر منه.

ـ ٥ ـ

وكتب مَنْ وقَّع بإمضاء (عليم) على حديث مجلة الخبر مع الأستاذ البنَّا:

تحت عنوان (كنت من الرعيل الأول) يقول:

الأستاذ الصالح الشيخ أحمد الساعاتي والد الشيخ حسن البنَّا كان ولا يزال رجلَ تصوفٍ من كبار السادة الشاذلية، وله شرحٌ لا بأس به على بعض أوراد الشاذلية المعروفة باسم (الوظيفة الزروقية) والذين يدرسون التصوف يعلمون أنَّ الطريقة الشاذلية بقدر ما تحافظ على أساس الشريعة والتربية الإسلامية تحمل سراً من أخطر أسرار الوطنية الإسلامية، لا يتنبَّه له إلا من درسوا تواريخ الانقلابات والثورات في بلاد المغرب الأقصى والأدنى، ومن يعلمون مدى نفوذ الصوفيين في هذه البلاد وطريقة تربيتهم للمريدين. ولقد استطعتم أن تفهموا أنَّ الإخوان المسلمين (كانوا) يعملون للتربية الروحية، ثم عرفتم أنهم اختاروا سبعةً من الخلصاء للإشراف على التربية الباطنية ـ أي الإعداد للجهاد ـ وإذن فقد عرفتم أسرار الطريقة الشاذلية التي تغلغلت في أصول جميع الحركات والثورات والانقلابات في المغربين؛ إلى أن انتهت بالمختار السنوسي وعبد الكريم ثم بالأدارسة، أولئك الذين يعتبرون من أكبر أئمة الشاذلية هناك.

إنَّ للشاذلية عقيدةً روحية هي الإعداد العميق والتربية النفسية، والصلة بالله، وحمْل المريد على التطهُّر والتسامي لإدراك ما له وما عليه من طريق العقيدة، ثم تركُه يدافع عن عقيدته دفاعَ المالك لا دفاع المقلِّد.

-٦-

ولقد كـان لهذا الطابع من المواجهـة دوافعـه وآثاره، فقد كانت هـذه المقابلات في نظر البعض بمثابة استطلاع صحفي وعالمي يقدِّم المادة اللازمة لمعرفة هذه الصيحة الجديدة التي حاولَ الوفد الإسراع إلى احتضانها، والتي بدأتْ تحمل لواء الحركة الوطنية وتقود العمل السياسي في مواجهة الاستعمار؛ بعد أن وضعتْ الحرب العالميـة أوزارَها وكان لا بد من مواجهـةٍ للاحتـلال البريطاني.

وقد برز شباب الإخوان في الجامعات بروزاً واضحاً وسيطروا سيطرةً كاملة، وأعلنوا مطالبَ مصر إعلاناً رسمياً؛ وعقدوا المؤتمرات وقاموا بحملة توعية في القرى والريف ونجحت هذه الحركة.

يقول الأستاذ البنَّا: جاءت الهدنة وانتظر الناس عمل الحكومة في سبيل الحقوق القومية والمطالب الوطنية، واستكمال استقلال الوادي ووحدته فلم تعمل شيئاً يُذكر.

وقابل المرشد رئيسَ الحكومة يُهيب به أن يعمل غير متردد، وأن يسرع بالعمل متى وجد الطريق أمامه ممهّدة، وإلا فعليه أن يدعو الأمة إلى الجهاد، وليتقدَّمها هو في هذا السبيل، وليثق بأنها جميعاً من ورائه.

وانتهت جهود الحكومة إلى المذكرة المصرية والرد البريطاني عليها، وكان طبيعياً أن تثور الخواطر وتهيِّج الأفكار، وجاء يوم (٩) فبراير (شباط) عقب عودة الطلاب من إجازة نصف السنة إلى معاهدهم، فاجتمع الكثير منهم في الجامعة ـ ومعظمهم من الإخوان ـ وأرادوا التوجه إلى قصر عابدين ليرفعوا احتجاجهم على هذا الموقف، وحدثت معركـة كوبري عبـاس بينهم وبين

البوليس وأعقبَتْها الحوادث التي انتهت باستقالة الوزارة.

وفي هذا الجو الذي تكشّف فيه موقف الإخوان الوطني أطلق الصحفي اليهودي (جون كيمش) تصريحَه الذي طيَّرَتْه وكالات الأنباء بأنَّ هناك جماعةً فاشستية مسلَّحة، وسرعان ما عقد الأستاذ البنَّا مؤتمراً صحفياً حضره كبار رجال الصحافة وفي مقدمتهم (أنطون الجميل) رئيس تحرير الأهرام و(فكري أباظة) رئيس تحرير المصوَّر، وتحدث معهم في حقيقة موقف الجماعة والدعوة وقال:

إنَّ الدعوة تحضّ على معرفة الله، والأديانُ جميعاً تدعو إلى هذه المعرفة، وتحض على السمو بالنفس لأنها من روح الله، وتحض على حبّ الناس، وتدعو إلى عمل الخير وإلى الإنسانية الشاملة، وإنَّ هذه المبادئ ليس هدفها السياسة، بل إنه يعلن أنَّ الدعوة لا يمكن أن تكون سياسيةً بالمعنى الذي اصطلح عليه السياسيون.

غير أنه لمّا كانت هذه الأغراض النبيلة التي يعملون لتحقيقها لا يمكن أن تترعرع إلا في ظل الحرية والعزة والكرامة؛ فإنهم يطلبون لمصر وللبلاد العربية والإسلامية الحرية والاستقلال، وإنهم يشتركون في هذا القدر وحده مع السياسيين.

بقي ما قيل من أنَّ فيها تعصُّباً دينياً فوضَّح الأستاذ البنَّا بأنَّ الإسلام ينهى عن هذا التعصب، وأنه دينٌ إنساني يدعو إلى المحبة والإخاء، واستدلّ بآياتٍ من القرآن فيها تمجيدٌ لموسى وعيسى، وفيها تنويهٌ بأنَّ الله اصطفى مريم عليها السلام وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين.

وأنَّ في القرآن دعوةً إلى المعاملة الحسنة بين المسلمين وأهل الكتاب،

وأنَّ طعام كلٍ منهم حِلٌّ للآخرين، وأن نساء أهل الكتاب يحلُّ للمؤمنين الزواج بهنَّ خلافاً للمشركات. وقال: إنَّ القرآن أتى في هذا بما لم تأتِ به التوراة والإنجيل.

وتناول ما قيل عن الإخوان من أنهم يدعون إلى الأخذ بالتشريع الإسلامي فقال: إنهم يُزعجون الآخرين بهذه الدعاية إذ يصوِّرون هذه الشريعة على أنَّها قطعُ يد السارق ورجم الزاني فقط؛ في حين أنَّ المقصود هو الانتفاع بما فيها من كنوزٍ غالية من الأحكام والتطبيقات التي أورثنا إياها فطاحلُ رجال الفقه الإسلامي.

وعرض لرأي الإخوان في الأجانب فقال: إنه لا ينكر أنَّ مصر استفادت من الغرب في العلوم والنُظم، ولكن لا يمكن الصبر على أن تظلَّ أوروبة تستنزف خيرات هذا البلد؛ وأبناؤه الملايين في أشدّ الحاجة إليه، وأنَّ كل ما يريده هو أن يكون لنا من هذه الخيرات نصيبنا الكامل.

وعرض لما قاله مراسل (رويتر) من أنَّ هيئة الإخوان ثوريةٌ مسلّحة، فسخِر من هذا الادّعاء قائلاً: إنَّ ملايين الجنود ألقتْ أسلحتَها، فهل يُعقل أن تكون للأسلحة فائدة بعد هذا؟ وأكّد أنَّ الإخوان أهلُ حجةٍ وإقناع وأنَّ السلاح إذا تدَّخل أفسدَ سبيل الإقناع.

وقال: إنه يتحدث باسم نصف مليون من الإخوان تنبض قلوبُهم بما تنبض به قلوب سبعين مليوناً من العرب وثلاثمئة مليوناً من المسلمين[١].

وقال: إنَّ هذه الشبهات إن دلَّتْ على شيءٍ فإنما تدلُّ على تجاهل حقيقة

---

(١) هذا التعداد كان عام ١٩٤٥م.

مبادىء هذه الجماعة وأهدافها، وإننا قد أعلنّا مراراً أن الإخوان هيئةٌ إسلامية جامعة، تعمل في وضح النهار على تحقيق المبادىء الاسلامية السامية التي ترتكز على الشورى الحقّة، وتكفل سعادة المجتمع، وتحفظ حقوق الوطن، وهي لاتعمل في الظلام، وذلك سِرُّ ما وصلتْ إليه من قوةٍ وانتشار، أما ما يقال من أنَّ الإخوان يحرزون أسلحةً وجدوها في الصحراء فهي فِريةٌ مضحكة لا تجد لها محلاًّ إلا في خيال صاحبها وحده[1].

وقد كان لهذا العمل أثره الواضح فإن(جون كيمش) لم يلبث إلا قليلاً حتى زار الأستاذ البنَّا وتحدث إليه، فأبدى أسفه على البرقية التي كان قد نشرها واتّهَم الإخوانَ فيها بأنهم هيئةٌ فاشستية جمعتْ كثيراً من الأسلحة بواسطة البدو في أثناء معارك الصحراء عام ١٩٤١م.

● ● ●

(١) الأهرام: ٣/ ١٠/ ١٩٤٥م.

الفَصل السَابع

وَلمَّا رَأى المؤمنُونَ الأَحزَابَ

- ١ -

منذ أن عُرفتْ الدعوة على هذه الصورة انزعجت كلُّ القوى : الأحزاب ، والحكومات ، والاستعمار . وتضافرت جميعها على إعلان الحرب على قوةٍ شابة مسيطرة ظهرت بكفاءةٍ واقتدار ، وكانت المحاولة تتمثّل في الاحتواء والسيطرة من جانب الوفد ، ثم بدت في صورة استغلال الإخوان للقضاء على الوفد من جانب أحزاب الأقلية (السعديين وغيرهم) . أما من جانب الاحتلال البريطاني فقد كان الموقف هو المعارضة المطلقة ، وكان للنفوذ الصهيوني في بريطانية أثرُه الواضح الذي ازداد قوةً من بعد عندما برز وجود الإخوان وحضورُهم في معركة فلسطين .

ولقد كان الإنكليز في الأغلب هم أول من تنبَّه إلى هذه القوة الجديدة ، وأول من حاول احتواءها ؛ فقد جرت المحاولات في أغسطس(آب) ١٩٤٠م عن طريق الجنرال (كلايتون) والمستشرق (هيورث) لإغراء الإخوان بقبول مبلغ (٢٠) ألف جنيه في سبيل أن يثبت الإخوان في نفوس الشعب أنَّ فكرة المحور (ألمانية وإيطالية) شرٌ على البلاد ، ومن الخير أن يختار الناس الإنكليز لأنهم يؤمنون بالديمقراطية ، والديمقراطية تتفق مع مبادئ الإسلام ؛ وذلك في

مواجهة المشاعر التي كانت تسيطر على الناس بانتصار ألمانية على الإنكليز وهزيمتهم في معركة الصحراء الغربية (العلمين فيما بعد).

وتشير كل الدلائل على أنه على إثرِ رفضِ الأستاذ البنَّا لهذا العرض بدأتْ عملية الاضطهادات والسجن[1]، والنقل إلى (قنا)، وإلغاء رخصة المجلة، وذلك إبّان وزارة (حسين سرِّي) إلى أن سقطت، وجاءت بعدها وزارة الوفد في (٤ فبراير ـ شباط ـ ١٩٤٢م).

وقد جرت الاتصالات مع الوفد(هذه الاتصالات التي أشرف عليها بعض الإخوان ممن حملوا فيما بعد لواء الانحياز إلى الوفد نهائياً ومعارضة موقف الإخوان في مواجهة الأحزاب التي تلي الحكم) وكان الأستاذ السكري هو المكلَّف بإجراء هذه المحادثات عن طريق بعض معارفه من آل المغازي والوكيل، وقد انتهت برفع الحظر والسماح للأستاذ البنَّا بحرية الحركة، وقد امتدّت هذه المرحلة حتى سقطت وزارة الوفد عام ١٩٤٤م وتولَّى السعديون الحكم: (أحمد ماهر، ثم محمود فهمي النقراشي) وفي هذه المرحلة استطاع الإنكليز إجبار السعديين على محاربة الإخوان، فقد كانت العلاقة بينهم ـ كإحدى حكومات الأقليَّة ـ وبين الإنكليز علاقة ولاءٍ كامل، والأمر هنا يختلف عن الموقف إبان حكومة الوفد.

وفي هذه المرحلة كان على الأستاذ البنَّا أن يواجه الأمور بذكاءٍ وحذر؛ خوفاً من إلحاق الضرر بأتباعه المنبثّين في كل مكان والانتقام منهم وتعريضهم للخطر دون مبرر.

---

(١) أُودع الأستاذ البنا معتقل الزيتون في (١٦) أكتوبر ـ تشرين أول ـ ١٩٤١م، وأُفرج عنه في ١٣ نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٤١م.

كذلك كان الإخوان في الوقت نفسه قد قدروا أن يدخلوا معترك العمل الوطني بعد إعلان الهدنة مباشرةً، وقيادة الحركة الوطنية في سبيل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني.

ويكشف الصاغ (محمود لبيب) قائد كتائب الإخوان في حرب فلسطين عن هذا الدور الذي قام به الإنكليز في إجبار السعديين على محاربة الإخوان فيقول:

إنَّ قصة العلاقة بين السعديين والإخوان ترجع إلى الأيام الأولى التي أعقبت تولِّي الحزب السعدي الحكم في أعقاب حكومة الوفد عام ١٩٤٤م، فقد حلَّت الحكومةُ الماهرية البرلمانَ القائم وقتئذٍ وشرعت في إجراء انتخاباتٍ جديدة، وأراد الأستاذ البنَّا أن يتقدَّم للترشيح في دائرة الإسماعيلية مستعملاً حقَّه الدستوري كمصري، وعلمتُ أنا أنَّ خطاباً أُرسِل من السفارة الإنكليزية إلى أحمد ماهر رئيس الوزارة يُطلَب فيه أن يعمل على منع المرشد من التقدم للانتخابات، وأسرعتُ بإبلاغ ما علمت إلى المرشد فضحك واستبعدَ هذه الفكرة، وفي اليوم التالي طلب ماهر من المرشد أن يقابلَه فوافاه، وهناك طلب منه أن يسحب ترشيحَه، وحاول بمختلف الوسائل أن يقنعه ولكن المرشد أصرَّ على الرفض.

ومما قاله له أحمد ماهر:

ـ لماذا تتشدَّد معي وقد قبلتَ مثل هذا من حكومة النحاس وتنازلتَ عن ترشيحك؟

فأجابه الأستاذ البنَّا: إنَّ حكومة النحاس كانت تواجه حالةً سياسية مضطربة في الداخل والخارج، ولم يكن هناك بدٌّ من الإجابة لداعي الوطنية،

إذ كانت هناك دعوةٌ إلى توحيد الجهود لا إلى توزيعها لوجود الأعداء داخل الأراضي المصرية .

ولم يتمكن أحدٌ منهما أن يقنع الآخر بوجهة نظره، وانصرف المرشد عقب مشادّةٍ عنيفة .

وهكذا كانت رغبات الإنكليز مقدَّسةً لدى حكومة السعديين، وكانت حجر الأساس الذي مكَّن الحقد في قلوب السعديين ضد الإخوان وجماعتهم، وكان رفضُ المرشد الإذعانَ لما طلبَه رئيس السعديين سبباً في بدء حملة الاضطهاد والتضييق التي انصبَّتْ على الإخوان على حساب الحريات العامة والاعتداء على الدستور .

كذلك كان التزييف في الانتخابات ؛ وقد قدَّم المرشد طعناً في الانتخابات عن دائرته، فلم يُنظَر إليه طيلة السنوات الخمس التي قضاها مجلس نواب السعديين .

وفي أثناء حكم وزارة أحمد ماهر قامت مظاهراتٌ وطنية في الجامعة وكان قوام هذه المظاهرات طلبةُ الوفد والإخوان، وكان من أسباب قيامهم بالمظاهرات التعبير عن احتجاجهم على خطاب السفارة بمنع ترشيح المرشد . حدث بعد هذا أن قُتِل ماهر باشا، وكان أول من قُبض عليه بتهمة قتله فضيلة المرشد، ثم أُفرج عنه بعد أن اتّضحت براءتُه .

وورث تركة الحكم (النقراشي) وورث معها الحقد على الإخوان، ولكنه في الوقت نفسه شعر وتأكَّد أنَّ الإخوان قوةٌ فعالة لها كيانها المستقل، فأراد أن يحوِّل نشاطَهم النافع إلى دائرة الصراع الحزبي البغيض، وأن يُشركَهم في عداء الوفد ولكنه لم يفلح .

وأثَّر هذا الإخفاق في نفس النقراشي باشا فانقلب يهدِّد ويتوعَّد، وطلب من الأستاذ أن يكلِّف طلبة الإخوان بالكفِّ عن التدخل في السياسة فردَّ عليه الأستاذ قائلاً:

إنه لايوجد بين طلبة الجامعة في داخلها من ينتمون إلى أحزابٍ لأنهم تابعون لاتحاد الجامعة لا للأحزاب وأنه لاسبيل له على الطلبة داخل الجامعة. وكان الطلبة فعلاً في ذلك الوقت يخضعون للاتحاد الذي كان يسير بهم في اتجاهٍ قومي بحت ولكن النقراشي لم يقتنع. وقال للأستاذ المرشد بالنص:

سأعطي للإخوان درساً يرنّ في أُذن كل طالبٍ في المستقبل.

وبعد ذلك قدَّمت حكومة النقراشي مذكرتَها الضعيفة بشأن المفاوضات فقام طلبة الوفد والإخوان في الجامعة بمظاهرةٍ قوية ضد هذا التخاذل، فأعدت لهم حكومة النقراشي كمين (كوبري عباس) وكانت موقعة الكوبري التاريخية المشؤومة، التي سالت فيها دماء الطلبة الوطنيين الأبرياء، واستشهد منهم من استشهد، وجُرح من جرح. وهكذا لطّخ السعديون حكمَهم المشؤوم بصفحةٍ سوداء لا تُنسى.

ولما علم أحمد حسنين باشا (القصر) بما وقع طلب المرشد وأبدى أسفه البالغ لما حدث، وتباحث معه طويلاً؛ ثم نصح له أخيراً بلباقةٍ أن يتدخل لإبعاد طلبة الإخوان عن الاشتغال بالسياسة والمظاهرات، فردّ عليه الأستاذ في صراحةٍ ووضوح:

إنَّ هذا الطلب لا يمكن إجابته إلا بترضيةٍ تستريح إليها النفوس؛ فقال حسنين باشا: وما هي الترضية؟ فقال المرشد: الترضية تكون بإقالة أو استقالة حكومـة النقراشي، وليـس هناك حلٌّ وسط. وقال: إنَّ الطلبة في هذه المرة

تحرّكوا وحدَهم، ولكنهم في المرة القادمة سيتحركون ومعهم الشعب بأجمعه في البلاد كلها وعليكم أن تتداركوا الأمر.

ولم تمضِ أيامٌ قليلة على هذا الحديث حتى استقالت الوزارة النقراشية الأولى وجاءت حكومة صدقي باشا، ودارت الأيام وجاء النقراشي إلى الحكم مرةً أخرى، وأخذ من جديد يستعمل أسلوبه القديم للاستفادة من الإخوان ونشاطهم في مضايقة الوَفد فلم يفلح، ولما يئس من استمالة الإخوان إليه بدأت قصة الصراع بين السعديين والإخوان تأخذ شكلاً علنياً، وشرعت حكومة النقراشي تضيِّق على الإخوان، وتحدّ من نشاطهم، وتشرِّد الموظفين من أعضاء الجماعة إلى الجهات النائية.

وجاءت حرب فلسطين وكانت سبباً في ثورةٍ عنيفة قادها النقراشي ضد الإخوان بسبب الأوامر التي كانت تصدر إليه من الإنكليز الذين كانوا يسيطرون على حكومات السعديين. وانتهى الصراع بتلك الجرائم الدامية التي وقعت على الإخوان ولم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل[1].

-٢-

عندما تقدم الوفد عام ١٩٤٢م بالمودّة إلى الإخوان وزارَهم وفده الكبير وخطب خطيبهم فؤاد سراج الدين: «أرجو أن تجعلني جندياً في جيشك الجرّار» كان ذلك قمةَ الاعتراف بقوة الدعوة والرغبة في كسب ودّها، أو تَحامي نفوذها على الوفد الذي كانت تتدهور قواه بوصفه صاحب الأغلبية من جرّاء المنافسة التي واجهَته بسبب توسّع نفوذ الدعوة.

---

(١) جريدة المصري: ٤/ ١١/ ١٩٥٠م.

وفي هذه المرحلة التي دخلت فيها الدعوة إلى ساحة السياسة كان الموقف يتطلب رسلاً مفوَّضين وسفراء بين الدعوة وبين الوفد. وقد قام هؤلاء السفراء بدورٍ لا ينكَر في دعم وجود الجماعة وحرية حركتها، حتى استطاعت أن تحقق توسعاً في كل الأنحاء مع الأمن من الخصومة الحزبية؛ غير أنَّ هؤلاء الوكلاء ما لبثوا أن سلَّموا أنفسهم إلى القوة الأخرى، وأخذوا يفكرون بوجهة نظرها، ومن هنا وقع الخلاف بينهم وبين المرشد الذي كان حريصاً على أن يتصل بهم معبِّراً عن وجهته الخالصة ودون أن يميل إلى جهةٍ ما، أو يكون عصاً في يد أية قوة.

كان هؤلاء السفراء يرون ضرورة التصاق الدعوة بالوفد في هذه المرحلة، وكان المرشد - يرى وهو الأعلم بأبعاد الموقف كله - أن يتحرك الإخوان مع كل القوى التي تتولى الحكم؛ حتى لا تضارّ الدعوة ولا يُضطهَد الأفراد أو يتعرضون للمخاطر، وحتى لا يقفوا موقف الخصومة لأحدٍ ما، أو يؤخذ عليهم أنهم كانوا تابعين لقوًى لا تريد خيرهم بقدر ما تريد الانتفاع بهم، وهذا ما دعا الأستاذ البنَّا أن يطلب إلى الوفد توقيع إقرارٍ بأن يلتمس إذا عاد للحكم أسلوب الإسلام، وقد رفض الوفد هذا الطلب؛ ولهذا لم يكن بدٌّ من أن تسير الدعوة في طريقها، ومن هنا أيضاً وقع الخلاف بين الدعوة وبين بعض هؤلاء السفراء، الذين عمل الوفد على تأييدهم في الحملة والمخاصمة رغبةً في إحداث البلبلة.

أما هؤلاء السفراء فقد أزعجهم أنه حين ترك الوفد الحكم وجاءت حكومةٌ أخرى؛ أن تقدَّم غيرهم من الإخوان البارزين الذين يعرفون أصحاب السلطان لتبادل وجهات النظر معهم، ومن هنا فقد برز رسلٌ جدد ومفوضون

آخـرون، وأصبح لهم تحـركٌ واضح من أجل إيجاد ذلك الجسـر الدائم بين الدعوة والحكم. وكان لا بد من ذلك التفاهم حمايةً للدعوة ولهذه الألوف المؤلَّفة من الشباب في الجامعات وغيرها من أن ينالهم عسفٌ أو اضطهاد.

وهنا كان على القوة الأولى التي كانت تتصل بالوفد إبان الحكم أن تأخذ خطوةً إلى الـوراء قليلاً، وهذا ما أثـار نفوسَهم ولم يفهموا حقيقة الوضع، بأنهم أمناء على الدعوة أولاً، ووكلاء لها، وليسوا من رجال الوفد أو أتباعه بتاتاً، وأنَّ عليهم أن يتركوا لقائد الدعوة أن يوازن الكفة ويحمي الدعوة.

ولكن نصراء الوفد أزعجهم هذا الاتصال بالحكومة والحزب السعدي الحاكم، وبدأ الوفد ينزعج لهذا الاتجاه، فقد كان حريصاً على أن يستفيد من قوة الإخوان في سبيل إسقاط الحزب والحكومة وعودته إلى الحكم، ومن هنا أثار السكري وإبراهيم حسن وغيرهما الصعاب والأزمات حتى يفرضوا على الدعوة وجهةَ نظرهم أو يفسدوا وحدة الجماعة.

وهذا ما أشار إليه الدكتور إبراهيم حسن في مذكرته المعروفة التي تقدَّم بها إلى الجمعية التأسيسية للجماعة حين قال: إنه جرت مساومات بين الوفد والإخوان على أن ينضم الإخوان للوفد في معارضة الحكومة.

وقد كشف الأستاذ البنَّا عن هذه الخبيئة في الرد على هذه المذكرة حين قال:

«الأمر في حقيقتـه مما يفاخر به الإخـوان، ويدلّ دلالةً واضحـة على يقظتهم وأنهم لن يكونوا مطيةً لحزبٍ أو هيئة مهما كانت، وبيان ذلك أنه لما عاد من الحج (أي المرشد) وجد أمامه موضوع لجنة الاتصال التي أوعز بها الوفد واجتمعت في مكتب فؤاد سراج الدين، وكان غرض الوفد منها حينذاك أن يجمع

من حوله هيئات المعارضة لينال معاضدتَها وتأييدها حتى تسقط حكومة صدقي، ويصل هو إلى الحكم، فيعود إلى المفاوضة من جديد لتظفر الأمة المنكوبة بمعاهدة المجد والفخار بدلاً من معاهدة الشرف والاستقلال»[1].

وفي هذه الأثناء كان الإخوان وحدهم هم الذين يحملون عبء المقاومة الفعلية لحكومة صدقي حتى كان منهم في السجون والمعتقلات أكثر من ألف في القاهرة والأقاليم، وشُرِّد الموظفون منهم، وطُرد الطلاب من مدارسهم، وحوصرت دورُهم في كل مكان. ولم يفتّ ذلك في عضدهم، ولم يفلّ من عزيمتهم، وكانوا على أتم الأهبة للسير في الشوط إلى النهاية.

وكان الوفد ـ الذي يدعو الهيئات المعارضة إلى الاتحاد معه ويدعو إلى الجهاد والثورة ضد حكومة صدقي ـ يوعز إلى لجانه في الأقاليم ـ حتى في هذه الساعات الحرجة ـ بمناوأة الإخوان والكيد لهم في كل مكان.

فلما جاء المرشد وأحاط بالموقف من كل جوانبه، وتحدث إليه الدكتور إبراهيم حسن بنتائج اجتماعات لجنة الاتصال؛ كان من قول المرشد له: «إنَّ الوفد إنما يريد بذلك أن يجمع المعارضين من حوله، ونحن لا مانع عندنا من الاتفاق معه مادام موقف المعارضة قد جمعَنا؛ ولكننا لا نريد أن نُخدع، ولا أن نكون سلَّماً يرقى الوفد على أكتافنا، ثم يفاوض الإنكليز من جديد، ويخدع الأمة بدعاياته الواسعة عن حقها الواضح المستبين، فإذا كان الوفد جادّاً في معارضته مخلصاً فيها؛ فليكن بيننا وبينه ميثاقٌ واضح مستبين مكتوب، نوقّع عليه ويوقعون عليه يتكون من مادتين:

---

(١) إشارةً إلى معاهدة ١٩٣٦م المشؤومة التي عقدها الوفد قبلاً.

المادة الأولى: أن لا يعود الوفد إلى مفاوضة الإنكليز إلا بعد أن يسلِّموا بحق مصر في الجلاء الناجز عن الوادي كله وبوحدته الحقيقية.

المادة الثانية: أن يستلهم روح الإسلام الحنيف في كل الأوضاع الاجتماعية إذا عاد الوفد للحكم.

ثم يُنشأ بعد ذلك صندوقٌ يسمى صندوق الجهاد، يضع فيه الوفد خمسين ألف جنيه (أو عشرين ألفاً) وتضع فيه كل الهيئات التي تقبل هذه الوحدة مبلغاً بنسبة ما لديها ومنها الإخوان المسلمون، وليكن أمين الصندوق من الوفد نفسه؛ لأننا سنحتاج إلى هذا المال ولا شك في مقاومةٍ عنيفة قد تتطور إلى ثورة لا يعلم عاقبتها إلا الله».

تلك حقيقة الأمر وقد بسطها المرشد أمام الهيئة التأسيسية وأمام الدكتور إبراهيم حسن الذي وافق على هذا الإيضاح، واعتذر أمام الهيئة عما جاء في المذكرة التي نشرها بأنَّ العبارة لم تكن دقيقة.

وكان الإقرار أمام مئةٍ وعشرين كلُّهم شهودٌ عُدول.

* * *

هذا هو وجه الخلاف الحقيقي بين الوفد والإخوان الذي كان سبباً في تلك الحملة الظالمة التي وجَّهها إلى الدعوة، انطلاقاً من مفهومٍ خاطئ هو أنه لا يجوز للدعوة أن تتخذ موقفاً حراً حسبما تمليه ظروفها، ظنّاً منهم أنَّ حُسن اتصال الجماعة بالوزارات المتوالية إنما هو تسليمٌ لها، بينما كانت كل كتابات الدعوة إلى هذه الوزارات واضحةً صريحة، تكشف عن معارضتها الواضحة وذاتيَّتها الصادقة.

ويبدو أنَّه كـان بين الوفد وبعض هـؤلاء السـفراء اتفاقٌ يهدف إلى أن يكونوا قادة الدعوة إذا ما نُحِّيَ مرشدُها، حتى تصبح هذه الحركة تابعة له، وبذلك تفقد قدرتَها الذاتية، ولا يُخشى جانبها؛ ذلك أنَّ الوفد كان يهدف إلى ألا تقوم بجانبه هيئةٌ قوية.

وقد توالت حملة الوفد على الدعوة وعلى الأستاذ البنَّا بالذات، بينما تكشف خطابات المرشد المتوالية إلى الحكومات وضوحَ الموقف وصراحته، وقد توالت هذه الخطابات بالنذير والتذكير، وهذا بيانُه إلى شعب وادي النيل في (١٠) أكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٦م:

«كنا ننتظر بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وبذلت مصر فيها مابذلت دفاعاً عن الديمقراطيات، وأنفقت من الجهود والأموال والأقوات، وشاركت فيها قانوناً بالإعلان وعملاً بحماية ظهر الحلفاء ومواصلاتهم وإيواء جنـودهم وقياداتهم، واشـتراك الجيـش المصري في الدفـاع عن معاقلهـم ومعسكراتهم وعتادهم وتسخير قواها جميعاً في سبيلهم، وكان لها من المواقف ماتغير به مجراها، ورجحت به إلى جانبهم كفة النصر فيها، واعترف بذلك ساسـتهم وزعماؤهم ـ كنا ننتظر أن تنتهز الحكومة المصرية الفرصة السـانحة بمجرد إعلان الهدنة وقيام هيئة الأمم المتحدة؛ فتتصرف كما تتصرف الدول المستقلة التي تحترم نفسها وتعرف حقها.

ومع توالي اللطمات، ووضع سوء المقاصد والنيات، والعبث بكرامة المفاوضين المصريين ووقتهم وحقوق أمتهم، لا يزال صدقي باشا يأمل في أنه سـيصل معهم إلى اتفاقٍ، ويعتزم السـفر إلى لندن لاسـتئناف المفاوضات، ولا ندري ماذا يرجو صدقي باشا من وراء هذه المفاوضة وقواعدهاالأساسية مرفوضـةٌ من أصلها. فالمحالفة العسـكرية قاسيةٌ لا تسـلِّم بها الأمة بحال،

وليست مصر مستعدة للتضحية بأي شيءٍ في سبيل غيرها؛ إلا أن يكون ذلك دفاعاً عنها وذوداً عن حريتها وكرامتها.

إنَّ معاهدة ١٩٣٦م ملغاةٌ بحكم الحوادث والظروف، ولن تقيِّد بنودها ونصوصها والتزاماتها هذا الشعب بشيء، فقد حلَّ محلَّها ميثاق الأمم المتحدة وأصبحت غير ذات موضوع، وإن حكومة صدقي باشا بإصرارها على المفاوضة لا تمثّل إرادة الأمة، وكل معاهدة أو محالفة مع بريطانية تعقدها قبل جلاء قواتها باطلة، لا تربط الأمة بها في كثير ولا قليل، وإن بقاء القوات الأجنبية عدوانٌ مسلح على سيادة الوطن وحريته».

ثم دعاإلى إعلان عدم التعاون مع الإنكليز اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، حتى يتم الجلاء الناجز السريع من غير قيد ولاشرط.

ثم هو لا يلبث أن يواجه حكومة النقراشي الثانية بالمعارضة بعد أن جمّدت الموقف؛ يقول في خطابه إلى النقراشي ١٨ يناير(كانون الثاني) ١٩٤٨م: «نحن معارضون لحكومتكم أشدّ المعارضة في موقفها السلبي الراكد من القضية الوطنية، وفي إهمالها لوسائل الإصلاح الداخلي».

ويقول فيما بعد: «فأما أنَّ الإخوان المسلمين معارضون للحكومة فهذا حقٌ لا شك فيه، وأقول وبكل وضوح: إنهم لم يكونوا يوماً من الأيام مع أيّة حكومة من الحكومات في غير هذاالموضع، لأن دعوتهم الجامعة ومبادئهم الإسلامية لاتسلم أبداً بهذه الأوضاع الحزبية المفرّقة، ولاتستسيغ هذا التناقص في نظام الحكم في بلدٍ يقرّر دستورُه أنَّ دينَه الإسلام، ثم تجري فيه كل الأمور على نقيض ذلك».

ولكن هذه المعارضة تكون قويةً واضحة أو هادئة لينة بحسب ما يترتب

عليها من خيرٍ للإسلام والوطن، فإذا ظهر في إحدى الحكومات استعدادٌ لتقبّل النصح وعزمٌ على الاتجاه إلى الخير كانت معارضة الإخوان إياها هادئةً لينة، أما إذا كانت الظروف والملابسات والأعمال ستؤدي إلى نكسةٍ وطنية، يضيع معها حق الوطن وتُكبّل نهضته بالقيود والأغلال؛ فإنَّ الإخوان لا يسعهم في دينهم أن يسكتوا عن ذلك ساعةً من نهار أخذاً بأمر القرآن ﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨].

تلك قاعدة الإخوان المسلمين العامة التي طبّقوها مع كل الحكومات على السواء، لم يلينوا يوماً من الأيام لرغبة، ولم يعنوا الرهبة، ولم يمالئوا أحداً على حقوق الوطن، ولن تستطيع حكومةٌ من الحكومات ـ كائنةً ما كانت ـ أن ترى لها عليهم يداً يغضبون لها حين تغضب، وذلك بعينه هو مسلكهم من حكومتهم أولاً وآخراً.

وهكذا نرى سلامة الموقف حتى في الساعات العصيبة، ومع حاكم ورئيس حزب له موقفه الحاقد على الدعوة وقائدها، وهذا يعطي أولئك الذين يظنّون ظنّ السوء الدليل على كذبهم، ويؤكد أنَّ الرجل ظلّ صادقاً في موقفه غير ممالئ أحداً حتى آخر لحظة.

ولقد كان موقف الأستاذ البنّا منذ اللحظة الأولى التي خطب الحكام وحزب الأغبية ودّهم، هو نفس موقفه، وذلك قوله: «إنَّ هذه الطغمة من الزعماء لا يتصورون الجهاد ولا يستطيعون ممارسته، ونحن الجسم الحيّ في هذه الأمة التي خدّرها الزعماء.

نحن النجم القطبي ثابتٌ ومنير يهدي إلى سواء السبيل، نحن الخلاصة المستنيرة، والقوة الإيجابية الفعالة التي تؤثّر في مجرى الأمور. لقد كانت

الفكرة واضحةً وصريحة منذ اليوم الأول للهدنة : الجهاد ، وحمل لواء الإخوان ، وتساقطت الوزارات واحدةً بعد أخرى عجزاً عن تحقيق الأهداف الوطنية .

يقول الأستاذ البنّا :

«لقد نجحت الحركة، واستقالت الوزارة، وسُحب السفير، ولو أنَّ الزعماء في ذلك الوقت أعلنوا أنهم لا يريدون مفاوضة الإنكليز ، وأنهم عدلوا عن فكرة المفاوضة إلى فكرة الجهاد ، ولو أنهم واجهوا الأمة في صراحةٍ بهذه الخطة ، لرأيتَ الإخوان أول من يتقدم الصفوف» .

وكانت قرارات مؤتمرات طلاب الإخوان في الجامعات والمدارس صريحةً واضحة :

- جلاء جميع القوات الأجنبية عن أرض النيل فوراً .

- حلّ مسألة السودان حلاً سريعاً على أساس أنَّ مصر والسودان وطنٌ واحد للسودانيين ما للمصريين من حقوق .

- قناة السويس أرضٌ مصرية حُفرت بدماء مصر وجهود أبنائها فيجب أن تقوم وحدها بحمايتها .

- رفع جميع القيود الاقتصادية والتجارية والمالية والنقدية التي قبلتها مصر مساهمةً منها في المجهود الحربي ، واستيفاء ديون الأرصدة الإسترلينية والديون الأخرى التي لمصر على إنكلترة .

- حل قضية فلسطين حلاً يحقق وجهة النظر العربية .

ولقد كان ذلك كلُّه يمثل علامة الخطر أمام الوفد وأمام الاستعمار ، ولذلك فقد أُعدّت خطةٌ لتدمير ذلك كله والقضاء عليه .

-٣-

كشف الإخوان عن موقفهم الصريح: إنهم لن يُقحموا أنفسهم على الزعماء، وإنهم لن يعلنوا الحرب على من أعلنها عليهم، ولكنهم سيعملون كقوةٍ شعبية خالصة.

وفي خطابٍ وجهه المرشد إلى: شريف صبري، مصطفى النحاس، علي ماهر، عبد الفتاح يحيى، حسين سري، محمود فهمي النقراشي، محمد حسين هيكل، إبراهيم عبد الهادي، مكرم عبيد، أحمد لطفي السيد، علي الشمسي، حافظ عفيفي، محمد حافظ رمضان؛ بوصفهم رؤساء الأحزاب والكتل والقوى السياسية يقول[1]:

«إننا نحن معشر الإخوان المسلمين لن نقحم أنفسنا في مجموعكم، ولن نزاحمكم ميدانكم، ولن ننازعكم رئاستكم. وقد أبيتم علينا سواء أكنتم في الحكم أم خارجه أن نظهر بأية صورةٍ على المسرح السياسي، أو ننفذ من أيّ طريقٍ مهما كان صحيحاً سليماً قانونياً إلى ميدانه الرسمي؛ فرضينا صابرين، وعملنا كوطنيين مجاهدين، وسنقف في صف هذا الشعب ـ ونحن أعرف بمكاننا منه ـ نوجهه ونسدده، ونقوده ونرشده، ونرقب معه ما أنتم فاعلون، فإن اجتمعتم وأحسنتم وجاهدتم أيدناكم وناصرناكم وكنا لكم الفداء، وإن أبيتم إلا الفرقة والخلاف واتّباع الأهواء، وآثرتم القعود وممالأة الغاصبين والأعداء؛ فسنمضي ـ وهذا الشعب معنا بإيمانه ويقينه ووطنيته ودينه وتنظيمه وتكوينه ـ إلى الغاية مجاهدين، وفي سبيل الله مستشهدين، وندعكم مع

---

(١) الصحف: ١٩/ ١٠/ ١٩٤٦م.

القاعدين من المخلَّفين، فإما إلى النصر، وإما إلى القبر، وكلاهما بركةٌ وخير:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢].

وفي الوقت نفسه كان موقف الدعوة من الوفد الحلم والأناة، يقول الأستاذ البنَّا:

«فوجئ الإخوان وفوجئ معهم الناس بهذه الحملة العنيفة من الوفد على الإخوان، في وقتٍ كنا أحوج ما نكون فيه إلى الانصراف إلى النافع المفيد من الأعمال، والنظر في الحاضر والمستقبل بعين الحذر واليقظة والاهتمام، وقابل الإخوان كلَّ ما دُبِّر لهم في هذه الحملة من صنوف الكيد القولي والعملي، وكل ما نُشر عنهم من أكاذيب وأباطيل؛ بالخصلتين اللتين يحبهما الله ورسوله: (الحلم والأناة) واعتبروا هذه الصحف المأجورة ـ ولا هَمَّ لها إلا أن تلِغَ في أعراض الأبرياء في غير تورّع ولا حياء ـ سهماً يعود إلى راميه، ولا يحتاج إلى ردٍّ أو تعليق.

وجاوزتْ الحملة الافتراء إلى الاعتداء، وخرجت عن اللسان إلى الأيدي؛ ومع ذلك فالإخوان هم الإخوان، شعارُهم قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وهم أحرص على أن يكونوا خير ابنَي آدم ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨ ـ ٢٩].

ونحن نعتقد أنَّ العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين، ولتعلمنَّ نبأه بعد

حين، وقد يقول الناس: إنَّ هذا ليس من أساليب السياسة ولا من ضروب الكياسة، وإنكم ما لم تكيلوا للناس الصاعَ صاعَين وتقابلوا الضربة بضربتين؛ فإنكم مغلوبون في هذا الميدان، الذي لا ينتصر فيه إلا المعتدون.

ولكننا نقول: إننا مقيّدون في كل خطواتنا بتوجيهات الإسلام، وتعاليم الإسلام، نقدم الحسنة قبل السيّئة، ونقيم الحجة قبل المخاصمة، ليكون الحق في يدك حجةً أولى والتهجم عليه حجةً ثانية، وإنا لنسأل الله أن يختار لهذه الأمة وأن يجمع قلوب أبنائها على الخير».

وكان هذا هو الردّ على تلك الحملات المبطلة التي اتصلت شهوراً طويلة والتي لم تدعْ شيئاً صحيحاً إلا قلبتْه، ومن ذلك الادّعاء بأنَّ المرشد يملك أسهماً في شركة الصحافة وشركة الطباعة وشركة المعاملات بألوف الجنيهات.

وحقيقة الأمر كما أشار في خطابه الذي أرسله إلى جريدة البلاغ ردّاً على تساؤلها: إنه بوصفه المرشد العام يوقّع على عقودٍ باسم الهيئة (بصفته) لا بشخصه وذلك ما ورد بشأن شركة الهلال للسياحة، وصاحب الأسهم هو المركز العام للإخوان، أما الشيخ البنّا فلا يملك منها سهماً واحداً، لقد ساهمت بالصفة العامة لا بالصفة الشخصية.

أما عن شركة الصحافة والطباعة فأؤكد لكم أني لا أملك إلا أربعة أسهم في الأولى قيمتها (١٦ جنيهاً) لم تسدَّد بعدُ كلها، وفي الثانية ثلاثة أسهم قيمتها (١٢ جنيهاً) لم تسدد بعدُ كلها. أما ما ذُكر في العقدين من أنَّ لي في كلٍّ من الشركتين ألف جنيه؛ فهو مبلغٌ اسميٌّ فقط، سببه أنَّ المساهمين في كل شركةٍ منها يبلغون ثمانية آلاف مساهم تقريباً، ومن غير المعقول أن يوقعوا جميعاً على عقد الاتفاق، فرأت الجمعية العمومية لهؤلاء المساهمين أن يُنتدَب من

بينها عشرون شخصاً، تعتبرهم مؤسسين، وتوزِّع عليهم رأس المال والسهام التي اكتتب فيها المساهمون جميعاً توزيعاً اسمياً، وتفوّضهم في توقيع العقد، وذلك إجراءٌ تتخذه كل الشركات المساهمة في مثل هذه الظروف.

وأحبُّ أن أنتهز هذه الفرصة فأضيف إلى معلوماتكم الصحفية في هذا المعنى أنني مساهمٌ في شركةٍ أخرى هي شركة المعاملات الإسلامية بخمسة أسهم قيمتها عشرون جنيهاً دُفعتْ نقداً وعدّاً والحمد لله، وأنني قد انتُخبْت رئيساً لمجلس إدارة شركة الإخوان للصحافة نظير مبلغ قدره مئة جنيه شهرياً، ورئيساً لمجلس إدارة شركة الطباعة نظير مئة جنيه شهرياً أخرى كذلك، ولكني رفضت رفضاً باتاً أن أتقاضى مليماً واحداً من إحدى الشركتين، وعملت طوال العام الماضي متطوّعاً حامداً الله أن وفقني إلى المساهمة بمجهودي الضئيل في هذه الخدمة الجليلة.

وأظنُّ بعد هذا أنني في غنًى عن ذكر مصادر الآلاف المزعومة أو الرد على ما تخيلتموه من فروضٍ ونتائج باطلة تترتّب على حيازتي إياها، فلا ألوف ولا مئات.

ولقد كنت أظنُّ الأحزاب والصحف في مصر تفرح وتسَرّ لأنَّ هيئةً إسلامية استطاعت أن تنهض على قدميها، وأن تساهم بنصيبٍ وافر في الإصلاح الخُلقي والاجتماعي والكفاح الوطني، معتمدةً على الله، معتزةً بسلامة مبادئها وطهارة قلوبها وجوارحها، بعيدةً كلَّ البعد عن الخضوع للأحزاب أو الأفراد أو الحكومات أو محتكري النشاط الاقتصادي في مصر من الدخلاء عليها والأجانب عنها. ولكن يظهر أنَّ عناصر الهدم لا زالت في أنفس كثيرين منا أقوى من عِوامل البناء، وأننا لا زلنا في حاجةٍ ماسّة إلى (بَنَّاء ماهر) يعمل جاهداً في

ترميم هذا الانهيار الخُلقي المؤسف، فصبرٌ جميل والله المستعان. ولقد كنت أظن أنَّ آخر من يتحدث في هذه المعاني هم الذين يعلمون حقَّ العلم أنَّ بيوتهم من زجاج.

* * *

وقد علَّقت صحيفة أخبار اليوم ـ وهي معارضة للوفد ـ على الموقف بين الإخوان والوفد فقالت[1]:

كان حزب الوفد أكبر حزبٍ منظّم في مصر إلى أن ظهرت جمعية الإخوان، وقيل: إنَّ عدد أعضائها المقيدين بلغ أكثر من النصف مليون، وأنَّ شُعبَها وفروعها تغلغلت في جميع أنحاء البلاد، وأنها أصبحت الحزب المصري الوحيد الذي له فروعٌ في السودان وفلسطين وشرق الأردن، وأنَّ الساسة والأحزاب باتوا في السنوات الأخيرة قلقين من هذا الحزب، حتى لقد أعلنوا عليه الحرب. حاربَته حكومة النحاس باشا عام ١٩٤٢م ثم هادنَته، وحاربته حكومة النقراشي الأولى، وحالفته حكومة صدقي، ثم نقض الإخوان المحالفة، وأعلنوها حرباً شعواء على صدقي باشا، بل إنَّ الإنكليز أنفسَهم يتوجّسون خيفةً من الإخوان في زمن الحرب، وبلغ بهم الأمر أن اتّهموهم بأنهم أعوان هتلر في الشرق الأوسط، وطالبوا النحاس باشا أن يمنع الشيخ حسن البنَّا من ترشيح نفسه لمجلس النواب عن دائرة الإسماعيلية، واضطرَّ النحاس باشا بصفته الحاكم العسكري رئيسَ الإخوان إلى الانسحاب، وبلغت قوة الإخوان أشدَّها في الدوائر الانتخابية حتى أصبح أيُّ مرشحٍ يعاديه الإخوان مقدراً عليه الخذلان، وظهرت

---

(١) ٣ مايو ـ أيار ـ ١٩٤٧م.

القوة بأجلى معانيها في الإضراب الذي نظّموه من أجل فلسطين.

وكانت للإخوان قوةٌ كبرى في الجامعة، فقد ضربوا الطلبة الوفديين عدة مرات، وتزعَّموا الجامعة، بحيث لم يعد الطلبة الوفديون يستطيعون تنظيم إضرابٍ واحد. والمظاهرة الوحيدة التي نجحوا فيها هي المظاهرة التي هتفوا فيها بسقوط الأحزاب جميعاً وبأن لا حزبيةَ بعد اليوم.

كذلك استفحل أمر الإخوان، ورأى حزب الوفد أنهم يهدِّدون كيانه، وأحسَّ فؤاد سراج الدين خطرهم منذ البداية، فدعا إلى مهادنتهم لعلّه يستطيع أن يطويهم تحت جناح الوفد، وفعلاً أعلن هو وأربعةٌ من الوزراء الوفديين انضمامهم إلى الإخوان ومبايعتَهم للشيخ حسن البنَّا قائداً ومرشداً.

ولكن الإخوان لم ينطووا، بل شعر أنَّ الإخوان يطمعون في أن يتحكّموا، وأن تكون لهم الأغلبية في البرلمان في يومٍ قريب؛ ولهذا أصدر النحاس باشا أمرَه بالحرب على الإخوان، فهاجمتْهم صحف الوفد، واتّهمتْ الشيخ بشرِّ التُهم، ثم أوعز الوفد إلى لجانه أن تحرّض الناس على الاستقالة من لجان الإخوان، ونشرت صحف الوفد استقالاتٍ لعدّة لجان، ثبت بعد ذلك أنّها لجانٌ وهمية لا أثرَ لها في سجلات الإخوان.

وأخيراً رأى حزب الوفد أنَّ خير طريقةٍ لتحطيم الإخوان هي تمزيقهم من الداخل، وتولَّى فؤاد سراج الدين هذه المهمة، فنجح فيها نجاحاً كبيراً، فقد استطاع بفضل اتصاله بالأستاذ أحمد السكري وكيل الجمعية أن يُحدث انقساماً في الإخوان، وحصل فؤاد باشا على تقارير سرية للإخوان نشرها في صحف الوفد، فاتَّهم الأستاذ حسن البنَّا بعضَ الأعضاء بإذاعتها، وجمع الهيئة التأسيسية للإخوان وكان في نيّته فصل الأستاذ السكري، ولكنه اكتفى بأن طلب

إليـه الاعتذار، ووصلَ شرر الانقسـام إلى الإسكندرية، فاسـتقال رئيس فرع الجمعية هناك.

وطلب الأستاذ البنَّا من الأستاذ السكري أن يكتب مقالاً ينفي فيه هذه التهم، ورجع السكري إلى الوفديين، فنصحوه بعدم كتابة المقال، وطلبوا إليه أن يتحمل كل شيء ولايستقيل، لأنَّ قوتَه في بقائه في الإخوان، وألحُّوا عليه أن يستمرّ في عمله وكيلاً.. حتى يؤلِّب الأعضاء على الأستاذ حسن البنَّا ويفصله من الرئاسة، وعندئذٍ يؤيده حزب الوفد في أن يصبح هو رئيساً لجمعية الإخوان المسلمين.

وقد فتح حزب الوفد اعتماداً ضخماً للانفاق على هذه الحركة، وطلب إلى صحيفته أن تفتح صفحاتها لنشر كل مايؤدي إلى انقسام الجماعة التي هي في رأي النحاس باشا: الخطر الوحيد على كيان الوفديين.

على أن تفصيلات هذه الاتصالات وصلت إلى علم أعضاء الجمعية، وسئل المرشد العام عن اتصالات وكيله بفؤاد باشا، فنفى هذه الاتصالات، لأن مجلس الإخوان قرر عدم الاتصال برجال الوفد، ومن غير المعقول أن يخالف الوكيل قراراً صريحاً اتخذه المجلس.

ولكن هذا التصريح الدبلوماسي لم يدفع عن الأستاذ السكري أصابع الاتهام. والمتوقع أن يطالب الأعضاء بفصل الوكيل لأنه خالف قرارَهم، وتآمر مع الوفد على الجمعية ومرشدها.

فهل يسير الشيخ البنَّا في هذا الاتجاه؟

إنه يتحدث دائماً عن صداقته للسكري، وكيف أنها دامت سبعةً وعشرين عاماً، وإنه لا يستطيع أن يفرِّط بسهولةٍ في هذا الصديق القديم، ثم إنَّ إخراج

السكري من الجمعية هو إعلانٌ رسميٌّ للحرب بين الإخوان والوفديين، فهل المرشد العام على استعدادٍ لمثل هذه الحرب الضروس؟

لقد ذهب شبان الإخوان أخيراً إلى الأستاذ البنَّا وأبلغوه أنهم قرروا تحطيم الصحف الوفدية، والقضاء على لجان الوفد في يوم واحد حدّدوه، فهدَّأهم المرشد العام وقال لهم: إنَّ الجمعية تؤمن بالديمقراطية، وإنه لا يقرّ استعمال أساليب القوة في الوقت الذي تنشد فيه مصر عون الأمم الديمقراطية وهي تعرض قضيتها على مجلس الأمن.

ويقيم الشيخ البنَّا في (مندرة) متواضعة بشارع سنجر الخازن بالحلمية، ويستريح من العملية الجراحية التي أُجريت له، ويرسم خطط الدفاع والهجوم.

إنه اليوم يرقد في هذه (المندرة) البسيطة بين كتائبٍ من الزوار، وأكداسٍ من الكتب والمجلات. لقد رضي بحياة الكفاف، ورفض أن يتسلم من خزانة الإخوان مرتباً شهرياً قدره مئة جنيه.

وهو يقرأ اليوم آيات القرآن التي تدعو إلى الوئام، وتمجد الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، ولكنه مع ذلك يضع سيفه المغمد في متناول الذراع، ترى هل يطوي المصحف ويستلّ السيف من غمده هذا الأسبوع!». اهـ.

ـ ٤ ـ

ولم تمضِ فترةٌ قليلة حتى أعلن الأستاذ السكري أنه خرج على الجماعة، ونشر في الصحف خطاباً مطوّلاً عن موقفه سرعان ما أذن المرشد بنشره في اليوم التالي في جريدة الإخوان اليومية، وأجاب عليه في هدوء وأدب فقال[1]:

---

(١) أكتوبر ـ تشرين أول ـ ١٩٤٧م.

«لم تنسَ بعدُ أنني وقد بلغني عنك أنك تشيع الأقوال في مجالسك الخاصة، وتسير على سياسة وخز الإبر وتسميم الآبار، أنني تقدمت إلى مكتب الإرشاد بخطاب أتّهمك فيه بهذا التجني، وأطالبك بتوضيح رأيك، وأطالب المكتب في الفصل في نقط الخلاف التي تراها، فأنكرتَ كل ذلك، وأقسمتَ أمام إخوانك على ثقتك التامة بخطة المكتب والمرشد، وبأنَّ كلَّ هذا اختلاقٌ أريدَ الإساءة به إليك.

وإنك أعرفُ الناس بأنَّ موضوعك لو عُرض مفصّلاً لكان حكمهم عليك بالإجماع حكماً قاسياً دامغاً، أجهدني أنْ رددته عنك أولاً وثانياً أملاً في استصلاح نفسك، ووفاءً بحقّ الأخوّة بيننا. لقد استغللتَ كرم الأسلوب وفضل التجاوز استغلالاً غير كريم ما كنت أودّ أن يصدر منك، فذكرتَ أنني بعثتُ إليك بخطابٍ مطوّل حددتُ فيه أسباب فصلك بأنها:

أولاً: الاختلاف في أسلوب التفكير.

ثانياً: الاختلاف في وسائل العمل.

ثالثاً: الاختلاف في الشعور نحو الأشخاص.

استغللتَ ذلك فحرَّفتَ الوقائع بما يصوّر هذه الأسباب بغير المقصود منها، لقد قصدتُ بالأول أنك تريد الغموض وأريد الوضوح، وبالثاني أنك تريد المداورة وأريد الصراحة، وبالثالث أنك تؤثر خصوم الدعوة وتُفضي إليهم بشؤونها وأحولُ أنا دون ذلك، وأكفُّ عنك سخطَ أبنائها والمؤمنين بها والوقائع لا تشرِّفك.

والناسُ جميعاً يعلمون أيُّنا كان يريد أن يورِّط الدعوة في السياسة الحزبية

وأينا كان يحميها من ذلك. وعواطف الرجال، وسياسة الدعوات، وحفظ الجماعات، وأمانات المجالس التي لا يُقصَد بها إلا وجه الله وخير الدعوة، لا يليق أنْ تعرض سلعاً رخيصة في الأسواق، لا لشيءٍ إلا لشهوة الجدل ولذّة الانتقام.

يا أخي! لم أكن أتصور أبداً أن تندفع في طريق التجنّي هذا الاندفاع. إنك تأخذ عليَّ أنني تصرفتُ من نفسي دون انتظار الهيئة التأسيسية؛ حتى أفوِّت عليها فرصة الإصغاء لما تقول والحكم لما تسمع، وهذا كلامٌ منقوضٌ من أساسه، فقد انعقدت الهيئة التأسيسية مرتين (مارس (آذار) ١٩٤٧م) بعد قرار إيقافكم و(يوليو - تموز - ١٩٤٧م) وكان الاجتماع الأول خاصّاً بمحاكمتكم. واستمرّ اجتماع الهيئة التأسيسية ستاً وثلاثين ساعةً كاملة، كان نصيبك أنت من الكلام فيها ست ساعات متواصلة، فلِمَ لم تصارحها بما كنت تكتمه الآن؟! ولم أعلنتَ ثقتك التامة بي، وجدَّدتَ بيعتك لي، وقبلتَ لومَها على تصرفاتك، واشتركتَ معها في قرار الاستنكار الذي أصدرتْه لمذكرة الدكتور إبراهيم حسن.

تقول: إنك اكتشفتَ بطريق الصدفة اتصالاتي ببعض الشخصيات الأجنبية والمصرية، وهالكَ ما حدثك عنه أحدهم يوم (٧) فبراير (شباط) ١٩٤٧م، ولقد أدهشني منك هذا القول العجيب من أنك لم تصارحني بهذا الذي سمعتَه، وكيف كتمتَه عن الهيئة التأسيسية التي انعقدت بعد ذلك بنحو شهر، ألا تعتقد أنَّ هذا الكتمان يعدّ خيانةً للدعوة وللهيئة، غفر الله كلَّ شيءٍ إلا هذه؛ فإنها سقطةٌ لن تُغفر، وولوغٌ في عرضٍ هو أطهر من ماء السماء والحمد لله وحده».

وكان الأستاذ السكري قد أشار في خطابه إلى عدّة أمور:

أولاً: لا ينكر الأستاذ البنّا أنَّ الإخوان بلغوا أيام حكم الوفد من القوة

ما يثبتُه الإحصاء الرسمي، فقد جاء الوفد ولدينا خمسمئة شعبة وخرج من الحكم ولدينا ألف وخمسمئة شعبة.

ثانياً: دعوة أخي حسن إلى تقويم ما اعوجّ من الجماعة والسير بها في طريقها الطبيعي المستقيم.

ثالثاً: قرَّر فصلي من الجماعة دون الرجوع إلى التحكيم الذي طالبتُه به مراراً؛ اللهم إلا وقوفي في وجهه دون انزلاقه بالجماعة في تيار السياسة الحزبية.

رابعاً: دخول بعض العناصر الانتهازية المأجورة في صفوفنا يإيعازٍ من رجال السياسة، وتدخُّل سادتهم في شؤوننا، وذلك عقب تولِّي صدقي باشا الحكم.

خامساً: اتصالاتك بفئةٍ معينة من رجال السياسة، وتكوين اللجنة السياسية المعروفة.

ولما كانت هذه الأمور كلها واضحةً فقد كان للأستاذ البنَّا اتصالاتُه بجميع الجهات وجميع الساسة خارج الحكم وداخله في فترةٍ من أدقّ فترات تاريخ مصر بعد الهدنة، ومن خلال موقفٍ خطير يستهدف المواجهة، وهل سيكون ذلك بالمفاوضة مع الإنكليز أم إعلان الجهاد المسلح، أم إقامة جبهة من الأحزاب؟ كل هذا لم يكن يرضي الأستاذ السكري، الذي كان يرى ضرورة التبعية للوفد، فلما عرض الأستاذ الشروط الخاصة بذلك، ومنها عدم التفاوض مع الإنكليز، وإبراز الروح الإسلامي في الحكم، تراجع الوفديون ومعهم بعض من تبعهم، ولقد سارع الأستاذ البنَّا على الأثر بتوجيه كلمةٍ إلى الإخوان: «إنَّ الأستاذ السكري كشف بخطابه عن كثيرٍ مما كان قد خفيَ علينا من نفسه

وتصرفاته، ووضع يدنا على الحلقة المفقودة في الفتنة الماضية، وكان من عظيم فضل الله علينا وعلى الدعوة وعلى الناس أن يلحق الأصل بفرعه حتى يستوي الصف وتستقيم الأمور.

إنَّ أخانا ـ غفر الله له ـ قد أعلن عن نفسه، وقد اعترف اليوم على رؤوس الأشهاد بما كان ينكره من قبل من محاربة الدعوة والقيادة، ويقسم على البراءة بأغلظ الأيمان في كل اجتماعٍ وكل مكان».

وسرعان ما فتحت جريدة (صوت الأمة) صفحاتها لمقالاتٍ متعددة للأستاذ أحمد السكري تحت عنوان (كيف انحرف الشيخ البنَّا بدعوة الإخوان) محاولاً أن يعلن بأنه يحمل لواء الدعوة الصحيحة هو وإخوانه، وأنهم يسيرون بها على الطريق الأصيل، ولم يصدِّق أحدٌ من الناس ذلك فقد كانت صيحةً في وادٍ، ولم تُجْدِ كلماته ولا مقالاته التي لم يستطع أن يقول فيها شيئاً له أهميةٌ ما، مما يدلّ على أنه كان لا يعرف عن حركة الإخوان شيئاً، وحاولت جريدة (البلاغ) وجريدة (صوت الأمة) نشر بعض المقالات والأخبار، ونشرت الأخيرة ما أسمته استقالات تحت عنوان (هذه الجماعة تهوي).

وجاء شاعرٌ مسلم فأنشد قصيدةً ذهبت مثلاً؛ مطلعها:

هـذي الجمـاعـةُ تهـوي ... إلـى سنـاهـا القلـوبُ
الله يـدفـعُ عنهـا ... إذا ادلهمَّتْ خطـوبُ

وبينما كانت صحف الوفد تردِّد تلك الأكاذيب كانت الدعوة تشقّ طريقها وتمدّ أغصانها إلى كل مكان، وسرعان ما وجه الأستاذ البنَّا خطاباً إلى مختلف الشُعَب والمناطق: «ينبِّه فيه على الإخوان تنبيهاً مشدَّداً أن يضبطوا أعصابَهم

ضبطاً تاماً، وأن يتجنَّبوا بكل وسيلةٍ الاحتكاك بمن يحاول استفزازَهم بالقول الجارح أو اللفظ النابي، وأن يفرُّوا من هذا الميدان ما وسعهم الفرار؛ فليست في الدنيا هزيمةٌ أكرم من الانهزام أمام خطرات السوء ودسائس الشيطان، والهزيمة هذه هي عين الانتصار ولا جدال:

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وليس أحدٌ عاجزاً عن الشر ولكن الموفَّقين للخير قليلٌ ما هم؛ فاجتهِدوا أن تكونوا منهم، واللهَ نسأل أن يلهمنا رشدنا، وأن يؤلِّف بين قلوبنا، وأن يجمعنا على الخير ولا يكلنا إلى أنفسنا، إنه نعم المولى ونعم النصير».

هذه صورةٌ من أدب الدعوة ومن فيض الخُلق الإسلامي يقدِّمها الإخوان نبراساً لنزاهتهم في خصوماتهم، وارتفاعهم فوق الآثام والأحقاد وسموِّهم في الاتصال بالناس، ورفعتِهم عن رد عدوان الشر بالشر، مع القدرة والتمكُّن وليس مع الضعف والتراجع.

ـ ٥ ـ

ولكن الأستاذ البنَّا حين ازدادت حملة الوفد حسم الموقف، فأرسل خطاباً إلى مصطفى النحاس رئيس الوفد المصري يحمِّله مسؤولية ما يحدث بعد ذلك، ويكشف له عن خطر ما يقوم به الوفد، وقد جاء في هذا الخطاب:

«للمرة الثانية أو الثالثة يعلن الوفد خصومته للإخوان المسلمين ولدعوة الإخوان المسلمين، ويحاربهم بأسلحةٍ غريبةٍ عجيبة، وأساليب لا تتفق مع خُلقٍ أو دين أو مصلحة سياسية أو وطنية، فتفتري عليهم صحفُه وجرايده الاتهامات والأكاذيب، وتعلن عن استقالاتِ شُعَبِهم كاذبة أو لأشخاص

وهميين لا وجود لهم، وتنتهز كلَّ فرصةٍ لتخلق من الحبة قبة، وتنفخ في بوق الخلافات والفتنة، تريد أن تغري بذلك كرامَ أبناء الأمة بعضَهم ببعض، ولا مصلحة في هذا لأحد، والفتنة نائمةٌ لعن الله من أيقظها، وتفيض أنهارها وصحائفها بألفاظٍ جافية نابية، تشمئزّ لها كلُّ نفسٍ مهذبة، وينفر منها كل ذوقٍ سليم وطبع ومستقيم، ويسنكرها الإسلام الذي يقول كتابه الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [الحجرات: ١١]. كما يعاقب عليها القانون الذي حرَّم القذف، وقام على صيانة الأعراض، كما كان من هذه الأسلحة التشهير بسمعة الإخوان في كل مكان، وإلقاء إشاعاتٍ كاذبة إلى اللجان الوفدية تقنع بها أعضاءها بالباطل، فيقال لهم: إنَّ الإخوان أخذوا من حكومة صدقي كذا ألفاً من الجنيهات، وأخذوا من حكومة النقراشي ألوفاً أخرى، وطلبوا من الوفد مبالغ طائلة ليجاهدوا معه في سبيل الوطن. والوفد وأعضاؤه وحكومته أول من يعرف ويؤمن بنزاهة الإخوان وعفّة رجالهم وطهارة أيديهم، وبُعدَهم عن كل هذه المغريات الفارغة التي تذلّ لها أعناق الرجال. ويقال لهم: إنَّ الإخوان قد انحرفوا عن الدين إلى السياسة ورِفعتُكم أعرفُ الناس بأنَّ الإسلام نظامٌ وإمام، وقد جعل السياسة أعلى أجزاء الدين، وأنَّ أمر المسلمين لن يستقيم إلا على هذا الوضع، وأنَّ آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلُح به أولها.

ويُلقى في روعهم أنَّ الإخوان أصبحوا حزباً يسير على نمط هذه الأحزاب وينافسها، ويضع مناهجَه العملية مَن لا صلة له بالإخوان، مع أنَّ الإخوان قد أعلنوا رسمياً أنهم ليسوا حزباً من الأحزاب يرتفعون بدعوتهم عن دعواتها المحدودة، ويوجهونها إلى الجميع إسلاميةً صافية إنسانية عالية، كما جاء بها محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وأنهم حين يجاهدون في سبيل

الوطن يعملون وطنيين لا حزبيين، بدافع الشعور بالواجب الذي لا محيص عنه ولا مناص.

ويؤمر بعض الشباب الوفدي بمعاكسة الناس في الترام أو السيارات العامة أو الشوارع أو المعابد، فإذا اعترضهم معترضٌ صاحوا في وجهه بهتاف الإخوان وقابلوه بالشتائم والعدوان، فيسخط على هذه الجماعة المعتدية ويرميها بكل زورٍ وبهتان.

وقد يتعمّد بعض الشباب الوفدي تضليل الإخوان بالاتصال بشُعبهم أو جريدتهم تليفونياً، ينقل أخباراً كاذبة، ويبلِّغ أحاديث مختلفة ما أنزل الله بها من سلطان.

وكل ذلك يهون لأنه عبثٌ صبياني، ولكنَّ ثالثة الأثافي أن يحرض الطلاب الوفديون في المدارس الثانوية، ويحرض بعض المنتسبين إلى لجان الوفد أو المأجورين فيها على التحرش بالإخوان واستثارتهم بالقارص من القول والمستهجَن من العبارات، ثم بمحاولة الاعتداء باليد بَلْهَ اللسان، والإخلال بالنظم في حفلات الإخوان، وإثارة الشغب في الاجتماعات والدروس والمحاضرات؛ كما حدث في (الخديوية) و(بنبا قادن) و(حفل مولد السيدة سكينة) وهذا شيءٌ محزن للغاية؛ فإني لا أكاد أتصور طلاباً في معهدٍ واحد، تشرق نفوسهم براءةً وطهراً، وتفيض قلوبهم إخلاصاً وبرّاً، وتجمعهم الأخوّة، وتوحِّد بينهم زمالة الدراسة، تُفسد نفوسَهم الحزبية، وتلوِّث ضمائرَهم الطاهرة الأغراض الشخصية، فيعتدي بعضهم على بعض، وتكون مشاجرةٌ تسيل فيها الدماء، ويؤخذ بجريرتها الأبرياء.

ويعلم الله وكثيرٌ ممن سمعوا أنني قلت وأقول دائماً للطلاب من الإخوان:

إنَّ أول واجباتكم أن تطرحوا هذه الألوان في خارج المعاهد والمدارس، وأن تذكروا فيها شيئاً واحداً هو أنكم إخوةٌ زملاء، جمعكم طلب العلم في أفضل أيام العمر، فكونوا إخواناً لكل إخوانكم، كما أوصي الإخوان بألاّ يكون الخلاف في الرأي سبباً في خصومتهم لأحدٍ أو كراهيتهم لإنسان، فضلاً عن الاعتداء بقولٍ أو عمل، واختلافُ الرأي لا يفسد للودّ قضية.

هذه نماذجُ من الأساليب التي يحارب بها الوفد الإخوان ودعوتَهم، ذكرتُها على سبيل المثال لا الحصر، ولقد كنت أظنّ أنَّ هذا من الأعمال الفردية أو الشخصية، وأربأ بقيادة الوفد أن يكون لها توجيهٌ في اتخاذ مثل هذه الوسائل، التي لا يُقدِم عليها من يشعر شعوراً صادقاً بتبعته كقائدٍ مسؤول عن أخلاق هذا الشعب، وحُسن توجيهه؛ لولا أني علمت من مصادر صادقة أنها خطةٌ مرسومة يوحي بها الكبار إلى الصغار، وهذا ما دعاني أن أبعث إليكم بهذا الخطاب.

وأؤكد لكم أنَّ رِفعتكم وكثيراً من أعضاء الوفد يعلمون أنَّ الإخوان هم الصفوة من أبناء هذه الأمة، الذين يعملون جاهدين متفانين في سبيل الدين والوطن، ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، لا لرغبةٍ ولا لرهبة، وقد تركت دعوتُهم في وادي النيل وغيره من بلاد العروبة والإسلام، أنفعَ المنشآت وأجمل الآثار، وقد سبق الإخوانُ بفضل الله سبقاً بعيداً، وأتعبوا من خاصمهم إتعاباً شديداً، دون تحطيم جماعتهم التي تدعمها الأخوة، والقضاء على فكرتهم التي يمدّها الإيمان خرط القتاد، ولا مصلحة في هذا لأحدٍ فيما أظن، إلا لأعداء هذا الوطن، والمتربصين الدوائر بالإسلام وأبناء الإسلام، ففيمَ هذه الخصومة ولحساب من هذا العداء؟!

لقد فكرتُ طويلاً في الدافع إلى هذه الخصومة بين الوفد والإخوان، فلم

أهتدِ إلا لأحد سببين، أو هما معاً: فإما أنَّ رجال الوفد لا زالوا يفكرون بعقلية عام ١٩٢٠م، ويقولون إنَّ الأمة هي الوفد والوفد هو الأمة، وأنَّ الشعبَ قد منحه توكيلاً لا نقضَ فيه ولا إبرام، ويُسقطون من حسابهم ربع قرنٍ من حياة هذا الوطن، تبدَّلت فيه الأرضُ غير الأرض، وتغيَّرت النفوس والعقول والأوضاع، وأُعلن الدستور، ونشأت الأحزاب، وقامت المجالس النيابية، وانتقل إلى الدار الآخرة أكثر الوكلاء والموكّلين على السواء، وظهرت أفكارٌ ودعوات، وشبّ عن الطوق هيئاتٌ وجماعات، وهذا التفكير تخلُّفٌ عن ركب الحياة، ومغالبة لسنّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وعلى هذا الأساس يحارب الوفد الإخوان كما حارب الشبانَ بالأمس، وكما حارب جمعيةَ (القرش) من قبل، وكما حارب كثيراً من الجماعات والهيئات، ولكنَّ النتيجة اليوم لن تكون كما كانت حين ذاك والعاقبة للمتقين.

هذا سببٌ، والسبب الثاني ـ ودعني يا رفعة الباشا أتحدث إليك بكل صراحة، فالدين النصيحة ـ إنَّ الوفد في أيامه الأخيرة قد تخلَّلت صفوفَه طوائف وأفواج من ذوي الآراء الخطيرة والمبادئ الهدَّامة، الذين لا يدينون بغير الشيوعية مذهباً، ولا يؤمنون بغير موسكو قيادةً وتوجيهاً، وقد رأوا في الوفد الذي يعوزه الدم الجديد والمنهاج الجديد خيرَ ستارٍ يعملون خلفه، ويمثّلون ما يريدون من مهازل على مسرحه، ويلعبون على الحبلين، ويبتزّون المال من الجهتين، ويتمرّغون في أحطّ الشهوات باسم الأحزاب والدعوات.

ونظرةٌ واحدة من رِفعتك إلى حضرات المحررين في (صوت الأمة) وفي (رابطة الشباب) أو (الطليعة الوفدية) وفي هيئة تحرير (الحوادث) و(الجماهير) وفي ممثلي الطلاب الوفديين في المدارس والمعاهد؛ تكشف لك عن أنَّ هؤلاء جميعاً ليس فيهم من الوفدية إلا اسمُها، الذي يتبرّمون به في مجالسهم الخاصة،

ويسخرون منه حين يخلو بعضهم إلى بعض في أنديتهم الثانية، وذلك خطرٌ داهم يتهدَّد كيان الوفد في الصميم أولاً، ويتهدد المجتمع المصري كله بعد ذلك، فحلفاء اليوم هم ألدّ أعداء الغد القريب، ودعاة الشيوعية الآن هم أصبع الاستعمار الجديد الغريب، وإني لأستكثر أن تسمح وطنية رجال الوفد بأن يكونوا حماةَ هذا الشر المستطير، والوسطاء الأقربين في نقل هذه الجرائم المهلكة إلى عقول شباب هذه الأمة الأبرياء، وتسميم نفوسهم بهذه الأدواء، حتى لقد تعالى الهتاف في بعض المدارس: (الشيوعية فوق الإسلام).

وعباراتُ أخرى لا محلّ لذكرها في هذا الخطاب.

وهذا الصنف من الأغرار المفتونين بالإلحادية المحطِّمة، والإباحية المدمِّرة، والأجر الحرام، أشدّ الناس عداوةً للإسلام، لأنه دين؛ والأديان في عُرف الشيوعية مخدِّر الأمم والشعوب، وهم كذلك أشد الناس عدواةً للإخوان المسلمين، مع أنَّ الإخوان إلى الآن لم يحتكّوا بهم، ولم يعلنوا خصومتَهم، ولم يكشفوا للناس عن أباطيلهم حتى لا يكون في ذلك نشرٌ لدعوتهم، وإعلانٌ عن فتنتهم، وإنَّ لهم من الإخوان ليوماً قريباً، إن لم يفيئوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيِّهم.

فلعلّ هؤلاء هم الذين يمشون بالنميمة بين الوفد والإخوان، ويُلقون الوقود في نار الخصومة والخلاف، مع أنهم أشدُّ عداوةً للوفد من عداوتهم للإخوان، ومهما بلغت الخصومة من الإخوان والوفد فللإخوان دينٌ يكفُّهم عن المحارم، وخُلقٌ يمنعهم من العدوان، أما هؤلاء فلا خُلقٌ ولا دين، فطهِّر منهم صفوفك يا باشا، ولا تصغ إلى أباطيلهم، ولا يلهينَّك مظهرٌ عاجل عن بلاءٍ آجل، ولعلّي وأنا أقول هذا أخلص نصيحةً لك من كثيرٍ ممن حولك من أخلص الوفديين.

وبعد هذا كله فهل ترون أنَّ الوفد قد أدّى واجبَه بهذا الموقف السلبي الذي يقفه في هذه الساعات العصيبة من تاريخ الوطن، إنَّه كان ولا يزال في وسعه أن يعمل الكثير لو أراد. إنَّ من الخير للوفد أن ينصرف إلى العمل الإيجابي إن استطاع، فيحدِّد خطَّتَه ووسيلته تحديداً دقيقاً واضحاً لا غموضَ فيه ولا التواء. أردتُ بهذا الخطاب أن أتقدَّم لكم بالنصيحة، وأن أعذر إلى الله وإلى الناس، وأن أُبرئ ذمّتي من تبعة فتنة:

لم أكن من جُناتِها عَلِمَ اللهُ — وإنـي ببحـرِهـا اليـومَ صـالِـي

فإن أنتج الأثـر المطلوب فذاك، وإن كانت الأخرى فقد أُذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنَّ اللهَ على نصرهم لقدير، وسنستعدي على الباغين سهامَ القدر، ودعاء السحر، وكلَّ أشعث أغبر، لو أقسمَ على الله لأبرَّه ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٢].

ـ٦ـ

ولقد كان لهذه الرسالة الجريئة أثرها القوي ودويُّها الشديد؛ وفي هذا تقول مجلة (آخر ساعة):

في الأسبوع الماضي صارح الإخـوان المسلمون رفعةَ النحاس باشـا وحزبه بالعداوة السافرة، فقد أرسل فضيلة الشيخ البنَّا إلى النحاس باشا كتاباً يهدده فيه بالويل والثبور إذا لم يمنع الصحف الوفدية واللجان الوفديـة من الاعتداء على الإخوان بما تذيعه من تهم وافتراءات. وقال صاحب الفضيلة لصاحب الرفعة: إنَّ الوفد قد تخللت صفوفَه في الأيام الأخيرة طوائف من

ذوي الآراء الخطرة و المبادىء الهدامة، الذين لايدينون بغير الشيوعية مذهباً ولابغير موسكو قيادة.

وذكر صاحب الفضيلة أنَّ الإخوان حتى الآن لم يحتكوا بالوفديين، ثم نصح وحذّر وأعذر.

فما الذي جرى حتى جعل الحرب بين الوفد والإخوان هكذا علناً وعلى رؤوس الأشهاد؟

لقد كان معروفاً أنَّ الإخوان يحاربون الوفد في الخفاء، فلما جاءت حكومة الوفد أنزلت غضبَها على الإخوان، وفرَّقت شُعبَهم، وأغلقت مركزهم العام، واعتقلت رئيسهم، ثم استحالت العداوة إلى صداقة، وانقلب الاضطهاد عطفاً، وإذا أقطاب الوفد ينضمون إلى جماعة الإخوان المسلمين.

وإذا الأيدي التي أغلقت المركز العام واعتقلت المرشد تفتح أبواب المركز العام، وتطلق سراح المرشد العام، وتبذل العون والتأييد لفكرة الإخوان، فيخطب المغفور له صبري أبو علم باشا وفؤاد سراج الدين من فوق منبر الإخوان المسلمين، ويهتف الإخوان بحياة الخطيبين.

كان هذا في عهد حكومة الوفد، والواقع أنَّ ما حدث لم يكن عطفاً من الوفد على الإخوان؛ ولكن كان غزواً، بل كان احتلالاً. هكذا يقول الآن بعض أنصار الشيخ البنَّا، بل إنَّ هؤلاء الأنصار يقولون أكثر من ذلك، يقولون إنَّ الوفد تحالف معهم ليحارب بهم (مكرم باشا) فقد كان لمكرم في ذلك الوقت قوةٌ شعبية أقضَّت مضاجع الوفديين، ولم يكن أحدٌ يستطيع أن يقاوم هذه القوة غير الإخوان المسلمين بالذات، فلم يسع الحكومة إلا أن تصالحَهم وترفع عنهم مظالم الاعتقال والسجن والتشريد، ويجب أن نعترف بأنَّ هذه السياسة

خدمت الوفديين، وأنَّ قلوب كثيرين من الإخوان قد لانت للوفد بدافع العطف أو بدافع الخوف.

وكان فؤاد سراج الدين يقوم بوظيفة ضابط اتصال بين الوفد والإخوان، وقد كانت له هذه المكانة وهو وزير وظلّت له وهو غير وزير، كان يهدِّئ أعصاب الإخوان كلما استفزّتهم الصحف الوفدية، كان المنوِّم المغناطيسي لفريقٍ كبير منهم يرأسه الأستاذ أحمد السكري، فما الذي جعل الوسيط يتمرّد على منوّمه.

لا بد للإجابة على هذا السؤال من الرجوع قليلاً إلى الوراء.

لما أقيلت الوزارة النحاسية، وانتقل الحكم إلى رجال هذا العهد انقسم الإخوان إلى فريقين: أحدهما ضد الوفديين قلباً وقالباً والآخر مع الوفديين قالباً فقط، أما الفريق الأول فيرأسه الشيخ البنَّا، وأما الفريق الآخر فيرأسه الأستاذ أحمد السكري، واتفق الفريقان على أن يكون للجماعة هذا الوضع الشاذ، فإنه يحقق مصلحةً عامة أكيدة، وهي اتّقاء شر الوفد مع القضاء على نفوذه.

ولكن الحوادث تطورت على نحوٍ لم يكن ينتظره أحد، بدأت المفاوضات[1] فهاجمها الوفد لأنه ليس مشتركاً فيها، وهاجمها الإخوان لأنهم ضد المفاوضات إطلاقاً، وجمعت وحدة الهدف بين الوفد والإخوان، وتألفت لجنة اتصالٍ بينهما وبين غيرهما من أحزاب المعارضة، ثم تبيّن للإخوان أنَّ الوفديين لا يحاربون الحكومات القائمة في سبيل مصلحة الوطن، وإنما

---

(١) أي مفاوضات الحكومة المصرية مع الإنكليز.

يحاربونها ويحاربون معها الوطن لكي يعودوا إلى الحكم، ولم يطق الشيخ البنَّا صبراً على ما يرى، فتراجع عن محالفة الوفد، ووقف على الحياد، يقول كلمة الحق مجرّدةً عن الهوى، فكانت مع الحكومة حيناً وضد الحكومة حيناً.

وتطورت الحوادث مرةً أخرى على نحوٍ آخر، حدث خلافٌ بين صفوف الإخوان، وأرسل الشيخ إنذارَه إلى النحاس باشا، فما الذي جرى وكيف تخلَّى عن الشيخ صبرُه وحارب النحاس باشا على المكشوف.

إنَّ بعض المتّصلين بالإخوان يرون أنَّ الشيخ كان يريد منذ أمدٍ طويل أن يوجه إنذارَه إلى النحاس، ويعلن الحرب عليه، ولكنَّ المقرَّبين إلى فؤاد سراج الدين من الإخوان كانوا يمنعونه بفضل تأثير فؤاد باشا عليهم، فقد كان حقاً يخدِّر أعصابهم، ويقوم فعلاً بمهمة المنوِّم المغناطيسي.

وقد أمسكت الصحف الوفدية بتلابيب الشيخ، ونشرت وثائق تضمّنت أنَّ الشيخ مساهمٌ في شركات بألوف الجنيهات، وبادر الشيخ فنفى عن نفسه هذا الاتهام وأثبت أنه لا يملك في الشركتين غير القليل من الأسهم وختم الشيخ دفاعَه بهذه الكلمات:

إنه مما يشرِّفه ويعتزّ به أنه كان فقيراً وما زال فقيراً وسيظلّ كذلك حتى يلقى الله وهو بثياب الفقر. وأمضى بيانه هكذا: «الفقير إليه تعالى».

ويقول أنصار الشيخ: إذا كان اشتراك الشيخ البنَّا في الشركات بالقليل من الجنيهات قد أثار هذه الريبة في نفوس الوفديين، فلِمَ لم يرتابوا في زعيمهم الصادق الأمين؛ وقد أثبت مكرم باشا في كتابه الأسود أنه وُلد فقيراً كالشيخ البنَّا، ثم أصبح غنياً كالبدراوي، وأنه استطاع أن يجعل الثورة ثروةً، وأن يستغلّ نفوذه في الحكم، فيشتري الأطيان، ويسكن القصور، ويقتني الذهب،

وأنَّ صاحب الفضيلة الأستاذ البنَّا ينام على الحصير بينما صاحب المقام الرفيع النحاس باشا ينام على الحرير!!

ويقـول أنصار الوفد: إنَّ الشـيخ البنَّا يغطي الحرير بالحصير، ويقـول أنصار الشيخ البنَّا: إنَّ النحاس باشا يتباهى بأنه يعيش عيشة المترفين، وقد صرّح بذلك رسمياً تحت قبة البرلمان وأنه يعتز بأنه غنيٌّ عن الله، أم شيخُنا فإنه يعتز بأنه فقيرٌ إلى الله».

* * *

وهكذا كانت الأحزاب جميعها إلْباً على الدعوة وقائدها، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهكذا ظنَّ الذين خرجوا من الإخوان أن ينالوا من قلوبٍ آمنت بالرجل الصادق دون جدوى، فما كان هؤلاء بقادرين مهما كتبوا ونشروا وصوّروا ورووا أن يُقنعوا أحداً بأنهم أصدق إيماناً بالدعوة أو أحسن عملاً لها من ذلك الرجل الذي كان في حبّات القلوب وأماقي العيون.

● ● ●

الفَصل الثامن

الانتخابات والتمثيل النيابي

كان هدف هذه الدعـوة تحقيق النظام الاجتماعي الإسـلامي في أرض الإسـلام وإبلاغ رسـالته الجامعة للعالمين، والوسـيلة تربية الفرد والتكوين للجماعـة -حتى تقوم الدولة الإسـلامية، التي تتميز بهذا الوصف وتُعرف بـه وتحرص عليه، وتعمل جاهدة على حراسة أحكام الإسلام وقواعده في الداخل وتبليغ رسالته في الخارج، يقول الأستاذ البنَّا في هذا الصدد:

«لم نسـمح لجماعتنا في يوم من الأيـام أن تكون أداة لحزب أو هيئة أو مطية لحكومة أو دولة أو وسيلة لمغنم مادي أو كسب سياسي. لقد ظلت هذه القاعدة الأساسية للدعوة والدعاة مطبقة مرعية حتى أُعلنت الحرب العالمية الثـانية في سـبتمبر (أيلول) ١٩٣٩م، وأُعلنت الأحكام العرفيـة، وتعاقبـت الوزارات، وجاءت وزارة (حسين سري)، واشتد ضغط الإنكليز على الحكومة المصرية لتقضي على نشاط الإخوان، وتحل جماعتهم، وتحارب دعوتهم؛ وذلك بعد أن يئسـوا من أن يكسـبوا هذه الجماعـة إلى صفهم بالوعد والوعيد والإغراء والتهديد.

إن ضغط الإنكليـز على حكومـة (سـري) كان من نتـائجه أن تعطلت

اجتماعات الإخوان، وتوقف نشاطهم، وروقبت دورهم، وأُغلقت صحفهم ومجلاتهم، ومُنعت الجرايد جميعاً من أن تذكر اسمهم في أية مناسبة.

ضاعف الإنكليز ضغطهم وضاعفت الحكومة شدتها، وكانت الملاحظة الواضحة الجلية أن المنفذ الوحيد للرأي، وأن المنبر الذي كانت تعلن فيه شكاية أهل الحق في ذلك الوقت منبر مجلس النواب؛ إذ كانت الصحف لا تجرؤ حينذاك عن التوقف عن نشر مضابطه، فكان ما ينشر من مناقشات المجلس هو البصيص الوحيد من النور، هذا هو الذي حدا بالمؤتمر السادس للإخوان المنعقد في ينـاير ١٩٤١م أن يصدر قراراً بالإذن لمكتب الإرشـاد بالتقدم بالأكفياء من الإخوان إلى الهيئات النيابية المختلفة ليرفعوا صـوت الدعوة وليعلنوا كلمة الجماعة.

وجاءت وزارة النحاس في فبرايـر (شباط) ١٩٤٢م، وباشرت إجراء الانتخابـات، ورأى الإخوان الفرصة سـانحة، وتقدم المرشـد في دائـرة الإسماعيلية رغبة في أن يكون للإخوان موقف إيجابي.

وقد تنازل عن الترشيح بناء على محاولات رئيس الحكومة الذي صرح بأنه أمام تبليغ من الإنكليز، فإما التنازل وإما إعلان الحرب على الإخوان بكل وسيلة.

«وكنا أحرص ما نكون على ألاّ نصطدم بقوة مصرية، لئلا تستفيد من هذا الاصطدام الدسائس الإنكليزية، وكنا نعمل جاهدين على ادّخار هذه القوى جميعاً وعدم تعريضها للضيـاع والتفريق إبـان الحرب، لتعمل متكافئـة حتى تنتهي الحرب، ويجيء الـوقت المناسـب في سـبيل الوطن والأمة والإسلام، وبهذا التنـازل تفادينا الاصطدام فعلاً، وتمكنـا من السـير بالدعوة في طريقها

المرسوم رغم ما تجدد بعد ذلك من عقبات وعراقيل».

وأقيلت وزارة النحاس باشا في أكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٤م، وجاءت وزارة أحمد ماهر، وحلّ مجلس النواب، وباشرت الحكومة إجراءات الانتخابات من جديد، ودارت الساقية المعروفة دورتها المألوفة، وامتنع الوفد عن دخول الانتخابات كما امتنعت الأحزاب من قبل، وكان الإخوان أمام قرار المؤتمر السادس من ناحية وأمام التزامهم لأهل دائرة الإسماعيلية من جهة أخرى.

وأمام ما يعلمون بالتجربة من أن البرلمان هو الرئة الوحيدة للتنفس واستنشاق بعض نسمات الحرية في ظل الأحكام العرفية الخانقة، وأنه لابدَّ لهم من التقدم إلى الترشيح من جديد؛ ومع هذا فلم يقْدموا على هذه الخطوة إلا بكل حكمة ورزانة، وإلا بعد أن كاشفوا رجال الحكومة الحالية بأنهم لا يقصدون بذلك إحراجها ولا مناوأتها، وإنما يريدون أن يزاولوا حقاً مكفولاً لكل مواطن بطريقه المشروع، ومع هذا فقد أصدر مكتب الإرشاد قراراً واضحاً بأن هيئة الإخوان لا ترشح أحداً من أعضائها بصفته الإخوانية، وأن من يريدون أن يتقدموا إلى الترشيح فإنهم يتقدمون بصفتهم الشخصية كمستقلين، وقد رجا المكتب بعد ذلك عدداً كبيراً من الإخوان أن يعدلوا عن الترشيح والتقدم، حتى أصبح عدد المتقدمين من الإخوان لا يزيد على بضعة أفراد: منهم المرشد العام في الإسماعيلية، وآخرون في بنها، والفيوم، ومطرطارس، ومنفلوط، والفاروقية.

يقول الأستاذ: «ولقد أقدمنا على هذا الميدان مخلصين كل الإخلاص، برآء كل البراءة، مدفوعين إليه بحب الخير والحرص على المصلحة والغيرة على الدعوة المقدسة، والرغبة في اختصار الوقت، وإعلان رسالة الإصلاح

الإسلامي من فوق هذا المنبر الرسمي.

وما كان يدور بخلدنا أو يخطر ببالنا أن يتصور فردٌ واحد ما يقوله الناس بعد ذلك من أن هذا انحراف عن الخطة الوطنية المجردة إلى الحزبية السياسية البغيضة، وأنه استغلال للدعوة البريئة أريد به الوصول إلى الجاه الدنيوي والكرسي الحكومي، وأن الإخوان بعد ما كانوا دعاة دين قد أصبحوا محترفي سياسة، وأنهم بذلك ينافسون الأحزاب القائمة ويناوئونها ويخاصمونها، ويعلنون عليها حرباً لا هوادة فيها. هذه ما كانت تخطر لنا ببال، ذلك أننا لم نكن نطلب من وراء هذا الترشيح حكماً ولا مغنماً؛ بدليل أننا لم يتقدم منا في المرة الأولى إلا اثنان، وفي المرة الثانية إلا ستة. وإننا لم نقصد بذلك مناوأة أحد أو خصومته، بدليل أننا تنازلنا في المرة الأولى، وتفاهمنا في المرة الثانية، وأعلنا في كل من المرتين أننا نشجع أهل الخير والصلاح مهما كانت ألوانهم الحزبية.

وإننا لم ننحرف بذلك عن نهج الدعوة القويم وصراطها المستقيم، فقد أعلنا في وضوح أن المرشحين إنما يتقدمون بصفتهم الشخصية، لا بصفتهم الإخوانية، وأن من واجب الإخوان أن يناصروا من المرشحين من يأملون فيهم العمل لخدمة الفكرة الإسلامية، هذا فضلاً عن أن نجاح الإخوان في البرلمان من خير ما يساعد على ظهور الدعوة وقوتها ونجاحها، وهو حق مكفول لكل مواطن، ومن الظلم أن يحرم منه شخص بسبب انتمائه إلى الدعوة أو جهاد في سبيل الفكرة.

ولكن هكذا انطلقت الألسنة بقالة السوء تكيل الاتهام وتلغ في الظلام، ووقفنا نحن أمام هذه الحملات الباطلة مستغربين مندهشين آسفين، نقول كما قال سيدنا وهادينا وإمامنا من قبل: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»،

ونتمثل بقول الله الحق المبين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥]

ويقول بعض الخلصاء الذين لا يتهمون في رأي ولا نصيحة: إنكم تعجلتم الأمر قبل الأوان، وكان عليكم أن تنتظروا فترة طويلة حتى يتم النضج الشعبي، ويكتمل الوعي القومي، وحينئذٍ تكونون المطلوبين لا الطالبين، والمدعوين لا الداعين، وسواء أكان هذا القول صحيحاً كل الصحة، أم مبالغاً فيه بعض المبالغة، فحسبنا أننا ما قصدنا إلا الخير، وما أردنا إلا النفع، وما تحرينا إلا ما اعتقدنا أنه الحق».

ولقد جرت مناقشات كثيرة في شأن التقدم إلى الانتخابات التي ستجيء بعد ذلك، أو في شأن الإحجام ولكل فريق حجته، وكانت هناك وجهة نظر أن هذا الطريق لايوصل، وأن الطريق الصحيح هو طريق الإقناع والدعوة الفردية، ولم يقطع الإخوان برأي في ذلك، وكان واضحاً أن الأستاذ يرى أن هذا طريق لا بأس من تجربته.

وقد جرى التساؤل حول اليمين الدستورية وفيها النص على احترام الدستور، فقال الأستاذ: إن الدستور المصري بروحه وأهدافه العامة من حيث الشورى وتقرير سلطة الأمة وكفالة الحريات لا يتناقض مع القرآن، ولا يصطدم بقواعده وتعاليمه، وبخاصة وقد نص فيه على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، وإذا كان فيه من المواد ما يحتاج إلى تعديل أو إنضاج فقد نص الدستور نفسه على أن ذلك التعديل والإنضاج من حق النواب بطريقة قانونية مرسومة، وتكون النيابة البرلمانية حينئذٍ هي الوسيلة المثلى لتحقيق هدف الإخوان من قولهم: «القرآن دستورنا».

● ● ●

الفَصْل التَاسع

الدَّعْـوَة العَـالَمِيَّـة

- ١ -

دخلت دعوة الإخوان عام ١٩٤٦م مرحلة الدعوة العالمية، وعملت على استكمال هذه الوجهة، فصدرت جريدة (الإخوان المسلمين) اليومية؛ أعلن عن مشروعها في اكتتاب بلغ (١٠٠) ألف جنيه للجريدة ومطبعتها. وفي دعوة حارة:

«لقد انتهت حرب الحسام، وسكت صوت المدفع، وبقيت حرب المبادئ والآراء، وبقي دور المطبعة والإذاعة، ومعركة الأوراق والصحف، وقد تجهز لها الناس في كل الميادين، وها أنتم تشهدون هذا السيل الجارف من المطبوعات والجرايد، تحمل مختلف الآراء والتوجيهات، وتغزو العقول والأفكار بمختلف الدعايات، والاحتلال العقلي أشد فعلاً في حياة الأمم من الاحتلال العسكري، والاستعمار الفكري أبقى أثراً من الاستعمار السياسي».

وقد صدرت الجريدة في مايو (أيار) ١٩٤٦م وصودرت في نوفمبر ١٩٤٨م لنشرها النص الحرفي لتقرير الحاكم العام للسودان إلى السفارة البريطانية، وفضح مؤامرة الاستعمار البريطاني لفصل السودان عن مصر،

كذلك جرى تعديل قانون النظام الأساسي لما أطلق إليه (حركة الإخوان المسلمين العامة)، وكانت تسمى في نظامها الأساسي (جماعة الإخوان)، ثم (هيئة الإخوان).

وأشارت إلى أنها في ١٣٤٧هجرية الموافق ١٩٢٨ ميلادية وما بعدها اتجهت النهضة في البلاد العربية والإسلامية إلى الدعوة لتعاليم الإسلام الحنيف كنظام اجتماعي شامل يصلح به أمر البشرية في الدنيا والآخرة، وتألفت لذلك جماعات إسلامية كثيرة تحمل أسماء متعددة منها: الإخوان المسلمون في مصر والسودان وفلسطين والأردن وغيرها، والشبان المسلمون، وشباب سيدنا محمد ﷺ في سورية ولبنان، وقد رأت لجنتها التنفيذية العامة أن تحمل هي أيضاً اسم الإخوان المسلمين وأعلنت ذلك عام ١٣٦٥ هجري الموافق عام ١٩٤٥ ميلادي.

وقد رأت هذه الجماعات كلها مع ما انضم إليها من جماعات الإخوان المسلمين في بقية الأقطار العربية والإسلامية أن توحّد نظامها الأساسي في أهدافه ومقاصده وروابطه العامة على أن يكون لجماعات الإخوان في كل قطر نظام إداري يتناسب مع وضعيات البلاد وقوانينها الخاصة، وتحقيقاً لهذه الرغبة وضع هذا النظام كقانون أساسي عالمي عام لحركة الإخوان المسلمين أينما كانوا.

غاية الحركة:

وقد أشار التقرير إلى أن الغرض الأساسي لحركة الإخوان المسلمين هو تحقيق الرسالة الكبرى التي جاء من أجلها الإسلام الحنيف. ومما يتصل بهذا الغرض الأساسي:

١ ـ تكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويعمل بتعاليمه .

٢ ـ نشر دعوة الإسلام وعرض رسالته العالمية عرضاً يتفق مع أساليب العصر .

٣ ـ مقاومة الحركات والمبادئ والدعوات الهدامة .

٤ ـ المساهمة في حركات التحرير الوطنية ، حتى تتخلص البلاد العربية والوطن الإسلامي بكل أجزائه من كل سلطان أجنبي .

٥ ـ العمل على إقامة الدولة الصالحة التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عملياً ، وتقوم بحمايتها وتبليغها في كل وطن إسلامي .

٦ ـ القيام بأعمال الخدمة الاجتماعية والشعبية .

وسيلة الحركة :

ويعتمد الإخوان المسلمون في تحقيق هذه المقاصد على كل وسيلة مشروعة ومن ذلك :

أولاً ـ الدعوة والإقناع : بالخطابة والدرس والرسائل والنشرات وتجهيز الوفود والبعثات .

ثانياً ـ التربية والتكوين : بتكوين الإخوان تكويناً صالحاً ، بدنياً بالرياضة ، وعقلياً بالعلم والثقافة ، وروحياً بالخلق والعبادة ، وأخذهم بآداب الإسلام وأحكامه أفراداً وبيوتاً .

ثالثاً ـ التوجيه والتنفيذ : بوضع المناهج الصالحة في كل الشؤون الحيوية من التربية والتعليم ، والقضاء والتشريع ، والإدارة والجندية ، والاقتصاد

والصحة والاسترشاد، في ذلك كله بتوجيه الإسلام الحنيف.

رابعاً ـ الإنشاء والتأسيس: بإقامة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وتأليف لجان تنظيم الزكاة، والإصلاح بين الأفراد والأسر، والعناية بالطفولة والشباب.

* * *

وفي هذه المرحلة أعلن الأستاذ البنَّا موقف الإخوان من كل الأمور، في الداخل والخارج تحت عنوان (نحن):

«نحن لسنا حزباً سياسياً، ولا طريقة من الطرق الصوفية، ولا جمعية خيرية، ولا نادياً رياضياً، ولا مؤسسة مالية اقتصادية؛ ولكننا هيئة إسلامية تجمع ذلك كله في أوضح أشكاله وأنفع آثاره وأصفى موارده، وتضم إليه كل ناحية نافعة من نواحي النشاط الاجتماعي المختلفة. وسبب ذلك واضح: وهو شمول الدعوة التي جاء بها الإسلام الحنيف، وسعة منهجها الإصلاحي الذي وضعه للمجتمع الإنساني، فالإسلام يدعو أول ما يدعو إلى تصفية النفوس، وتطهير الأرواح، ومكارم الأخلاق، وأمهات الفضائل، وقد أخذ أهل التصوف الصحيح والطريق المستنير ورجال التربية الإسلامية على عاتقهم القيام على هذه الناحية. ويدعو إلى البر بالمجموع، والإحسان إلى الناس، والمبادرة إلى الخير، وإسداء المعروف الجميل، وتشجيع العلم والتثقيف، والجمعيات الخيرية تعمل على تحقيق هذه المعاني.

والإسلام يحث على الكسب والعمل وتنمية الثروة الصالحة، والتعاون على البر والتقوى، وهي مهمة المؤسسات المالية والجمعيات التعاونية والاقتصادية.

كما يدعو الإسلام إلى المعاني السابقة فهو يفرض الجهاد في سبيل عزة الأوطان وحماية البلاد من اعتداء الغاصبين واستيلاء الطامعين، ويجعله فرض عين إذا حاول متعد أن ينال من حرية الوطن، أو ينتقص من استقلاله، أو يطأ أرضه، أو يتدخل في شأنه. كما أنه ينظم الصلة بين الحاكم والمحكوم، ويحدد حقوق كلٍّ وواجباته، وشروط الحكومة الصالحة ومصدر سلطانها، وطريق مراقبتها وتقويمها، أو مؤاخذتها، وهي المهمة التي تقوم من أجلها الأحزاب السياسية.

وقد استولت على الأذهان فكرة خاطئة منذ أزمان بعيدة هي قَصْر معنى الإسلام على بعض نواحي الإصلاح الاجتماعي، كتصفية النفس، وإسداء الخير؛ مع عزله وتنحيته عما سوى ذلك من شؤون الحياة.

فقام دعاة الإخوان من أول يوم يصححون هذا الخطأ، وينادون بأن هدف الدعوة التي يجاهدون في سبيلها:

«تكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ويعمل بتعاليمه، ويوجه النهضة إليه؛ لتكون مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من روحه، مرتكزة على قواعده وأصوله: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة». وانتشرت فكرتهم على هذا الأساس، وتكوّن على هذه القاعدة فعلاً هذا الجيل الجديد من شباب الإسلام ورجاله وشعاره: الفهم الصحيح، والعمل المنتج في كل ميادين الفكرة الإسلامية.

نحن والديمقراطية:

ويقول الأستاذ البنّا في هذا المسرد: إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي هو ذلك النظام الذي يدافع عن القواعد الأساسية للمجتمع، وهي الدين،

والأسرة وحرية التعاقد، وحقوق الأفراد؛ على أن تكون القوانين متجهة إلى مساعدة الضعفاء والنهوض بهم، وللحكومة أن تتدخل في الشؤون العامة بالدرجة التي تساعدها على الوصول إلى الإصلاحات الاجتماعية اللازمة.

وإذا كان المراد بالحكومة الديمقراطية أن يكون للشعب منها نصيب من الحكم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ على أساس أن لكل فرد شريف بالغ من الحقوق ما لأي فرد آخر في الاشتراك في شؤون بلاده.

إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي هذه المعاني؛ فإننا نرحب بالديمقراطية على أنها بعض ما جاء به الإسلام الحنيف، فقد جاء الإسلام الحنيف ليقيم المجتمعات الإنسانية على أصلح القواعد وأقربها إلى السعادة والطمأنينة والسلام، وجاء يدافع عن العقيدة الحقة، وعن الأسرة الصالحة، ويضع أحكم النظم، وأكفلها للمودة والرحمة وجميل المعاشرة، ويضمن حرية التعاقد وحقوق الأفراد الشخصية وحقوقهم في الملك والرأي والتعليم والعمل وخص الفقراء والضعفاء من الناس بعناية لم تتوفر في أي نظام آخر وفي القرآن الكريم ـ وهو أساس النظام الإسلامي ـ آيات عديدة في العناية بالضعفاء والفقراء، ووجوب العمل على رفع مستواهم، وتحسين أحوالهم حتى تسود العدالة الاجتماعية كل أفراد الأمة، كما أن الحكومة في الإسلام راعية فهي مسؤولة عن الشؤون العامة والخاصة، ولها أن تتدخل كلما كان تدخلها أجدى على المجتمع وأنفع للناس.

وقد قرر الإسلام مبدأ الشورى والنصيحة، وأشرك بذلك الأمة في حكم نفسها؛ ونحن إذن نرحب بالديمقراطية لأنها مما جاء به الإسلام ونخضعها في تطبيقها وتفسيرها لقواعده وأصوله لا لنظريات الغرب وأهوائه ونوازع علمائه وأهواء رجال السياسة فيه.

فإذا وضعنـا إلى جانب ذلك أننـا أمة مسلمة، والإسـلام الحنيف جاء يوحِّد الأمة التي تؤمن به بحكم الدين، ويؤلِّف بينها ويجعلها كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد؛ علمنا أن الإسلام إنما جاء ليقيم هذه الوحدة بين الذين يؤمنون به، بل ليتخذها سبيلاً إلى وحدة عالمية ونظام مشترك تسعد في ظله الإنسانية كلها.

ـ ٢ ـ

ولقد اتسع نطاق الدعوة حتى تعدى الحدود، إلى السودان وسورية ولبنان واليمن، ثم اتسع نطاقها في قلب إفريقية فوصلت إلى أرتيرية وإلى مناطق مختلفة في آسية أهمها الباكستان وأندونيسية.

وفي باكستان اشترك الإخوان في المؤتمر الآسيوي الذي عقد في دلهي الجديـدة، وانتخب مندوبهم (مصطفى مؤمن) رئيسـاً لهذا المؤتمر، ودعت جامعة (عليكرة) مندوبهم لافتتاح أول شعبة للإخوان في الهند.

وفي كولومبو بسيلان تألفت لجنة لإنشـاء شُـعب للإخوان، وأرسـل مسلمو بورما برقية يستنجدون فيها من قسوة الهنود.

وعندما وصل مندوب الإخـوان (صالح عشماوي) إلى كراتشـي، أعلن قائدها محمد علي جنـاح أن حكومته ستسـير على هدى القرآن ووفق تعاليم الإسلام.

وفي أندونيسية تقبَّل المسلمون الدعوة، وانضووا تحت لوائها، ووقف الإخوان موقفاً حاسماً معهم في تحرير بلادهم.

وفي إنكلترة ارتفع صوت الدعوة، وانعقد مؤتمر الطلبة العرب في كلية الملك في لندن، وقد مثلت فيه جماعة الإخوان، ونشرت (التيمس) مقالاً عن

نشـاط الإخوان وقالت: إن هدفهم العمل على إحيـاء الإسلام وإنشـاء جيل جديد.

وفي أمريكة وزع الأستاذ مصطفى مؤمن رسالة شباب الإخوان المكتوبة بدمائهم على مندوبي الصحف في (ليك سيكسس) على إثـر صيحتـه داخل مجلس الأمن وإخراجه منه.

وفي إيطالية قام الدكتور محمد الحسيني بإنشاء مكتب الإخوان.

وفي العراق قامت الشُّـعب في بغداد والموصل وإربـل والسـليمانية وكركوك والأعظمية بقيادة الأستاذ محمد محمود الصواف.

هذا وقد اتسـع نطاق الدعوة في إيـران وأفغانسـتان وجزيرة سـيلان، وأندونيسـية والصين بالإضافة إلى أقطار المغرب الأربعـة: ليبية، وتونـس، والجزائر، ومراكش.

* * *

ونشـر الدكتور (إنريكو إنسابتو) في مجلة (إسكامبي أنتر كونتننتل) في رومة مقالاً تحت عنوان: بعث جديد للإسلام قال فيه:

«أدلت إلينا هذه الحرب الأخيرة بنهضة للإسلام، إنها يقظة عالـم يموج بثلاثمئة مليون نفس، وإنها بعث جديد لمدنية رفيعة أصيلة عريقة، أما باعث هذه النهضة الإسـلامية والنافخ فيها من روحه فحركة سـياسية تسـتوحي من الإسلام غاياتها ووسائلها، هي حديثة عهد بالوجود، ولكنها تنحدر من أصول تضرب في أعماق القِدم، وهي حركة الإخوان المسلمين، التي تؤيدها جموع حاشدة من المريدين والأتباع من مصر إلى الباكستان.

عقب هزيمة تركية في الحرب العالمية الأولى، وسقوط الخلافة العثمانية قامت في مصر والهند حركات قومية تفصل بين الوطنية والدين، وبذا فتحت هوة بين الإسلام والوطنية مصدرها وهن الإحساس الديني، وهجر السنن والتقاليد، والتهافت على تقليد الأجانب، ونقل آثار مدنية مغايرة في نواحي التفكير والآراء إلى بيئة ليست بمنجمها ومنبتها. وفي حين يدعو الإسلام إلى حب الوطن، إلا أن اقتباس الآراء والأساليب الأوروبية وعدم تمثلها تماماً قد جرَّ إلى انتحال نوع من الوطنية الضارة المتعصبة.

ومجمل القول: إن التحول عن السنن وتجريد العمل السياسي من مادته الدينية؛ قد أدى بالوطنية إلى شعوبية جافية بفعلها، تولد الغل والضغن، كما حدث بين الفرس والعرب.

ويتجلى مما أسلفنا سقوط الأحزاب الوطنية كالوفد، وقد كان من أقوى الأحزاب المصرية، ثم لم يلبث أن عانى انشقاقات عديدة، وتفككت أوصاله إلى أحزاب أخرى، تطرق شعباً جديدة، وينشب بينها صراع مستعر، على الرغم من اشتراكها جميعاً في المبادئ، ولقد ملّ الشعب الجدل والمعارك السياسية، فأخذت جموعه بجمهرتها تسير قدماً نحو الإخوان المسلمين، ومن هنا ندرك هذا النضال المشبوب القائم بمصر بين الأحزاب القديمة وحركة الإخوان المسلمين الفتية القوية.

ولقد أبدى الزعماء القدماء عجزاً عن تربية الشعب والسير به في أطوار الزمن وتيار التاريخ، فلا عجب أن خلفهم اليوم ظهرياً وانفض عنهم، ولا نعتقد أن ما الْتمس من الوسائط الديكتاتورية التي تفعل فعلها في النظام المصري قادرة على منازلة أو اعتراض طريق حركة حديثة كهذه، فسوف لا تخرج من الميدان

إلا قاهرة منتصرة، لا يثنيها عارض ولا ينخذل لها عزم.

وإذا قلّدت الأحزاب الوطنية النماذج الأوروبية أغفلت من حسابها العامل الديني وهو قوام الإسلام وملاكه، مع أن هذا العامل يذكي نفوس الإخوان وينفخ من روحه في حركتهم، فهم يسيرون حقاً من جديد مع الإسلام جنباً إلى جنب، وهم يجعلون الإسلام قبلتهم وهم يرصدون للإسلام جهودهم ومساعيهم.

وحركة الإخوان المسلمين ترى أنَّ العامل الديني جد ضروري للعالم الإسلامي، إذ إنه يقوّم رعية النبي، ويسود مناحي حياتها الروحية والاجتماعية والثقافية، وهاكم الشيخ حسن البنّا الذي أدرك باعتماده على الدين وتمسكه بالسنة من جلالة المكانة ما لم يدركه أحد غيره وأعلام الأزهر وجمهور الشعب تلتف حوله وتظاهره وتنصره. ولقد جعل الرجل من حركته قوة لها خطرها وأثرها، وأصبحت جريدة الإخوان ترجمان العالم الإسلامي كله، وأضحى نفوذها ورواجها عظيماً داخل مصر وخارجها». اهـ.

* * *

كذلك نشرت جريدة (التيمس)[1] مقالاً ـ عن الروح الوطنية في مصر ـ أشارت فيه إلى الإخوان فقالت: «إنهم ليسوا سياسيين أو حزباً سياسياً، ولكنهم وطنيون يعملون لخير مصر واسترداد حقوقها المغتصبة.

ولما كان حسن البنّا شديد الإيمان بالتعاليم الإسلامية وخطيباً مفوهاً؛ فإنه ما لبث أن كسب أتباعاً وأنصاراً كثيرين ونفوذاً كبيراً، وأظهر أنه سياسي

---

(١) الصحف ١٢/ ١٢/ ١٩٤٦م.

بارع، فقد أصبح للجمعية بفضل إدارته الحكيمة فروع في جميع أنحاء مصر، وبدأت مبادئه تنتشر في البلاد العربية المجاورة، ثم أصدر جريدته اليومية في أوائل ١٩٤٦م.

وتتألف هذه الجمعية من طبقة العمال، ولكنها تضم عدداً من الطلبة والمثقفين، ولم تبدِ طبقة أصحاب الأراضي حماسة كبيرة نحوها؛ خوفاً من احتمال ازدياد قوتهم، مما يفضي إلى إضعاف سلطة الطبقة العليا على الفلاحين، ويلوح أن لهذه الهيئة طابعاً عسكرياً، فأعضاؤها يسيرون في طوابير، ويتدربون ويظهرون في زي عسكري أمام الجماهير.

والهدف الرئيس للهيئة هو العمل على إحياء الإسلام، ولتحقيق هذا الهدف تقضي الضرورة بتنشئة جيل جديد يفهم معنى الإسلام، ويتبع التعاليم الإسلامية. ويعتقد الإخوان المسلمون أن المدنية الغربية الحديثة تقوم على الماديات وحدها، وهي المسؤولة إلى حد كبير عن تدهور السلوك والأخلاق، ونشر الفقر والبؤس في مصر.

وقد قال الشيخ البنَّا في العام الماضي: إنه يتكلَّم باسم (٥٠٠) ألف من الإخوان الذين يمثلون مبادئ وآمال (٧٠) مليون عربي و(٧٠٠) مليون مسلم، وأضاف إلى ذلك أن مهمة الإخوان ليست سياسية بما في هذه الكلمة من معنى، ولكنهم يتمسكون بالإصلاح الاجتماعي، مما يجعلهم قريبين من الشؤون السياسية، ولقد اتهم الإخوان المسلمون بالتعصب الديني، ولكن الإسلام أوصى بالتسامح، ولذلك فهم لا يشعرون بالتعصب الديني ضد الأجانب

وقد تدخل الإخوان المسلمون للمرة الأولى في الشؤون السياسية المحضة في عام ١٩٣٦م، وكانوا من مشجعي الأعمال المعادية للبريطانيين

في مصر حينما نشبت الثورة العربية في فلسطين، وهم ما فتئوا من أنصار مفتي فلسطين.

ويعتقد الإخوان المسلمون أنَّ على مصر أن تقطعَ المفاوضات القائمة الآن بين مصر وبريطانية، وتعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، وتطالب البريطانيين بسحب قواتهم دون قيد أو شرط، في وقت يحدده الخبراء العسكريون المصريون، فإذا رفضوا ذلك اعتبروا معتدين مسلحين، ولا بد من عرض الأمر على هيئة الأمم المتحدة.

ويرى الإخوان المسلمون ألا تقبل أي معاهدة أو تحالف مع البريطانيين ما دام الاحتلال قائماً، ويجب أن يستعد سكان وادي النيل للكفاح من أجل حقوقهم، وأن لا يكون هناك تعاون من الآن مع البريطانيين». اهـ.

* * *

كذلك نشرت المجلة الفرنسية: (أرض السلام Enterrd, Alslam) الصادرة بمدينة ليون بحثاً مستفيضاً بقلم الأب (ج جانو) يقول فيه[١]:

«إن الوزارات المختلفة قبل الحرب الثانية لم تهتم بالإخوان، ولكن السفارة البريطانية كانت يقظة، فعند ابتداء الحرب طلبت الحكومة الإنكليزية - بموجب معاهدة ١٩٣٦م - اتخاذ الإجراءات ضد العناصر المتطرفة، ولم ينج من ذلك الإخوان، فقد عطلت مجلتهم وأغلقت مطبعتهم، ومنعت اجتماعاتهم، وحيل بين رؤسائهم وموظفيهم في الحكومة، واعتقل الثائرون منهم.

---

(١) الصحف ٢٦/ ٥/ ١٩٤٧م.

ولما انتهت الحرب ابتدأ تسديد الحساب، فطلب المصريون الجلاء كما وُعدوا بذلك، ولكن أمام بطء الإنكليز في الاستجابة لرغباتهم أعلنوا إضراباً عاماً في أوائل فبراير (شباط) ١٩٤٦م فلم تؤيدهم الحكومة.

ماذا حصل يومذاك؟ لا يعرف أحد، ولكن حوالي الظهر حصل اصطدام بين المتظاهرين وسيارات حربية بريطانية كانت تريد أن تقطع طريقها، وتفاقمت الحال بسرعة، وأظهر المتظاهرون روحاً نظامية، ولأول مرة اعترف الإخوان بأنهم ليسوا بعيدين عن الإضراب، ثم بعد عدة أسابيع صدرت لهم جريدة يومية إلى ميدان العمل.

يقولون في بيانهم إنهم ليسوا حزباً سياسياً، وإنهم لا يؤيدون أية حكومة حزبية. ولكن كيف يستطيع الإخوان أن ينصروا دعوتهم في بلد ديمقراطي، وفي عصر تسيطر فيه الديمقراطية بلا جدال في أكثر أنحاء العالم، دون أن يكونوا في الحكم، وكيف يتقلدون الحكم إذا لم يؤيدوا الأحزاب السياسية الأخرى ويسابقوها، وينتزعوا منها تدريجياً أغلبيتها البرلمانية؟!.

وإذا وصل الإخوان إلى الحكم كيف يتجاهلون وجود الأحزاب الأخرى؟ لا يجهل الإخوان هذه الاعتراضات التي سيواجَهون بها يوماً ما، فيتعجلون بالرد بأنهم ديمقراطيون أصلاً لأنهم مسلمون، وأن الديمقراطية من روح الإسلام، ولكن الديمقراطية ليست إلا ضمان الحرية للفكر والعمل فلا يجب أن تسمح بتولية الأحزاب.

وفي جانب الأحزاب العديدة التي في مصر دون برنامج اجتماعي أو سياسي امتاز الإخوان بأنهم رسموا طريقاً لا شك فيه، وأن له برنامجاً ملموساً واضحاً؛ فإذا تقلدوا الحكم لن يحتاجوا إلى تعيين طريقهم.

إن المادة (١٤٩) من الدستور المصري تنص على أن دين الدولة هو الإسلام، فتطبيق نظام الإسلام ضرورة دستورية ودينية، فلا بد من جعل القوانين إسلامية، ولكن الرجوع إلى الشرع يضع مسائل شائكة؛ مثلاً: يمنع القرآن القرض بالفائدة، ولكن الإخوان يردون على ذلك: من ذا الذي يمنعنا أن نختلف عن الشعوب الأخرى، ولماذا لا تكون مصر هي الأولى في منع القرض بفائدة؟!.

وينتظر الإخوان بفارغ الصبر دون أن يعلنوا ذلك الانتخابات، ولقد بحثوا بلا جدوى للوصول للحكومة التي تناصر المبادئ الصادقة لتعاونهم على تحقيق برنامجهم، ولكن أمامهم خصماً عنيداً، فإن (الوفد) لا يزال حزباً كبيراً منظماً، ولا يلوح أن أي رئيس حزب آخر ينتظر أن يتنازل ليعطي محله لحسن البنَّا المرشد العام للإخوان المسلمين». اهـ.

ومن نطاق الدعوة العالمية كان على الدعوة أن تدخل أخطر تجاربها.

● ● ●

الفَصْلُ العَاشِر

مَعركة فلسطين

تُعدُّ معركة فلسطين هي بؤرة الأحداث، وقمة التحدي؛ وذروة الموقف كله في مصير الأستاذ البنَّا. ومنذ اليوم الأول لقضية فلسطين وموقف الأستاذ البنَّا منها موقف الإحساس العميق بأبعادها الخطيرة وتحدياتها الواسعة، وما وراءها، وما يمكن أن تحمل معها من رياح، وهو موقف لم يكن موجوداً لدى كثيرين ممن كانوا يعملون في مجال السياسة أو الوطنية أو الصحافة، ولذلك كان ٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٧م يوماً حاسماً حين انعقد المؤتمر العربي الكبير في القاهرة من أجل فلسطين في الجامع الأزهر وكانت كلمة المرشد واضحة الدلالة.

«ليس لهذا العدوان الذي اجتمعنا اليوم من أجل التفكير في وسائل دفعه عن أرض العروبة والإسلام نظير في تاريخ البشرية كلها، فلم يحدث أن تآمرت طائفة من الناس على أرض أمة من الأمم فاحتلتها بالخديعة، ثم اقتطعت منها ما شاءت بالإرهاب، ثم سخرت أمم المادة والشهوات لتحكم لها بما أرادت؛ بشراء الذمم واحتكار الضمائر والمساومة على الأصوات، ثم زعمت أنها ستقيم دولة، وتنشئ حكومة لتعيش بين هذه المجموعة الضخمة من الشعوب رغم أنفها».

«إن قرار التقسيم الظالم الذي يقر قيام دولة صهيونية في قلب بلاد العرب

لا ينال فلسطين وحدها، ولكن يتعداها إلى كل وطن عربي آخر بجوارها، ثم إلى الأوطان الإسلامية جميعاً، فإن اليهود لا يخفون نواياهم، ولكنهم يجاهرون ويهتفون بأن ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل، بل إنهم ليحلمون بيثرب موطن بني قريظة وبني النضير سابقاً، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم اليوم، ومستقر أكرم إنسان عرفته الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، ولن يصلوا إلى شيء بإذن الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]».

«إن المسلمين في بقاع الأرض سيقاومون بكل ما فيهم من شدة هذا العدوان الصارخ، ولن يستسلموا أبداً لمستعمر الأمم المتحدة المزيفة، ولا لإرهاب الصهيونية الذليلة وقوتها المصطنعة، وسيرى الذين يشكون أو يتشككون في مقدرة المسلمين وقوتهم واستعدادهم للدفاع أنهم واهمون.

وإننا بحمد الله نملك من القوة المادية والمعنوية ما نصل به إلى النصر إن شاء الله، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

«إننا معشر المسلمين على اختلاف بلادنا قد تفهمنا سرّ الشهادة، وتذوق أسلافنا حلاوتها، وقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يكون جندياً للحق، يذود عنه بنفسه وماله وروحه، ولا يتردد في ذلك أبداً، إننا نؤمن بأن آجالنا محدودة وأيامنا معدودة، وإننا نؤمن بأنه لن يصيبنا شيء إلا بقضاء الله». اهـ.

هذه المعاني التي قالها الأستاذ البنَّا بين عديد من الخطباء قالوا في ذلك اليوم مثلها وأكثر منها تتميز بأنها لم تكن صيحة في وادٍ، ولكنها كانت تعبر عن الواقع الذي حدث بعد ذلك تماماً، تعبر عن هذه الكتائب التي انطلقت فبهرت أعين الناس بقوة إيمانها واندفاعها للاستشهاد في سبيل تحرير فلسطين، وهذه القوة والتحدي والقدرة على مغالبة العدو وهزيمته والاستيلاء على أسلحته وموارده، على نحو لم يُعرف لأي قوة أخرى تقدمت إلى الميدان بطراً ورياءً.

وقد عرفت الصهيونية ذلك، وعرف الاستعمار هذا الخطر الذي كشف عن جزء من قوته في هذه المعركة، وسرعان ما تبين ما وراء ذلك وما يمكن أن يقع بالنسبة لمصر وبالنسبة للعرب وكل أرض إسلامية فيها محتل، وهو ما عجل بالعمل السريع للقضاء على هذا الرجل وهذه الدعوة، وتدبير المؤامرة لإنهاء هذا الصرح، ووضع حد لحياة هذا الرجل المناضل الصابر المؤمن بالله.

كانت الصورة هي نفس الصورة التي عرفها المسلمون في كل موقف وتحدٍ وحرب ومقاومة، وكان الإيمان بالله وصيحة (الله أكبر) عاملاً خطيراً هزّ كيان الكتائب اليهودية المندفعة لاحتلال فلسطين، وكانت مصلحة اليهود تستدعي أن تُصفى حركة الإخوان وقائدها ورجاله الأبطال في الجبهة يعملون وقبل أن تنتهي معركة فلسطين.

وكان الأستاذ البنّا قد أعلن أنه سيدخل إلى فلسطين في عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى، ولكن الاستعمار البريطاني حال دون تحقيق ذلك، ورفضت حكومة (النقراشي) السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجزء الشمالي من صحراء النقب، فاتخذوا سبيل التعمية وذهبوا إلى سيناء في رحلة علمية، ومنها دخلوا إلى فلسطين سراً حيث لحقت بهم دفعات أخرى.

وبدخول أفواج الإخوان في فبراير (شباط) ١٩٤٨م بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب، حيث أخذوا في مهاجمة المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة، رغم قلة عددهم وضعف أسلحتهم، وتجمع حولهم المجاهدون من أهل فلسطين، وبدأت حرب عصابات منظمة، غير أن الحكومة طلبت من الإخوان سحب قواتهم من النقب، ورفض الإخوان، فقطعت عنهم الإمدادات، فلم يثنهم ذلك شيئاً، وعاشوا أياماً طوالاً على التمر والماء وعلى الخبز اليسير

الذي يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة، حتى دخل الجيش المصري البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب، واشتركوا في معظم العمليات، فلم تراجع الحكومة موقفها، بل شددت رقابتها، واضطر الإخوان إلى السير على الأقدام فتتابعت جموعهم، وكان أكثرهم شباباً أحداثاً، جاؤوا راغبين في تأدية فريضة الجهاد، غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية، وساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء!!.

كان الإخوان خطراً كبيراً على كيان إسرائيل، فقد نجحوا في التسلل عبر الحدود، ولم تمض أسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الإخوان لواء الجهاد الشعبي، ونجحوا في إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسورية وشرق الأردن، وساهم إخوان سورية بقيادة (مصطفى السباعي)، ثم قدّم الإخوان شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر (الهاكستيب)، ثم تسللت إلى فلسطين بقيادة أحمد عبد العزيز، وعبد الجواد طبالة.

وقام الإخوان بدورهم في معارك فلسطين في بسالة أدهشت القوات المصرية، وأدهشت الإنكليز واليهود على السواء.

بل إنهم في فترة من الفترات كانوا طلائع للجيش المصري تحميه وترد عنه عادية المباغتات[١].

وكان الأستاذ البنّا يعدّ العدة في ذلك الوقت لأن يقدم إلى فلسطين مع قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على

---

(١) راجع الإخوان المسلمين في معركة فلسطين للأستاذ كامل الشريف.

مراكز الجيش الأردني، وكان على وشك إعلان الجهاد الديني والتعبئة الشعبية بعد أن فشلت الحكومة وجامعة الدول العربية.

على أن هذه الحركة لم يقدر لها النجاح، بل لعلها هي التي سارعت بالعمل على حل الإخوان وتصفيتهم بعد أن هز قتالهم الرائع في فلسطين دوائر الاستعمار والصهيونية، ووقفت الحكومة المصرية ضد تقدمهم، وأمرت بانسحابهم من المواقع التي كانوا يحتلونها إلى معسكراتهم.

وكان جمع المجاهدين من الإخوان في معسكراتهم والحد من نشاطهم مقدمة لهذا العمل الذي دُبِّر بليل.

لقد كشفت معركة فلسطين عن أشياء كثيرة، عن ظهور جيل جديد يؤمن بالله والجهاد في سبيله، ويحمل السلاح ويقاتل، ويواجه الاستعمار البريطاني والاحتلال الصهيوني، وهو ما عمل الاستعمار سنوات طويلة دون وقوعه ولقد رأى الاستعمار هؤلاء الذين يستشهدون فرحين بلقاء ربهم، وشاهد صوراً عجيبة من بطولة هؤلاء المؤمنين.

لقد كشف الإخوان بدخولهم معركة فلسطين عن حقيقة خطيرة، هو أنهم أصبحوا قادرين على العمل في ميدان من شأنه أن يقلب خطط الاستعمار رأساً على عقب، فكان لا بد من القضاء على ذلك كله.

وكان مما أشار إليه الأستاذ البنَّا من عبرة فلسطين قوله: «كنتم تقولون متحمسين: الجهاد سبيلنا، فأبتسم ابتسامة الإشفاق، وأقول عند الامتحان. فجاء الامتحان القاسي في قضية فلسطين، فأثبتم صدقكم وصدق إيمانكم، وألحقكم ـ والحمد لله ـ بسلفكم الصالح من الأنصار والمهاجرين».

● ● ●

الفصل الحادي عشر

معركة المصحف

وفي الوقت نفسه الذي كان الإخوان يقتحمون فلسطين، كان الأستاذ البنَّا يعلن في مصر معركة المصحف؛ كأنما كان يعلم أن المصائر توشك على نهايتها.

لقد أعلن الآتي: «بيننا وبين الناس كتاب الله».

قيل وما معركة المصحف؟

«والجواب إنها معركة وضع القواعد والحدود، وبيان المميزات والفروق، بين الذين آمنوا بالمصحف إيماناً حقيقياً فجرت به ألسنتهم غضاً طرياً، وانشرحت له صدورهم نوراً ربانياً وآمنت به قلوبهم إيماناً عميقاً وفقهت أحكامَه عقولُهم فقهاً دقيقاً، فطبقوه في حياتهم الخاصة تطبيقاً كاملاً وطالبوا به في حياتهم العامة مثلاً عالياً ونظاماً شاملاً؛ وبين الذين لم يسعدوا بعد بالانتساب إلى هذا الكتاب، أو انتسبوا إليه ثم رضوا بمجرد الانتساب، إما غفلة عنه أو تبرماً به، أو رضاً عن غيره، أو خديعة بأعدائه، أو أُلفة لسواه، أو خوفاً وخشية للذين لا يؤمنون بالله ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

قيل بين مَن ومَن؟

والجواب إنها بين الإخوان المسلمين الذين رأوا منذ عشرين سنة انحراف العالم كله عن جادة الصواب وضلاله في مسالك النظم الاجتماعية الفاسدة، وإهماله لهذا النظام الرباني الكريم والصراط المستقيم. كما رأوا كذلك نسيان أهل القرآن أنفسهم والمنتسبين إليه من أبناء الأمة الإسلامية لما فيه من روائع الحكم والأحكام، وانصرافهم عنه إلى مبادئ ودعوات لم يعرفوها، ونظم وأحكام لم يألفوها، جرّت عليهم الخيبة والفساد في الدنيا، وسيكون جزاؤها الندم والعذاب في الآخرة، فقاموا منذ هذا التاريخ يهتفون «القرآن دستورنا» ويطالبون في إلحاح بأن يكون للقرآن أمته الواعية، ودولته العاملة.

المعركة بين هؤلاء وبين أولئك من الصنفين: الذين لا يؤمنون به على اختلاف أممهم ودولهم وعقائدهم ليؤمنوا، والذين آمنوا به على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم وأحزابهم ومذاهبهم ليتذكروا ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة قٓ: ٤٥].

قيل وعلى أي أساس تدور؟

والجواب: إنها تدور بالحكمة والموعظة الحسنة، والبيان الصريح الكافي والدعوة الواضحة المشرقة، على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولن ندع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير، أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجهاً لوجه، فلا يستطيعون منه فراراً أو إفلاتاً، فإما عناد

وإما تسليم: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قيل وما النتيجة المرجوة من ذلك؟

والجواب: التميُّز أولاً، فلابدّ أن يمتاز أهل الحق من أهل الباطل، وحينئذٍ يزداد الذين آمنوا إيماناً بعد وضوح حجتهم وبيان محجتهم، ويتعثر أهل الرجس في رجسهم، ويشعرون بمرض القلب، وظلمة النفس وفداحة الجرم، ومرارة الإثم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، وما طال عمر الباطل إلا حين يمتزج به ستار من الحق، أو يمتزج هو بعناصر من الحق، وما قعد بالحق شيء كاختلاطه بطرف من الباطل ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥] ورحم الله القائل: «ميِّزنا يا خالد» وحين يتم هذا التمييز في الموازين والقواعد، ثم في النفوس والمشاعر، ثم في الأعمال والتصرفات، تحدَّد بفعاله الحقوق والواجبات، وينتصر أهل الحق بحقهم، ويتفرق أهل الباطل عن باطلهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله».

* * *

ولم يتوقف الأستاذ البنَّا عند هذا، بل بلغ إلى أقصى غايات النصح والتوجيه والإعذار إلى الله، فكشف عيوب النظام السياسي المصري في جملة مقالات متوالية تحت عنوان:

ألا هل بلغت؛ اللهم فاشهد.

وقال بصراحة: «إن النفوس لن تقنع ولن تطمئن إلا إلى رسالة جديدة ولون من الحياة جديد».

وأشار إلى الكفاح والتطاحن بين الآراء والأوضاع، ودعا إلى الاختيار، وقال في صراحة تامة:

«إذا لم نختر اليوم ونحن راضون فسنقبل غداً ـ بل الغد القريب ـ ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلال الرماد يوشك أن يكون له ضرام، أمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبران ـ من منطق التحالف الدولي اليوم ـ من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا، وأمامنا كذلك نظام الإسلام، وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام».

وقال: «ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحراراً في الاختيار، فإننا جميعاً آمنا بهذا الإسلام الحنيف ديناً ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية، بل هي زعيمة دول الإسلام.

إذن فلامناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي لله ولرسوله؛ يوم نطقت بالشهادتين، فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور، ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير هذا تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة الله والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

فهل تصيخ الآذانُ المغلقة إلى هذا النذير، فنعودَ إلى حجر الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقاً.

يا دولة رئيس الحكومة، يا رجال الأزهر الشريف، يا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا أيها الغُيَّر على مصلحة هذا الوطن العزيز،

ويا أبناء هذا الوطن جميعاً؛ إليكم أوجه النداء، فإلى تعاليم الإسلام ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد».

* * *

وجاءت ذكرى مرور عشرين عاماً على ظهور الدعوة (٥ سبتمبر - أيلول - ١٩٤٨م) وجدّد الأستاذ البنَّا حديثه عن الفكرة الإسلامية، وأشار إلى عالمية الحركة، وأنها بلغت ألفي شعبة وفي السودان (٥٠) شعبة وفي فلسطين والأردن وسورية ولبنان، والعراق والكويت وإمارات الخليج والحجاز، والمغرب العربي وأندونيسية وسيلان والباكستان، وإيران وأفغانستان وتركية، وأوروبة وأمريكة شُعَب وأصدقاء ومؤازرون.

وقال: إن عدد الأنصار العاملين في وادي النيل خمس مئة ألف (نصف مليون) والأعضاء المنتسبون أضعاف هذا العدد.

وأعلن أن هدف حركة الإخوان الإسلامية العالمية هي إحياء نظام الإسلام الاجتماعي الكامل الذي لا يقبل التجزئة، فهو وحدة متكاملة بكل مظاهره، من حيث المثل العليا الاجتماعية أولاً، ثم من حيث أوضاعه العملية التي تحل كل مشاكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

وكشف عن موقفه من الأحزاب والحكومات، فأعلن عن حرصه على أن تكون العلاقة مع الجميع طيبة؛ حتى تستطيع الدعوة وأهدافها السامية أن تصل إلى قلوبهم، فيجتمعون عليها، أو ينصرف إليها منهم من يجمع الله به الكلمة، ويقرب به مراحل الطريق، وإن كان قصور النظرة الشخصية ومطامع الأذناب والوسطاء، ودس الإنكليز والأجراء حال دون استقرار هذا الجو الهادئ، الذي

تتمحص فيه الحقائق، وتتحدد الوسائل والغايات.

وقال: نحن لا نعتبر أنفسنا حزباً سياسياً، بل نحن حركة إسلامية شاملة، مهمتنا توجيه الشعب توجيهاً سليماً، وتهيئته تهيئة صالحة.

وقال الأستاذ البنَّا ـ وتلك كانت خواتيم كلماته قبل المؤامرة ـ:

«هذه الدعوة هي مظهر إرادة الله النافذة وقدرته الغالبة، وإنه سبحانه يرعاها ويؤازرها، وكم اخترنا لأنفسنا واختار الله لنا، فكان الخير فيما اختاره وأنفذه».

ويصل في النهاية إلى هذا المعنى الخطير الذي يرمي إلى استكشاف الآفاق البعيدة:

«أقول وأنا شديد الأسف: إنكم الآن القوة الوحيدة الصامدة أمام الخطرين الداهمين اللذين يهددان العالم الإسلامي أولاً ويهددان البشرية كلها بعد ذلك، وهما: خطر الإلحاد، وخطر الاستعباد، فإن هذه المادية الطاغية الجارفة التي استولت على تفكير وتصرفات الدول الكبرى، فجعلتها لا تزن الأمور إلا بميزان المنافع والمصالح الشخصية والاستعمارية، ولا تقيم وزناً لما عدا ذلك من المثل العليا وقواعد الخير والإنصاف والسمو، ودفعت بها بعد ذلك إلى الرغبة والتحايل، على أن تبقى قيود العبودية وأغلالها في أعناق وأيدي وأرجل الشعوب الناشئة التي لا ترضى أبداً بغير الحرية والتقدم.

هذه المادية التي تقودها اليهودية العالمية، وتموِّلها الدول الاستعمارية، لا علاج لها إلا في دعوتكم، ولا قوة تصمد أمامها الآن مع الأسف إلا جماعتكم، ولذا أبشركم وأنذركم بأنكم منذ الساعة ستتعرضون لأشد الامتحانات وأقسى الاختبارات، ولكن إن صبرتم وثبتم فسيكون لكم

الغلبة ولا شك، فاستعدوا للامتحان، واصبروا وصابروا ورابطوا، ولن تكون إلا إحدى الحسنيين: السعادة بالنصر أو الشهادة في سبيل الحق».

«إن العالم الآن تتجاذبه شيوعية روسية من جانب، وديمقراطية أمريكة من جانب آخر، وهو بينهما مذبذب حائر، لن يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام.

وفي أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحي السماء، فمن الواجب علينا أن نعلن هذه الحقيقة في وضوح، وأن ندعو إلى منهاجنا الإسلامي في قوة، ولن يضيرنا أن ليس لنا دولة ولا صولة، فإن قوة الدعوات في ذاتها، ثم في قلوب المؤمنين بها، ثم في حاجة العالم إليها، ثم في تأييد الله لها متى شاء أن تكون مظهر إرادته وأثر قدرته ورحمته: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

لا بد لنا أن نتسلم الراية: راية الحضارة الإنسانية لنسعد الناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتحنَّط، لا بد لنا من هذا، وإننا لواصلون إليه، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولتعلمن نبأه بعد حين.

الدنيا كلها حائرة ضالة لاهية، كلها تنظر إلى القيادة ومكانها شاغر، لن يملأه غيركم باسم الله وباسم محمد ﷺ.

أجدد البيعة على أن أظلَّ ـ كما عرفتموني جميعاً في أول يوم ـ عاملاً مجاهداً مكافحاً في سبيل دعوة الحق، لا ألين ولا أملّ ولا أتغير، حتى يحق الله الحق؛ والله على ما أقول وكيل.

● ● ●

الفَصْل الثاني عَشَر

المُـــؤامَـــرَة

في ٨/ ١٢/ ١٩٤٨م أصدر الحاكم العسكري قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، ومصادرة أموالها وأملاكها ونشاطها في جميع البلاد، واعتقال رؤسائهما وأعضاء هيئتهما.

وقد جاء ذلك بناء على مذكرة أعدّها وكيل الداخلية عبد الرحمن عمار وَرَد فيها أنه ضُبط للإخوان سيارة جيب مليئة بالمتفجرات، وبعض الأسماء والخرائط؛ بالإضافة إلى عديد من الأحداث الأخرى التي اتهموا فيها.

وقد أدى ذلك إلى احتلال المركز العام، والقبض على كل من كان فيه، وكذلك اعتقال أبرز أعضاء الجماعة، وقد نقل الأستاذ البنَّا مع من قبض عليه من الإخـوان إلى محافظة مصر؛ غير أن المسـؤولين أطلقوا سراحـه وحده وتركوه حراً، وهذا كان يعني أشياء خطيرة تكشفت فيما بعد، وسيق المعتقلون إلى (هاكستيب) حيث استمر اعتقالهم حتى أوائل عام ١٩٥٠م تقريباً[١].

---

(١) وصفت مجلة (الدعوة) في عام ١٩٥٢م عملية احتلال مركز الإخوان واعتقال مَنْ فيه عشيّة صدور قرار الحل؛ فقالت تحت عنوان (جاء الحق وزهق الباطل):

«في يوم ٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م وفي الساعة الحادية عشرة مساءً دوّى=

= صوت المذيع لنشرة الأخبار بأول خبر؛ فإذا به أمرٌ عسكري بحلِّ جمعية الإخوان المسلمين. فأسرعنا إلى دار المركز العام (بالحلمية الجديدة) حيث وجدنا الإمام الشهيد والمرشد الراحل في مكتبه؛ رابطَ الجأش، ثابت الجنان، وقد وصله ومعه صفوة من الإخوان لم تكن قد انصرفت بعد.
ومضت دقائق معدودات في حديثٍ هام، وإذا بصوتٍ يشقُّ الفضاء عرفنا فيه صوت معاون الدار، وخرجنا إلى الفضاء نستطلع، فرأينا القوات المسلّحة والسيارات المصفّحة تحاصر الدار من كلّ جانب، ثم تقتحمها، وكأنها تقتحم حصناً منيعاً ملؤه الجنود والسلاح، وعلى رأس القوة ضابط شاهر مسدسه مثبت بصره وحواسه في شخص فضيلة المرشد العام وقال:
إن عندي أمراً بالقبض على مَنْ بالدار عدا فضيلة المرشد، ثم أخذ يرجو فضيلته أن يسهّل مهمّته لأنه (عبدٌ مأمور).
وخرجنا من المركز العام بعد أن أغلق البوليس أبوابه إلى سيارة من سيارات البوليس كانت عند الباب، وركبنا في حراسة الجند وهم شاهرو السلاح، وأبى فضيلة المرشد العام رحمه الله إلاّ أن يركب معنا، ويطلب إلى رئيس القوة أن يعتقله معنا.
وعبثاً حاول الضابط الاعتذار، وقد ركب معنا السيارة حتى مقرّ المحافظة، وهناك احتالوا عليه فجاءه أحد الضبّاط يرجوه للتفاهم معه، فنزل فضيلته من السيارة واتّجه إلى مكتب الحكمدار. وكان هذا آخر عهدنا به ـ رحمه الله ـ.
أما بقية القصة ـ الكلام هنا للأستاذ عباس السيسي ـ فيعرفها الإخوان تماماً، وسمع الناس عنها أشياء، وغابت عنهم أشياء، فقد رحل الأحرار إلى المنافي والمعتقلات، وتوالت حوادث التعذيب والتنكيل بالأطهار، وانتُهكت الحُرمات، وقُتل الأبرياء. ففي ٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م أغلقت دار=

= المركز العام للإخوان المسلمين، وصودرت ممتلكاتهم وشركاتهم وأموالهم في كل مكان، وظلّ مصيرها منذ ذلك الحين يتأرجح في كفة القدر، فقد قرّر النقراشي باشا رئيس الوزراء والحاكم العسكري ووزير الداخلية يومئذٍ أن يجعل من هذه الدار مقرّاً لبوليس قسم الدرب الأحمر، وقرّر دولته وبجلالة قدره أن يفتتحه بنفسه في أول يناير (كانون ثاني) ١٩٤٩م، مما يدلّ دلالة واضحة على أنّ حل جماعة الإخوان ومصادرة أملاكهم لم يكن الغرض منه المحافظة على الأمن العام كما تبجّح وكيله عبد الرحمن عمار، وإنما كانت الانتقام والتشفّي وإرواء غليل الحقد الدفين. قرّر النقراشي باشا ذلك فضحكتْ منه الأقدار..

وجاء بعده (إبراهيم باشا عبد الهادي) ولم يفكر كسلفه في افتتاح قسم الدرب الأحمر بدار المركز العام، وظلّ في منصبه حتى طُرد من الحكم.

وجاءت وزارة (سرِّي باشا) الائتلافية، وكان وزير المعارف فيها من السعديين فلم يكتم حقده، فأصدر أمراً بتحويل المركز العام إلى مدرسة البنات. ولكن مرة أخرى تضحك منه الأقدار ويسقط وزير المعارف إلى غير رجعة.

وأخيراً تجري الانتخابات، ويعود الوفد إلى الحكم على أكتاف الإخوان المسلمين وبعد أن بذل سكرتيره العام الوعود بعودة جماعة الإخوان، وردّ الأموال المغتصبة، ولكن معاليه لم يكد يجلس على كرسي الحكم حتى تبخّرت الوعود، ومدّ الأمر العسكري بحلّ جماعة الإخوان المسلمين سنة أخرى، وظلّت الدار وبقية الممتلكات تحت يد الحارس الأمين بعد أن رفعت الحراسة عن أموال اليهود في مصر!!

وحاول معاليه مع بعضهم أن يغيّر الإخوان اسم جماعتهم حتى يأخذوا دارهم وممتلكاتهم فرفض الإخوان، وذهب البعض وبقي الإخوان باسمهم وعلى=

= عهدهم. وفي ٣٠ إبريل (نسان) من نفس العام سقط الأمر العسكري وحلّ محله قانون الجمعيات.

وفي أول مايو (أيار) قابل وزير الداخلية في حكومة الوفد وفداً من الإخوان المسلمين ذهب يطالبه بتسليم المركز العام وبقية الدور، فرفض معاليه واعتذر بأن الجمعية ليس لها كيان قانوني، وهو لا يدري لمن يسلّم الدار. ثم أخذ يساوم ويغري بتسجيل الإخوان طبقاً لقانون الجمعيات الجديد، وبعدئذٍ فهو على استعداد لتسليم الدار والأموال، ورفض الإخوان في إباء وشمم، بعد أن قاوموا قانون الجمعيات، الذي أراد أن يمسخ دعوتهم، ويحول بينهم وبين الاشتغال بالشؤون الوطنية، وفتحوا شعبهم من الإسكندرية إلى أسوان، واتّخذوا لهم مركزاً عاماً مؤقتاً في حي الظاهر يباشرون فيه نشاطهم، ويعقدون اجتماعاتهم، ويديريون حركتهم ودعوتهم في سبيل إعلاء كلمة الله وإعادة مجد الإسلام وعزّة المسلمين.

وبقي المركز العام وبقية الممتلكات والأموال مصادرة، وأراد وزير الداخلية الوفدي أن ينتقم من الإخوان الذين شقّوا عليه عصا الطاعة، ولم يخرّوا له ولقانونه ساجدين، فأوعز بكتابة مذكرة ببيع المركز العام إلى وزارة الداخلية ليكون مقرّاً لقسم الدرب الأحمر. وهكذا بعث الوزير الوفدي اقتراح النقراشي باشا من رمسه، ولكن معاليه لم يكن أسعد حظّاً من دولته؛ فقد سخرتْ الأقدار منه كما سخرت من سلفه، فقد رفع الإخوان قضية أمام مجلس الدولة لإيقاف البيع، فحكم لهم القضاء، وقرّر المبادئ الخالدة التي أقرّت الحق والعدل، فقرّر أن جماعة الإخوان المسلمين عادت بسقوط الأحكام العرفية، وأنّ أموالهم وممتلكاتهم يجب أن تُردُّ إليهم، وأنّ قانون الجمعيات لا ينطبق عليهم. =

= ولكنّ وزير داخلية الحكومة الوفدية رفض أن يخضع لأمر القضاء وأصرَّ على عدم تسليم الدار والممتلكات حتى جاءت الظروف السياسية الأخيرة بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦م، فإذا به يتنازل عن قانون الجمعيات، ويصرّح بأن للإخوان أن يشتغلوا بالسياسة كسائر المصريين، ثم أرسل يستفتي مجلس الدولة بشأن الأموال فأفتاه بأحقية الجماعة بدورها وأموالها.

وأخيراً... وفي ١٥ ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٥١م هبط الوحي على الوزير، فطلب الأوراق الخاصة بجماعة الإخوان المسلمين واطّلع على فتوى قسم الرأي في مجلس الدولة بشأن ممتلكاتهم - ولعلّ معاليه لم يكن قد اطّلع عليها من قبل - ثم رأى معاليه أنّ إلغاء الأحكام العرفية قد أعاد إلى الجماهير حياتها القانونية، وأنه ينبغي أن تسلَّم أموالها إليها، ولذلك أصدر معاليه قراراً بذلك، وتسلّم الإخوان دار المركز العام.

ومضى عصر.. ثم جاء عبد الناصر بما هو أنكى وأمرّ.. جاء ليفعل الأفاعيل بما لم يستطع غيره من وزراء الأحزاب في عصر ما قبل الثورة.. جاء ليفتعل حادث الاعتداء عليه بالمنشيّة، ويثير الدهماء لتقوم بإشعال النار في المركز العام ومكتبته الإسلامية في أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤م، ثم ليجعل من هذا المركز الذي كان ملتقى للمسلمين في كل مكان مقرّاً لقسم شرطة الدرب الأحمر...

هذه قصة المركز العام نذكرها اليوم للعبرة والتاريخ، وهي عبرة ذات شقّين:
أما الشق الأول فهو خاصٌّ بالطغاة والمستبدّين الذين، يقدّرون فتضحك الأقدار، ويظنّون أنفسهم آلهة أو أنصاف آلهة بيدهم آجال الناس وأرزاقهم؛ فإذا بهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً! =

وفي هذه الفترة وقعت أحداث منها مقتل النقراشي في وزارة الداخلية في ٢٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م، حيث قتله طالب بكلية الطب البيطري - كان في زي ضابط بوليس - بأن أطلق عليه خمس رصاصات أردته قتيلاً في الحال، وقد قرر المتهم أنه وحده المسؤول عن الحادث، وقد مهد هذا لتدبير مقتل الأستاذ حسن البنَّا في ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩م.

وفي هذه الفترة التي كانت بين حل جماعة الإخوان وبين استشهاد المرشد؛ كان الأستاذ يعمل في جد وقوة لتفادي الأحداث، وقد أعدّ ردّاً ضافياً على مذكرة وكيل الداخلية تحت عنوان (قول فصل)؛ قال فيه:

أولاً - تقول المذكرة: لقد تجاوزت الجماعة الأغراض السياسية المشروعة إلى أغراض يحرمها الدستور وقوانين البلاد فهدفت إلى تغيير النظم السياسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب؛ ولقد أمعنت في نشاطها، فاتخذت الإجرام وسيلة لتنفيذ مراميها.

واستشهدت المذكرة ببعض الأمثلة، فذكرت ثلاث عشرة حادثة كلها

= أما الشق الثاني من العبرة فهو خاصٌّ بالمؤمنين الصادقين.. فمهما أظلمت الأيام وادّلهت الخطوب وبلغت القلوب الحناجر؛ فما عليهم إلا أن يستعينوا بالصبر والصلاة، ويكونوا بما في يد الله أوثق منهم مما في يد الناس، وليطلبوا الحوائج بعزّة النفس، فالنصر لهم في النهاية والعاقبة للمتقين.
أيها السعديون، والوفديون، والناصريون: هل رأيتم ما وعدكم ربكم حقاً؟! إننا نحن الإخوان المسلمين قد رأينا ما وعدنا ربنا حقاً.. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]». انتهى نقلاً عن كتاب (حسن البنا: مواقف الدعوة والتربية)، لمؤلفه عباس السيسي.

مردودة، ولا توصل إلى ما يراد من إدانة هيئة الإخوان المسلمين، ووصف نشاطهم القانوني المثمر بأنه نشاط إجرامي وهذا القول منقوض من أساسه فلم يكن الإجرام يوماً من الأيام من وسائل هيئة الإخوان المسلمين، فإن وسائلهم ظاهرة معروفة. فهذه المحاضرات والدروس، والرسائل والصحف، والأندية والدور والمساجد والمنشآت، ناطقة بأن وسائل هيئة الإخوان المسلمين لم تتعارض مع القانون في يوم من الأيام، ويكفي للرد: أن القانون حمى هذا النشاط عشرين سنة، ولم يستطع أحد الاعتداء عليه إلا في غيبة القانون، وفي ظل الحكم العرفي الاستثنائي الفردي البحت، والذي ينص الدستور في المادة (١٥٥) بأنه إذا عطل الحريات، فإن ذلك لا يكون إلا تعطيلاً مؤقتاً ينتهي هذا التعطيل بانتهاء الأحكام العرفية.

أما ما عُدد من الحوادث فها هي ذي حقيقتها في وضعها الصحيح.

١ ـ الجناية العسكرية العليا رقم (٨٨٣) لسنة ١٩٤٢م قسم الجمرك، وقد كان موضوع الاتهام فيه (الدعاية للمحور)[١]، وشاء ذوو الأغراض أن يقحموا فيها الإخوان المسلمين، وادّعى أحد المتهمين أنه عرض على الأستاذ البنَّا شخصياً أنواعاً من السلاح والعتاد الألماني، وأن الأستاذ البنَّا سُرَّ بذلك، ورحب بالحصول على هذه الأسلحة، وأن الوسيط في ذلك إخوان من إخوان طنطا، وقد قبض عليهما فعلاً، وقضيا في السجن ثمانية أشهر ونصف شهر، فماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟ كانت النتيجة أن كذب هذا المدّعي نفسه حينما ضيق عليه المحقِّق الخناق وهدده بالمواجهة، وحكم ببراءة الأخوين براءة نقية

---

(١) المحور: هو الجبهة الألمانية الإيطالية، التي حاربت بقية الدول الأخرى وعلى رأسها إنكلترة وفرنسة في الحرب العالمية الثانية.

واضحة كاملة فهل تصلح مثل هذه النتيجة تكَأة للاتهام؟! .

ويتصل بهذه القضية ما ذكر من موافقة الأستاذ البنّا على تقرير لأحد إخوان طنطا وكتابته بخطه أنه مؤمن بما ورد فيه، وعرض الموضوع على هذه الصورة فيه انتقاص للحقيقة، فلقد كان التقرير مطولاً، وكانت إشارتي عليه بالموافقة على بعضه وتعديل بعضه، ولو كان في هذا التقرير ما يؤخذ عليه لحوكم صاحبه، ولما صدر قرار المحكمة ببراءته، فقد كان أحد المتهمين المقبوض عليهما في الجناية السابقة.

٢ ـ الجناية رقم (٦٧٩) لسنة ١٩٤٦م قسم ثان بور سعيد، ويعلم الخاص والعام أن الإخوان المسلمين كانوا معتدى عليهم ولم يكونوا معتدين، فقد أخذوا على غرة، وحوصرت دارهم وحرِّق ناديهم الرياضي، ولم تثبت إدانة أحد منهم في شيء، ولم يكن القتيل الذي قتل خصماً من خصوم الإخوان، ولكنه كان صبياً في الطريق ـ جعله الله لأهله ذخراً ـ ولكن سعادة الوكيل يأبى إلا أن يجعله خصماً من خصوم الإخوان، ليوهم الناس أنهم يعتدون على خصومهم بالسلاح.

٣ ـ بتاريخ ١٠ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٦م ضبط أفراد هذه الهيئة بمدينة الإسماعيلية يقومون بتجارب لصنع القنابل والمفرقعات: وهي واقعة لا أصل لها بتاتاً فيما أذكر، وإني لأسأل مَنْ هؤلاء الأشخاص، وكيف حوكموا، وبماذا حكم عليهم؟ لأن الإخوان بالإسماعيلية معروفون كفلق الصبح، ولا أذكر أن أحداً منهم وجه إليه مثل هذا الاتهام في يوم من الأيام.

٤ ـ الجناية رقم (٧٦٧): والشخص الذي أدين في هذه الجناية بمناسبة حوادث ٢٤ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٦م لم يثبت أنه أُمر بهذا من قبل الإخوان

أو اشترك معه فيه أحد منهم، وقد كانت هذه الحوادث شائعة في الشباب في ذلك الوقت بمناسبة الفورة الوطنية التي لازمت المفاوضات السابقة، ولقد حدث بالإسكندرية أكثر مما حدث بالقاهرة، وضبط من الشباب عدد أكبر، وصدرت ضدهم أحكام مناسبة، ولم يقل أحد إنهم من الإخوان المسلمين؛ فتحميل الهيئة تبعة هذا التصرف لا حق فيه ولا مبرر له.

٥ ـ حادث اشتباك الجوالة بمأمور قسم الخليفة يوم ٢٩ يونيه (حزيران) ١٩٤٧م حادث عادي، ولم يكن فيه اعتداء بالمعنى الذي صوره، فقد اعترض المأمور ورجاله سير طابور نظامي من جوالة الإخوان المسلمين، وأراد منعهم بالقوة واشتبك مع قائدهم، وأشيع بينهم أن المأمور قد مزق المصحف الذي يحمله أحدهم، فثارت نفوسهم، ثم انتهى الأمر بالتفاهم كما ينتهي عادة مثل هذه الاحتكاكات بين البوليس والجمهور في أي اجتماع من الاجتماعات يتصرف فيه رجل البوليس بغير الكياسة واللباقة المناسبة للموقف.

٦ ـ الجناية رقم (٤٧٢٦) لسنة ١٩٤٧م ثبت أنَّ الذي اتهم فيها غير مسؤول عن عمله، وسقط الاتهام ضده، وما زال في المستشفى إلى الآن، فما وجه الاستشهاد بها في مذكرة رسمية، وهل تكون هيئة الإخوان مسؤولة عن عمل شخص تبين أنه هو نفسه غير مسؤول عن عمله؟!.

٧ ـ هؤلاء الخمسة عشر الذين ضُبطوا في ١٩ يناير (كانون ثاني) ١٩٤٨م بعضهم من الإخوان ومعظمهم لا صلة له بالإخوان أصلاً، وقد برروا عملهم بأنهم يستعدون للتطوع لإنقاذ فلسطين حينما أبطأت الحكومة في إعداد المتطوعين وحشد المجاهدين الشعبيين، وقد قبلت الحكومة منهم هذا التبرير، وأفرجت عنهم النيابة في الحال، فما وجه إدانة الإخوان في عمل

هـؤلاء الأفراد؛ خصوصاً، وقـد لوحظ أنه نُصَّ في قرار النيابة بأنه حفظ لنبل المقصد وشرف الغاية؟!.

٨ ـ الجناية رقم (١٤٠٧) لسـنة ١٩٤٨م كوم النور، كان الاشـتباك في حادثتها لأسـباب عائلية محضة، لا صلـة لها بالرأي، وإن كان كل فريق من الفريقين ينتمي إلى هيئة من الهيئات، وكثيراً ما يقع مثل هذا الاشتباك في القرى بين مَنْ لا صلة لهم بحزب أو هيئة.

٩ ـ وما نسب إلى الأستاذ محمد فرغلي في المذكرة ما زال رهن التحقيق، ومن الإنصاف انتظار ما يسفر عنه، ولكن المعروف رسمياً وعند الجميع أن الشيخ محمد فرغلي هو رئيس معسكر النصيرات ـ لا معسكر البريج ـ بجوار غزة، وأنه تطوع للجهاد من فبراير (شباط) ١٩٤٨م إلى الآن، ولازم متطوعي الإخوان في هذه المنطقة طوال هذه الفترة، وأسندت إليه قيادتهم، وأقرته قيادة الجيش المصري على ذلك، كما أنه معروف أن فضيلة الشيخ محمد فرغلي كان من أنصار المجاهد الكريم الشهيد عبد القادر بك الحسيني، وكان ممن يسهلون له مهمة الحصول على ما يريد، فالاتهام قبل التحقيق ظلم صارخ، وقد سألت النيابة الشيخ فرغلي، ثم أفرجت عنه، وإن كان الأمر العسكري قد صدر بعد ذلك باعتقاله.

١٠ ـ ١١ ـ أما ما يتصل بحوادث (كفر بداري، ومنية البراموني) فالثابت والمعروف أن أساس النزاع وأصل الاتهام فيها أن عمدة كل منهما لا يريد أن تقوم في القرية أية جماعة يكون لها مظهر وكيان، وكلا العمدتين صهر للآخر، وخطتهما في ذلك واحدة، وقد كان الإخوان هدفاً لاضطهادهما اضطهاداً قاسياً؛ ولولا ما في أنفسهم من إيمان لما ثبتوا له ساعة من نهار.

١٢ ـ وحادثة تفتيش (ميت موسى) مأساة تستحق الدراسة والرثاء، فقد كان الإخوان عامل تهدئة لنفوس هؤلاء المظلومين المحرومين الذين يستغيثون ولا مغيث، فاتهموا بالإثارة والتحريض، وقبض على أربعة منهم، وهم من خيرة الشباب، واستمروا في الحبس أربعين يوماً تحت التحقيق دون مبرر مكبلين بالحديد بين طنطا وكفر الشيخ. وماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟ أفرجت عنهم النيابة بلا ضمان، فهل هذه إحدى الحجج التي يراد بها إدانة الإخوان ووصفهم بالإجرام؟!.

١٣ ـ وخطابات التهديد التي ذكرها سعادة الوكيل تحدث فيها مع الأستاذ صالح عشماوي، فرد عليه مدير الجريدة رسمياً بخطاب مسجل نفى فيه بشدة هذا الاتهام، ورجاه أن يقف موقفاً حازماً مع هذه الشركات التي تتهم المصريين بالباطل، وإنا لنرجو أن يتفضل ببيان مقدار هذه الأموال التي امتصها الإخوان بالفعل؛ وهو يعلم تمام العلم أن الإخوان ليسوا هم الذين يحسنون امتصاص أموال الشركات أو غير الشركات.

* * *

ثانياً ـ انتقلت المذكرة بعد ذلك إلى اتهام الهيئة بإثارة الشغب في معاهد التعليم، وهي تهمة باطلة يشهد ببطلانها الأساتذة أولاً ورجال الأمن بعد ذلك؛ لو خلوا إلى أنفسهم واستنطقوا ضمائرهم غير متأثرين باتجاه خاص. ولقد كان كثير من الناس يعيبون على طلبة الإخوان الإغراق في الهدوء والمبالغة في الانصراف إلى الدرس، فيجيبون بأن واجبهم الأول أن يكونوا طلاباً، ولقد تخرج في ظل الدعوة مئات الطلاب من مختلف المعاهد فكانوا أوائل الناجحين في شهاداتهم، وكانوا من أفاضل الموظفين في أعمالهم.

والحوادث التي ذكرها لا تنتج أبداً ما يريد، ولا تسأل عنها هيئة الإخوان المسلمين، فقد كان ولا يزال معلوماً أن عنصراً جديداً طرأ على المعاهد والمدارس بعد الحرب الماضية، كان له أثر عميق في توسيع هوة الخلاف وتعميقها بين الطلاب، واستغلال التعصب للحزبية السياسية أسوأ استغلال، ودفع المواقف إلى العنف والاحتكاك، والله يشهد والمنصفون أن طلاب هيئة الإخوان كانوا هم أكبر ملطف لحدة هذه الظاهرة، وأول المناهضين والواقفين في وجهها. وفي كل هذه الحوادث كان أعضاء هيئة الإخوان في موقف المدافع دائماً، وما زالت -جميعاً- تحت التحقيق، ومن الثابت أن الطالب الذي استشهد في مدرسة (شبين الكوم) هو أحد طلاب الإخوان المسلمين، وقد أغفلت المذكرة عمداً هذه النقطة؛ لتظهر الإخوان بمظهر المعتدي مع أنهم هم المعتدى عليهم.

وعرضت بعد ذلك إلى حادث (الخازندار بك)، وكل ذنب الإخوان فيه أن أحد المتهمين شاع أنه سكرتير خاص للأستاذ البنَّا؛ مع أن هذه الصلة لم تثبت في التحقيق وإن أصرت المذكرة على وصفها بالثبوت، مع أنه على فرض ثبوتها لا يمكن أن تتخذ سبباً لإدانة هيئة الإخوان المسلمين.

ثالثاً: حمَّلت المذكرة الإخوان تبعة حوادث ٤ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م في الجامعة وكلية الطب، وحوادث ٦ ديسمبر ١٩٤٨م بالمدرسة الخديوية؛ مع أن المعروف أن هذه الحوادث بدأت مظاهرات سلمية بمناسبة موقف حاكم السودان العام من مصر والمصريين وبعثة المحامين، ثم تطورت بعد الاحتكاك برجال البوليس إلى تلك النتائج المؤسفة حقاً، ولم يكن دور الإخوان فيها أظهر من دور غيرهم من الطلاب، والمقبوض عليهم الآن معظمهم من غير الإخوان، ولم يعلن بعد قرار الاتهام، ولم يثبت أن لهيئة

الإخوان يداً في التحريض على هذا الذي حدث؛ فتحميل الإخوان هذه التبعة سبقٌ لكلمة القضاء.

رابعاً: أما حادث سيارة المتفجرات فقد ضبط فيه عدد كبير من الشباب من مختلف الهيئات، وما زال التحقيق فيه يدور بتكتم شديد، ويقول وكيل الداخلية: «إن ملابسات هذا الحادث كشفت أن جماعة من الإخوان المسلمين يكوّنون عصابة إجرامية»... إلخ. ويقتضي هذا القول لو أن الأمور تسير في حدودها الطبيعية أن تنتظر الحكومة نتيجة التحقيق، فإذا ثبت على هؤلاء المقبوض عليهم أخذوا بجرمهم، ومن غير المعقول أن تؤخذ الهيئة بتصرفات بعض أعضائها. وتقول المذكرة نفسها: «إنهم كوّنوا من أنفسهم عصابة تتنافى أغراضها ووسائلها مع أغراض الجماعة ووسائلها القانونية السِّلميَّة».

ومن هذه المناقشة الهادئة يتضح لكل منصف أن جميع هذه الحوادث العادية الفردية لا يمكن أن تلون دعوة الإخوان بهذا اللون ـ وقد مكثتْ عشرين عاماً صافية نقية ـ أو تنهض دليلاً على أنهم عدلوا عن وسائلهم القانونية إلى وسيلة إجرامية!!.

وبالتالي لا يمكن أن تكون بمفرداتها أو بمجموعها ـ وقد حشدتها المذكرة هذا الحشد المقصود ـ سبباً في هدم بناء إصلاحي ضخم، جنت منه مصر والبلاد العربية والإسلامية أبرك الثمرات، بل إن الدليل القاطع الدامغ ينادي ببراءة الإخوان من هذا الاتهام، فهذه دورهم وشعبهم وأوراقهم وسجلاتهم ومنشآتهم قد وضعت كلها تحت يد البوليس في جميع أنحاء المملكة المصرية، فلم يعثر في شيء منها على ورقة واحدة تصلح أن تكون دليلاً أو شبه دليل على هذا الانحراف المزعوم؛ بل لم تجد الحكومة أمامها إلا المدارس

تقدمها للمعارف، والمشافي والمستوصفات تقدمها لوزارة الصحة، والمصانع والمعامل تقدمها لوزارة التجارة والصناعة؛ وكفى بهذا شرفاً وإشادة بجهود الإخوان الإصلاحية النافعة لهذا الوطن العزيز.

* * *

وبعد فمن تمام الفائدة بعد هذه المناقشة الهادئة أن تتناول بعض هذه النقاط التكميلية بشيء من البيان والتوضيح:

● أشارت مذكرة وكيل الداخلية إلى أن الإخوان اتخذوا من الدين وسيلة لخوض غمار السياسة، وأنهم أرادوا بذلك الوصول إلى الحكم، وقلب النظم المقررة في البلاد.

وكل من اتصل بالإخوان ودرس نظمهم يعلم تمام العلم بطلان هذا الاتهام، وكل ما هنالك أن الإخوان كهيئة إسلامية جامعة مزجت الوطنية بروح الدين، واستمدت من روح الدين أسمى معاني الوطنية، ولم تبتدع ذلك ابتداعاً، ولم تخترعه اختراعاً، وإنما هي طبيعة الإسلام الحنيف الذي جاء للناس ديناً ودولة، وكل مواقف الإخوان في ميدان السياسة مواقف وطنية خالصة، بريئة كل البراءة عن حب الدنيا أو الرغبة في الوصول إلى الحكم أو الغنيمة، تهدف إلى إصلاح النظم المقررة في البلاد حتى تتفق مع دينها وعقيدتها، ونصِّ دستورها الذي ينادي بأن دينها الرسمي الإسلام.

● وليست الأوراق التي توجد بأيدي الأفراد وفي حيازتهم حجة على هيئة عاشت تعمل وتجاهد في حدود ظاهرة عشرين عاماً كاملة، ولكن الحجة هي قوانين هذه الهيئة ولوائحها، ونشراتها التي اعتمدتها جهات الاختصاص. ومنذ صدور القانون رقم (٤٩) لسنة ١٩٤٥م الخاص بتنظيم جماعات البر

والأعمال الخيرية حدَّد الإخوان المسلمون نواحي نشاطهم تحديداً واضحاً دقيقاً، وفصلوا بين العمل للبر والخدمة الاجتماعية، وبين العمل للوطنية ونشر الدعوة الإسلامية، ووضعوا لكلتا الناحيتين نظاماً دقيقاً ولوائح مفصلة اعتمدتها وزارة الشؤون الاجتماعية، وفيها بيان غايتهم ووسيلتهم كاملة، وساروا في حدود هذه الأوضاع يلتزمونها بكل دقة إلى الآن، وليس من هذه الوسائل الجريمة ولا الإرهاب كما تريد المذكرة أن تقول.

● ولعل الذي يسَّر للحكومة سبيل هذا الاتهام وسهَّله عليها، وأوجد بين يديها بعض الشبهات ـ لا الأدلة ـ عليه هو عمل الإخوان وجهادهم في سبيل فلسطين، وإن كان هذا العمل من أنصع الصفحات وأمجدها في تاريخ دعوتهم؛ فقد احتاجت فلسطين الشقيقة إلى السلاح قبل التقسيم بأشهر، ونشطت في جمعه بعض الهيئات، وأذنت الجهات المختصة من طرف خفي بهذا الجمع، وشجعت الإخوان على التعاون مع تلك الهيئات باعتبارهم أقدر الناس على بذل هذه المعونة؛ لانتشار شُعبهم وامتداد دعوتهم إلى كل مكان، فأبلى الإخوان في ذلك أحسن البلاء، وكانوا عند حسن الظن.

وأُعلن التقسيم، ونشبت الثورة في فلسطين، والتحم العرب واليهود في معارك شعبية، وللإخوان في فلسطين أكثر من عشرين شعبة في الشمال والوسط والجنوب، وتدفق سيل الأهلين من الفلسطينيين يريدون شراء السلاح من مصر، وفتحت الحكومة المصرية لهم الباب، وعقدت الجامعة العربية عدة اجتماعات، وأُلِّفت لجنة لمساعدة هؤلاء الأهلين حتى يحصلوا على ما يريدون، وقبل الإخوان رسمياً في هذه اللجنة، وتطوع بعض شبابهم لهذه الغاية، وتركوا مصالحهم وراءهم ظهرياً، وبذلوا في ذلك غاية المجهود، وقدموا كل ما يستطيعون، واحتملوا كثيراً من التضحيات المالية في هذا

السبيل؛ وبخاصة بعد أن عدلت الحكومة عن خطتها، وصادرت كثيراً من المشتريات التي اشتريت لأهالي فلسطين بمعرفتهم أو عن طريق الإخوان، وكان جزاء هؤلاء الإخوان أخيراً السجن وسوء الحساب.

وأقرَّت الجامعة العربية فكرة التطوع فتقدم إليها الآلاف من شباب الإخوان يريدون الموت في سبيل الله، وظلت الجامعة والحكومة مترددتين بين الإقدام والإحجام؛ والحماسة تشتد، والنفوس تغلي، مما دعا المركز العام أن يبعث بمئة إلى معسكر (قطنا) بسورية، وهم كل ما استطاع أن يُقنع المسؤولين هناك بقبوله. ولكن ذلك لم يشف غلة الإخوان فاستأذنوا في إقامة معسكر لهم بالقرب من العريش، يمارسون فيه التدريب استعداداً لدخول فلسطين، وأُذن لهم في ذلك، وأقاموا معسكراً كبيراً لعدد منهم يزيد عن المئتين، يمدهم فيه المركز العام بكل ما يحتاجون إليه من أدوات وتموين وسلاح وعتاد بإذن الحكومة وعلمها، حتى تم تدريبهم، ودخلوا فلسطين في مارس (آذار) سنة ١٩٤٨م أي قبل دخول القوات النظامية بأكثر من شهرين، واحتلوا هناك معسكر النصيرات جنوبي غزة، وكان لوجودهم هناك أحسن الأثر في رد عدوان اليهود وطمأنينة السكان.

وتحركت الحكومة وهيئة وادي النيل العليا لإنقاذ فلسطين، وأعدت معسكر (هايكستيب) لتدريب المتطوعين، وتقدم إليه أكثر من ستمئة على دفعات، فجهزتهم الحكومة، ودخلوا مع القوات النظامية، ووزعوا على مختلف الجهات، وظفروا بحمد الله بتقدير كل من عرفهم أو اتصل بهم أو رأى حسن بلائهم وإخلاص جهادهم، فقد رابط الإخوان في (صور باهر) وفي (بيت لحم) وعلى مشارف القدس، واقتحموا (رامات راحيل) من جهة الوسط، واحتلوا معسكر النصيرات ومعسكر البريج، ونسفوا مستعمرة

(ديروم)، واشتركوا في معارك (عسلوج) وحاصروا (المسنة ويبروت إسحق) وترددت نقطهم الثابتة والمتحركة في كل مكان من جهة الجنوب.

واستشهد منهم قرابة المئة وجرح نحو ذلك وأسر بعضهم، وكانوا مثال البسالة والبطولة والعفة والشرف والنزاهة وحب الاستشهاد، فكان طبيعياً أن تحصل الحكومة على بعض عتاد لم ينقل، وأن تجد في بعض الأماكن بقايا من المخلفات، ولكن ليس معنى هذا أبداً أن الإخوان المسلمين المؤمنين المجاهدين المحسنين قد أصبحوا خطراً يهدد سلامة الأهلين في الداخل وهم دعاتهم، وسلامة الجيوش في الخارج وهم زملاؤهم.

الدوافع الحقيقية في موقف الحكومة:

مستحيل أن يكون الدافع الحقيقي لهذه الخطوة الجريئة من الحكومة مجرد الاشتباه في مقاصد الإخوان أو اعتبارهم مصدر تهديد للأمن والسلام؛ وهو ما لم يقم عليه دليل ولا برهان. ولكن الدافع الحقيقي فيما نعتقد هو انتهاز الأجانب فرصة وقوع بعض الحوادث، مع اضطراب السياسة الدولية، وقلق الموقف في فلسطين، وتردد مصر بين الإقدام والإحجام، فشددوا الضغط على الحكومة؛ وقد صرح بذلك سعادة (عمار بك) نفسه، وأقر بأن سفراء بريطانية وأمريكة وفرنسة قد اجتمعوا في (فايد) وكتبوا لدولة النقراشي باشا في صراحة بأنه لا بد من حل الإخوان المسلمين، وكان في وسع دولته أن يزجرهم عن مثل هذا التدخل في شأن داخلي بحت، وأن ينظرهم حتى تظهر نتيجة التحقيقات، وأن يتعاون مع المسؤولين من الإخوان على إزالة هذا الوهم من أنفسهم؛ ولكنه بدلاً من ذلك استجاب لهذه الرغبة الأجنبية، وأصدر قرار الحل، فأشمت الأعداء، وأحزن المؤمنين الأتقياء. وهكذا تقوم الشواهد كل

يوم على أن مصر للأجانب قبل أن يكون لأهلها منها نصيب، وأن على صفوة شِعْبها أن تقدم حرياتها قرباناً لإرضاء السفراء ورعايا الدول؛ التي طالما ناصبتنا العداء، وأنزلت بنا البلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويكون لما يشاع من قرب الاتفاق بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية أصل في هذه الخطوة أيضاً، كما قد يكون للموقف الحزبي والتأهب للانتخابات القادمة دخل كذلك، ولا يعلم بالحقيقة غير الله، ولله عاقبة الأمور.

* * *

ولقد كان الأمر العسكري غريباً في نفسه وفي طريقة تنفيذه، ولا يمكن أن يقول إنسان إن حل هيئة من الهيئات يستلزم اتهام كل ما يتصل بها، أو حمل اسمها بالجرم والعدوان، ومصادرته في حريته وماله وعمله ومهاجمته في كل مكان، ولئن جاز في عرف الأحكام العسكرية أن تحل الهيئات فما بال الشركات التي لا صلة بينها وبينها إلا مجرد الاسم؛ مع تمام الفصل في كل الأعمال ونواحي النشاط.

إن شركة المناجم والمحاجر، وشركة الإعلانات العربية وشركة الإخوان للنسيج، وشركة دار الإخوان للصحافة، وشركة دار الإخوان للطباعة، وشركة مدارس الإخوان بالإسكندرية، كلها شركات لا صلة لها بالهيئة، جمعت رؤوس أموالها من أفراد بصفتهم الشخصية، فكيف يصح في ذهن أحد أن تصادر أموالها لا لشيء إلا أنها تحمل اسم الإخوان. وهؤلاء العشرات من الإخوان من كرام الشباب لماذا يعتقلون بغير جريرة ولا سبب، وتمنع عنهم أدواتهم الضرورية، ويلقى بكثير منهم في سجون الأقسام مع المجرمين أمثال (صبيحة وعنتر والسيشاوي) وغيرهم من أرباب السوابق ومعتادي الإجرام، ويتركون فريسة للبرد والجوع، ولا يسمح بأن يقدم لهم الغذاء والغطاء!!.

وهذه الصحف الشخصية التي لا صلة لها بالهيئة ولا تدعو لفكرتها من قريب أو بعيد، لماذا تصادر ويصادر أصحابها وعمالها في أعمالهم وموارد أرزاقهم؟! ولقد ضربت الرقابة الشديدة حول مسكن المرشد العام، وأحيط بسياج من رجال البوليس الملكي مزودين بموتوسيكل؛ حتى إذا دخل داخل أو خرج خارج أدركوه فقبضوا عليه كائناً من كان، وذهبوا به إلى أحد الأقسام حيث يقضي ليلة أو ليلتين، ثم يعمل له بعد ذلك تفتيش وتحرٍ ويطلق سراحه، أو يظل معتقلاً إلى ما شاء الله!! هذا الأسلوب من الحرب والتعسف لم تسلكه الحكومة مع اليهود، ولا مع أشد الأعداء عداوة للوطن؛ والحرب على أشدها، ولم يعمد إليه الإنكليز إبان الحرب الماضية، ولكن لجأت إليه الحكومة مع الإخوان المسلمين في هذا الوقت!!.

إن هذا القرار فيما نعلم باطل شكلاً، لأنه ليست هناك جماعة الإخوان المسلمين؛ وإنما هناك جماعات اسمها أقسام البر والخدمة الاجتماعية للإخوان المسلمين، وهناك هيئة الإخوان المسلمين العامة. وباطل موضوعاً لأنه تجاوز لحقوق الحاكم العسكري الممنوحة له في مرسوم الأحكام العرفية، ومنافٍ لروح الغاية التي فرضت من أجل هذه الأحكام، ومحال أن تُطبق الأحكام التي فُرضت لليهود على خصوم اليهود الألدَّاء.

لقد أوقف هذا الحل نهضة اجتماعية كبرى، تهيأ لها شباب هذا الجيل من أبناء الوطن، وترك في النفوس أعمق الآثار؛ وسيقول التاريخ كلمته، ويظهر المستقبل القريب آيته، ولن تستطيع القوة أن تمحو عقيدة أو تبدل فكرة: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

* * *

بهذه الروح الهادئة والإيمان العميق والنفس الصلبة الثابتة أمام أخطر الأحداث واجه الأستاذ البنّا حل الإخوان، والاتهامات التي وُجهت إليهم، فعرّاها تماماً، ودحضها في قوة، وكشف عن جريمة الوزارة النقراشية، واستسلامها للاحتلال وللنفوذ الأجنبي، ولدعاة الإلحاد، وبيَّن ذلك في ردّه بأصرح عبارة فقال:

«ولا تنسَ في هذا المضمار عمل الأصابع الخفية، والدسائس من ذوي الغايات الذين خاصموا هذه الدعوة من أول يوم، وتربصوا بها الدوائر؛ حتى أمكنتهم منها الفرصة، وساعدتهم الظروف، فأحكموا الخطة، ودأبوا على التدبير والكيد حتى وصلوا في النهاية إلى ما يريدون. فاليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والدول الاستعمارية، وأنصار الإلحاد والإباحية، كل هؤلاء من أول يوم يرون الإخوان ودعوتهم السد المنيع الذي يحول بينهم وبين ما يريدون من باطل وفوضى وإفساد، ولا يألون جهداً في معاداتهم بكل ما يستطيعون، وهم لم يستطيعوا كتمان شعورهم هذا ولا إخفاء سرورهم وفرحهم لنجاح خطتهم حين أعلن قرار الحل، فأقاموا المآدب وأولموا الولائم، وتبادلوا التهاني، وجعلوه يوماً من أيام المواسم والأعياد.

وهكذا أقرت الحكومة المصرية بهذا التصرف أعين الضالين المضلِّين بالعدوان على المؤمنين العاملين، فإلى الله المشتكى، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وتلك الأيام نداولها بين الناس ولله عاقبة الأمور».

وبلغت به الصراحة النابعة من إيمانه القوي وشجاعته العظيمة مداها فقال:

«الحكومة المصرية التي أخفقت في المفاوضات مع الإنكليز فقطعتها،

وذهبت إلى مجلس الأمن فعادت بخفي حُنين، وتركت قضية الوطن على رفوفه في زوايا الإهمال والنسيان، وتجاهلت الإنكليز بعد ذلك تجاهلاً تاماً، وتركتهم يفعلون ما يـريدون، حتى أضاعت بهذا التجاهل السودان، واتبعت سياسة التردد والاضطراب في قضية فلسطين، وقبلت الهدنة الأولى فأضاعت بهذا القبـول كل شـيء، وحرمت الجيـش المصري الباسـل ثمرة انتصاره، وأفقدت الوطن ملايين الأموال وآلاف الرجال؛ فضلاً عن فقدان الكرامة وسوء الحال والمآل، ودلَّلت يهود مصر، فلم تتخذ أي إجراء يتفق مع موقفهم من مناصرة أعداء الوطن.

هذه الحكومة التي يعيش في ظلها الأجنبي آمناً مطمئناً على نفسه وماله، وعبثه وفساده، ويحمي جنودُها حانات المسكرات، وبيوت العاهرات، ودور المنكرات، وأبواب المراقص والبارات؛ والتي عجزت كل العجز عن إنقاذ شعبها من براثن الفقر والمرض والجهل والغلاء الفاحش الذي يئن منه الأقوياء فضلاً عن الضعفاء، والتي لا يؤيدها ولا يساندها إلا نفر قليل ضئيل من أصحاب المصالح الشخصية، فهي في واد والأمة في واد. هذه الحكومة هي التي تطارد الإخوان المسـلمين وهم الشعب، وتحكم عليهم بالإجرام والنفي والتشـريد ومصادرة الأموال والأملاك والحريات.

ولو أخذت الأمور وضعها الصحيح، وكانت الكلمة للحق لا للقوة؛ لحاكمناكم نحن ـ يا أيها المفرِّطون ـ على التفريط، ولحاسـبناكم على هذا العجز أشد الحساب، ولكن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

-٢-

بين حل جماعة الإخوان في ٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م وبين استشهاد الأستاذ البنَّا في مساء ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩م مدة ستين يوماً كانت من أدق أيام حياة هذا الرجل الكريم، الذي تُرك بغير اعتقال تحت عدة ظروف، منها ظرف التفاهم معه، ومنها الرغبة في اتخاذه مصيدة ووسيلة للكشف عن مزيد من الأنصار؛ ومنها التفكير في اغتياله؛ وخاصة بعد أن اغتيل (محمود فهمي النقراشي) رئيس الحكومة في قلب الوزارة، واتهم الإخوان باغتياله.

وخير من يكشف عن هذه الفترة اللواء (صالح حرب) رئيس جمعية الشبان المسلمين، التي كانت مقصد الأستاذ البنَّا، لإجراء اتصالاته منها.

وقد تحدث عن موقف الأستاذ حسن البنَّا بعد صدور قرار الحل، فأشار إلى أنه زاره في منزله ـ وكان المنزل مراقباً عقب حل الجماعة ـ فقال له الأستاذ البنَّا: «لقد سعيت عقب الحل مباشرة للاتصال بدولة النقراشي باشا فتعذر ذلك بل استحال، وكتبت له عندما أمعنوا في القبض على كبار الرجال في الجماعة أنني مستعد أن أتعاون مع الحكومة تعاوناً صادقاً لتهدئة الحال وإقرار الأمن والسلام، فلم يعبأ بما كتبت له، ولجأت إلى بعض الوزراء أستعين بهم لديه ولم يتم شيء. وسعيت هنا وهناك فلم يبال أحد بسعيي ورجائي.

ولست أدري لماذا يتركونني اليوم طليقاً، وقد اعتقلوا جميع أصحابي ما داموا لا يرغبون في إشراكي معهم في تهدئة الخواطر، بل ولا يرغبون في الاتصال بي، لماذا إذن لا يعتقلونني كما اعتقلوا غيري، والاعتقال خير لي من الحال التي أصبحت فيها؛ بين توجع النساء ولوعة الشيوخ وبكاء الأطفال واحتياجهم جميعاً لمن يعولهم ومن يعينهم، ومن أين لي أن أعيلهم؛ وقد وضعوا يدهم على كل ما يملك الإخوان»!!.

وقال صالح حرب: ثق أنه وإن أقفلت دار الإخوان فإن دار (الشبان المسلمين) لا تزال مفتوحة، وهي دارك ومن فيها إخوانك، فلا تبتئس، وهذه غمرة سوف تنجلي وخرجت من عنده.

وتطوَّرت الأحداث بعد ذلك سراعاً، وقتل النقراشي، وكان الشيخ يوالي زيارة دار الشبان المسلمين، فيقابل منها بالرعاية التي كان يقابل بها من قبل، وكم تأثر بهذه المقابلات، لأنه عانى في الأيام القليلة القريبة من جفوة الناس له وبعدهم عنه، وتبرمهم بلقائه وكراهيتهم لزيارته ما عانى!!.

هذا في حين كان إلى الأمس القريب ملء السمع والبصر، ومحطّ الأنظار والآمال، وما كان أكثر المتزلفين إليه والساعين إلى رحابه؛ فإذا به يصبح بين يوم وليلة وحيداً فريداً!!.

وظل يتردد على دار الشبان، فامتعضت الجهات الرسمية من هذه الزيارات، وخاطبوا الجمعية في ذلك فكان الجواب: إن هذه الدار دار للمسلمين جميعاً، لن يوصد بابها في وجه مسلم، ومن باب أولى أن لا يوصد في وجه الشيخ حسن البنَّا، وستظل هذه الدار داره ما دام راغباً في زيارتها.

وكان الشيخ رغم الصدود الذي صادفه من الجهات الرسمية دائم السعي لإقناع القائمين بالأمر بأنه مستعد أن يتعاون معهم تعاوناً مخلصاً صادقاً على تهدئة الخواطر وإقرار الأمن والسلام، وأنه قادر على ذلك، إن أطلقوا له كبار الإخوان المعتقلين ليعاونوه فيما ندب نفسه له.

وأخيراً بدت من الحكومة رغبة في الاتصال به، وطلبوا إليه أن يذيع بياناً يدعو فيه إلى الهدوء والسكينة حتى تعود الطمأنينة إلى النفوس، فكتب بيانه وعرضه على المسؤولين، فطلبوا منه أن يستنكر في صراحة الاعتداء على النقراشي باشا ففعل، وظل البيان بين المحو والإثبات حتى أقروه ونشر تحت

عنوان (بيان للناس).

والشيخ في هذه الأيام لا يشغله شاغل إلا هذه الرغبة الصادقة في التعاون على إقرار السلام ولا يشترط غير إطلاق سراح كبار الإخوان ليعاونوه.

واطمأن الشيخ إلى أنه بعد هذا البيان سوف يتغير الموقف، ويسود التفاهم، ولكن لسوء الطالع لم يمضِ يومان على صدور البيان حتى وقع حادث الشروع في نسف محكمة الاستئناف، فجاءني الشيخ في حالة من الجزع شديدة، وأنا أقسم بعد أن شاهدت المرشد على هذا الحال أنه مستحيل على مثله أن يدعو إلى الإجرام أو يأمر به أو يشارك فيه: وقد ظللت وقتاً أهدِّئ من روعه حتى سكن فقال لي: أرأيت هذا المفتون ماذا كان ينوي أن يفعل؟! والله ما هذا الشقي مسلماً ولا من الإخوان.

ولما خوطب الشيخ من الجهات الرسمية في هذا الحادث تبرأ من هذا الشاب، واستنكر بكل شدة فعلته، وأظهر استعداده لينشر بياناً آخر يذيع فيه أن هذا المفتون وأمثاله ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين!!.

بعد هذا الحادث ظهر أن نيات الجهات الرسمية من ابتدائها لم تكن مخلصة في مفاوضاتها مع الشيخ، وبدأ القلق يساوره، فقلت له: إن من الخير أن تطلب من الحكومة الرحيل من القاهرة إلى جهة نائية تقيم فيها حتى تنقشع غياهب الأحداث، فقال: إني خيَّرت المسؤولين في واحدة من اثنتين:

إما أن يطلقوا سراح كبار الإخوان، لنعمل معاً جادين مخلصين حتى تطمئن النفوس وتهدأ الخواطر.

وإما أن يعتقلوني كما اعتقلوا أصحابي، ولكنهم إلى الآن لم يستجيبوا إلى واحدة من هاتين.

فتبينت العبث ظاهراً في هذه المعاملة، وطلبت من الشيخ بإلحاح أن يغادر القاهرة إلى قرية بعيدة يختارها ويخطر الحكومة بانتقاله إليها.

ولم تمض أيام حتى علمت بقتلـه ـ رحمه الله ـ على باب دار الشـبان المسلمين!!.

* * *

وكشف الأستاذ محمد يوسف الليثي رئيس قسم الشباب بجمعية الشبان المسلمين في عام ١٩٥٠م عن أسرار تتعلق بحل جماعة الإخوان المسلمين، وما جرى من محاولات خلال فترة ما بعد الحل حتى اغتيال المرشد فقال[١]:

إن رجال الشبان المسلمين (صالح حرب ويحيى الدرديري وعبد القادر مختار) أبلغوا الأستاذ البنَّا أن دار الشبان هي داره، وأخلي له مكتب خاص كان يجتمع فيه يومياً في الصباح والمساء برؤساء شُعب الأقاليم الذين لم يكونوا قد اعتقلوا بعد، وبكثير من النواب الذين تطوعوا للدفاع عن الإخوان تحت قبة البرلمان، ولما علمت الحكومة أرسلت إلى صالح حرب تبلغه أن سماحه للأستاذ البنَّا بجعل الجمعية مقراً لنشاطه يعتبر تحدياً للأمر العسكري وعداءً سافراً للوزارة.

وقد رفض صالح حرب هذا التهديد وقال: إن أهم مسألتين اهتم بهما المرشد في هذه الفترة هي محاولة الاتصال بالحكومة ورجال وزارة الداخلية، حتى يكف البوليس عن حملة الإرهاب والاعتقالات ومصادرة الأموال من ناحية، وتأليف هيئة من المحامين للدفاع عن المعتقلين وأخرى لإثارة قضية

---

(١) جريدة الأهرام ١ و٣/ ١١/ ١٩٥٠م.

الإخوان أمام البرلمان والقضاء من ناحية ثانية، وقد تفاهم مع الأستاذ فتحي رضوان المحامي على أن يتولى أمر الدفاع عنهم بمعاونة بعض المحامين، ووكل أمر الدفاع أمام مجلس الدولة إلى الأستاذين زهير جرانة، وعبد الكريم منصور.

أما إثارة القضية في البرلمان فقد اضطلع بها الأستاذ فكري أباظة.

وقد قابل المرشد العام بعد حل الجماعة (إبراهيم عبد الهادي) رئيس الديوان الملكي وسلَّم إليه بياناً أعده فضيلته لإذاعته على الإخوان يأمرهم فيه بالتزام الهدوء والسكينة، وأن يتركوا له أمر التفاهم مع الحكومة، ولما تسلَّم النقراشي هذا البيان رفض نشره، وأنكره على الشيخ البنَّا، وقال: إن إخلاد الإخوان إلى الهدوء والسكينة هو من شأن الحكومة.

وأشار الأستاذ محمد يوسف إلى اتصالات المرشد بحافظ رمضان، ومقابلته لحامد جودة رئيس مجلس النواب وأحمد خشبة ودسوقي أباظة وعلي عبد الرزاق وعبد الرحمن عزام، وأنه لم يتمكن من مقابلة حامد جودة إلا مرة واحدة، واعتذر بعد ذلك عن مقابلته، وكان ذلك قبل اغتيال النقراشي بأيام.

وأشار إلى أن فضيلته كان يجاهد نفسه في إخفاء مرارته من تصرفات الوزارة والوسطاء، ولما يئس من موقف الوزراء والوسطاء عرض على صالح حرب مسودة لرسالة إلى النقراشي قال فيها: إنه يَدَعُ جانباً الآن الكلام في مسألة حل الجمعية، فإن الزمن كفيل بأن يبين حسن نوايا الإخوان، وناشده الكف عن حملة الإرهاب التي فرضت على الإخوان من ناحية الاعتقال ومصادرة الأموال والأرزاق ونقل الموظفين.

وقد أحدث هذا الخطاب عكس ما كان منتظراً، فقد حمل النقراشي على

مضاعفة حملة الإرهاب وزيادة وسائل التنكيل والتشريد، كما اتبعت أسوأ الوسائل في معاملة المرشد نفسه حتى سطا رجالهم على السيارة القديمة التي كان يستخدمها في تنقلاته أثناء وجودها أمام داره ليلاً، وزِيد بعد ذلك عدد البوليس السري الذين كانوا يراقبونه.

وتحدث الأستاذ الليثي عن الموقف بعد مقتل النقراشي وتولي وزارة (إبراهيم عبد الهادي) فقال: تألفت وزارة عبد الهادي التي كان مصطفى مرعي أحد وزراء الدولة فيها، وقد لعب دوراً خطيراً اكتنفه الغموض التام، على الرغم من أنه لم يكن لسعادته أي اتصال سابق بالإخوان؛ إلا ما عرف من أن شقيقه الأستاذ أمين مرعي كان رئيس جمعية الإخوان بالإسكندرية، وقد أصدر الأستاذ البنَّا قراراً بفصله من رئاسة هذه الجمعية عام ١٩٤٧م.

ولقد ترتبت على اتصالات مصطفى مرعي بالأستاذ البنَّا نتائج خطيرة، مما جعل الأمور تسير من سيِّئ إلى أسوأ، وقد أيد ذلك ما ورد على لسان مصطفى مرعي بك في أثناء التحقيق في قصة مصرع الشيخ البنَّا؛ إذ قال مرعي بك في ذلك التحقيق أقوالاً يمنع حظر النشر في هذه القضية إذاعتها هنا، ولكنها تسيء بغير شك إلى فضيلة الأستاذ البنَّا، فقد أراد أن يدخل في روع المحقق أن الإخوان هم الذين قتلوا الأستاذ البنَّا!!.

وقد بدأت اتصالات مصطفى مرعي بالأستاذ البنَّا بأن اتصل سعادته بسعادة صالح حرب باشا ورجا منه أن يعمل من جانبه على أن يلتقي به وبالأستاذ البنَّا في أقرب فرصة، وقد استدعاني حرب باشا، وطلب إلي أن أتصل بالفقيد فوراً، مع تجنب رقابة البوليس خوفاً من اعتقالي، ولما علم الشيخ حضر إلى الجمعية، فأبلغه حرب باشا ما نقله إليه مرعي بك، وتم التفاهم على أن يلتقي الثلاثة في منزل حرب باشا في مساء ذلك اليوم، وكان هذا أول لقاء بين مرعي بك والأستاذ البنَّا.

وقد تبين من هذا الاجتماع أن الحكومة هي التي أوفدت مرعي بك لكي تقنع الأستاذ البنَّا بإصدار بيانه الذي استنكر فيه[1] جريمة عبد المجيد أحمد حسن قاتل النقراشي واستنكار الإرهابيين وأعمالهم. ولقد وافق الأستاذ البنَّا على كتابة البيان، لأنه شخصياً لا يقر حركة الإرهاب، واشترط لذلك أن يتم الإفراج عن المعتقلين.

وقد ظهرت الحكومة بلسان ممثلها مصطفى مرعي بمظهر الموافق، ثم أدخلت تعديلات كثيرة على بيان الفقيد اقتضت تعدد الاجتماعات في منزل حرب باشا للاتفاق على الصيغة النهائية، ولم يكد البيان يذاع حتى بدأت الوزارة تراوغ وتتحلل من شرط إطلاق سراح المعتقلين، والإفراج عن أموالهم المصادرة.

ثم تطورت الأمور وظل مرعي بك على مسلكه الذي أشرنا إليه؛ حتى إن بعض المقربين من رجال الحكومة أبلغوا الأستاذ البنَّا أن مرعي بك قال لرئيس الحكومة: إن هذا الرجل (أي الأستاذ البنَّا) لا يمكن التعاون معه إطلاقاً.

وكان المفروض في أثناء الاتصالات التي كانت تدور بين مصطفى مرعي بك وفضيلة الأستاذ البنَّا أن توقف على الأقل حركة الاعتقالات، ولكن الذي حدث هو العكس، فازداد عدد المعتقلين زيادة كبيرة، واعتقل أشقاء الأستاذ وأصهاره، وفي هذه الأثناء افتتحت أبواب معتقل الطور.

وعقب ذلك رأى سعادة حرب باشا الامتناع عن الاشتراك في محادثات

---

(١) هذا الكلام نشر في الأهرام متأخراً بعد أن رفعت الرقابة وسقطت الوزارة في ٢و٣/ ١١/ ١٩٥٠م.

لا تنطوي على أي نوع من الجدية، وقرر السفر إلى أسوان، وكاشف الأستاذ البنَّا بذلك، وطلب منه أن يريح أعصابه ويغادر القاهرة هو الآخر؛ إذ لا جدوى من وراء هذه الاتصالات والمحادثات المريبة، وخاصة بعد أن انكشفت لعبة الوزارة.

وقد سافر حرب باشا إلى أسوان، وكان الأستاذ البنَّا قد وعده بأنه سيسافر هو الآخر بعد أيام، ولكن حدث بعد ذلك ما حمل فضيلة المرشد على استئناف اتصالاته، فاجتمع بسعادة زكي علي باشا وزير الدولة لعلهما يجدان مخرجاً، كما كثرت اتصالات الشيخ المرشد في الفترة الأخيرة برجال السياسة والرأي، وكان أهمها مقابلة طويلة تمت بينه وبين الأستاذ أبي الخير نجيب[1]، كما قال إنه كان يود لو تمكن من زيارة النحاس باشا لإبراز هذه الحقائق لرفعته، ولكنَّ تواتر الإشاعات في ذاك الوقت بأن الإخوان من الذين دبروا هذه المحاولات جعله يؤجل هذه الزيارة، وقد تناول الحديث أيضاً بإفاضة وإسهاب مستقبل جمعية الإخوان وعلاقتها بالوفد في الانتخابات وما يليها، وموقف الوفد من الإخوان إذا تولى الحكم.

* * *

ويقول الأستاذ محمد الليثي: آمن فضيلة المرشد أن لا جدوى من الاتصالات، سواء برجال الحكومة أو بغيرهم، فقرر أن يغادر القاهرة، وكان يود أن يلحق بحرب باشا في أسوان، ولكنه خشي أن يكون في ذلك إحراج له.

وقد أبلغ فضيلته رغبته في السفر إلى الحكومة، ولم يكد يفعل حتى

---

(١) انظر نص هذه المقابلة الرائعة في الصفحة ٣١٨ من هذا الكتاب.

صدر الأمر بتجريد فضيلته من سلاحه المرخص، ورفع الحراسة البوليسية التي كانت مفروضة عليه، ولم يمض على هذا الإجراء سوى يومين حتى وقع حادث اغتيال الفقيد أمام دار جمعية الشبان المسلمين، وقد شاءت الأقدار أن أشهد بنفسي مصرع الفقيد، وأن يتاح لي الإدلاء أمام المحقق بتفاصيل الحادث كما شاهدته.

* * *

وقد نشر مصطفى مرعي بياناً يحاول أن يصور الأمور على غير ما أوردها الكاتب[1] بوصفه مشاهداً ومرافقاً في هذه الفترة للأستاذ البنَّا، حيث قال: إن مدار حديث الشيخ البنَّا معه كان على أن الجريمة دخلت على جماعته دون علم منه، وأنه منها بريء، وأنه على استعداد لأن يعلن البراءة، فطلب من الشيخ بياناً بهذا المعنى. وقال مصطفى مرعي: إن الشيخ أحضر بياناً ولكن فيه بعض الغموض، فأعرضت عنه، لكنه صمم على ما كتب، فهممت بالانصراف فاستوقفني وعدّله بعض التعديل فقبلته، ورجوته أن يسلمه هو بنفسه إلى الصحف، فقام بتوزيعه.

وأشار مصطفى مرعي إلى أنه طلب من الشيخ البنَّا أن يدل الحكومة على مخابئ الأسلحة التي بقيت لدى الجماعة مما كانت قد جمعت لحرب فلسطين، وأن يدلها على محطة إذاعتها فاستمهله، واشترط للإباحة بما عنده أن يفرج عن بعض المقبوض عليهم.

قال: وفيما أنا في هذا الحال إذ بحادث نسف محكمة الاستئناف يقع،

---

(١) أي الأستاذ الليثي.

فيهز دعائم الأمن، فأهبت بالشيخ البنَّا من جديد أن يعين الحكومة على هذا الشر على الأقل إلى أن تنتهي الحرب؛ وكان للحادث أثره في نفوس القائمين على الأمن، فاعتقلوا بعد هذا الحادث كثيرين، وخرج الأمر من يدي، واتجه الأستاذ البنَّا نحو التفاهم مع زكي علي.

ولاشك أن عبارات مصطفى مرعي تكشف عن نفسية مليئة بالالتواء وقد كشفت صحف الوفد عن هذا الأمر، فقالت: إن الاتصال كان قد بدأ من مصطفى مرعي وليس من الأستاذ البنَّا، وأن الهدف كان الحصول على هذا البيان بعد أن بسط وعوداً طمأنت الشيخ البنَّا، وقد صرَّح له بأنه هو الوزير المسؤول عن الأمن وأنه بمجرد صدور البيان ستوقف حركة الاعتقالات، بل لقد وعده بأنه سيبحث مع إبراهيم عبد الهادي مسألة الأمر العسكري الصادر ويعمل على الإفراج عن المعتقلين.

لقد طلب مصطفى مرعي البيان، فلما وصل إليه استغله أبشع استغلال، فما إن صدر البيان حتى تعذر على الشيخ البنَّا مقابلة مصطفى مرعي، ونقل المعتقلون من الهاكستيب بالقاهرة إلى الطور، وفي هذه الدفعة نقل جميع من طلب الأستاذ البنَّا الإفراج عنهم.

وأشارت صحف الوفد إلى أن السعديين حاولوا استغلال الإخوان استغلالاً حزبياً يمكنهم من محاربة الوفد عن طريق الجمعية وعن طريق أنصارها، وأنهم كانوا يحرضون الجمعية على مناوأة الوفد. وأنه لما قامت حرب فلسطين وقبلها بقليل ساهمت حكومة السعديين بطريق رسمي في تزويد المتطوعين من الجمعية بالأسلحة والمفرقعات، ثم اتضح لزعماء الحزب السعدي أن السلاح الذي استغلوه لمحاربة الوفد لم يأت بالثمرة المرجوة التي كانوا يرجونها فانقلبوا على الجمعية، وأخذوا يبطشون برجالها، وسفر العداء

بين الجمعية والحزب السعدي، واتخذ مظهراً قاسياً، ولما كانت قوة السلطان ومظهره في جانب السعديين فقد استغلوا وجودهم في الحكم، وانتهزوا فرصة الأحكام العرفية بسبب حرب فلسطين، وأصدروا أمراً عسكرياً بحل الجمعية، وما يتبعها من شركات والاستيلاء على الأموال الخاصة بها، ونكلوا بكل من كانت له صلة بالجمعية.

* * *

وأشار الأستاذ الليثي إلى أن الصحيفة[١] قد نشرت قصة خطاب آخر قالت إن فضيلة المرشد أرسله قبل مصرعه بيومين إلى الحكومة، وأعلن فيه استعداده لتسليم محطة الإذاعة السرية التي تتحدث باسم جماعته، واستعداده لتسليم الذخائر والأسلحة الباقية لدى بعض أعوانه، ولم تقع تحت يد البوليس حتى الآن.

وإني أعلن هنا أن قصة هذا الخطاب غير صحيحة، وأؤكد أن فضيلته لم يرسل مثل هذا الخطاب، وأنه قد صرَّح لي بأنه أبان لمن تحدثوا إليه من ممثلي الحكومة في هذا الشأن بأنه لا يعلم شيئاً مطلقاً عما يسمى أسلحة أو ذخائر أو محطة إذاعة، وعلى هذا فهو شخصياً لا يستطيع أن يعد بتسليم شيء لا يعرف هو عن مصدره شيئاً!!.

ولقد كان من الطبيعي أن تهتم الصحيفة المشار إليها بنشر صورة زنكوغرافية للخطاب الذي ادّعت فيه أن فضيلته أبدى استعداده لتسليم الأسلحة ومحطة الإذاعة إن كان لهذا الخطاب وجود، ولكنها لم تفعل!!.

---

(١) يقصد صحيفة (الأساس) لسان الحزب السعدي.

-٣-

في هذه المرحلة الدقيقة كان الأستاذ البنَّا يواجه أمراً أخطر من الاعتقال، هذا الموقف بتحدياته، ومكر السعديين وتآمرهم، وفي الوقت نفسه كانت عملية الاعتقالات مستمرة، وعلى الجانب الآخر كان هناك الإخوان في فلسطين قد أسرعت الحكومة بسحبهم من مواقعهم المنيعة والحد من نشاطهم العسكري خوفاً من أن يتخذوا موقفاً ما إزاء حل الإخوان.

يقول الأستاذ كامل إسماعيل الشريف: إن اللواء (المواوي بك) طالب بإرسال عدد كبير من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان، وسافر لهذه الغاية الأستاذ محمد فرغلي رئيس الإخوان في فلسطين. ولقد حدثني الصاغ محمود لبيب وكيل الإخوان أن عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة قد استدعاه في ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد هذا العدد؛ لأن خطورة الموقف العسكري تتطلب إرسالهم على وجه السرعة، ومضى الصاغ لبيب فاتصل بشُعب الإخوان في القطر، وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر في مدة معينة.

ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشي حتى هاج وماج، ورفض قبول الفكرة من أساسها، ولم يستطع الإخوان تعليل هذا الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة، ذلك أن النقراشي كان مشغولاً في ذلك الحين بتنظيم خطة القضاء على جماعة الإخوان ومحوها من الوجود.

وحتى ذلك التاريخ لم يكن الإخوان المحاربون يعلمون شيئاً عن حقيقة ما يجري في مصر، وعن سر هذه الإجراءات المريبة التي تتبع إزاءهم في الميدان، ولقد أدهشهم كثيراً إصرار المسؤولين العسكريين على جمعهم في معسكر واحد والحد من نشاطهم.

وفي ليلة حل جماعة الإخوان ٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٨م طلب إلى الإخوان تسليم جميع الأسلحة ومعدات الحرب، وكان هذا الإجراء قد اتخذ خشية من الحكومة السعدية أن يقوم الإخوان بحركات انتقامية في الميدان؛ ولم يكن الإخوان دعاة فتنة، ولن يختموا جهادهم بضرب وجوه المؤمنين من إخوانهم وزملائهم؛ بل إن الإخوان أعلنوا مواصلة القتال حتى ينتهي الجيش من مهمته وتعود فلسطين أرضاً عربية.

وأرسل المرشد العام خطاباً مع أحد الإخوان يقول فيه: «إنه لا شأن للمتطوعين بالحوادث التي تجري في مصر، وما دام في فلسطين يهودي واحد يقاتل فإن مهمتهم لم تنته بعد». ثم يختم الرسالة بوصية طويلة للإخوان بالتزام الهدوء وحفظ العلاقات الطيبة مع إخوانهم وزملائهم من ضباط الجيش وجنوده.

ويقول كامل الشريف: إن أحد الإخوان العائدين إلى الميدان أخبره أن نفراً من شباب الدعوة توجهوا للأستاذ البنَّا عند طغيان موجة الاعتقالات وسألوه عن رأيه في هذه الحركة، واستأذنوه في المقاومة حسب الطاقة، ولكن الرجل المؤمن حذرهم من هذا، وبين لهم أن الإنكليز هم السبب، وأنهم هم الذين أوحَوا إلى النقراشي بحل الإخوان والتضييق عليهم، على أمل أن يقاوموا، فيغتنم الإنكليز الفرصة للتدخل المباشر في شؤون البلاد، ونحن أحرص من هؤلاء الحكام على مستقبل هذا الوطن وحرمته، فتحملوا المحنة ومصائبها، وأسلموا أكتافكم للسعديين ليقتلوا ويشردوا كيف شاؤوا؛ حرصاً على مستقبل وطنكم، وإبقاءً على وحدته واستقلاله. وصدع الإخوان بالأمر وتحملوا مصائب المحنة في صبر وجلد!!.

ولم يـؤثر قرار الحل في سياسـة الإخوان في فلسـطين وظلوا يـؤدون واجبهم المقدس في مجاهدة أعداء الله والإسلام، رغم ما كان يصل إليهم من أنباء مثيرة عن الإرهاب الحكومي في أرض الوطن.

وكان للإخوان في معركة (دير البلح) بعد ذلك دور وأي دور، وكان لهم مفخرة من مفاخر الدعوة وأثرها في تكوين المحارب الناجح.

* * *

ولم يمض غير قليل بعد حل الجماعة حتى قتل محمود فهمي النقراشي رئيس الحكومة الذي أصدر أمر الحل على باب مكتبه في الوزارة، وأعلن القاتل أنه إنما فعل ذلك بمحض إرادته الخاصة، وأن أحداً لم يكلفه بذلك، وأنه أراد أن ينتقم لموقف النقراشي من فلسطين، ولكن بعض علماء الأزهر أصدر بياناً حمَّل فيه الجماعة مسؤولية الحادث، وقد واجه الأستاذ حسن البنَّا هذا الموقف في جرأة بالغة فكتب يقول:

«كتب أحد أصحاب الفضيلة رؤساء المحاكم الشرعية مقالاً مطوّلاً خلاصته أن الأديان ضد القتل، وأنه سنة الخوارج وجزاؤهم القتل، ونحن مع فضيلته في كل ما قرر. وكان من تمام البحث واستيفائه أن يقول فضيلته: إن الحاكم الظالم جزاؤه العزل، وإن الثائر على الظلم ليس من الخوارج في شيء، وإن الأمة التي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم قد تُودِّع منها وبطن الأرض خير لها من ظهرها!!.

لقد أصدر حضرات أصحاب الفضيلة العلماء بياناً عن تحريم القتل وجزاهم الله عن البيان جزاء الإحسان، ونحن بما قالوا نقول، ولِما قرروا نسمع

ونطيع، وننتظر منهم بعد ذلك أن يردعوا الظالمين عن الظلم بالحكمة والموعظة الحسنة والنصيحة والقول اللين، فالظلم ظلمات يوم القيامة، ولعن الله قوماً ضاع الحق بينهم، وعليهم أن يجاهدوا معنا في سبيل مقاومة هذا المبدأ الخطر، وهو تحكم فرد في شعب، واستخدام السلطة الاستثنائية في القضاء على الهيئات والأفراد والجماعات والمنشآت بلا عاصم من شرع أو قانون، وليعذرونا إذا دفعنا الظلم إلى الانتصار، وأدى بنا الغيظ إلى الانفجار».

● ● ●

الفصل الثالث عشر

الاستشهاد

في مساء السبت (١٤ ربيع الآخر ١٣٦٨ـ ١٢ فبراير ـ شباط ـ ١٩٤٩م)[١] توجه الأستاذ حسن البنّا إلى المركز العام لجمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة (نازلي) رقم (١٢) ومعه الأستاذ عبد الكريم محمد منصور المحامي، وأمضى هنالك بضع ساعات. وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين طلب فضيلته إحضار تاكسي ليعود فيه إلى منزله، فأسرع أحد فراشي الجمعية بالمناداة على تاكسي مر مصادفة في الشارع في ذلك الوقت.

وجيء لفضيلته بالسيارة، فوقفت بجوار الجمعية، وفتح المحامي باب السيارة حيث ركب فضيلته ثم جلس إلى جواره، وقبل أن تتحرك السيارة أقبل مجهول، وأطلق عليهما سبع رصاصات، وقد ترتب على هذا أن تحطم جميع زجاج السيارة وتناثر إلى مسافة بعيدة، وعلم أن السائق أمسك عداد السيارة لإنزاله بعد أن ركب فضيلة الأستاذ البنّا والمحامي المرافق له، وبينما هو يستعد للسير فوجئ بالجاني، وهو يطلق الرصاص. وتمالك الشيخ نفسه، ونزل من السيارة، وعاد إلى داخل جمعية الشبان المسلمين والدماء تنزف منه، واتجه

(١) جريدة المصري، ١٣/ ٢/ ١٩٤٩م.

إلى ناحية حجرة التلفون وهو يصيح: «إسعاف. إسعاف».

وأمسك فضيلته بسماعة التلفون وأدار الرقم الأول، ثم خارت قواه فلم يستطع إدارة باقي الأرقام، وأسرع أحد الحضور بطلب الإسعاف تليفونياً.

ولما كانت حالة المحامي المرافق للشيخ ليست على شيء من الخطورة فقد استند الشيخ إلى ذراعه، وسارا إلى السيارة التي كانت لا تزال واقفة على الباب واستقلالها إلى مقر جمعية الإسعاف دون أن ينتظرا حضور العربة التي كانا قد طلباها لإسعافهما.

وقد قصدتْ السيارة بهما إلى المركز العام لجمعية الإسعاف بشارع فؤاد الأول، وهو لا يبعد عن جمعية الشبان المسلمين بأكثر من محطة ترام أو حوالي ١٥٠ متراً.

وما إن وصلت سيارة التاكسي إلى الإسعاف وحمل مندوبوها الشيخ ورفيقه حتى كان السائق قد خارت قواه بسبب الرعب الذي تملكه على أثر الحادث، فأصيب بالإغماء وسقط على الأرض.

وقام رجال الإسعاف بإجراء الإسعافات الأولية للشيخ البنَّا وزميله، ثم تقرر نقلهما إلى مستشفى القصر العيني لإسعافهما بالعلاج، حيث كانت حالة الشيخ تنذر بالخطر، وجيء بسيارة الإسعاف رقم ١٣ وقد وصلت به إلى القصر العيني في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة.

ولم يكد الأستاذ البنَّا يصل إلى المستشفى حتى كانت الدماء قد نزفت منه بغزارة لدرجة أنها غمرت (النقالة) التي كان ينام عليها بداخل السيارة.

وعلى إثر وصول الشيخ حسن البنَّا إلى المستشفى أخلي له سرير بين

المرضى في (سطوح أعلى رجال) ثم انتدبت إدارة المستشفى الدكتور الزنيني جمال الدين وأطباء آخرين لفحص حالته وتقرير علاجه.

وتبين من الكشف الطبي أنه أطلقت على الأستاذ البنَّا ست رصاصات أصابته في مواضع مختلفة من جسمه.

وقد قصد أحد مندوبي (المصري) إلى مستشفى القصر العيني، فعلم أن فضيلة الأستاذ البنَّا أصيب بجراح ثلاثة خطرة، بينها جرحان نافذان من الصدر، وأصيب كذلك بكسر في المرفق الأيمن.

وكانت حالة الأستاذ البنَّا على درجة بالغة من السوء، مما اضطر الأطباء إلى نقل الدم مرتين متلاحقتين، وقد ظل فضيلته فاقد النطق بعد عمليتي نقل الدم حتى ساعة متأخرة من الليل. وقد ظل حضرات الأطباء إلى جواره لملاحظة حالته، ولكن فضيلته لم يتحدث مدة العلاج إلا بقوله: «اعطوني ميه» وقد كررها عدة مرات في ألفاظ متقطعة.

وتبين من توقيع الكشف على المحامي المرافق له أنه مصاب في فخذه وذراعه الأيمن وحالته متوسطة.

هذا وعندما وصل الشيخ البنَّا إلى القصر العيني أخذ المختصون في تفتيشه جرياً على عادتهم مع كل مريض، وقد عثر معه على مبلغ ستة جنيهات وعشرة قروش. ووجدت مسبحة فضيلة الشيخ حسن البنَّا في أرضية سيارة التاكسي، واتضح أنها سقطت منه.

وقبيل الساعة الثانية بعد منتصف الليل أخفقت المحاولات لإنقاذ حياته ففاضت روحه متأثرة بجراحها.

* * *

هذا ما نشرته جريدة المصري صباح يوم الحادث في ظل الرقابة المفروضة على الصحافة، وهو لا يمثل الحقيقة إلا في الإطار العام، والذي عرف بعد ذلك أن الأستاذ رحمه الله عرف رقم السيارة التي فرّ بها الجاني وكتبه في مذكرته، وقدمه لكل الصحفيين الذين قابلوه في مستشفى القصر العيني، وأن ذاكرته كانت غاية في القوة واليقظة حتى وقت طويل.

هذا وهناك تحفظات كثيرة حول ما كان يجري تحت اسم نقل الدم والإسعاف وإشاعات حول ما جرى من محاولات للإجهاز عليه.

وقد ظلت الأخبار الحقيقية مكتومة فترة طويلة حتى قرابة نهاية العام ١٩٤٩م، حيث نشرت صحيفة الكتلة بعض التفاصيل فقالت: لقد قتل الشيخ حسن البنّا في الساعة الثامنة والثلث من مساء يوم ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩م، وصدرت الصحف صباح اليوم التالي تحمل النبأ المروع، فلم تزد على أنَّ مجهولين هاجما الشيخ أمام دار جمعية الشبان المسلمين، وأطلقا عليه الرصاص هو والأستاذ عبد الكريم منصور داخل السيارة التاكسي قبل أن تهم بالمسير لنقلهما إلى بيته. هذا ما سمحت به الرقابة التي كانت تمسك برقاب الصحف في ذلك الحين، والتي كانت موكلة بخنق الحقيقة في الصدور، فإذا لم تستطع فلا أقل من أن تمنع الصحف من الصدور.

وأشارت الكتلة إلى أن الحكومة قبضت على كل أنصار الشيخ وأقاربه وأصهاره، ولم تترك شخصاً تعرف أن له به أدنى صلة دون أن تقبض عليه وبقي الشيخ مطلق السراح، ثم سحب الجندي الذي كان مكلفاً بحراسته أمام داره.

وفي ذات يوم جاء أحد رجال البوليس، فنزع منه المسدس الذي كان يحمله، وهو مسدس كانت قد رخصت له الحكومة بحمله بصفته رئيساً

لإحدى الهيئات، وأجاب الشيخ البنّا أوامر البوليس وأعطاه سلاحه.

وذات يوم فوجئ الشيخ البنّا بفقد السيارة التي كان يستعملها في تنقلاته، ثم فوجئ بتعطيل التليفون في بيته، وأحس الشيخ بأنَّ هناك جريمة تدبر للقضاء عليه، وقد أرسل إلى محافظ القاهرة خطاباً يقول فيه: إنه يشعر بأنه مهدد بالقتل، وطالب بحارس على حسابه الخاص، وطالب باستعادة مسدسه، ومضت أيام وأيام دون أن يفوز بطائل.

وبعد أن فشلت المفاوضات مع الوسطاء، فكر الأستاذ البنّا أن يسافر إلى قليوب ليقيم هناك في عزبة صديق له يدعى الشيخ النبراوي، ولم تكد الحكومة تعلم بالنبأ حتى قبضت على الشيخ النبراوي نفسه. وأحس الشيخ بأنه محاط برقابة قوية ترصد حركاته، وكانوا يسمحون لمن يشاء بزيارته، ولكن كل زائر كان يخرج من عنده ليعلم في اليوم التالي أنه ذاهب إلى الطور. وفي اليوم الذي اغتيل فيه كان رحمه الله قد اعتزم السفر إلى قليوب لولا أن جاءه من يبلغه أن إبراهيم عبد الهادي يطلب إليه البقاء في القاهرة إلى يوم الإثنين المقبل، وذلك لزيارة المعتقلين من جماعة الإخوان في معتقل (الهاكستيب) فعدل عن السفر.

يقول الأستاذ عبد الكريم منصور: جاء محمد الليثي وأبلغه أن الأستاذ الناغي سكرتير جمعية الشبان المسلمين في انتظاره، ليتحدث إليه في مسائل تتصل بجماعة الإخوان، وأن لديه أخباراً سارة، ونصحته يومها بعدم الذهاب، وقد كنا نلمس ونحس ونتوقع شيئاً رهيباً سوف يحدث، وعبثاً حاولت أن أقنعه بالعدول عن الذهاب، فلما أصر على الذهاب بمفرده، تحاملت على نفسي ومضينا معاً إلى جمعية الشبان المسلمين.

وعندما غادرنا الدار لاحظت أن شخصاً كان يقف بدراجة أمامها، فلم

يلبث أن انطلق إلى جهـة مجهولة، ولفتُّ نظر الشيخ إلى ذلك، فطلب مني ألا أهتم بتلك المسائل، وانطلق بنا التاكسي إلى الشبان، فلاحظت أن سيارة تتبعنا، فعدت أبدي شكي قائلاً لا بدّ أن تكون إحدى سيارات البوليس التي تراقبنا.

ووقفت السـيارة أمام دار الشـبان، وكانت السـاعة الثامنة والربع حين خرج الشيخ من الحجرة، ووقفنا أمام دار الجمعية في انتظار قدوم التاكسي، ولاحظت أن الحركة في شارع الملكة (نازلي) هادئة على غير العادة، وأن الأنوار ضئيلة على الرغم من أنه طريق لا تهدأ فيه حركة المرور.

وجاءت السـيارة، وأصر الشـيخ على أن أبدأ بـالدخول ثم تبعني وأدار السائق مفتاح البنزين، وقبل أن تهم السيارة بالتحرك تقدم نحونا رجل يحمل سلاحاً نارياً سريع الطلقات، وكان يرتدي الملابس البلدية، ويضع شالاً حول عنقه، وأمسك القاتل بمقبض الباب الذي من ناحيتي محاولاً فتحه فقاومته فأدخل يده من فتحة نافذة السيارة، وظلت هذه المقاومة خمس دقائق، وفجأة بدأ الرجل في إطلاق الرصاص من سلاحه في السيارة، وأراد الشيخ البنَّا أن يتفادى الطلقات فنـام في أرض السـيارة مخبئاً رأسه بيديه، ولم يكد ينقطع صوت الرصاص حتى اندفع الشيخ البنَّا من السيارة متتبعاً الجاني والذين معه، وشاهدهم يركبون سيارة كانت في انتظارهم، واستطاع أن يلتقط رقمها ويعطيه لي وهو رقم ٩٩٧٩، وكلَّفني أن أحفظه!!.

وعلى الرغم من الرقابة الشديدة التي كانت تحيط بالشيخ البنَّا فإنَّ صوت الأعيرة النارية لم تلفت نظر أحد من رجال البوليس، وعاد الأستاذ وكنت أظنه لم يصب، وخاصة وقد رأيته في هذا النشاط وهذه الحيوية يتعقَّب المعتدين مسرعاً، كأنه في تمام صحته وعافيته، وفي دار الإسعاف علمتُ أنه أصيب كما

أصبت، ونقلنا معاً إلى مستشفى القصر العيني؛ وكان يواسيني في أثناء الطريق قائلاً:

لا تخف فإن إصابتي بسيطة.

ولما وصلنا المستشفى طلب إليهم أن يبدؤوا بعلاجي، وبحثوا عن الطبيب المناوب في قسم الجراحة الذي نقلنا إليه فلم يجدوه، ثم راحوا يبحثون عن طبيب آخر في داره فتبين أنه غير موجود هو الآخر، وأخيراً حضر الطبيب، فباشر علاج الشيخ الذي كان في حالة معنوية قوية والذي لم يبدُ عليه أي وهن أو ضعف.

وفي منتصف الليل نقلوا الشيخ من مكانه الذي كان إلى جواري، ولا أدري إلى أين ذهبوا به، وأفقت في الصباح على الخبر المزعج وأن الوفاة حدثت بسبب نزيف من جراء المقذوف الناري».

وأشارت الأخبار إلى أنه بعد أن فاضت روحه الشريفة نقل إلى مشرحة (زينهم) حيث شرحت جثته الطاهرة.

-٢-

في صبيحة يوم الاغتيال استيقظ الأستاذ البنَّا على رؤيا رآها[١] واستبشر بها خيراً، فقد رأى في منامه الإمام علياً رضي الله عنه يخاطبه:

«يا حسن لقد انتهت مهمتك، وأديت رسالتك، وقبلك الله وقبل منك».

وقد أسر فضيلته بهذه الرؤيا إلى أحد أفراد أسرته وقال: إن رؤيا علي في المنام معناها الاستشهاد.

---

(١) جريدة الزمان، ٢/٨/١٩٥٢م.

تـروي الأخبار كيف عاد الأستاذ البنَّا رحمه الله في ذلك اليوم إلى بيتـه لآخر مرة محمولاً على عربة، وأدخل جثمانه إلى المنزل وسط مظاهرة مسلحة من رجال البوليس، شاهرة المسدسات والبنَّادق في وجه نساء أسرته العزّل من كل سلاح.

وكان قد استدعي فضيلة الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنَّا (والد المرشد) في الساعة الثانية صباحاً إلى المحافظة، حيث قابل حكمدار القاهرة الذي فاجأه بالسؤال عن مكان مدافن الأسرة، وهنا عرف الوالد أن ابنه المرشد قد استشهد، وصمم والد المرشد على ضرورة نقل جثمان الشهيد إلى بيته أولاً، ثم ينقل منه إلى المدافن، وكان أن نقل إلى بيتـه على هذا النحو في السـاعة الرابعة صباحاً بعد أن حوصرت المنطقة حصاراً تاماً، وحوصر جثمان الإمام بقوة من البوليس بلغ من تعسفها أنها كانت تمنع والده من الاقتراب منه!!.

وفي الساعة الثامنة صباحاً حملت السيدات جثمان الإمام الشهيد على أكتافهنَّ إلى مسجد قيسون، بعد أن منع أي واحد من الحضور لحمل الجثمان، وكان البوليس يهدد كل من يقف في نافذة منزله بإطلاق الرصاص عليه، كما اعتُقل كثير من الرجال والسيدات. وصلَّى فضيلة الوالد صلاة الجنازة على ابنه الإمام الشهيد بمفرده، ثم حمل الجثمان في عربة من عربات البوليس إلى المدافن وكانت تسير وراءه عربة أخرى تحمل رجال البوليس مدجّجين بالسلاح، وقُبض على كل من حاول السير في الجنازة أو الاقتراب من المسجد، كما منعت المحافظة أهل الإمام الشهيد من إقامة سرادق للعزاء، وقُبض على كل من حاول أداء هذا الواجب.

* * *

وقد تبيَّنت الحقائق بعد ذلك، وكشف عنها الستار، وعرف القتلة ومحرّضوهم. قالت مذكّرة النيابة: إن الدولة تولّت من جانبها اتّخاذ التدابير التي يسّرت للمتآمرين تنفيذ تدبيرهم، إذ جرّدت المجني عليه من سلاحه وحرمته من الحراسة، حتى إذا غادر المجني عليه دار الجمعية مستقلاً سيارة أجرة، تقدم أحمد حسن ومصطفى أبو الليل يقفان في وجه السيارة ويرغمان سائقها على إيقاف سيرهما، ثم يصوّبان مسدسيهما نحو الشيخ البنَّا، ويطلقانهما عليه قاصدين قتله، بينما وقف الصاغ حسين كامل واليوزباشي عبده أرمانيوس بجوار مسرح الجريمة من الشمال والجنوب يردّان عنه مَن توافدوا إليه على صوت الطلقات النارية صائحين في وجوههم بالابتعاد عن مكان الحادث[1].

* * *

ونحبُّ أن نزيد القارئ وصفاً لمأساة اغتيال هذا الرجل العظيم ولمأساة تشييعه ودفنه، فننقل هل هذا الفصل من كتاب (معتقلات هاكستيب) لمؤلفه الأستاذ المجاهد محمد علي الطاهر، نقلاً عن كتاب (حسن البنَّا: مواقف في الدعوة والتربية) للأستاذ السيسي.

تحت عنوان (هكذا استشهد) قال الأستاذ الطاهر:

«تمكنت الصحف أخيراً بعد تخفيف الرقابة من نشر كيفية استشهاد الشيخ حسن البنَّا رحمه الله وكيفية دفنه، وإني أثبت هذه الخلاصات عن تاريخنا الحاضر ليعرفها الجيل المقبل:

---

(١) جريدة الأخبار ١٩/ ١/ ١٩٥٣م.

«وفي نحو الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم السبت الثاني عشر من شهر فبراير (شباط) عام ١٩٤٩م غادر الشيخ حسن البنَّا وزوج شقيقته الأستاذ عبد الكريم منصور المحامي دار جمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة نازلي بالقاهرة، واستدعى الشيخ حسن البنَّا سيارة ركبها ومعه صهره، واستدارت السيارة لتتّجه بالشيخ البنَّا ورفيقه وجهتها من باب الجمعية إلى شارع الملكة نازلي، فإذا بشاب يضع حول رأسه (كوفية) بيضاء يشهر مسدساً راح يطلق منه الرصاص على مَن في السيارة، فأصابت الطلقة الأولى صدر الشيخ حسن البنَّا من الجهة اليمنى، ولما التفت إلى الناحية التي ظنّ أن المعتدي يقف فيها أصيب بخمس رصاصات أخرى في ظهره، لما فزع واقفاً أصيب بطلق آخر في فخذه الأيسر، أما السائق فقد انبطح على (دواسة) مقعده، ثم أفاق من ذهوله بعد برهة، فأطلق لسيارته العنان إلى مقرّ الإسعاف، ورأى طبيب الإسعاف سوء حالة الشيخ البنَّا، فأمر بنقله إلى مستشفى القصر العيني، وهناك تبيّن أن الشيخ قد أصيب برصاصتين نافذتين في صدره، وكسر أحد أضلاعه وحدوث نزيف باطني.

وأُجريت عملية نقل الدم إلى الشيخ البنَّا، وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية والعشرين فاضت روحه متأثّراً بجراحه.

كيف دفنوا الشهيد؟

ونشرت جريدة (الكتلة) التي يصدرها الأستاذ مكرم عبيد باشا وصف دفن المرحوم الشهيد حسن البنَّا وما رافقه من أحداث وفظائع، وجعلته تحت عنوانات تكفي تلاوتها للعن الظالمين المجرمين، وهي: القبض على المعزِّين، ومنع الصلاة على جثمان الفقيد، ومنع القرآن على روحه، ثم نشرت الوصف

التاريخي الآتي، وهو مستقى من أقوال فضيلة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا والد المرحوم الشيخ حسن البنَّا:

نُقلت جثة الفقيد إلى بيته في سيارة تحرسها سيارات مملوءة بفريق من رجال البوليس المسلّحين، وقد أنساهم هول الجريمة أن الموتى لا يتكلّمون ولا ينطقون!

وفي أحد شوارع (الحلمية) وقفت القافلة، ونزل الجند، فأحاطوا ببيت الإمام الفقيد، ولم يتركوا ثقباً ينفذ إليه إنسان إلا سدّوه بجند وسلاح.

أما والد الشيخ البنَّا ذلك الشيخ الهرم ـ الذي جاوز التسعين عاماً، فلم يَـنُـؤْ بها ولم تبدُ عليه عوامل السنين كما بدت في هذه الليلة النكباء ـ فقد عرف بخبر وفاة ولده من أحد الضباط ساعة وقوعها، وظلّ ساهراً تفجعه الأحزان، منتظراً الفجر ليؤدي فريضة الله، ويقول له: سبحانك، وعدالتك يا ربي لقد قتلوا ولدي».

وتتابعت على باب المسكن طرقات، كان صداها يطحن قلب الشيخ الكبير طحن الرحى.

لا بكاء ولا عويل..!

كان الوالد هو وحده الذي يعلم وينتظر، فإنَّ أشقاء الفقيد جميعاً كانوا داخل المعتقلات والسجون، وفتحوا الباب وأدخلوا الجثة، ونَشجَ الوالد المحطَّم بالبكاء فقالوا له: لا بكاء ولا عويل، بل ولا مظاهر حداد، ولا أحد يصلّي عليه سواك.

ولنترك الشيخ أحمد البنَّا والد الشيخ حسن يتم القصة.

قال: أُبلِغتُ نبأ موته في الساعة الواحدة، وقيل إنهم لن يسلّموا إليّ جثته إلا إذا وعدتهم بأن تدفن في الساعة التاسعة صباحاً بلا احتفال، وإلا فإنهم سيضطرون إلى حمل الجثة من مستشفى القصر العيني إلى القبر.

واضطررتُ إزاء هذه الأوامر إلى أن أعدهم بتنفيذ كلّ ما تطلبه الحكومة؛ رغبةً مني أن تصل جثة ولدي إلى بيته فألقي عليه نظرة أخيرة.

وقبيل الفجر حملوا الجثة إلى البيت متسلّلين، فلم يشهدها أحد من الجيران ولم يعلم بوصولها سواي.

حصار حول البيت:

وظلّ حصار البوليس مضروباً لا حول البيت وحده، بل حول الجثة نفسها، لا يسمحون لإنسان بالاقتراب منها مهما كانت صلته بالفقيد.

وقمتُ بنفسي بإعداد جثة ولدي للدفن، فإن أحداً من الرجال المختصّين بهذا لم يسمح له بالدخول، ثم أنزلت الجثة حيث وضعت في النعش، وبقيت مشكلة مَن يحملها إلى مقرّها الأخير.

طلبتُ إلى رجال البوليس أن يحضروا رجالاً يحملون النعش فرفضوا. قلت لهم ليس في البيت رجال، فأجابوا: فليحمله النساء! وخرج نعش الفقيد محمولاً على أكتاف النساء!.

ومشت الجنازة الفريدة في الطريق، فإذا بالشارع كلّه قد رُصف برجال البوليس، وإذا بعيون الناس من النوافذ والأبواب تصرخ ببريق الحزن والألم والسخط على الظلم الذي احتلّ جانبي الطرق!.

وعندما وصلنا إلى جامع قيسون للصلاة على جثمان الفقيد، كان

المسجد خالياً حتى من الخدم، وفهمتُ بعد ذلك أن رجال البوليس قدِموا إلى بيت الله وأمروا مَن فيه بالانصراف ريثما تتم الصلاة على جثمان ولدي.

ووقفتُ أمام النعش أصلّي فانهمرتْ دموعي، لم تكن دموعاً بل كانت ابتهالات إلى السماء أن يدرك اللهُ الناسَ برحمته.

ومضى النعش إلى مدافن الإمام[1]، فوارينا التراب هذا الأمل الغالي، وعدنا إلى البيت الباكي الحزين، ومضى النهار وجاء الليل ولم يحضر أحد من المعزّين، لأن الجنود منعوا الناس من الدخول. أما الذين استطاعوا الوصول إلينا للعزاء، فلم يستطيعوا العودة إلى بيوتهم، فقد قُبض عليه، وأُودعوا المعتقلات، إلا شخصاً واحداً هو مكرم عبيد باشا[2]، الذي كان يتحدّى الظالمين.

بعد دفن الشهيد:

ونشرت جريدة (الكتلة) البيانات التالية عمّا حدث بعد دفن المرحوم الشيخ حسن البنّا تحت عنوانات صارخة مؤلمة، وهي: «البوليس يلقي القبض على جثة الشيخ البنّا، وكيف قبضوا على ميت آخر.. حصار البوليس للمقابر وإقامة حراسة دائمة». وبعد ذلك سردت الكتلة ما يأتي:

في اثنتي عشرة ساعة قتل الشيخ البنّا، وشرِّح، وغسّل، وانطوت صفحة حياته. عادت النساء اللاتي حملنَ النعش على أكتافهن، وعاد الوالد الواله الحزين، وقبل أن يغشى مدافن حي الإمام الشافعي كانت ثلّة من الجنود تحاصر الطرق المؤدية إلى المقبرة، وقوات كبيرة تحيط بمنزل الفقيد لتمنع

---

(١) أي الإمام الشافعي. وقبره في سفح جبل المقطم المجاور للقاهرة.

(٢) من الجدير بالذكر أن مكرم عبيد باشا هو من الأقباط. (الناشر)

الداخلين ولو كانوا من مرتّلي آي الذكر الحكيم، وتقبض على الخارجين، ولو كانوا من جيران الراحل الكريم.

ولقد قبض أحد رجال البوليس في ذلك اليوم على رجل من أصدقاء الفقيد متلبّساً بجريمة إحراز مصحف كان يخفيه في طيّات ثيابه، فأسلموه إلى مَن بيدهم أوامر الاعتقال!.

واليوم نسطّر قصة جديدة، من قصص الظلم والجهل ظلّت مطوية لا يعلم بها الناس؛ قصة الصراع العنيف الذي دار بين رجال البوليس وبين جثمان الشهيد حسن البنّا.

فقد أُشيع ذات مساء أنّ أصدقاء الشيخ البنّا ممَّن آلمهم أن يُدفن الرجل بهذه الصورة المزرية المؤلمة، قد اعتزموا على اختطاف الجثّة من قبرها وإخفاءها عن أعين البوليس.

وطُيِّر الخبر إلى السلطات، فأمرت بمضاعفة الحراسة، والتأكّد من كل شخص يمرّ بالطرقات المؤدّية إلى مدافن الإمام الشافعي. وكان الجنود المسلّحون يتناوبون الحراسة بعيون يقظة وقلوب واجفة مرتعشة.. خصّصوا فرقاً من رجال البوليس للسهر على جثته وحراستها خشية أن ينقلها بعض الناس إلى مكان يليق بمقامها، وأبى الظالمون الذين كان بيدهم الأمر إلا أن يضطهدوا الرجل في موته، وإلا أن يحرسوه بجند من عندهم كما كان ولا يزال يحرس شخص (إبراهيم عبد الهادي باشا) بطل العهد الغابر الأثيم نفسه!.

وفي الليلة التي ظنّوا أنها موعدٌ لتنفيذ المؤامرة الخيالية، مؤامرة خطف الجثة، امتلأت مقابر الإمام الشافعي برجال البوليس، ولأول مرة تنزعج المقابر وتقضّ مضاجع مَنْ فيها!!.

وكان رجال البوليس كلما اشتبهوا في شخص أو في جماعة من المارّة أوقفوهم وفتّشوهم، وسألوهم إلى أين هم ذاهبون، فإذا اطمأنوا إليهم ـ وهذا أمرٌ نادر ـ سمحوا لهم بالانصراف، وإذا ارتابوا فيهم ـ وهذا هو الغالب ـ قبضوا عليهم وأودعوهم غياهب المعتقلات.

ولمح نفرٌ من البوليس بعض الناس يحملون نعشاً ويسيرون به بين المقابر ـ ولعلهم كانوا قد قَدِموا به من مكان بعيد، فلم يدركوا المقابر إلا بعد الغروب ـ وفوجئ المشيِّعون بأسلحة تلمع في الظلام، وأصوات تأمرهم بالوقوف وبوضع النعش على الأرض للتحقّق من الميت، ورفع أحد الجنود غطاء النعش وسلّط عليه ضوء مصباح كهربائي في يده، ثم أمرهم بإعادة الغطاء وأن يمضوا في طرقهم، بعد أن تبيّن للجندي الذكي أن وجه الميت يختلف عن وجه الشيخ البنَّا! وهكذا قُدِّر للأموات أن يلقوا نصيبهم من الظلم الذي حاق بالأحياء في ذلك العهد.

وهكذا ظلّت المقابر تنعم بالراحة والهدوء منذ الأزل حتى جاء هذا العهد، فلم يسلم من ظلمه وجَوره وخوفه وجهله حتى الأموات الذين هم في رعاية الله وبين يديه.

بعد جنازة البنَّا:

ثم أقتبس ما يلي عن جريدة (الكتلة) ـ وقد نشرته تحت عنوانات مثيرة ومحزنة ـ وهي: «القبض على كل حزين يوم مصرع الشيخ حسن البنَّا، حامد جودة رئيس مجلس النوّاب يخلع السواد في ذلك اليوم، حملة تأديبية على المساجد بعد كل صلاة!». قالت (الكتلة):

نحن الآن عقب جنازة الشيخ حسن البنَّا، وقد وصفنا لك جانباً مما

حدث داخل بيت الشيخ وخارجه، وبقي أن نصف ما وقع من حوادث أثناء سير الجنازة وبعدها أدّت إلى اعتقال مئات من الناس لأسباب غريبة لاتكاد تُصدَّق، وقد حشدوا هؤلاء المظلومين حشداً داخل غرفة ضيّقة عفنة هي سجن نقطة الإمامين القريبة من المدافن! وإليك بعض الأسباب التي اعتقلوهم من أجلها:

هذا الشاب الذي يلبس رباط عنق أسود (كرافتة) حداداً على أبيه المتوفّى منذ أيام، لقد أدرك رجل البوليس بفطنته أنه يلبسها حداداً على الشيخ البنَّا، واستبعدت فطنته ويقظته أن يكون هناك سبب آخر دفع بالشاب إلى لبس الكرافتة السوداء، فهو إذن من غير شك من أشياع البنَّا ومريديه الذين كانت تتعقّبهم السلطة الغاشمة وتنكّل بهم أسوأ تنكيل.. وقد أودعوه السجن ثم المعتقل رهن التحقيق!!.

قراءة الفاتحة جريمة!

وذلك الرجل الذي اطَّلعت من جبهته وصدغيه وعينيه آثار اللكمات؛ يا له من مجرم خطير! تصوَّروا أنَّ أحد رجال البوليس ضبطه يتمتم بالفاتحة من إحدى النوافذ أثناء سير جنازة الشيخ الرهيبة، فصعد إليه واقتاده من بين أطفاله وزوجته والسلاح في ظهره مستعدّاً ليسكته إذا حاول المقاومة أو الفرار. وفي مخفر البوليس سألوه عن صحة التهمة، وهل قرأ حقاً على روح الشيخ البنَّا! فأجاب بالإيجاب. وهنا ازدحمت الأكف والقبضات والأقدام فوق وجهه وجسمه!. وعادوا يسألونه: ولماذا قرأ الفاتحة؟ فأجاب الرجل: إن من شعائر الدين أن نقرأ الشهادتين عندما يمرّ ميت وأن نقرأ الفاتحة على روحه. وصرخ أحد رجال البوليس وقد استقرّت يده على وجه المسكين لتصافحه بحرارة وهو يقول: كان لازم تعمل حنبلي يا ابن الـ... ـ وهنا نمسك عما نطق به رجل

البوليس المهذّب ـ فصاح المتهم البريء: وهل في قراءة الفاتحة جريمة يعاقب عليها القانون؟. ومرة أخرى ازدحمت الأكف والقبضات والأقدام فوق وجهه وجسمه وأُغمي عليه. وأفاق ليجد نفسه في الغرفة الباردة العفنة مع عشرات آخرين ويداه مكبّلتان بالحديد من خلاف ـ أي والله من خلاف ـ لإرساله إلى المعتقل بلا محاكمة، فقد كانت جريمة لا تغتفر في رأي (إبراهيم عبد الهادي باشا) أن يقرأ مسلم الفاتحة على روح ميت تمرّ جنازته أمامه.. جريمة بلغ من بشاعتها أن يرسَل مَن يرتكبها إلى المعتقل بلا محاكمة؛ لأنه لم يجد في القانون عقاباً يمكن أن يكون جزاءً عادلاً لمن يقرأ الفاتحة على روح ميت!.

لقد خلع الأستاذ (حامد جودة) رئيس مجلس النوّاب المنحلّ السواد الذي كان يلبسه حداداً على النقراشي باشا في ذلك اليوم بالذات؛ حتى لا يُقال أنه حزن على مقتل الشيخ البنّا، فيلاقي بعض المتاعب من البوليس!.

ولا نحسب أن هناك سبباً آخر دفعه إلى أن يخلع السواد في ذلك اليوم، ولم يمضِ على مقتل النقراشي باشا أكثر من عشرين يوماً!!.

وشنَّ البوليس في ذلك اليوم حملة عنيفة على المساجد في العاصمة، فكانوا لا يسمحون لأحد بالصلاة أو العبادة بعد الصلاة مباشرة، وإن أحد حدّثته نفسه بأن يطيل في الصلاة فإنه يكون قد أورد نفسه موارد التهلكة، وعرَّض حريته للضياع، وشخصه للتنكيل، وأولاده وأسرته للتشريد والجوع والألم والدموع.

وكان بعض رجال البوليس ممن وهبهم المولى رقّة قلب (عبد الهادي باشا) يستنكفون أن يخلعوا أحذيتهم أثناء دخول المساجد، فكانوا يقتحمونها بأحذيتهم القذرة ويطأون المسجد بنعالهم غير مراعين حرمة المسجد ولا كرامة

المسلمين. وليتخيّل القارئ شخصاً واقفاً بين يدي الله يؤدي فرائض دينه، فإذا بعصا غليظة أو غير غليظة تنهال عليه، وإذا برجال البوليس يدفعونه من بيت الله إلى منفى الطور وعيون موسى بصحراء سيناء؛ إرضاءً لعيون عبد الهادي باشا!!.

نابليون اعتذر:

إنّ دخول المساجد بالأحذية والنعال أمرٌ لم تشهده مصر منذ كانت المساجد سوى في عهدين:

المرة الأولى: في عهد نابليون يوم وطئت خيوله ـ ولعلها كانت جامحة ـ صحن الجامع الأزهر، وقد اعتذر نابليون لهيئة كبار العلماء، وتأسّف لهذا الحادث.

والمرة الثانية: بل مئات المرات حدثت في عهد إبراهيم عبد الهادي باشا، ولم يعتذر لا لله ولا للناس. انتهى كلام جريدة الكتلة.

إنّ منع الناس من شهود الجنازة ومن التعزية قد وقفتُ على شيءٍ منه بنفسي[١] وذلك أنَّ خبر مصرع الشهيد البنَّا لم أعرف به إلا من صحف الصباح ـ ويا له من صباح ـ فلم أتردّد لحظة بأنّ المرحوم قد اغتيل غدراً، وأنّ لعصابة إبراهيم باشا عبد الهادي اطّلاعاً على اغتياله، أخذاً بثأر رئيس وزراء عهدهم محمود النقراشي باشا؛ على ظنٍّ منهم أنَّ الأستاذ البنَّا هو الذي أوعز بقتله!.

وقد بادرت إلى التليفون أسأل بعض الأصدقاء عن موعد الجنازة لنشهدها جميعاً، فقالوا: إن الفقيد قد أسلم الروح عند منتصف الليل، وأنه

(١) الكلام هنا للأستاذ عباس السيسي.

دُفن في الصباح المبكر بأمر الحكومة حتى لا تقع مظاهرات أو اضطرابات، فلم أستغرب هذه الفظائع من وزارة (عهد) مغضوب عليها من الأمة، وقد لطّخت سمعتها بدم رجل عظيم كالأستاذ البنَّا، الذي يحكم له كلّ مَن عرفه بالاتّزان والرصانة واستحالة التفكير في الإيعاز بقتل أحد، لا النقراشي ولا سواه!!.

كان مكتبي في تلك الليلة حافلاً بالزائرين أكثر من كل ليلة، وكان الحديث كلّه حديث جريمة قتل المرحوم البنَّا، وكان كلّ منّا يعزّي الآخر، وقد اقترحتُ على الحاضرين أن نقوم جميعاً ونذهب إلى سرادق التعزية المعتاد في مثل هذه الظروف، فقالوا: إنّ الحكومة منعت إقامة سرادق للعزاء ولذلك جئنا لنتبادل العزاء عندك.

إلى دار حسن البنَّا:

وقبيل منتصف الليل لم يبقَ في المكتب عندي إلا الأستاذ محمد سعيد العريان ـ وكان من زملاء الفقيد في الدراسة ـ فكان يبكي صديقَه بكاءً شديداً، فقلتُ له: ما رأيك يا فلان في أن نذهب الآن إلى منزل الفقيد لتعزية والده وأهله، فقال: هذا حسنٌ وهيا بنا، فركبنا سيارة الأستاذ العريان؛ فإذا بحي (الحلمية) الذي فيه دار المرحوم البنَّا مظلم الجنبات مطفأ الأضواء، وكانت الدكاكين كلّها مغلقة، فأطلقنا أنوار السيارة، فإذا بالجنود بألبستهم السوداء يلوحون في ذلك الظلام كالأشباح، وبأيديهم البنَّادق مشرعة، وإذا بهم يقفون لنا في عرض الطريق سدّاً، ويشيرون إلى السائق بالاتجاه إلى غير اتجاهنا، فتعجّبنا من هذه الاحتياطات، وأوعزنا إلى السائق أن يدور ويدخل المنطقة من شارع آخر وليكن ما يكون، ولكن الشرطة لم تسمح بالحركة إلا إذا عادت من

حيث أتت وإلا فإنهم يطلقون علينا النار! عند ذلك رجعنا ونحن نحمد الله على أنهم اكتفوا منا بالرجوع بدون إطلاق الرصاص!!.

-٣-

كلمات حزن ورثاء:

كانت جريمة اغتيال الإمام الشهيد حسن البنَّا كارثة كبرى حلّت بالعالم الإسلامي، فحزنت لفقده الملايين، وبكاه الناس بدموع غزيرة، ورثاه إخوانه والعلماء والكتّاب بكلمات اقتطعت من أفئدتهم.

وفيما يلي نسوق للقارئ شيئاً يسيراً مما عبَّره عنه محبّوه من حزن على فقده:

ولدي الشهيد في ذمة الله

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ في قصة موت إبراهيم ابن النبي ﷺ ـ قال: «فجاء رسول الله ﷺ فدعا بالصبي فضمّه إليه، قال أنس: فلقد رأيته بين يدي رسول الله ﷺ وهو يكيد بنفسه، قال: فدمعتْ عينا رسول الله ﷺ وقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا عزَّ وجلّ، والله إنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون».

* * *

تتمثّل لي يا ولدي الحبيب في صورتين: صورة وأنت رضيع لم تتجاوز الستة شهور، وقد استغرقت مع والدتك في نوم عميق، وأعود بعد منتصف الليل من مكتبي إلى المنزل، فأرى ما يروّع القلب، ويهز جوانب الفؤاد: أفعى مروّعة قد التفّت على نفسها وجثمت بجوارك، ورأسها ممدود إلى جانب رأسك، وليس بينها وبينك مسافة يمكن أن تُقاس.

وينخلع قلبي هلعاً فأضرع إلى ربي، وأستغيثه فيثبت قلبي، ويذهب عني الفزع، وينطق لسان بعبارات واردة في الرقية من مسِّ الحية وأذاها، وما أفرغ من تلاوتها حتى تنكمش الحية على نفسها، وتعود إلى جحرها، وينجيك الله يا ولدي من شرّها لإرادة سابقة في علمه، وأمرٌ هو فيك بالغه.

وأتمثّلك يا ولدي وأنت صريع، وقد حُملت في الليل مسفوكاً دمك، ذاهبة نفسك، ممزّقة أشلاؤك، هابت أذاك حيات الغاب، ونهشت جسدك الرخص حيات البشر، فما هي إلا قدرة من الله وحده تثبت في هذا الموقف، وتعين على هذا الهول، وتساعد في هذا المصاب، فأكشف عن وجهك الحبيب فأرى فيه إشراقة النور، وهناءة الشهادة، فتدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول

إلا ما يرضي ربنا عزَّ وجلّ: «إنَّـا لله وإنَّـا إليه راجعون».

وأقوم يا ولدي على غسلك وكفنك، وأصلّي وحدي من البشر عليك، وأمشي خلفك أحمل نصفي، ونصفي محمول، وأفوّض أمري إلى الله، إنّ الله بصير بالعباد.

أما أنت يا ولدي فقد نلتَ الشهادة التي كنت تسأل الله تعالى في سجودك أن ينيلك إيّاها فهنيئاً لك بها، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخلُ الجنّةَ يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا وأنَّ له ما على الأرضِ من شيء إلا الشهيد؛ فإنه يتمنّى أن يرجعَ إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة».

اللهمَّ أكرم نـزله، وأعلِ مرتبه، واجعل الجنّـة مثواه ومستقرّه، اللهمّ لا تحرمنـا أجره ولا تفتنّا بعده، واغفر لنـا وله، وبلّغه أمله من القرب من رسولك ﷺ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وأما أنتم يا من عرفتم ولدي واتّبعتم طريقه، إنّ خير ما تحيون به ذكراه أن تنسجوا على منواله، وتترسّموا خطاه، فتتمسّكوا بآداب الإسلام وتعتصموا بحبل الأخوّة، وتخلصوا العمل والنية لله.

وأوصيكم أن تكونوا صورةً صادقةً لسيرة ولدي رحمه الله، لا تبتغون من الناس جزاءً، ولا تخشون غير الله ربّاً، ولا تضمرون لأحدٍ شرّاً أو أذى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ـ٣٥].

يا أخي الشهيد

للأستاذ عبد الرحمن البنَّا

ما عاش بعدك من لم يشغله مصرعك، وينفعه مبدؤك، ويشرق عليه سناك.

أنت تاريخ التحوّل في حياة مصر الماجنة إلى مصر المؤمنة، يوم قيامك بدعوتك يوم إشراقها ونهضتها، ويوم غَدَر الغادرون بدء ظلامها ونكبتها.

المسلمون في حاجة إلى تتبّع سيرة الرسول ﷺ، وتقصِّي أخباره وآثاره، ولابدّ لهم من القدوة يتّبعون سيرتها، ويأخذون عنها، وكنتَ أنتَ القدوة العملية، تحقق سيرته في نفسك، وتشيع أضواءها على مَن حولك، وكنتَ المعين الذي يفيض خلقه، وينشر هديه في العالمين.

ظنّ الجاهلون أنه بانتهاء حياتك ستنتهي دعوتك، ولكنّك حيٌّ لم تَمُتْ ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

فأنت حيٌّ تُرزق، ورايتكَ عالية تخفق، وذكراك حارة تصعق، ولو جعلوا الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت فالله محيط بالكافرين.

يا أتباع حسن البنَّا، الملايين المنتشرة في أرض الله شرقيها وغربيها، المؤمنون برسالة محمد ﷺ والحريصون عليها، حسن البنَّا حقيقة خالدة،

وروح مجمعة، وقوة دافعة، وراية خافقة، فتجمّعوا حول رايته، وتحقّقوا بسموّ رسالته ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

اللهمّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده، واغفر لنا وله، وارفع منزلته في عليين ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

* * *

غصن باسق في شجرة الخلود

للأستاذ الشيخ محمد الغزالي

في وحشة الليل، وسَوْرة الغدر، ويقظة الجريمة، كان الباطل بما طُبع عليه من غرور، وما جُبل عليه قسوة، وما مَرَد عليه من لؤم، كان مستخفياً ينساب في أحياء القاهرة الغافلة؛ يجمع سلاحه، ويبثّ عيونه، ويسوق أذنابه من الكبار والصغار، ويعدّ عدّته لكي يغتال حسن البنّا مرشد الإخوان المسلمين.

وليس قتل الصدِّيقين والصالحين في هذه الدنيا بالأمر الصعب!

إنَّ القدر أذِن بأن يعدو الرعاع قديماً على أنبياء الله، فذُبحوا وهم يحملون الدعوة، أفيكثرٌ على من تلقّفوا هذه الأعباء قبل أن تسقط على الأرض، أن يَرِدوا هذا المورد؟ بلى! ومَن طلب عظيماً خاطر بعَظَمته...

ومن هوان الدنيا على الله أن ترك كلاب المترفين فيها تشبع مع المترفين، وأن ترك حَملة الوحي فيها يهونون مع الوحي! لا بأس. سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: اللهمّ آتني أفضل ما آتيته عبادك الصالحين، فقال له: «إذن يُعقر جوادك، ويُراق دمك!» حتى الجواد يُقتَل مع صاحبه. أصابه من الشهادة مسّها القاني! ولو كان مربوطاً بعربة بضاعة لعاش دهراً.

وكذلك أبى ربّك أن يسترجع المختارين من عباده ـ بعدما أدّوا رسالتهم

في الحياة ـ أبى أن يتركوا هذه الحياة سالمين من طعناتها الفاجرة وجراحاتها الغادرة.

فمزق عِلْجٌ من المجوس أحشاء عمر، وعدا مأفون غر على حياة علي، وتآمرت دولة الأوغاد على قتل حسن البنَّا.. ولن تزال سلسلة الشهداء تطول حلقة حلقة ما بقي في الدنيا صراع بين الضياء والظلام.

عَفَاءٌ على دار رحلتَ لغيرها فليس بها للصالحين مُعَرَّجُ
كدأبِ عليّ في المواطن قبله أبي حسن والغصنُ من حيثُ يخرجُ

* * *

لقد قُتل البنَّا يوم قُتل والعالم كلّه أتفه شيء في ناظريه!!.

ماذا خرقت الرصاصات الأثيمة من بدن هذا الرجل؟!.

خرقت جسداً أضنته العبادة الخاشعة، وبراه طول القيام والسجود.. خرقت جسداً غبَّرته الأسفار المتواصلة في سبيل الله، وغضنت جبينه الرحلات المتلاحقة؛ رحلات طالما أصغى الملايين إليه فيها وهو يسوق الجماهير بصوته الرهيب إلى الله، ويحشدهم ألوفاً ألوفاً في ساحة الإسلام!

لقد عاد القرآن غضّاً طريّاً على لسانه، وبدت وراثة النبوّة ظاهرةً في شمائله، ووقف هذا الرجل الفذّ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية، وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حبّاً للإسلام واستمساكاً به.

وعرفت (أوروبة) البغيُّ أي خطر على بقائها في الشرق إذا بقي هذا

الرجل الجليل، فأوحت إلى زبانيتها. . فإذا بالإخوان في المعتقلات، وإذا بإمامهم شهيد مدرج في دمه الزكي!

ماذ خرقت الرصاصات من جسد هذا الرجل؟ خرقت العفاف الأبيّ المستكبر على الشهوات، المستعلي على نزوات الشباب الجامحة!.

لقد عاش على هذه الأرض أربعين عاماً لم يبت في فراشه الوثير منها إلاّ ليالي معدودة، ولم تره أسرته فيها إلا لحظات محدودة. والعمر كلّه بعد ذلك سياحة لإرساء دعائم الربانية، وتوطيد أركان الإسلام، في عصر غفل فيه المسلمون، واستيقظ فيه الاستعمار، ومِنْ ورائه التعصّب الصليبي، والعدوان الصهيوني، والسيل الأحمر، فكان حسن البنَّا العملاق الذي ناوش أولئك جميعاً حتى أقضَّ مضاجعهم. وهدَّد في هذه الديار أمانيّهم!!.

لقد عرفت التجرّد للمبدأ في حياة هذا الرجل!!.

وعرفت التمسّك به إلى الرمق في مماته!!.

عرفت خسّة الغدر يوم قدم رفات الشهيد هدية للمترفين الناعمين!!

عجباً لهذه الدنيا وتبّاً لكبرائها، وارحمتاه لضحايا الإيمان في كلّ عصر ومصر! أكذلك يقتل الراشد المرشد؟؟

ودَعا أيه الحفيّان ذلك الشخص إنَّ الوداع أيسر زادِ

واغسلاه بالدمعِ إنْ كان طهراً، وادفناه بين الحَشىٰ والفؤادِ

وخُذا الأكفان من ورق المصحف كِبْراً عن أَنْفَسِ الأبرادِ

أسفٌ غيرُ نافعٍ واجتهادٌ لا يؤدّي إلى غناءِ اجتهادِ

* * *

حسن البنَّا

للأستاذ صالح عشماوي

قد كنت أوثر أن تقول رثـائي   يـا منصف الموتى من الأحيـاء

ما كنتُ أظنُّ وما كان يدور بخلدي أنه سيجيء يوم أكتب فيه عن حسن البنَّا؛ وقد أصبح في دار البقاء ونحن ما زلنا في دار الفناء!.

بل لقد كان الرجاء أن نلقى الله شهداء، وقد عجلنا إليه ـ سبحانه ـ ليرضى، وتركنا الإمام والمرشد العام يسير بهذه الدعوة وسط العواصف والأنواء إلى شاطئ السلامة، ويقود هذه الأمة الحائرة إلى طريق العزة والمجد والسعادة؛ ولكن هكذا قدَّر الله ولا ردّ لقضائه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ماذا نتحدث عن حسن البنَّا؟!.

أنتحدث عن حسن البنَّا (المربّي) وقد كان كلٌّ منا يشعر أنه يقف منه موقف المريد من شيخه؛ وقد أسلم له القياد، ليأخذ بيده إلى الله وإلى طريق الحق والخير والطهر والصفاء!.

أم نتحدث عن حسن البنَّا (المعلم) وليس فينا إلا من تتلمذ على يديه، وتعلم منه، وتلقّى عنه، وجدّد إيمانه، وصحح فهمه للإسلام عن طريق دروسه ومحاضراته!!.

أم نتحدث عن حسـن البنَّا (الوالد) وقد كان كل واحد منـا يجد فيه أبـاً رحيماً، ووالداً عطوفاً، يسـهر على راحته ويهتم بشؤونه الخاصة، ويلتمس عنده حلّ المشـكلات العائلية، والفرج من ضائقتـه المالية؛ حتى كأنـه وحده الابن الوحيد لهذا العائل الكبير!!.

أم نتحدث عن حسن البنَّا (الزعيم) و(القائد) وكنا إذا ادلهمَّت الأمور والتبسـت الحقائق؛ وجدنا في عقلـه الذكي، وقلبه النقي أيسر الحلول لأعقد المشاكل!!.

* * *

لقد كان حسن البنَّا طاقة بشرية جبارة:

طاقة روحية أضاءت كل قلب مظلم اتصلت به، وأشعلت نور الإيمان في نفس كل مؤمن من تيارها السيّال!!.

طاقة بلغ من قوتها أنها أحيت ميت الآمال في نفوس اليائسين، وهونت كل تضحية في نفوس المؤمنين!!.

وكان حسـن البنَّا طاقة علمية ممتازة، كوّنت مدرسـتها، وخرجـت تلاميذها، وجددت معاني الإسلام، وبددت كثيراً من الأوهام، وتركت تراثاً خالداً من العلم والمعرفة!!.

وكان حسن البنَّا طاقة فياضة جياشة مرهفة الإحساس رقيقة الشعور، فكان يحـس بآلام إخوانـه وأتباعـه وإن أخفوها بيـن الجوانح وفي حبـات القلوب!!.

وكان حسن البنَّا طاقة ضخمة من الحكمة والكياسة، وعبقرية فذة في فن

القيادة والسياسة، وحسبه أنه استطاع أن يقود دعوته ويسير بجماعته تحت سمع المستعمرين وبصرهم والمتزعمين وأحزابهم، ولم يشعروا بها، ولم يدركوا خطرها على أهوائهم ومطامعهم إلا بعد أن امتدت جذورها، واستوت على سوقها، وصلب عودها، وعلَت فروعها وأغصانها، وبدأت تؤتي ثمارها بإذن ربها!!.



خواطر
في الإمام الشهيد حسن البنَّا

بقلم سعيد رمضان

فاجعة :

صلَّيتُ الفجرَ وجلستُ أكتب بعض أشياء للمؤتمر الإسلامي في كراتشي ، ثم عدت فوجدت في انتظاري خبر الفاجعة الكبرى . أكاد لا أصدقها ! ! . يدي لا تستطيع أن تحرك القلم ! مقتل حسن البنَّا . . . لا أكاد أصدق ! ! كذب ! لا . . . بل حق . . . هو خبر أذيع : أصيب الرجل العظيم بالرصاص مساء أمس ، ثم نقل إلى المستشفى مضرجاً بدمه الطاهر ، ثم فاضت روحه أثناء الليل إلى عليِّين ! ! وتركتنا على الأرض نعاني شرها ومرّها ! قتلته يد آثمة أساءت إلى الإسلام الإساءة الكبرى .

هيه يا فضيلة المرشد : سلام عليك حيث أنت ، في قدسك وعليائك ، وجزاك الله خير ما جزى إماماً عن تلاميذته وأتباعه .

كان حسن البنَّا إماماً بكل ما تسع الإمامة من معنى . كان مثلاً أعلى في كل شيء : في علمه ، في إيمانه ، في إخلاصه ، في نشاطه ، في حدة ذكائه ، في دقة ملاحظته ، في قلبه الكبير وروحه الطاهرة ! ! .

كان حسن البنَّا حجة الله في نفسي على أن الإسلام يصنع الرجال ، ويحقق

المثل العليا، ويصوغ النور المصفَّى من لحم ودم. كان عقلاً هائلاً، وروحاً موصولاً بالسر الأعلى لا يفتر عن ذكر الله. كان قمة شامخة فيها العلو، وفيها الثبات، وفيها قوة الجبل. كان عظيماً موفقاً لا يخطئ الوجهة. كان رائعاً ملأ قلوبنا بحب الله، وأشعل صدروها بحب الإسلام، وصهرنا في بوتقة طاهرة لا تشوبها شائبة.

قتل حسن البنَّا في يوم أسود من أيام التاريخ، وفقدت الإنسانية بفقده إنساناً قلّ أن يجود الزمان بمثله.

قتل حسن البنَّا بعد عشرين عاماً قضاها في جهاد مرير متصل الأيام والليالي.

لن أنسى جولاته في الأقاليم لا ينام إلا ساعتين أو ثلاثاً في اليوم والليلة، ولن أنسى سهره الليل عاكفاً على شؤون الدعوة في المركز العام، أو في دار مجلة (الشهاب)، أو في دار الجريدة اليومية، أو في دار شركة المعاملات الإسلامية، أو في بيته الذي لا يكاد يظفر به لزوجته وأولاده أياماً متوالية. ولن أنسى دموعه التي طالما هتنت في غفلة من الناس على الإسلام والمسلمين.

وإن أنس لا أنس رحلة مديريتي الشرقية والدقهلية التي سعدت فيها بصحبته، وكان يزور في اليوم الواحد أكثر من خمس قرى يخطب فيها جميعاً، ثم تكون حفلة المساء في إحدى المدن حيث تحتشد الآلاف لتصيخ السمع إلى الصوت المكهرِب والروح الغامر والفكر المشرق... إلى حسن البنَّا، ساعتين أو ثلاثاً، واستمر البرنامج هكذا أكثر من أسبوعين، ثم عدنا إلى القاهرة، وسافرت أنا إلى طنطا لأزور الأهل، ففوجئت في اليوم التالي بأن حسن البنَّا دخل المستشفى لتجرى له عملية جراحية، فأسرعت إلى القاهرة منزعجاً لأني

تركته سليماً معافى، وعلمت حين وصلت أنها عملية (ناسور) كاد يحدث له تسمماً خطراً، فأدهشني ذلك أيما دهشة، واستغربت كيف استطاع هذا الرجل الكبير أن يكبت ألمه ويخفي ذلك علي وأنا ألازمه طوال النهار، وأقضي معه ساعات الليل في غرفة واحدة، وكيف قضى هذه الأيام الطويلة في برنامجه المضني دون أن تتخلى عن وجهه الإشراقة الآسرة التي تدغدغ القلوب، والابتسامة العذبة التي يستقبل بها كل الناس.. ودخلت حجرته في المستشفى فاستقبلني بالابتسامة ذاتها، ولم أتكلم لأني قرأت في عينيه أنه عرف ما أعني، وتكلم هو فقال:

«لهذا نجحت رحلتنا النجاح الذي رأيت... هي بركة الصبر يا سعيد».

أظنني لو قضيت أعواماً أقرأ عن الصبر في كتب الأخلاق ما وجدت فيها ما وجدته في هذه الحادثة، وما تأثرت منها جميعاً تأثري بالذي قد رأيت!!.

هكذا كان حسن البنَّا، وهكذا تتلمذنا عليه... أي والله كذلك كان، وكان كل ما فيه يبعث أعزّ المعاني في النفوس!!.

هذا الوجه المشرق الندي، وهذا الصوت العميق الرخيم، وهذا الإيمان الحي الغامر، وهذه الروح المشرقة التي عرفت بها الله، وطوتني أشعتها ونشرتني سبع سنين كانت حلماً عزيزاً.

هذا الرجل العجيب الذي بعث الأمة من أعماقها، وهزها هزة عنيفة أسالت الحياة في وجدانها، ولم يتركها إلاّ وقد خلف فيها جيلاً كريماً حياً يعرف ربه، ويؤدي واجبه.

هذا الإمام الذي كان أملاً خفاقاً ساقته رحمة الله في عصر مظلم داعر أمره

فرُطُ، هو الذي قتلوه قتلة ستظل وصمة في جبين مصر والمصريين، جوزي بها جزاء (سِنِمّار).

لم تمت:

كنت أنظر الآن من شرفة غرفتي بفندق (سرتاج) بكراتشي، فرأيت شاباً ينحني انحناءة ذكرتني بأخ عزيز من إخوان مصر.

هيه يا أخوة مصر، يا شبابها الطاهر، يا نور النبوة وميراث المجد الغابر، وعزاء القلب الجريح. ما كان يدور بالبال أن يوماً سيأتي يحال فيه بيننا بهذا السياج الآثم من زبَد الرياح الهوج بعد أن تنسمنا أنسام الحق والحرية بين يدي الرجل العظيم.

كان حسن البنَّا نسمة حلوة جادت بها رحمة الله على الإنسانية الظامئة، ثم مرَّت عابرة بعد أن ذكرتنا بأيام الأُنس الأولى: أيام الأنبياء والمرسلين وأحباب الله في أرضه، وحبَّبت إلينا الجنة والخير، والمُثُل العليا والسمو، وكل ما بينه وبين الله نسب من القبول والرضا، لأن حسن البنَّا كان نسبة خالصة ليس فيها لغير الله نصيب. كان روحاً نعبُّ منه ولا يغيض، وبحراً صافياً تذوب فيه كل أوساخنا، ويظل هو طهوراً مرسلاً لا يضيق ولا يعتكر.

هيه يا فضيلة المرشد. أحقٌّ ما يقولون من أنك مُتّ، ومُتَّ قتيلاً في شارع من شوارع القاهرة، ودفنت بعد أن صلى عليك نفر قليل في مسجد (قيسون)، وكان المشيعون بضعة من أهلك وأقاربك؟.

لم تمت يا فضيلة المرشد!! لا والذي خلقك! لا والذي أنعم علينا بك، ومتعنا بصحبتك! لقد فتحت قلوبنا على النور، ووضعت أيدينا على أول الصراط، وجمعتنا من شتات.

وسنمضي إلى حيث كنت تدعو وتربي وتحترق بالليل والنهار. لا زالت دروس الثلاثاء، وكتائب المركز العام، وأحاديثك الخاصة، وخطب السرادقات، وهمسك في لحظات الصفاء، لا زال ذلك كله طي قلوبنا، وأمانة الله في أعناقنا.

لقد تركتنا يا فضيلة الأستاذ بعد أن حمَّلتنا العبء القاسي، وجعلته شهداً مذاباً في طوايانا وأعصابنا. فاهنأ ـ يا حبيب الروح ـ في جنة الخلد، واسعد كفاء ما كافحت الكفاح المرّ الطويل.

نجوى:

«في حجرتي العالية بمستشفى فاطمة جناح، أرمباغ، كراتشي باكستان حوالي الساعة العاشرة صباحاً».

سيدي فضيلة الأستاذ المرشد:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وأسعد الله صباحك أيها الرجل العظيم. وهل في الجنة صباح ومساء؟ هكذا أراد الله لك الجنة، وأن تتركنا هنا حيارى بين ظلمة ونور.

كنا معك يا فضيلة الأستاذ طيوراً أطلقتها بإذن ربك من أقفاصها، فراحت تخفق بأجنحتها في هواء طلق، ولكنها كانت لا تلبث أن تعود إليك، وتخفق خفقة الولاء لله بين يديك. أما بعد أن تركتها وطرت إلى أقدس جوار وأصدق منزل، فقد تناوشتها الرياح، وهي الآن تبحث عن وكر هادئ تجتمع لديه. ليس يعلم إلا الله ـ يا سيدي ـ ما تخبئه الأيام لنا إلا أننا نسائل الله أن يثبتنا على العهد.

أين روحك ـ يا سيدي ـ تزيل الران عن قلوبنا؟ أين عيناك نقبس منهما نوراً من أنوار السماء؟ أين سرك الرائع الذي كان يجعلنا دائماً في ثقة من أننا على الصراط، وفي اطمئنان إلى أن حسن البنَّا ليس فيه لغير الله شيء؟ كنت ـ يا سيدي ـ الرجل الذي أومن به، وأطمئن إليه، وأجد الراحة كاملة في صدق الفناء فيه.

لا زلنا نذكر كلماتك: «**أيها الإخوان! إني لا أخشى عليكم الدنيا مجتمعة، فأنتم بإذن الله أقوى منها. ولكني أخشى عليكم أمرين اثنين: أخشى أن تنسوا الله فيكلكم إلى أنفسكم، أو أن تنسوا أخوتكم، فيصير بأسكم بينكم شديداً**».

يا فضيلة الأستاذ! لن ننسى الله، ولن ننسى أخوتنا، وما فعل أعداء الله أكثر من أن ذكَّرونا بهما.

سيدي الأستاذ! تذكر يوم جاءك خبر استشهاد الأخوة الكرام في أول معركة في فلسطين. وتذكر أنك قلت ساعتها: «اشتقنا إلى الجنة، لا إلى خيراتها وفواكهها؛ ولكن إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والصحب الكرام، وهؤلاء الشهداء الأعزاء» وقد استجاب الله لك... هل رأيتهم؟ وكيف وجدتهم؟... هنيئاً لك ما أنعم الله به عليك، عزة في الدنيا، وكرامة في الآخرة ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

آه يا أستاذ! لم تعد مكلفاً فأسألك، ولسنا لنعلو إليك فنسمعك!! أصبح علينا أن نواجه الحياة بإيمان وعزم، وبذرك الذي بذرته سيؤتي أُكله، ومع اليوم غد. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والسلام عليك ـ يا حبيب الروح ـ ورحمة الله وبركاته!.

آخر لقاء:

(الساعة الآن التاسعة وقد انتهيت من الإفطار منذ دقائق، وأنا أغسل يدي في ركن يطل على شارع محاذ لحديقة أرمباغ).

لمحت عربة تشبه عربة فضيلة الأستاذ المرشد التي تعوَّد أن يركبها.. خفق قلبي، وغار بين جنبي، وأحسست بلفح الذكرى يهز نفسي هزَّاً. لا زلت أذكر آخر لحظات رأيت فيها فضيلة الأستاذ الشهيد - أعزه الله - كأنها منذ ساعات فقط، أو كأنها لا تزال باقية، وكل ما أذيع من الأنباء كذب لا ينال منها، ولا يؤثر فيها.

ها هو فضيلة المرشد الحبيب جالس بجلبابه الأبيض وعباءته البيضاء إلى مكتب في الحجرة القريبة من مسجد المركز العام للإخوان.. وجه مشرق حلو، وسمات ربانية عالية، وصوت رخيم عذب، فيه رضاب النبي الحبيب ﷺ، وجرس السماء الحلو...و...

انتهى فضيلة الأستاذ لتوِّه من محاضرة ألقاها بالمركز العام، ودّع فيها الإخوان، لعزمه السفر إلى الحجاز صبيحة الغد.

دعاني إليه، وطلب إلي أن أستعد للسفر إلى شرق الأردن، وزودني بخاصة أمره في ثقة غالية سأظل أعتز بها العمر كله... ثم قبلت يده، وقبَّل رأسي، وما كنت أعلم أن هذا آخر لقاء لنا في الدنيا إلى أن يجمعنا الله مرة أخرى.

اللهم تقبَّل حسن البنَّا أحسن قبول؛ فقد كان - وأنت أعلم به - عبداً صادقاً، ومجاهداً أميناً، وإماماً جمع الكثيرين من فرقة، وطهرهم من دنس، وهداهم بإذنك من ضلال.

اللهم ارفع درجاتـه عندك، واجعله مع النبيين والصديقين، وأسعده بالنظر إلى وجهك الكريم، واجزه عنا خير ما أنت أهل له، وأكرمه الإكرام كله. اللهم أسعده. اللهم أسعده. اللهم أسعده.

اللهم وألحقنـا به في الصالحين، وثبتنـا على العهد الذي عاهدنـاه، وعوضنا عنه خيراً، وألقِ في قلوبنا نوراً ينير لنا الطريق؛ اللهم آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ـ ٤ ـ

كان حادث الاستشـهاد بعيد الأثر في نفوس كل من عرف الرجل، أما الإخوان في المعتقلات فقد وصل إليهم الخبر عن طريق بعض أجهزة الراديو، وكان وقع الحادث عليهم كوقع الصاعقة، فقد انقطعت كل الآمال التي كانت معلقة على التفاهم والإفراج، وبدأ البحث عن الأسلوب الذي يتحقق به سير الدعوة بعد فقدان منشئها وربّانها.

أما في الميدان فقد تجمع الإخوان في معسـكراتهم بعد نهايـة الحرب وإعلان الهدنـة، ثم حملت إليهم الأنبـاء نبأ استشـهاد المرشـد، وقد عرض الإخوان رغبتهم في مغادرة الميدان والرجوع إلى بلدانهم كما يروي الأستاذ كامل الشريف، لولا أن اللواء (فؤاد صادق) حاول إقناعهم بالبقاء مخوِّفاً إياهم من الاعتقالات والاضطهاد في مصر.

وأبى الإخوان البقاء، وأصروا على ضرورة العودة إلى أهليهم، ثم تم نقلهم إلى (رفح) حيث قيل لهم إنهم سيبيتون بها ليركبوا القطار في الصباح.

يقول الأستاذ كامل: «وفي الصباح قمنا لنصلي الصبح، فوجدنا العنبر

محاطاً بالأسلاك الشائكة وقوات كبيرة من الجيش تحيط به من كل جانب، وقد صوبت الأسلحة الرشاشة ومدافع (الفيكرز) إلى داخل العنبر، وجاء بعض كبار الضباط ليقولوا لنا: إنه قد تقرر اعتقالنا في هذا العنبر إلى أن تصدر تعليمات أخرى من القاهرة.

وجاء اللواء (فؤاد صادق) وأخذ يجيل بصره في وجوه أبطال الأمس ومساجين اليوم وقال: إن الحكومة السعدية طالبته مراراً باعتقالنا، وكان يرواغ في ذلك، وإنه الآن مضطر للاحتفاظ بنا في هذا المعسكر حتى لا نكون عرضة للتشرد إلى أقصى المعتقلات لو نزلنا إلى مصر.

ثم قال: إن الجيش لن يستطيع أن يفي الإخوان حقهم من الإكرام والتمجيد، وليس في وسعه إلا أن يواسيهم في محنتهم؛ فقد وقفوا معه، واستبسلوا في معاونته في محنته.

ولما زار المعتقل (عثمان المهدي باشا) رئيس أركان حرب الجيش أبدى رغبته في لقاء قائد المعتقلين، فلما ذهبت إليه أخذ يطري الإخوان ويبرر موقف الجيش فيما حدث لهم، وقال: إن مصر كلها لن تنسى لهم هذا الموقف النبيل الذي وقفوه مع جيش البلاد في محنته، وإن الحقيقة سوف تتضح يوماً ما ليعلم الرأي العام حقيقة موقفهم في فلسطين».

* * *

هذه الصورة تتمثل الظلم الصارخ الذي وقع على الرجل القرآني وعلى رجاله وأتباعه.

ولقد خدع عن حقيقة الرجل ودعوته كثيرون، فكانت أقلامهم من أعنف

مَنْ حَمَلَ على الدعوة من أمثال الأب (سرجيوس)، وسلاّمة موسى، وهذان معروف موقفهما، ولقد كان مكرم عبيد ووهيب دوس - وهما من أبرز زعماء المسيحيين في مصر - يقدران هذه الدعوة ورجلها القرآني، وكان لهما موقف يختلف عن موقف ذينك الرجلين.

أما الأستاذ أحمد حسين[1] فقد حمل على الإخوان في فترة الصراع، ولكنه عاد في المراحل الأخيرة فدافع عن الإخوان، ونسي خصومته القديمة، بل واعترف في أكثر من موقف بمكانة الأستاذ البنَّا.

أما الأستاذ العقاد فإن كبوته في هذا الموقف مما لا يغتفر، فقد هاجم الأستاذ البنَّا إبان المحنة، واتهمه اتهاماً كاذباً معيباً، وكان في ذلك غير منصف، وهو الكاتب الذي جنح إلى الدرسات الإسلامية في أواخر أيامه، لكن نفسه لم تطهر من آثام الحزبية وأهوائها، وممالأة المبطل محمود فهمي النقراشي، الذي كان أقسى من هاجم الإخوان ودعوتهم وقائدهم، ولم يجعل للإنصاف والحق باباً إزاء رجل من أشرف الرجال ودعوة من أكرم الدعوات.

وهكذا حجبت عن النقراشي الرؤية الصحيحة؛ وخدعه الإنكليز، وجروه إلى تصفية الجماعة، وهم واثقون من أن الإخوان لن يدعوه، ثم جعلوا من مقتله ثأراً لدى السعديين، فانتقموا من الأستاذ البنَّا، ولكن الأيام حملت لهم فيما بعد أشد أنواع الانتقام، وأعنف ألوان التدمير، واقتص الله منهم أشد قصاص، جزاءً وفاقاً.

---

(١) زعيم جماعة (مصر الفتاة) وكاتب مؤلف مرموق.

-٥-

وإليك أيها القارئ هذه الصورة الصادقة الطاهرة التي يقدمها رجل التقى بالأستاذ البنَّا في خلال ضرام هذه المحنة لأول وآخر مرة، فوجده نعم الرجل الصابر الصامد في الشدائد والأحداث؛ ذلك هو أبو الخير نجيب[١]؛ فلندعْه يحدثنا عن لقائه للأستاذ حسن البنَّا في جمعية الشبان المسلمين:

يقول: ما كاد يراني حتى ترك أوراقه التي كانت مكدسة فوق مكتبه، يدون مذكراته التي أعدها ليسلمها للمحامين الذين سيتولون الدفاع عن الجمعية أمام مجلس الدولة، وكذلك كشوف أسماء المعتقلين وأعمالهم وأحوالهم وأسرهم وممتلكات الجماعة المصادرة.

قال أبو الخير: إني سعيد أن أرى على وجهك هذا البشر والإشراق الذي يعبر عن عدم مبالاتك بما حدث.

قال المرشد: مرحباً بما حدث، وبما يحدث، وبما سيحدث، إن دعوة كدعوتنا ورسالة كرسالتنا إن لم تكن تلقَ مثل ما لقيناه وأكثر فلن تسمَّى دعوة، وهكذا شأن جميع الدعوات، وهل تظن أننا كنا نعتقد أننا سنصل إلى تحقيق رسالتنا على طريق مفروش بالزهور والرياحين، إننا لم نفاجأ بهذه الاجراءات الظالمة على الرغم من قسوتها، بل إننا كنا نتوقعها وكنا نعرف تماماً أننا سنصطدم بها، ولقد بصَّرت أنصاري بذلك، وأعددتهم لهذا المصير، ولقد كان شعارنا وسيظل إلى الأبد:

---

(١) رئيس تحرير جريدة (الجمهور المصري)، وكان وفديّ الانتماء.

الموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

وثق أن الغلبة في النهاية ستكون للحق، وأن النصر سيكون في جانب المؤمنين مهما بَعُدت الشقة.

إن دعوتنا سبيلها الجهاد والاستشهاد، ولقد وطَّن الإخوان أنفسهم على حب الجهاد والاستشهاد، ولقد خبرتهم حرب فلسطين فكانوا مجاهدين، لقد قذفنا بهم إلى المعركة على الرغم من الصعاب والعقبات التي صادفتنا في تدريبهم وتسليحهم، وأؤكد لك أن أمر المعركة لو تُرك لنا منذ البداية وحملنا المسؤولية لتغير الوضع.

س: ما هي الأسباب التي تعتقد أنها كانت سبباً مباشراً في حل الجماعة؟

قال المرشد: هناك عاملان أحدهما خارجي والآخر داخلي، فأما العامل الخارجي فهم الإنكليز والإمريكان واليهود، لقد فطن هؤلاء إلى أن الإخوان هيئة قوية منظمة، يؤمن أفرادها برسالتهم إيماناً قوياً، وأن من أسس رسالتهم تحرير وادي النيل وبلاد العرب حتى يستعيدوا مجدهم السالف، وآمنوا بأننا الهيئة العاملة التي تحول بينهم وبين تنفيذ رغباتهم ونزعاتهم، وقد اختبروا شكيمتنا فوجدونا لا نلين.

والعامل الداخلي: هو اعتزام الحكام الرضوخ والاستسلام لهؤلاء القوم، ويقينهم بأن نشاط الإخوان وخاصة في السنوات الأخيرة هو الذي حال بينهم وبين ما كانوا يعتزمون، ثم شعور النقراشي بأننا قد فطنا إلى أن موقفه من الإنكليز في مجلس الأمن الذي أبدينا ارتياحنا له في بادئ الأمر ما كان إلا رواية أحسن إخراجها وتمثيلها، وأننا قد أصبحنا نضيق ذرعاً بسياسته الجديدة التي

اتبعها عقب عودته من مجلس الأمن، والتي أطلق عليها سياسة التجاهل وهي في الواقع التنويم والتخدير. كما أنه يعلم جيداً موقفنا من سياسته الخاطئة التي اتبعها أثناء حرب فلسطين والتي أوصلتنا إلى أوخم العواقب.

في مساء ٧ ديسمبر (كانون أول) بلغني أن محمود فهمي النقراشي سيوقع الليلة أمراً بحل الإخوان، فأردت أن أستجلي الأمر، فاتصلت بعبد الرحمن عمار بك وأخبرته بما ترامى إلي، فنفى ذلك وقال لي: إنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك. ولعلك تعجب إذا علمت أنه في الوقت الذي كان ينفي لي فيه صحة الخبر كان يرفع مذكرته المعروفة للنقراشي باشا ليوقعها، ويصدر أوامره لرجال البوليس كي يكونوا على أهبة الاستعداد لإجراء حركة التفتيش والاعتقال التي استهدفت لها الجماعة ورجالها في هذه الليلة!!.

س: ماذا عما قيل من أن للإخوان أغراضاً انقلابية، وأن ولاءهم للعرش مشكوك فيه؟

قال المرشد: إن هذا ادّعاء باطل من أساسه، وإني أتحدى من يقيم عليه أي دليل يؤيد صحته. فإذا كانوا يعتبرون أنّ ما نادينا به وعملنا له وما سنظل ننادي به ونعمل لبلوغه - إن شاء الله - هو أن يرجع المسلمون إلى الله، منفذين تعاليمه القويمة، وأن يكون أساس حكمهم ما أنزله تعالى من آيات بينات؛ إذا كانوا يعتبرون هذا انقلاباً فلهم ما يعتقدون.

ولقد حاولت أن أبين هذه الحقائق، ولكن ما حيلتي وقد حالت الرقابة على الصحف بيننا وبين الدفاع عن أنفسنا!!.

س: إلى أي مدى من الصحة ما يقال من أن أحزاب الأقلية كانت تسير جمعية الإخوان في ركابها ضد الوفد؟

قال المرشد: حاشا لله أن نكون في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ذيلاً لأحد، ولعلني لا أعدو الحقيقة إذا قلت لك: إن من الأسباب المهمة التي دعت حكومة النقراشي لمحاربتنا هو عدم مسايرة رغبتها في محاربة الوفد، وأحب أن أوضح لك أن فترة العداء التي وقعت بين الوفد والإخوان لم تكن نتيجة توجيه إحدى الهيئتين، بل نتجت عن الاحتكاك الذي وقع بين شبابا الهئيتين، ثم تطور هذا الاحتكاك إلى تصادم، وكان من الممكن تلافيه لولا أن عناصر السوء انتهزت الفرصة، فأشعلت الفتيل فاستحال التفاهم.

س: تردد أنكم كنتم على علم بمقتل النقراشي؟

قال المرشد: أؤكد لك أني فوجئت بمقتل النقراشي كأي إنسان آخر، ولقد علمت بالنبأ من أحد كبار الصحفيين الموالين لحكومة النقراشي، وكنت أتحدث معه عقب اللحظة التي تم فيها الاغتيال؛ مستفسراً منه عما وصلت إليه مساعيه في أمور كنت قد رجوته بوصفه من المتصلين بالنقراشي اتصالاً وثيقاً أن يبذل مساعيه لديه كي يقنعه بها، فقال لي: مساعي إيه، إن النقراشي قد قتل الآن.

ثم كيف كان لي أن أعلم بهذا الأمر أو أشير به وأنا أعلم أنه سيضر بقضية الإخون ولا ينفعها، وأؤكد لك أنه لو كان قد أتيح لي الاتصال بأنصاري حتى أبصرهم بما يفيد وما يضر لما وقع هذا الحادث[١].

● ● ●

---

(١) جرى هذا الحديث قبل استشهاد الأستاذ البنا بأسبوعين.



الفَصْل الرابع عَشر

وَجْهاً لِوَجْه مَعَ حَسَن البَنَّا

- ضباب يحول دون الضوء
- كيف نفهم الرجل؟
- المسافر دائماً
- حسن البنَّا (الرجل القرآني)
- الملامح العامة لفكر حسن البنَّا



ضباب يحول دون الضوء

مدخل:

لقد أحيطت شخصية الأستاذ حسن البنَّا بكثير من السحب والغيوم، حجبت حقيقته عن الناس من بعد استشهاده حتى اليوم خلال فترة تزيد عن ربع قرن، وحالت دون التعرف الصحيح على هذا المعدن الكريم أو ظهوره في صورته الحقة.

ولقد تواترت أسباب وحيَل لتجعل الطريق إلى هذه الحياة الكريمة مشبعاً بالغموض، منذ أن قضى في ساحة الجهاد شهيداً كريماً، قائماً بكلمة الحق صادعاً باسم الله. وقد توالت الأحداث تكتنفها المحاولات، لتزيد من سحابة الغموض كثافة وعمقاً، ولتزيد من حجب الصورة الحقة وتبقي ذلك الستار قائماً دون الضوء الساطع، سواء فيما يتصل بحياة الرجل أو شخصيته.

وفي خلال هذه الفترة أثيرت شبهات كثيرة حول الرجل وحول الدعوة التي دعا إليها، وتجمعت قوى كثيرة على تزييف الحقائق، وتقديم مفهوم زائف، أو مضبّب، أو مليء بالحقد والكراهية، غير خالص لوجه الله، يستهدف فيما يستهدف صد الناس ـ وخاصة الشباب ـ عن جوهر الحقيقة،

وعن عظمة الرجل، وعن كرامة الكلمة التي حملها ودعا إليها. ولطالما رمي الرجل ودعوته بكلمات التآمر والانقلاب والجريمة والإرهاب؛ في محاولة تستهدف نسج غلاف كثيف يحجب الحق ويرد الخير ويطفئ النور!!.

ولكن كلمة الباطل مهما طال إنماء غراسها فإنها لابدّ أن تسقط، وكلمة الحق مهما طال حجبها لابدّ أن تبرز واضحة متألقة، ولقد آن أن تعرف الأجيال الجديدة هذه الصفحة الناصعة من الخير المحض، والجهاد الصادق الخالص لوجه الله، ذلك الذي لم تشبه شائبة مطمع أو غرض أو دنيا أو هوى.

ولعل أعجب ما يواجه الباحث المتجرد لدراسة شخصية هذا الرجل هو ذلك التفتح السريع وذلك الانطواء السريع فيما بين العشرين والأربعين؛ على نحو يعجب له الباحثون لانطلاقه كالسهم واندفاعه كالشهاب، ثم كيف استأثرت رحمة الله به على الأثر، بعد أن قدَّم في سنواته القليلة من العطاء الروحي والفكري والنفسي ما يعجز عن تقديمه عشرات ممن عاشوا وطال بهم العمر.

ثم تلك القدرة العجيبة على الإحاطة بأبعاد العلوم والدراسات الفقهية والفسلفية والصوفية والسياسية والعصرية، وأبعاد الأحداث الاجتماعية في العالم كله والوطن الإسلامي، ومعرفة الرجال والقادة والأعلام سواء في هذا العصر أم في عصور التاريخ كله.

ثم في عرض ذلك كله على مقياس الإسلام، والحكم عليه في ضوء القرآن، من خلال دعوته التي هي من أعمق أعماق دعوة الإسلام وأبعد أبعاد رسالة القرآن، يتحراها خالصاً، ويفهمهما فهماً عميقاً، ويتطلع فيها إلى وجه من وجوه الخير يحقق للأمة الإسلامية صواب طريقها وسلامة هداها واستنارة بصيرتها، وتحريرها من إسار الخطأ وآثام الانحراف، ودفعها إلى سبيل الله

الحقة، مؤمناً بذلك، في تصميم عجيب، وثقة بالله لا تزلزل، ومطبقاً ذلك كله على نفسه أولاً.

لا تزعزعه الأحداث، ولا تفل من عزمه الشدائد، ولا تنحرف به قيد شعرة عن إيمانه المتين بأن ما يدعو إليه هو الحق والحق وحده، يعيش لله، ويموت في سبيله، ولا يمنعه ذلك كله من لقاء كل صاحب نحلة أو هوية أو هدف، آملاً في كسبه إلى صف دعوته، ملتمساً الخير عنده، ولا بأس عنده بعد ذلك كله أن يواجه الناس مسؤولين ورعاة وذوي شأن، وأن يسلك الطريق المرسوم في سماحة وإيناس، آملاً أن ينفذ إلى نفوسهم، آخذاً ومعطياً، ودون أن يصرفه اتصاله بدنيا الناس على ما فيها من أوضاع وأخطاء عن هدفه، فهو يدخلها ويخرج منها دون أن يخضع لها.

وتلك قدرة عجيبة لا تتأتى للكثرين الذين يخضعهم المجتمع لأوضاعه وسلطانه فيعجزون عن الاستقلال عنه أو نقده ومعارضة ما فيه من أخطاء، فكنت ترى رجلاً صغرت فيه الدنيا بكل ما فيها من زينة ومال، فهو يلبس أبسط لباس، ويعيش أبسط حياة، ولا تجد في بيته إلا صورة متواضعة من الأثاث والطعام والأدوات. وقد انصرفت نفسه إلى مطامح أكبر من ذلك، تلك هي أشواقه في أداء رسالته وإبلاغ دعوته.

ولقد عاش على هذه الأرض أربعين عاماً لم يبت على فراشه منها إلا قليلاً ولم تره أسرته فيها إلا نادراً؛ والعمر كله بعد ذلك سياحة لإرساء دعائم الربانية وتوطيد أركان الإسلام، وهي رحلات طالما أصغى الملايين إليه فيها وهو يسوق الجماهير بصوته الرهيب إلى الله، ويحشدهم ألوفاً في ساحة الإسلام.

ولو كان حسن البنَّا من أصحاب المطامع لكان له من متاع الحياة غير ما عرفه الذين عاشروه وشاهدوا بيته، وعرفوا ما ورَّثه لأهله بعد موته!!.

لقد كان لهذا الضباب المثار حول (الرجل ودعوته) أبعد الأثر في تلك الكتابات المختلفة الاتجاه المتوحدة الأهواء، والتي ظهرت في تلك الفترة، والتي تناولته على نحو بعيد عن الفهم؛ سواء أكان ذلك من باب الاختلاف في الرأي أم من باب الخصومة، وأكثر من كتب عنه كانوا خصوماً من رجال الأحزاب وأهل النحل والمذاهب المعادية لدعوته، ولقد كان عدد منهم من الحاسدين، ممن عجزوا عن أن يصلوا إلى قلوب الناس بمثل ما وصل إليه.

غير أنه من الواضح تماماً أن نقص الرؤية والعجز عن الإحاطة بأبعاد الأمور، كل هذا حال دون بروز الحق الكامل أو الرأي الصحيح؛ ذلك أنه في خلال الأعوام الماضية كلها لم يكن متاحاً لأحد أن يقول كلمة حق؛ خوفاً من أن يصيبه من الشر ما أصاب هذا الرجل وجماعته، حتى أولئك الذين أتيح لهم أن يعيشوا سنوات طويلة خارج البلاد، جمدت أقلامهم، وتوقفت ـ إلا قليلاً ـ عن تصحيح الأخطاء، أو كشف الحقائق، أو تقديم أوراقهم الخاصة وذكرياتهم للناس حجة وإعذاراً إلى الله.

وحين حاولت صحيفة من الصحف أن تستعرض أعمال الأحزاب والجماعات، كانت تجد من يتصدى لها ويكشف الحقائق مما غاب عن هؤلاء الكتاب، إلا فيما اتصل بهذا الرجل ودعوته، فإن ما نشر عنه ناقصاً ومبتوراً ظل كذلك دون أن يصححه أحد!! ولذلك فإن الكتابات والأحكام التي أصدرها بعض الكتاب إنما جاءت ناقصة؛ لأنها لم تعتمد على كل الوثائق التي ما تزال غائبة عن الميدان، والتي تنقص الحقيقة بها كثيراً إذا أريد أن تكون الكتابة

خالصة لوجه الحق، ولقد كانت الحيلولة دون نشر هذه الصفحات هدفاً من أهداف خصوم الرجل ودعوته، بغية أن تظل الصورة ناقصة مبتورة.

ولكن مهما بلغت هذه المحاولات من الاستمرار والقوة، فلن تستطيع أن تطفئ نـور الحقيقة وإن اسـتطاعت أن تحجبها أياماً أو أعوماً، ذلـك أن الحقيقة هي من نور الله الحق، ولذلك فهي لا بد أن تنفذ من طيات الظلام، ولا بد أن تخترق الحجب، ويحق الله الحق ويبطل الباطل.

ولن يستطيع التاريخ مهما زيفه المزيفون أن يحق باطلاً أو يبطل حقاً، وسوف تدور دورة الزمن فيعود الحق إلى نصابه، ويُرفع الغبن عن أصحابه؛ مهما تجمعت القوى من أهل الباطل ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

* * *

كيفَ نَفهَمُ الرَّجُل

ـ ١ ـ

السؤال المحير هو : كيف أمكن لهذا الرجل أن يستوعب التحدي الخطير وأن يواجهه؟ ومن أين كانت له تلك المقدرة، وهذا العلم، وتلك البراعة؟ ذلك هو الأمر الجدير بالبحث. كيف كوّن هذا الرجل نفسه، وثقف ذاته، وعرف أبعاد القضايا والتحديات الضخمة المطروحة في أفق العالم الإسلامي؛ سواء في مجال العلوم الإسلامية، أم الحنكة السياسية، أم الدبلوماسية العالمية؟.

إن من يقرأ كتاباته حين بدأ مرحلة المواجهة عام ١٩٣٣م ـ وكان سنّه إذ ذاك سبعة وعشرين عاماً ـ ليدهش من هذه الإحاطة والبراعة؛ ولندع شقيقه الأستاذ عبد الرحمن يحدثنا عن هذه المرحلة وكيف تكوّن فيها :

«كنا نعود من المكتب فتتلقفنا يد الوالد الكريم، فتعدنا وتصنعنا، وتحفِّظنا دروس السيرة النبوية المطهرة وأصول الفقه والنحو، وكان لنا منهاج يدرِّسه لنا الوالد الكريم. وكانت مكتبة الوالد تفيض بالكتب وتمتلئ بالمجلدات، وكنا ندور عليها بأعيننا الصغيرة، فتلتمع أسماؤها بالذهب، فنقرأ: النيسابوري، والقسطلاني، ونيل الأوطار، وكان يبيحها لنا ويشجعنا على اقتحامها.

وكان أخي هـو المجلِّي في الحلبـة وفارس الميدان، وكنـت أحـاول

اللحاق به، ولكنه كان غير عادي. كان فرق السن بيننا سنتين، ولكنه لم يكن الفرق الحقيقي؛ بل فرق إرادة إلـٰهية أعدته لأمر عظيم، فكان طالب علم ولكنه مستقَر موهبة إلـٰهية، ومستودع منحة ربانية، وشتان بين المنزلتين، وفرق بعيد بين المريد والمراد!!.

وكنا نسمع ما يدور في مجلس الوالد الكريم من مناقشات علمية ومساجلات، ونصغي للمناظرات بينه وبين من يحضر مجلسه من جلّة العلماء؛ أمثال الشيخ محمد زهران والشيخ حامد محيسن، فنسمعهم وهم يناقشون عشرات المسائل.

ولست أنسى يوماً امتلأ فيه فناء دارنا بالمحمودية بالصبية الصغار من أبناء (الكتَّاب) ومعهم العريف (وسيدنا)، وقد لبس الصبيان أجمل أثوابهم بألوانها الفاقعة الزاهية، وقد كانت تلك (حفلة الختم)؛ لأن أخي قد أتم حفظ القرآن. ويقبل عليَّ أخي ذات يوم مهتماً ويقول: اسمع يا عبد الرحمن، ألم تحفظ قول الله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؟ [آل عمران: ١٠٤]

قلت: نعم، قال: فهلمَ. وأسس أخي رحمه الله (جمعية منع المحرمات). وكنا نذهب إلى المسجد الصغير بعد التحاقنا بالمدرسة الإعدادية، ومعنا جمع كبير من تلاميذ المدرسة لأداء الصلاة وخاصة فريضة الظهر، وكنت أصعد سطح المسجد فأنادي بالأذان وأنزل فأقيم الصلاة، ويتقدم أخي للصلاة في المحراب إماماً. وعقب صلاة العشاء في هذا المجلس يجلس أخي إلى الذاكرين، من جماعة (الحصافية) وقد أشرق قلبه بنور الله، فأجلس إلى جواره

نذكر الله مع الذاكرين، وقد خلا المسجد إلا من أهل الذكر، وخبا الضوء إلا ذبالة من سراج، وسكن الليل إلا همسات من دعاء، أو ومضات من ضياء، وشمل المكان كله نور سماوي ولغة رجاء رباني:

اللهَ قـل وذرِ الوجـودَ وما حوى إن كنـت مـرتـاداً بلـوغ كمـال

وبعد: فما يكفي هذا في تصوّر ذلك الفهم العميق للطريق الوحيد الذي لم يسلكه قبله المصلحون أو السالكون. يقول الدكتور إبراهيم اللبان:

كنت في صدر شبابي أتردد على مقر هذا الشيخ الوقور في بلدة المحمودية ـ يقصد المرحوم الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنَّا والد الأستاذ المرشد ـ وأتصفح ما أجده هنالك من كتب، ولأول مرة في حياتي وقعت يدي ثمَّة على كتاب (نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار) للشوكاني؛ فإذا بروضة نضرة تتضوع منها المعارف الدينية مزدهرة منيرة، وكان الوالد الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا يلازم صديقه الشيخ زهران إمام مسجد المحمودية، يتدراسان معاً العلوم الدينية، والشيخ زهران عالم كفيف البصر، كنت شديد الولع بذكائه، وقوة عارضته، وولعه بالدرس والبحث في هذه البيئة، فتلقى ـ يقصد الأستاذ البنَّا ـ عنهما في فجر حياته أجلّ المبادئ الدينية وأسناها؛ وهو الاتجاه المباشر إلى الكتاب والسنة، ومارس معهما دراسة الكتاب والسنة في فجر حياته الحافلة.

ومن هنـا وقف حسـن البنَّا بين المجددين الإسـلاميين فريداً في طرائقـه وتأثيره. لقد اقتصر المجددون من قبله على الناحية النظرية، فحاولوا أن ينفوا عن الدين ما علق به من وضر الخرافات، وأن يعرضوا المبادئ الإسلامية في صورة تتفق ومنطق العصر، وتوائم روحه العلمية، وهو جهد مشكور ولكنه

لا يكفي لبعث الشعوب الإسلامية وحفزها إلى العودة إلى الحياة الدينية. ورأى الإمام حسن البنّا هذه الحقيقة؛ رآها بوضوح فتلمس طريقة أخرى تصل إلى هدفه، فبدا له الرسول ﷺ وهو يزاول دعوته، ويحمل الناس على دينه، كما بدا لبعض الدعاة إلى الله من قبل، فحاول أن يتخذ من هديه نموذجاً يحتذيه، فكان من ذلك أسلوبه الموفق.

بدأ فكوّن فكرته عن الدين، لم يرضه أن يكون الدين هو (العبادة) وحدها كما صوره بعض المتصوفة، ولا أن يكون محض (دساتير وقوانين) كما خيل لبعض المجددين المعاصرين، وأصر على أنَّ الدين الإسلامي يتناول جميع جوانب الحياة الإنسانية، وأدرك بوضوح أن الرسول ﷺ لم يكوِّن العقلية الإسلامية (بالفقه وعلم الكلام) ولكن (بالقرآن) فعاج بأتباعه على كتاب الله وسنة رسوله.

ومن الحق أن الدكتور إبراهيم اللبان كشف لنا حقيقة هامة هي مفتاح شخصية الأستاذ البنّا، ولكن هل هذا وحده هو مصدر القوة في هذا الداعي القرآني إلى الله؟ ومن أين ذلك الاقتدار الذي عرف به، والخطة الواضحة، والوجهة الصريحة التي كانت معروفة ولم تكن مطمورة كما نسمع ونقرأ في حيوات الزعماء والأبطال؟ ذلك أن موضوع الانشاء الأخير في امتحان دار العلوم إنما يمثل (بياناً) صريحاً عن خطة عمل، ومنهج حياة، ومشروع دعوة كامل، هو الذي سار عليه وعمل له واستقام عنده حتى استشهد، كأنما كان عارفاً طريقه وغايته.

إنه لم يمر بما يسمونه (مرحلة التهويم) التي تصاحب كل طامح من مفكر أو كاتب أو زعيم. هذا رجل عرف طريقه منذ اليوم الأول، لم تشغله

حلقات الطرق الصوفية عن هدفه؛ بل أمدته بزاد روحي وقوة نفسية عالية، لم تلهه دراسات دار العلوم وما يتصل بها من حياة المدرسين والأدباء، لم تحجزه مفاهيم التصوف أو الفقه أو الأدب أو الفلسفات عن أن يفهم تلك الغاية الكبرى وأن يطوِّع كل علمه وتجربته لها، وأن يكون قادراً على رؤية أبعاد التحدي الخطير الذي يواجه عالم الإسلام إذ ذاك، وكان رهيباً في ذلك الوقت وقاسياً.

كان سقوط الخلافة هو أكبر عوامل التحدي؛ ذلك الحدث الذي هز الضمير الإسلامي والنفس المؤمنة في كل مكان، وكان موقف جماعة الإلحاد وهُدّام العقائد: طه حسين، ومحمود عزمي، وعلي عبد الرزاق، وسلامة موسى، وتلك الضربات اليومية المتوالية التي كانت تجرح إيمان المؤمنين، وتهز نفوس المسلمين، وتملأ العقول حرجاً وشكاً؛ كل ذلك كان عاملاً ضخماً في تلك الاستجابة الجياشة المليئة بالوعي والإدارك.

لقد عرف (حسن البنَّا) أن الأمر يتطلب عملاً من نوع آخر أقوى من الكتابة والخطابة وإثارة المشاعر، كان لا بد من تأسيس قاعدة ضخمة ـ ولتكن منكم أمة ـ من الشباب، وبناء جيل من المثقفين الطلائع النخبة المتفتحين، ذوي الاقتدار على المقاومة والصمود في وجه العواصف المثارة، والحملات " خطيرة، التي يراد بها زلزلة كيان الأمة الإسلامية؛ من أشد مواقعها صموداً ورسوخاً: من مصر الإسلامية العربية المؤمنة، معقل الأزهر ومقر العلم ومنار الدين.

كان هذا الخطر قوياً جياشاً في تلك النفس المؤمنة العميقة الإيمان، وكانت استجابة التحدي ليست في الكلمة ترد على الكلمة، وإنما في (بناء

الرجال) أو (تأليف الرجال) بدلاً من تأليف الكتب .

وكان هذا هو أخطر ما واجه الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي : (قيام الجماعة المؤمنة) الفاهمة ، التي لا تخدعها الأضاليل البراقة ولا الألوان الباهرة ، ولا التفاهات أو الصغائر ، أو الأهواء المضحوك بها على الأمم والشعوب حتى يموت حقها ويضيع عنها الطريق .

هذا هو الخطر ، فقد كان الاستعمار حريصاً على خلق ذلك الطابع من التفاهة والسذاجة والبساطة لدى الأمم حتى تظل تخدعها الأهواء الباطلة والكلمات المعسولة ، حتى لا ترى إلا ما تحت أقدامها ، فلا تعرف لها رسالة كبرى أو غاية عليا ، وتمتصها تلك الأهواء والروايات والمسرحيات والأغاني الخليعة والضحك السخيف ، وترى كل ذلك شيئاً مسلياً ومالئاً للوقت ومعزياً عن نقص الحياة ، وهو في حقيقته مخدر قاتل ، ومتعة زائفة خادعة لا يلبث صاحبه أن يستفيق منه فلا يجد إلا سراباً ، ثم يجد واقعه المر ، فيعود مرة أخرى ليغرق نفسه فيه ! ! .

ذلك كان هدف الاستعمار الذي لا يريد تكوين الصفوة من المثقفين المسلمين الذين لا يغفلون عن الخطر والتحدي والثأر ، هؤلاء الذين لا يصنعهم إلا الإسلام ، فيملأ قلوبهم إيماناً بالله ، فيعرفون أبعاد رسالة الإنسان ومسؤوليته ووجهته في الحياة وهدف استخلاف الله له .

وهذا كله هو (الخطر) المحرم الذي صنعه حسن البنّا في ذلك الجيل الذي بناه ، والذي كان قادراً على أن يعطي المجتمع الإسلامي دفعة ضخمة إلى الأمام في طريق الله ، ولذلك كان لا بد من ضرب هذا الاتجاه ، واغتيال ذلك الداعية ، وتفريق ذلك الصف بأيدٍ غير أجنبية ، وإثارة الخوف والزوابع والأعاصير من حول كلمة الحق حتى لا يعرفها أحد ، وتمضي المؤامرة مستورة فلا يكشف عنها أحد .

- ٢ -

أين مكان حسن البنَّا من تاريخ مقاومة التغريب ومن تاريخ حركة اليقظة، وما هو دوره الحقيقي؟.

لقد عرف قدر حسن البنَّا كثيرون من أهل جيله؛ فهل استطاعوا أن يجيبوا على السؤال المطروح؟ لندع هذا الرجل الذي يطلقون عليه (أبو الجمعيات الإسلامية في مصر) السيد (محب الدين الخطيب) منشئ جماعة الشبان المسلمين يحدثنا عن هذه الظاهرة:

«لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدون العدة للاستيلاء على الرأي العام، وتحويل وجهه عن (المكَّتين)[١] وما أنزل الله فيهما، إلى المعاهد القائمة على ضفاف (التايمز) و(السين) وما يصدر عنهما، وواتاهم الحظ بما أحدثته أنقرة[٢] من أحداث وما جنحت إليه من هوى، فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطني للدعوة إلى مثل نتائجه في الدين والدولة، وتعميم تلك النتائج في المشرقين والمغربين، ولم يكن للإسلام في مصر صحف غير مجلة (المنار)، ولا جمعيات غير جمعية (مكارم الأخلاق) ومجلتها، أما النزعة الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الأنقروية وتقليدها، فكان في أيدي رجالها أكثر الصحف، وكانوا

---

(١) المكَّتين: مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(٢) أنقرة: إشارة إلى الحدث الخطير الذي أحدثه الانقلاب الذي قام به كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة والحروف العربية والشريعة الإسلامية.

مشرفين على معظم المرافق والجمعيات، وكان أنصارهم منبثين في وزراة المعارف ومعاهدها، ونظام الاحتلال يؤيدهم في إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة.

وكان أحمد تيمور باشا هو الوجيه المصري الأول الذي شعر بالخطر الأعظم على مصر والوطن العربي والعالم الإسلامي، وأشفق من أن يتمَّ فيه ـ ولو بالتدريج ـ ما تمَّ في تركية، وكان ـ رحمه الله ـ لا ينقطع عن زيارة دار المطبعة السلفية من سنة (١٣٤٢ إلى سنة ١٣٤٣ هـ)(١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م) في شارع (خيرت) فانعقدت فيها اجتماعات حضرها: أحمد تيمور باشا، وأبو بكر يحيى باشا، والشيخ عبد الرحمن قراعة، والسيد محمد الخضر حسين، وعلي جلال الحسيني، ونحو عشرة آخرين من هذه الطبقة، وتذاكروا موجة الإلحاد القوية التي طغت على العالم الإسلامي، وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس في يده، والذين أمره في يدهم من المسلمين فهموا من الإسلام ألفاظ أوراده وحركات مسابحه، وغفلوا عن أهداف جهاده وحركات حيويته!!.

وانتهت تلك الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الإلحاد، والتعاون على ذلك مع كل من يؤلمه أمره في الوطن الإسلامي الأكبر، واختير لسكرتارية الجمعية أحد أصحاب الفضيلة المدرسين بالأزهر، وبذل نشاطاً مذكوراً للاتصال بجميع أصحاب الغَيْرة الإسلامية من العلماء والوجهاء في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وبعد أشهر من هذه المحاولة تبيَّن لنا أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية، وأنه لا بد من الاتصال بالرأي العام والشباب المثقف على الخصوص، وأن الصحافة هي الوسيلة الأولى لذلك. وكنت أصدر في ذلك

الحين مجلة (الزهراء) غير أنها شهرية وأدبية لا تصلح مطية لهذه المعركة؛ فضلاً عن أنه مشروط في امتيازها ألا تتعرض للسياسة أو الدين، وكان الحصول يومئذٍ على امتياز بصحيفة إسلامية للغرض الذي نريده أشبه بالمستحيل.

غير أن أحمد تيمور باشا ـ رحمه الله ـ التمس لذلك الأسباب التي لا يقدر عليها غيره، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار (الفتح) عام (١٣٤٤هـ) (١٩٢٦م). ومر على هذه التجربة عام تبين لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة، والأمة أعظم وأكرم على نفسها من أن تصغي إلى هذا الصوت الخافت، وحينئذٍ فكرنا في تأسيس جمعية (الشبان المسلمين) وكان تأسيسها في غرفة متواضعة من دار المطبعة السلفية ومكتبتها بشارع الاستئناف. وقد استعنا على النجاح في تأسيسها باثني عشر شاباً منهم الأساتذة: محمود شاكر، عبد المنعم خلاَّف، عبد السلام هارون، محمود الخضيري، كمال اللبان، عبد الفتاح كرشاه، فانتشروا في الكليات والمدارس والوزارات والأندية وفي كل مكان، وبعد أن صار للجمعية ثلاثمئة عضو يليقون بها وتليق بهم، أخبرنا الدكتور عبد الحميد سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش وأمثالهما ودعوناهم للانضمام للجمعية، وبعد ذلك أعلن عن تأسيس الجمعية في غرة جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ نوفمبر (كانون ثاني) ١٩٢٧م.

وبعد بضعة أشهر من تأسيس جمعية (الشبان المسلمين) وفي نفس الغرفة التي ولدت فيها تلك الجمعية؛ سعدتُ بلقاء بضعة رجال كان المتكلم فيهم يحمل قلباً ولا كالقلوب، ونفساً لعلها هي التي تهيبتُ لأجلها التحدث إلى الناس بهذه الذكريات بعد مرور أكثر من عشرين عاماً عليها.

إن الأستاذ (حسن البنَّا) أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن فلم

أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ، وكنت (ابن صنعة) يوم اكتشفتُ بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي، الصابر المثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية. وكان أول ما نشرته له ـ ولعل ذلك أول شيء نشره ـ هو مقاله (الدعوة إلى الله) في خاتمة السنة الثانية من الفتح (٢٥ ذي الحجة ١٣٤٦هـ)، ثم مقاله: (على من تجب الدعوة) في عدد (١٧ محرم ١٣٤٧هـ) من الفتح.

ثم رجوته أن يحاضر في (الشبان المسلمين) في دارهم الأولى التي كانت بشارع مجلس النواب، فملأ قلوبهم من قلبه ما شاء الله له من توفيق، وفي خلال ذلك كانت نواة (الإخوان المسلمين) قد غرست في الأرض الصالحة. وبينما كانت الجمعيات الإسلامية الأخرى تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية، كانت هذه النواة تبشر بأنها هي الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة: أحمد تيمور، وأبو بكر يحيى، وعبد الرحمن قراعة وأضرابهم؛ يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع (خيرت) يقلّبون وجوه الرأي في السلاح الذي يقاتلون به موجة الإلحاد، والتي تحولت بأحداث أنقرة من موجة ماء يهدد بالغرق إلى موجة بترول وبنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس.

وأذكر أننا كنا نعجب كيف يكون للمعاني التافهة في السياسة المحلية أحزاب يهبُّ لها الشباب قلوبهم وحماستهم في ذلك الحين، ولا يكون للإسلام ـ وهو المعنى الأشمل لكل سياسة سامية ـ حزب يواليه ويؤيده ويغضب له ويرضى لأجله. وكثيراً ما أفكر في هذا الجيش اللجب من الإخوان المسلمين وما لهم من مئات الشُّعب، وكيف استطاع رجل واحد أن يحقق ذلك بعد أن كان أملاً بعيداً لكل غيور على الإسلام، فأعود وأقول:

﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ذلك الرجل التقى به في أول الطريق، وذلك انطباعه، يضع الرجل حيث مكانه الحق من حركة اليقظة، كما كانت تمضي في تلك السنوات المتواترة من العقد الثاني من القرن العشرين.

* * *

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ صاحب مجلة الرسالة ـ فإنه قد لقي الرجل بعد ذلك بوقت، ربما بعشر سنوات؛ يقول:

«وجدت فيه ما لم أجد في قبيله أو أهل جيله: من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق، لا يزعزعه غرور العلم، ولا شرود الفكر، وفقه في الدين صافٍ صفاءَ المُزْن لا يكدّره ضلال العقل ولا فساد النقل، وقوة في البيان مشرقة إشراق الوحي لا تحبسها عقدة اللسان ولا ظلمة الحس، إلى حديث يتصل بالقلوب، ومحاضرة تمتزج بالأرواح، وجاذبية تدعوك إلى أن تحب، وشخصية تحملك على أن تذعن!!.

فقلت في نفسي بعد أن ودعني ومضى: (عجيب)! هذا الشاب نشأ كما ينشأ كل طفل في ريف مصر، وتعلَّم كما يتعلَّم كل طالب في دار العلوم، وعمل كما يعمل كل مدرِّس في وزارة المعارف؛ فعمَّن ورث هذا الإيمان، وممَّن اقتبس هذا البيان، ومن أين اكتسب هذا الخُلق! إن الشذوذ عن قواعد البيئة الجاهلية، والنشوز على أنظمة المجتمع الفاسد، والسمو على أخلاق العصر الوضيع، من خصائص الرسول أو المصلح، فإن الله الذي يعلم حيث يجعل رسالته يريد أن يصنع النبي أو المصلح على عينه ليظهر في وقته المعلوم، فيجدد

مارثٌ من حبْله، ويوضح ما اشتبه من سبيله، والفطرة التي فُطر عليها حسن البنَّا والحقبة التي ظهر فيها حسن البنَّا تشهدان بأنه المصلح الذي اصطنعه الله لهذا الفساد الذي صنعه الناس!!.

ولم يكن إصلاحه ـ رضوان الله عليه ـ من نوع ما جاء به (ابن تيمية وابن عبد الوهاب ومحمد عبده)؛ فإن هؤلاء قَصَروا إصلاحهم على ما أفسدته البدع والأباطيل من جوهر العقيدة، أما هو فقد نهج في إصلاحه منهج الرسول نفسه: دعا إلى إصلاح الدين والدنيا، وتهذيب الفرد والمجتمع، وتنظيم السياسة والحكم، فكان أول مصلح ديني فهم الإسلام على حقيقته وأمضى الإصلاح على وجهه. لم يفهم الإسلام الذي طهّر الأرض وحرر الخلق وقرر الحق على أنه عبادات تؤدى، وأذكار تقام، وأوراد تتلى، وإنما فهمه كما فهمه محمد وعمر وخالد: نوراً للبصر والبصيرة، ودستوراً للقضاء والإدارة، وجهاداً للنفس والعدو.

ولقد كان النهج الذي قبسه (البنّا) من القرآن وعزَّزه بالعلم، ونشره بالبيان وأيده بالمعاملة، كان من الجد والصدق والعزيمة بحيث زلزل أقدام المستعمر، وأقضّ مضاجع الطاغية، وخيَّب آمال المستغل، فتناصرت قوى الشر على الدعوة العظمى وهي تتجدد في مصر كما تناصرت قوى الشرك عليها وهي تولد في الحجاز، ولما كان حسن البنَّا فكرة لا صورة، ومبدأ لا شخصاً؛ فإن الفكرة الصالحة تنمو نماء النبت والمبدأ الحق يبقى بقاء الحق».

وهذا جانب آخر من الصورة، هو رؤية صاحب (الرسالة) الذي عاش الأحداث الطوال منذ أوائل القرن، وشاهد الموجات العاصفة التي حملها أصدقاؤه وزملاؤه في باريس: طـه حسين، ومحمود عزمي وغيرهم في مصر

من أمثال علي عبد الرازق، وسلامة موسى.

وهو هنا يقول كلمة الحق بعد أن مضى الرجل، وإن لم يكتب عنه كلمة واحدة في الرسالة خلال حياته.

ـ ٣ ـ

كيف كان هذا الرجل يغزو القلوب بكلماته، أهو خطيب أم محدِّث؟ وأين موقعه من مدرسة الخطابة التي توارد عليها: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول؟ وأين منه من المحدِّثين الذين عرفوا بالبراعة واللباقة: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده؟

سوف نحاول أن نجيب على هذه الأسئلة فيما يلي:

يقول صديق عمره ورفيق حياته (اللواء محمد صالح حرب):

«لقد كانت الآلاف تعجب فلا ينقضي عجبها من هذا الفيض الغزير من العلم الذي وهبه الله لحسن البنَّا، والذي كان يظهر كالبحر الزاخر والسيل المنهمر حينما يتناول قلمه ليكتب وحينما يقف ليخطب، فقد كان يظل الساعات وهو يخطب الجماهير ـ وفيهم الخاصة والعامة، ومَنْ هم وسط بين الخاصة والعامة ـ فيرضي هؤلاء وهؤلاء وأولئك، يرتفع بأسلوبه وتفكيره حيناً حتى تعزّ منافسته على الخاصة من الخطباء والمفكرين، ويتبسط في عبارته ومعناه حيناً حتى يأتي بالسهل اليسير الممتنع الذي يفهمه الجميع ويفقهه سائر الناس؛ وإن كان لا يستطيع أن يجاريه فيه كثير من الناس!!.

ويبعد أن يكون هذا الفيض أثراً من آثار المطالعة والقراءة، فكم من أناس

يسرفون في المطالعة والقراءة ولا يستطيعون أن يجيدوا الكتابة أو الخطابة، ولكني أعتقد أنه قد تعاونت على إيجاد هذه الخاصة في حسن البنَّا أسباب كثيرة منها: النفس الصافية والعقل الذكي، والقلب التقي، والإقبال على الله، والتعبد في حماه، والتأمل الموصول في آيات الله الكونية وفي آياته القرآنية، والعناية الفائقة بتطبيق ما يقرأ وما يفهم على حياته الفردية وفي مجال حياته العامة.

استطاع أن يوقد جذوة الفكرة الإسلامية في صدور الآلاف من الشباب، استطاع أن يرد غربة الإسلام بين الجاهلين به إلى معرفة وأُنس، وبذل في سبيل ذلك من علمه وجهاده ووقته ونفسه وأعصابه وراحته ما لا يستطيعه إلا العصبة المجتمعة من أقوياء الرجال».

* * *

ويقول الأستاذ (حسن الهضيبي) فيما يروي عن ذكرياته:

«التقيت يوماً بفتية من الريف أقبلوا على غير عادة الأحداث مع من هم أكبر منهم سناً ومركزاً يحدثونني فوجدت عجباً! فتية من الريف لا يكاد الواحد منهم يتجاوز في معارفه القراءة والكتابة يحسنون جلوسهم مع من هم أكبر منهم في أدب لا تكلُّف فيه، ولا يحسون بأن أحداً أعلى من أحد، ويتكلمون في المسألة المصرية كأحسن ما يتكلم فيها شاب متعلم مثقف. ويعرفون من الأخطاء التي ارتكبت في عرضها وفي المفاوضات التي جرت فيها وطريقة حلها ما لا يدركه إلا القليل من الناس. ويتكلمون في المسائل الدينية كلام الفاهم المتحرر من رقِّ التقليد، ويبسطون الكلام في ذلك إلى مسائل مما يحسبه الناس من صرف المسائل الدنيوية، ويعرفون من تاريخ الرسول ﷺ - وتاريخه هو الرسالة - ما لا يعرفه طلبة الجامعات!!.

فعجبت لشأنهم وسألتهم: أين تعلموا كل ذلك؟ فأخبروني أنهم من الإخوان المسلمين، وأن دعوتهم تشتمل كل شيء، وتعنى بالتربية والأخلاق والسياسة والاقتصاد والغنى والفقر وإصلاح الأسرة، وغير ذلك من الشؤون صغيرها وجليلها».

ذلك هو الجيل الذي كونه حسن البنَّا، بقدرته العجيبة على التحدث إلى الناس واللقاء بهم وملامسة أرواحهم ونفوسهم، وذلك ما يرويه الأستاذ حسن الهضيبي القاضي في أول لقاء له مع حسن البنَّا، يقول:

«خرجت عصر يوم لمشية العصر مع زملاء على حافة النيل، فوجدنا جمعاً فسألنا، فقالوا: إن حسن البنَّا سيلقي خطبة في حفل الليلة. لقد تعلقت أبصارنا به ولم نجد لأنفسنا فكاكاً من ذلك، وخِلتُ ـ والله ـ أن هالة من نور أو مغناطيس تحف بوجهه الكريم فيزيد الانجذاب إليه. خطب ساعة وأربعين دقيقة كان شعورنا فيها شعور الخوف من أن يفرغ من كلامه، وتنقضي هذه المتعة التي أمتعنا الله بها ذلك الوقت.

إن كلامه يخرج من القلب إلى القلب، شأن المتكلم إذا أخلص النية لله، وما أذكر أني سمعت خطيباً قبله إلا تمنيت على الله أن ينهي خطابه في أقرب وقت. كان كالجدول الرقراق الهادئ ينساب فيه الماء، لا علو ولا انخفاض، يخاطب الشعور فيلهبه، والقلب فيملأه إيماناً، والعقل فيسكب فيه من المعلومات ألواناً.

فلما التقينا إذا تواضع جم، وأدب لا تكلُّف فيه، وعلم غزير، وذكاء فريد، وعقل واسع ملمٌّ بالشؤون جليلها وحقيرها، وآمال عراض، كل ذلك

يحفه روح ديني عاقل لا غضب فيه ولا استهتار : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

إنه كان ملهماً، وأقسم أني التقيت به وعاشرته، فما سمعت منه كلمة واحدة فيها مغمز في عرض أحد أو دين أحد، حتى أولئك الذي تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه، وكان في ذلك ملتزماً حد ما أمره الله به» .

* * *

ويصور (فؤاد شيرين) موقفه الخطابي فيقول :

«كان إذا قام يخطب الناس وقف وقفة رجل خاشع متواضع، وتحدث إليهم في صوت هادئ متزن، ولم يكن ليرفع عقيرته أو يحتد في خطابه مهما كانت جدية الموضوع الذي يتناوله، ولهذا كان كلامه العذب يصل إلى القلوب قبل أن يصل إلى الآذان: علمه وحكمه ومواعظه التي كانت تتدفق كالماء العذب يروي نفوساً عطاشاً» .

وكان يفاجئ سامعيه بأسلوب متجدد عجيب يستمده من وحي اللحظة ومن طبيعة القوم والجماعة، وكان حديث الثلاثاء عجباً من العجب، فمن جميع أنحاء القاهرة يجتمع يوم الثلاثاء أتباعه وتلاميذه وكل راغب في أن يستمع إليه، ويقف الرجل في لباسه الأبيض الشفاف والعباءة البيضاء، يتبسم بوجهه الوضاء ولحيته المرسلة. ويتحدث في موضوع يختاره لا على سبيل المحاضرة، ولكن على طريقة الحديث المرسل، وكان هذا الحديث عجباً، فهو يتعرض لعشرات المشاكل والقضايا والمسائل التي تعترض أتباعه طوال أسبوعهم، كانوا يذهبون وفي أنفسهم أن يسألوا عن أشياء؛ فإذا هو يفاتحهم فيها ويجليها لهم ! ! .

أما القصاصات التي كانت تلقى إليه فقد كان أمره فيها عجيباً.

كان يجيب على بضعة وثلاثين سؤالاً، فيعرف متى أمسك الورقة مَنْ صاحبها، وهل هي من أسئلة الإحراج، أو المسائل الخاصة، وهل الإجابة عليها تقال علناً أو تقال لصاحبها خاصة. وأحياناً يتعلل في الرد فيقول: الخط غير ظاهر، لا أدري ما يريد صاحبه، عليه أن يقابلني. وأحياناً يجيب، فيقول شيئاً لا يريده صاحب القصاصة، وأحياناً يجيب في صراحة ووضوح، وكان يعرف بنظرة فاحصة كل من أمامه: خصومه وأنصاره، الغرباء والأتباع.

وقف في أهل العزيزية ـ كما يروي الأستاذ سعيد رمضان ـ في الألوف المحتشدة، فسكت سكتة طويلة أجال خلالها عينه في عيونهم، ثم قال:

أيها الإخوة الأحباب: لم أجئكم الليلة خطيباً، وإنما جئتكم خاطباً؛ أخطب الحرة الكريمة من أنفسكم.

قالها وسكت سكتة ثانية لم تخف على أحد، ودمعتان كبيرتان تألقت بهما عيناه.

«لقد صنع حسن البنَّا جيلاً من الناس على مثال نفسه الكبيرة، وعلمه الغزير، وإرادته الصارمة، وأسلوبه في التفكير إذا فكر وفي التعبير إذا عبَّر، بل في طريقة تلاوته للقرآن إذا تلا قاعداً يتأمل أو قائماً يصلي» وكان له في هذا الأمر نظام دقيق:

وهذا شاب جاء ليسمع محاضرته بغير إذن أبيه فيرده ليحصل على إذن أبيه، وهؤلاء طلبة يحضرون دروسه قبيل نهاية العام الدراسي فيأمرهم أن يرجعوا إلى بيوتهم ويقول:

«لا أحب أن أراكم هنا، ولكن أحب أن تعكفوا على الدروس، وتبرزوا في العلوم، فتؤدوا حق الوطن، وترفعوا شأن البلاد».

ـ ٤ ـ

ما زلنا في حاجة إلى إلقاء أضواء على جوانب أخرى من شخصية الرجل عن طريق معارفه وأتباعه وزملائه الذين عاشروه؛ هذا الرجل الذي عاش حياته كلها لأصحابه وأتباعه، يخطب الجمعة والعيدين، ويصلي التراويح بهم في رمضان بختمة من القرآن كاملة، ويجري في كثير من الأحيان صيغة عقود الزواج لهم بنفسه، ويدعو لأطفالهم بالدعاء المأثور حين يولدون، ويشيِّع جنائزهم ويصلي عليها، ويقيم معهم في معسكراتهم الكشفية والرياضية، ويوجههم في حياتهم العامة والخاصة أفضل توجيه، ويدير معهم الحديث في كل المناسبات، ويخلص لهم الود والحب من كل نفسه وهم يبادلونه هذه العاطفة وهذا الشعور من أعماق قلوبهم.

لنستمع إليه أولاً يحدثنا عن إيمانه وفهمه لأمور الحياة؛ يقول:

«إن إيماني بالقضاء والقدر والرزق والأجل ليس نتيجة الدراسة والتسليم والإيمان بالنصوص فقط، ولكنه نتيجة التجارب والمشاهدة؛ فقد تعرضتُ للموت في صغري أكثر من مرة وبصور مختلفة وكانت نجاتي بأعجوبة.

فوجئت أنا وأخي عبد الرحمن ونحن صبيان نلعب في الحارة بانقضاض بيت كامل فوق رؤوسنا، ولم ينجنا إلا استناد السقف على داربزين السلّم، فأصبحنا في مأمن بالفراغ الناشئ عن ذلك حتى رفعت الأنقاض وخرجنا سالميْن.

ووقعتُ من فوق سطح يرتفع عن الأرض أكثر من ثمانية أمتار، ولكن الله سلَّم؛ فجاءت الوقعة في (ملطم المونة) فلم تحدث إصابة!.

وقذفت بنفسي في إحدى الترع الكبيرة في أيام الفيضان والماء على أشده من مطاردة كلب عقور؛ فانتشلتني سيدة كريمة لا أزال أذكر منظرها، وقد خلعت بسرعة البرق جلبابها وتعمت به وقذفت بنفسها إلى الماء؛ وبعض الرجال وقوف ينظرون ولا ينجدون، مما جعلني أؤمن بأن الشهامة والنجدة ليست وقفاً على الرجال.

وتقدمتُ لإطفاء النار في منزل اندلعت ألسنتها فيما على سطحه من وقود على عادة أهل الريف؛ فامتدَّت النار إلى ثيابي وأطرافي، ولكن فرقة المطافئ كانت قد أقبلت وقدَّر رجالها هذا الموقف من ناشئ صغير، فوجهوا إليّ خراطيمهم، ونجوت بذلك من احتراق محقق.

وجمحت بي الفرس مرة جموحاً شديداً، واعترضني حاجز قوي لسور خشبي كان الاصطدام به كافياً ليطوِّح بالرأس إلى مكان بعيد؛ لولا أن الله ألهمني في هذه الساعة الحرجة أن أستلقي على ظهري على السرج استلقاءً كاملاً حتى اجتازت هذا الحاجز بسلام، وصدق الله العظيم ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾!! [يوسف: ٦٤].

* * *

ولنذهب إلى أعماق هذه الشخصية نستطلع أبعادها في معرفة رجال اقتربوا منه ولمسوا هذه الجوانب، وكانوا ممن تأثروا بذاتيته العجيبة.

يقول الأستاذ محمد عبد الحميد ـ وهو واحد من الرعيل الأول ـ:

«لقد كان لروحه الكبير سلطان ساحر، لا يجلس إليه أحد حتى يدير روحه العظيم وجهته في مدار الإسلام، وتجذبه شخصيته السماوية القاهرة إلى أفق النور والسماء، وتدفعه طبيعته (الإمامية) الفذة إلى محراب الخير والصلاح!

كان لروحه العالي على سلاسته سيال قاهر يؤثر ولا يتأثر، ويدفع ولايندفع، ويخفي ضوؤه كل شارق، وكان له تيار ـ على رقته ـ جارف لا يقف دونه سدٌ أو حجاب، يتسلل إلى الأرواح في رفق ولطف وأناة؛ كما يتسلل الجدول الهادئ بين الجبال والأودية فيكسوها خصباً وظلاً ورواءً وسناءً!!.

إن من أبرز سمات شخصية (الإمام الشهيد) روح (الحركة) في طبيعته وطاقة العمل الضخمة في أعصابه ودمه.

كان شخصية عجيبة فذة حقاً: هي روح وعقل وجسد.

روح: هي شعلة سماوية تتوهج بالحرارة والضياء!!.

وعقل: هو ميزان محكم لا يميل ولا يضطرب على كثرة الأحداث وهول المشاكل!!.

وجسم: هو أداة طيعة لهذه القوى الكبيرة والمعاني القدسية العالية!!.

كان شخصية متحركة لا تقف ولا تسكن، كأنه فلك إنساني يدور مع الكواكب يعمل ويوجه ويعد وينظم، وينتج في لحظات ما يقصر عنه غيره في شهور وسنوات.

كان يركض إلى الله حين يمشي العاملون، ويثب إليه حين يركض المخلصون، ويطير إليه حيث يثب المصحلون. كان يتأسى بالرسول الأعظم ﷺ في جهاده الدائم، حتى كان من أوصافه: «ليست له راحة»!!.

تبهرك أعصاب فذة كأنها كهربائية، نسيجَ وحْده، لا يخضع لمؤثرات المادة وقوانينها في الطاقات والمواقيت، سهر دائم وفكر عامل ثاقب، وسلسلة لا تنقطع حلقاتها في الفكر والعمل والإعداد والتوجيه، وأسفار تلو أسفار حتى تغلغل في أعماق الكفور والنجوع، وبين العشائر والقبائل، فكان الزعيم الحق الذي جلس على التراب، وخالط لأول مرة طبقات الشعب في حياتهم، وأحس آلامهم ومشاكلهم!!.

كان يختزل الحيـاة اختزالاً، كأنما كان يسـابق الأفـلاك في دورانها، خطواته خطوات العماليق، وجهوده جهود أمة كاملة لا فرد محدود، كأنه علم أن حياته أقصر من دعوته الشاملة، فحرص على أن يكون لدعوته من أسباب القوة، ويحوطها بأضخم ما يستطيع من أسوار، ويجهزها بأعظم ما يقدر من العدَّة والذخائر. ولما رأى أن مشاكل المجتمع فوق ساعاته المحدودة وحياته القصيرة؛ جعل شعاره تلك الكلمة المأثورة: «الواجبات أكثر من الأوقات»!.

كان سمته (الحركة الدائمة) والعمل السريع، وكان يندفع إلى تكاليف الحياة ومطالبها في هيام وغرام ليس لهما مثيل، وهو خلال ذلك ينتج إنتاجاً ضخماً هائلاً رغم المسـارعة في غير زلل أو عثار، بل كانت سـرعته يتوّجها التوفيق وحركاته المتلاحقة يزينها الإحكام!!.

لقد كان سراجاً قدسياً لم تنطفئ جذوته حتى نضب آخر قطرة من زيته المحدود، ونزفته النقطة الأخيرة من دمه الزكي وهو ينطق الشهادتين!!.

كانت همته فوق قدرته، وقدرته فوق التعب والزمن، يتسامى فوق الطاقة البشرية. وأعماله الضخمة الموفقة أشبه بكرامات الأولياء منها بجهود العباقرة، عزيمة تتضاءل دونها العزائم، وهمة لا تبلغها العصبة أولو القوة، إلا بروح من الله ورضوان!!.

كان يعمل للدعوة الإسلامية كأنه المكلف بها وحده وكنا نتساءل: «ما لهذا الرجل يحمل فوق كاهله هذه الأعباء الجسام والمشاكل الثقال؟ وامتزج بالنفوس امتزاج العصر بالزهر، حتى كان الأخ يكتب إليه في غمار مشاكله وزحمة مشاكله يسأله عن اختيار اسم لابنته المولودة».

* * *

وقال طنطاوي جوهري:

«إن حسن البنَّا في نظري مزاج عجيب من التقوى والدهاء السياسي، إنه قلب علي وعقل معاوية. وإنه أضفى على دعوة اليقظة عنصر (الجندية) ورد إلى الحركة الوطنية عنصر (الإسلامية)؛ وبذلك يعد هذا الجيل الإسلامي الحاضر النسخة الإسلامية الثانية الكاملة المعالم بعد الجيل الإسلامي الأول في عهد الرسول ﷺ.

* * *

ولقد كان حسن البنَّا في بيته نموذجاً عجيباً من حياة الرجال.

يقول الأستاذ عبد الرحمن البنَّا:

غاب عن الناس من خلقه ما جعله بين نفسه وربه يستره عن الناس فلا يطلع عليه إلا خاصة أهله، فهو في بيته ـ شهد الله ـ لا يفتر عن مصحفه، ولا يغيب عن قرآنه، ولا يغفل عن ذكره، يتلو القرآن على الحافظ منا فيسمع له، ويلقي بالمصحف إذا لم يجد حافظاً إلى الصغير فيراجع عليه، ويملأ البيت بالقرآن والتلاوة سابحاً في آيات، غارقاً في ذكريات، صاعداً إلى سموات،

يعرف الطريقة التي كان يقرأ بها النبي ﷺ فيقرأ بها، والمواقف التي كان يقف عندها فيقف عندها.

وكان تعرو جسمه رعدة، وتأخذ نفسه روعة، فيتجهم لدى آيات الوعيد، ويشرق عند آيات البشرى والنعيم، خارجاً عن الجو الذي يحيا فيه، غائباً في معنى بعيد بعيد:

يكاد ـ والله ـ في التنزيل قارئه   يحس صوت رسول الله يرتفع

كان أملك الناس لزمام نفسه، أحلم الناس إذا خاطبه جاهل حتى يغضب من لا يعرفه من حلمه، أشد الناس عفواً وصفحاً عمن أساء إليه حتى لم يعرف له عدو.

وكان يقول:

من عيوبي أنني لا أعرف كيف أخاصم أو أعادي.

وكان زاهداً متواضعاً لا يحفل بالمظاهر، ولا يحرص على شيء من متاع هذه الدنيا، فيخرج على الناس في جلبابه البسيط الناصع البياض كقلبه، وعباءته المتجردة وعمامته المشرقة، يمشي في حاجات أصحاب الحاجات، ولا يتعب من حاجات الناس ولو كانت جبالاً مثقلة، فإذا قضيت حاجاتهم بات راضياً سعيداً وحمد الله حمداً كثيراً.

لا يذكر عنده أحد بسوء إلا زجر الذاكر ومدح المذكور، فيخجل الواشي ويقلع المسيء، وتصلح نفس هذا وذاك.

وإذا تناول أمراً تناوله من جانبه السمح، ونظر إليه من أفقه الفسيح.

* * *

يقول عمر بهاء الأميري:

لقد راقبته أدق المراقبة، حتى إنني كنت أتابعه من شقوق الباب وهو يصلي في غرفته خالياً قبل النوم، وكنت أتفحص خشوعه فأراه أطول سجوداً وأكثر إقبالاً على الله منه وهو يصلي بنا!!.

* * *

ويقول الفضيل الورتلاني:

كان لحسن البنَّا صفات تفرقت في الناس، وقلّماً اجتمعت في شخص واحد؛ اللهم إلا طائفة نادرة من أولي العزم: للرجل طاقة علية ينفرد الناس من ناحية من نواحيها ولا تجتمع لهم، فإذا حدثه الفقيه وجد فيه الفقه الممتاز ويخيل أن هذه صفته، وإذا اجتمع به الأديب توهم أن هذه صفته وما له غيرها وإنما هو مكمل، وإذا لقيه السياسي وجد فيه سياسياً من طراز فريد وحسب أن ماله من الصفات الأخرى إنما هو جزء يسير، وإذا استمع إليه الناس وجدوه خطيباً فحسب. والحق أن حسن البنَّا هو تلك الصورة الضخمة التي تجمع تلك الصفات جميعاً، وبحظ وافر يوازي -إن لم يزد- ما للمتخصصين فيها من حظ».

* * *

هذه ملامح متعددة تستطيع أن تشكل إجابة لما تساءلت عنه أجيال لم تر الرجل ولم تعاشره، وإنما سمعت عنه كلمة من هنا وكلمة من هناك، وحق لها أن تعرف أعماق هذه الشخصية وأبعادها الواسعة.

* * *

المُسَافِر الدّائِمُ

كان الأستاذ حسن البنَّا رمزاً للمعنى الذي عبر عنه ابن سينا حين قال: أسأل الله أن يهبني (حياة عريضة)؛ يقصد: الحياة القليلة في عدد أيامها الموفورة الثرية في أحداثها وأعمالها.

وقد عاش حسن البنَّا أربعة عقود، ومع ذلك فقد ترك آثاراً ضخمة قلَّ أن يصل إليها من عاش ضعف ذلك، فقد كانت كل لحظات حياته أفكاراً ومشروعات وأعمالاً، وكان مجهِداً ومتعِباً لمن يعمل معه.

إنه دولاب دائب من الحيوية والنشاط والمشروعات والأعمال؛ مع قلة المال وضآلة الموارد، ولكن ذلك لم يكن ليصرفه عن هدفه.

● من ذلك أنه عندما تقرر إصدار مجلة أسبوعية لم يكن هناك رصيدٌ ما، ولكن القرار لا بد أن ينفَّذ، وهذا الشيخ رضوان محمد رضوان في جيبه جنيهان كاملان، وإذن فلتصدر، وليكونا هما رأس مال المجلة.

يقول الأستاذ البنَّا:

وحملت الجنيهين وذهبت بكل بساطة وإيمان إلى المكتبة السلفية ـ وكانت بـ(باب الخلق) خلف محكمة الاستئناف ـ وتفاهمت مع السيد محب الدين الخطيب، ووافق على ذلك ببساطة وإيمان وظهرت (جريدة الإخوان المسلمين) الخميس ٢٨ صفر ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

واستعد الإخوان بـ(حارة نافع) للتغليف والتوزيع والنشر، وكانوا يحملونها بأنفسهم يوم صدورها لتوزيعها على المساجد والناس بأيديهم.

● ومن ذلك أنه نوى السفر يوم الخميس إلى إحدى البلاد، وخرج من المدرسة وذهب إلى الدار وسأل الصراف عن مبلغ جنيه، فأبدى أسفه لعدم وجود أي مليم في الخزانة، وجلس على مكتبه هادئاً، وقد بقي على ميعاد القطار نصف ساعة. وظل من حوله في حيرة يسأل بعضهم بعضاً، حتى إذا لم يبق على موعد القطار إلا دقائق جاء من معه جنيه، وركب السيارة إلى المحطة ووصل إليها والجرس الأخير يدق.

● وكان في أغلب أيام الخميس يخرج من المدرسة إلى دار الجمعية، ثم يصرِّف أموره إلى الساعة الثانية أو الثالثة، ثم يركب إلى محطة باب الحديد، ويسافر بالقطار، ويبيت بالبلدة التي يقصد إليها ويجتمع بالإخوان، وفي الصباح الباكر يكون في طريقه إلى بلدة أخرى لصلاة الجمعة، وفي العصر تكون صلاته في بلدة ثالثة، والعشاء في بلدة رابعة، وفي صباح السبت يكون في عمله بالقاهرة.

وعندما تتوالى رحلاته أسبوعاً كاملاً كان يتصل بالبيت من الجمعية؛ يقول: كيف حالكم؟ الأولاد طيبون؟ هل أنتم في حاجة إلى شيء؟ ثم يضع السماعة ويسافر وهو في القاهرة وبين بيته ومقرّ الجمعية شارع واحد!!.

● بل أعجب من هذا، كان قد دعا إلى (كتيبة) تبيت بالمركز العام، يتحدث معهم إلى هزيع من الليل، ثم ينامون ساعة أو ساعتين، ثم يستيقظون لصلاة الفجر، وكان قد ذهب إلى المنزل فوجد ابنه في حالة الخطر، وعلى شفا الموت، وكان موعد الكتيبة قد اقترب فانصرف إليها، وبينما هو يتحدث معهم

في بشاشته المعهودة؛ جاء من يسرُّ إليه أن ابنه توفي، فمازاد على أن قال له بضع كلمات تتعلق بغسله وتكفينه.. وواصل حديثه مع أعضاء الكتيبة ونام معهم، وفي الصباح أمر بمن يذهب به إلى القبر!!.

وقال قائل: لقد رأيته ذات مرة وهو خارج من بيته وقد تعلقت ابنته الصغيرة برجليه، وأمسكت بملابسه، وهو لا يلتفت إليها، كأنما ليس هناك من يمسك به.

● وكان يعرف أتباعه من صورهم، وكانوا قد أرسلوا رسومهم وحضروا بعد عام، فلما رآهم ناداهم بأسمائهم، وكان يعرف أسماء أتباعه بعد أن يلتقي بهم للمرة الأولى، وكان إذا سمع اسماً ردده.

وعندما أصيبت يده في إحدى المظاهرات ورفعها أمام أتباعه معصوبة وآثار الدم بارزة فيها، ضجوا بالهتاف، فلما أمرهم بالصمت صمتوا، ولما طلب إليهم الانصراف انصرفوا، وكانوا بضعة عشر ألفاً.

وكان قد رأى البوليس يصوب النار إلى بعض الشباب، فقفز من السيارة، ومشى راجلاً بين قذائف البنادق يصيح بهم، رافعاً يده فأصابه مقذوف.

وهو قوي الاحتمال للمتاعب إلى أبعد حد.

كانت العربة بين مكة والمدينة ترتفع وتنخفض فتهز من فيها هزاً عنيفاً، إلا هو، كان راكباً في مؤخرة العربة.

● ويصور في مذكراته موقفاً حرجاً من هذه المواقف:

كنا في الطريق إلى (شبراخيت) وقد ركبنا سيارة يقودها الأخ (حسن

مصطفى)، ووصلنا إلى (زفتي) حوالي الساعة الثانية صباحاً، فوجدنا الكوبري مغلقاً، فلم يكن بدٌّ من أن نمر على قناطر (دهتورة) في طريق كثيرة التعاريج والالتواءات لا يعرفها السائق وليس خبيراً بها، وكنا في العاشر من الشهر العربي تقريباً والقمر يلقي أضواءه على الماء فتبدو كأنها أرض مستوية.

وجاوزنا القناطر أو خيِّل إلينا ذلك، واندفع السائق في سيره، ولم يرعنا إلا وقوفه فجأة، وتأملنا فإذا نحن على لسان من الأرض ممتد في الماء يزيد عرضه عن عرض عجلات السيارة قليلاً، ومعنى هذا أننا إذا حاولنا النزول ففي الماء وإذا حاولنا الحركة فقد تنحرف يد السائق يميناً أو شمالاً ولا شيء إلا الماء أيضاً!!.

والعجيب أن مقدم السيارة لم يكن بينه وبين نهاية اللسان إلا نصف متر تقريباً، واضطرب بعض الإخوان وحاول التحرك من موقفه، فكان الأمر حازماً جازماً بعدم الحركة حتى تهدأ السيارة والأعصاب ونفكر فيما سيكون، وضحكت وقلت لأمين الطعام: أين الشاي المحفوظ، فقال: ولماذا؟ قلت: نشرب، فقال: وتمزح في هذه الساعة!!.

قلت له: بل أجدُّ يا محمود، فهات الشاي وامتثل للأمر؛ فأخرج (الترمس) من جانبه وصبَّ شاياً، وأخذنا نشرب ونحن على حافة الموت فعلاً - ولكنَّها رعاية الله - وبعد أن هدأنا وهدأ السائق أخذ الأخ (حسين يوسف) وهو قائدنا وسائقنا الماهر، يتحرك إلى الخلف في سرعة لا تزيد على بطء السلحفاة وكله حذر وأعصاب، ومضى نصف ساعة ونحن على هذا الحال حتى انتهينا إلى عرض مناسب في الطريق واندفعنا إلى الصراط المستقيم، وأنجانا الله من هول هذه اللحظات!!.

* * *

وفي رحلاته كان يصحب معه حقيبة صغيرة فيها غيار من الملابس وبعض كتب ومناديل وجرابات، ومشط وفرشاة أسنان، وشيء آخر (علبة الدقة) وهي علبة صفيح مستديرة ذات غطاء، فيها مسحوق أسود اللون، وقال له أحدهم: لماذا تحمل مثل هذا؟ فأجاب: من يدري، لعلنا نذهب إلى بلد لا نجد فيها من ننزل عنده أو نعرفه، عندئذٍ نغمس الرغيف في الدقة وننام في المسجد، يضع أحدنا ذارعه تحت رأسه ويتغطي بعباءته وينام.

وكان كثيراً ما يحدث في أول الأمر أن ينزل بلداً من البلاد ويكون الوقت عصراً مثلاً، فيتوجه إلى المسجد، وبعد أن يصلي مع الناس العصر يقف بجوار أحد الأعمدة ويستأذن الإمام في الكلام، ويأخذ في تفسير حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، ثم يستطرد إلى ما يريد أن يقوله في يسر وبساطة. وقد ينصرف الناس بعد أن يستمعوا إلى حديثه، فيكون من أمره أن يبيت بالمسجد بعد أن يتوسد ذراعه، وينام على حصير الجامع ويتغطى بعباءته.

وكم قضى من الليالي على هذا الوضع.

وكان قد عوّد نفسه أن يسافر إلى أسوان والأقصر في إجازة الصيف، وقد يُتاح له أن يزور أربعة آلاف قرية في القطر كله خلال هذه الإجازة، وكان يخطب في كل بلدة.

● يروي أحد ضباط البوليس: كنت أعمل في إحدى قرى مديرية (جرجا) وبينما أنا منهمك في لعب النرد بعد الغروب، إذ جاءتني إشارة مستعجلة هذا نصها:

«يمر الليلة بالبلدة من يدعى الشيخ حسن البنَّا، فالمطلوب مراقبة الاحتفال الذي يقام له وسماع كلمته، فإذا وجدتم فيها ما يخالف القانون،

يقبض عليه فوراً، ويرسل مع مخصوص».

قال: ضقت بالإشارة وبالشيخ، فقد صرفاني عن رغبتي في اللعب، ومضيت إلى ذلك السرادق البسيط المتواضع الذي أقيم، وكان الرجل قد وصل، وبدأ يتحدث، وجلست في آخر الصفوف أستمع وأراقب، فماذا وجدت؟ تكلم الرجل عن البلدة والإنارة والنظافة، وطلب من الأهالي وضع (فوانيس) على أبواب بيوتهم إلى أن يستطيعوا إنشاء مجلس قروي، ودعاهم إلى بناء المساجد، وظل يتحدث وأنا أصغي وأقول: ماذا في قول مثل هذا الرجل مما يضير الأمن العام!! وتحدث عن نسيان الخلافات، وإجراء المصالحات بين الأسر، واستطرد إلى حال الأمة حين تنسى ربها ودينها.

كنت وأنا أستمع إليه كالمأخوذ، وكأنما قد أمسك الرجل بعناني وسحرني، فما إن انتهى من كلمته حتى كنت أسرع الناس إلى التسليم عليه، وسرعان ما قال لي: ألم تحضر لتلقي القبض عليّ؟!.

قلت: بَلَى، ولكن.. وفي اليوم التالي كنت أحمل حقيبته إلى القطار!.

وفي كل بلد يسافر إليه يتحدث عن شيء غير الذي يتحدث عنه في بلد آخر، القضية العاجلة، خلاف حزبي، أو ديني، أو قبلي.

شخصيته لا تتعب ولا يجهدها التنقل ولا المشي ولا الركوب، ولا الاستيقاظ المبكر، ولا السهر، ولا الاستماع الطويل إلى كلام الناس.

يستقبل الأيام بالابتسام واليسر، ويجلس في كل مكان: على المصاطب، على الأرائك، مع الفلاحين، مع الأعيان، وكل جماعة من هؤلاء لهم عنده حديث، حتى الجزارون، كان يحدثهم عن أمر الرسول ﷺ بأن يريح الإنسان ذبيحته ويحدّ شفرته.

وكان يأكل طعام الغداء مرتين أو ثلاثاً، ويسر لإخوانه الحاضرين معه من القاهرة: كلوا نصف بطن هنا، فأمامنا غداء آخر في البر الغربي، وإذا لم نأكل هناك يغضبون منا.

● وكان في هذا التنقل العجيب، يعرف كثيـراً: اللهجات، الأخـلاق، الطبائع، القصص، الأسرار، التاريخ، البيوت، العائلات، الغني والفقير، الحياة والموت.

قيل له: فلان من عائلة (كذا)، فتوقف وقال: هناك خمس عائلات في مصر تحمل هذا الاسم، فمن أيهم هو؟.

وكان في السرادقات يبحث عن الرجل، كان فنه التعرف على الوجوه المؤمنة، ويطيل الجلوس بعد انتهاء الاحتفالات يتحدَّث إلى الصفوة.

كان يقطع الوجه القبلي كله بلداً بلداً وقرية قرية في عشرين يوماً، ينام ساعة أو بعض ساعة في القطار، وهو يضع رأسه تحت ذراعه، وهم يتحدَّثون من حوله.

فإذا سافر مع أصحابه أشرف على نومهم، وبحث عن الأسرّة والغطاء وكل أمورهم، فإذا اطمأن إلى أنهم رقدوا عاد إلى حجرته يتوضأ ويصلِّي هزيعاً من الليل ويناجي حتى الفجر، ثم ينام بعده ساعة أو ساعتين يستيقظ بعدها فتياً قوياً، وسـرعان ما يلبس ويتناول إفطاره، ويكـون في الطريق إلى العمل، يجتمع مع أهل كل بلدة في غرفة خاصة، فإذا انتهى جمعهم في جماعة عامة.

●وفي (القوصية) دعا زعيم البلدة الأستاذ البنَّا وإخوانه إلى طعام العشاء في قصره، وما إن انتهى من الحفل المقام حتى بدأ ينصرف، وسار وراءه كثير

من أتباعه، وقريباً من القصر وقف وقال: يا فلان، ثلاثة فقط يذهبون معنا، ودعا كل جماعة إلى أن تأخذ طريقها، المسافرين والمقيمين، حتى لا يعطي الرجل صورة معروفة عن بعض الطوائف.

وهناك على المائدة ـ كعادته دائماً ـ لا يأكل إلا القليل، والقليل جداً، فإذا عاد إلى غرفة نومه أخذ في كتابة مذكراته عن أعمال يومه.

● وربما يزور بلدة من البلاد لأن له فيها مريداً واحداً، وكان من عادته أن يزور إخوانه في أماكنهم، ولا يحملهم مشقة الانتقال إليه، فيركب الحمار والجمل والفرس، ويركب القطار والأتوبيس والسيارة والمركب والمعدية، ويمشي أحياناً.

ذات مرة أراد أن ينتقل من البر الغربي للنيل إلى البر الشرقي، ليزور بعض إخوانه هناك، فقالوا له: إن المركب الوحيد على هذا البر مفتوح ولا تصلح للركوب، ويحسن أن نرسل إليهم أن يحضروا.

فقال: لا بل نذهب فيه وننقل الماء منه إلى البحر، وقد كان. وفي المركب الذي يعبر النيل إلى (المحمودية) كان الجو شديد الحرارة، وظلَّ المركب يتجه شرقاً وغرباً ويتجه معه الشراع، ومن معه في المركب ينتقلون ليستظلوا بظل الشراع، أما هو فقد بقي في مكانه لا يتغير، وأخيراً استقرت رقعة الظل حيث جلس، فنادى أصحابه وعلى فمه ابتسامة قائلاً:

«**تعالوا إلينا، نحن الذين لا نتبدل**».

وغاصت العربة في طريق المدينة بعد أن أطبق الظلام، وبدا أنها قد اندفعت بقوة في كثبان الرمال، وانزعج جميع من فيها، ونزل هو يتبعه (سعد الدين الوليلي) واستدار خلف العربة وقال:

فننزل ولو قليلاً من هذه الكثبان، ولننظف ما أمام العجلات من الرمال، ولنأت بقطع من الصخور، ونثبتها في مقدمة العجلات، وليدر السائق العربة، فندفعها معاً في قوة إلى الأمام.

ودفعاها فانطلقت، فنظر إلى صاحبه وقال: أرأيت!!.

وركبنا عربة في طريقنا إلى غار حراء، وكانت العربة تهزنا بشدة، فقال لي: قف على أطراف أصابعك ودع باقي قدمك يهتز مع العربة وأنت تستريح، ففعلت.

● وكان يكتب إلى الحاج هاشم محمد خليل يقول:

إنما أجوب البلاد بحثاً عن الرجل.

● وكان يقول: إن كل وسائلنا قد تحطمت، ولم يبق إلا الشباب.

وبعد أن تنتهي المحاضرة وينصرف الناس يقول:

كان في الصف الفلاني بجوار فلان رجل يستمع في يقظة، هذا ينفع!

● وعندما اعتقل في معتقل الزيتون في أول الحرب العالمية الثانية، كان وقته يضيق بالأعمال التي ناطها بنفسه بها، كان يكتب ويقرأ ويعد الكثير من الرسائل التي يرسلها إلى معارفه وأصدقائه، وحتى في السجن، عندما اعتقل بعد مقتل أحمد ماهر لم يتوقف عن العمل.

وفي إحدى هذه المرات (١٦/ ١٣٦٤٣هـ) كتب يقول: إن ما نلقاه الآن ليس جديداً علينا ولا هو من المفاجآت في طريق دعوتنا، فكذلك كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء، فلا تهنوا

ولا تحزنـوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، وقد حقق لنـا القوم بهذا ما كنـا نتمثل به من قبل :

«إن سجني خلوة، وقتلي شهادة، وتغريبي سياحة» .

وقد نقلونا بهذه المحنة نقلة واسعة إلى الأمام ـ والحمد لله ـ ووقفوا بنا على طريق معبد من طرق الدعوة، وهذا أول الخير، وأنا به جد متفائل، وأعتقد أن وراء ذلك الفتح العظيم إن شاء الله .

* * *

الرَّجُل القُرآني

بقلم روبير جاكسون
ترجمة : أنور الجندي

تمهيد :

حاولت في عرض هذه الخطوط والمعالم أن أحتفظ بروح كاتبها (روبير جاكسون) الكاتب الأمريكي، الذي زار القاهرة سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٩م، والذي عُني بـأن يقدم فيها صورة كاملة في حدود مقدرته واتجاهاته للرجل القرآني (حسن البنَّا).

ويقيني أن الكاتب الأمريكي كان منصفاً، وأنه لم يَعْدُ الحقيقة إلا في مواقف نادرة أعتقد أنه لم يقصد إليها وإنما جاءت عفواً، وبدا ذلك حسناً لقلة ما عرفنا من الكتَّاب الغربيين المنصفين.

وقد لاحظت في سنوات عملي في جريدة (الإخوان المسلمين) أن عدداً من الكتاب الغربيين كانوا يحرصون على لقاء الرجل الأول الذي حمل لواء دعوة الإخوان، ويحاولون أن يصلوا إلى خطوط عميقة بعيدة المدى عن حياة الرجل وأهدافه. وقد كتب الكثير منهم فصولاً مختلفة؛ ولكني لا أعتقد أنهم كانوا منصفين كما كان الشأن فيما كتبه روبير جاكسون.

والحق أن شخصية الإمام الشهيد حسن البنَّا من الشخصيات الفذة العجيبة النادرة، التي قلَّ أن يكون لها نظير، والتي لا يجود الزمان بمثلها إلا على فترات متباعدة. وقد لمح الذين اتصلوا به وعملوا معه بعض جوانب العبقرية، وبعض معالم تلك الكفاءة واضحة في تصريفه للأعمال، وقضائه في المشاكل، وعرضه للأمور بطريقة من شأنها أن تصل إلى القلب، وتقنع العقل، وترضي الضمير.

كان من أبرز صفاته الإخلاص القوي العميق، كان هو السر العجيب الذي يفتح له القلوب، ويذلل الصعاب، ويحطم الصخور.

رحمه الله رحمة واسعة، وكتب له أجر المجاهدين.

أنور الجندي

في فبراير (شباط) ١٩٤٦م، كنت في زيارة للقاهرة.. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذي يتبعه نصف مليون شخص، وكتبت (في النيويورك كرونيكل) بالنص:

«زرت هذا الأسبوع رجلاً قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر، وقد يختفي اسمه إذا كانت الحوادث أكبر منه، ذلك هو الشيخ حسن البنَّا زعيم الإخوان».

وقد صار الإخوان عاملاً مهماً في السياسة المصرية، ويقال: إن جملة الإخوان (٨٠٪) من لجان العمال والطلبة الذين كانوا في طليعة الحوادث الأخيرة في مصر. ويقول الأستاذ البنَّا: إن حركة الإخوان فوق الأحزاب، وسبيلها هو

العودة إلى القرآن، وغايتها جمع كلمة المسلمين في كل أرجاء الأرض.

* * *

هذا ما كتبته منذ خمس سنوات، وقد صدقتني الأحداث فيما ذهبت إليه، فقد ذهب الرجل مبكراً وكان أمل الشرق في صراعه مع المستعمر. وأنا أفهم جيداً أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه، ويرد له كيانه، غير أنه في اليوم الذي بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف، وبطريقة شاذة.

هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلاً بالكنز الذي يقع في يده.. لقد لفت هذا الرجل نظري بصورته الفذة، عندما كنت أزور القاهرة، بعد أن التقيت بطائفة كبرى من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها.

كان هذا الرجل خلاب المظهر، دقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية، لقد حاول اتباعه الذين كانوا يترجمون بيني وبينه أن يصوروا لي أهداف هذه الدعوة، وأفاضوا في الحديث على صورة لم تقنعني.

وظل الرجل صامتاً، حتى إذا بدت له الحيرة في وجهي، قال لهم: قولوا له شيئاً واحداً: هل قرأت عن محمد؟ قلت: نعم، قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت: نعم، قال: هذا هو ما نريده.

وكان في هذه الكلمات القليلة ما أغناني عن الكثير مما حاول البعض من أنصار البنّا أن يقولوه لي.

لفت نظري إلى هذا الرجل سمته البسيط، ومظهره العادي، وثقته التي لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته.

كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله.

وسافرت من مصر بعد أن حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه، وأهدافه وحياته، وقد قرأتها جميعاً، وأخذت أقارن بينه وبين جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد أحمد المهدي، والسيد السنوسي، ومحمد بن عبد الوهاب، فوصل بي البحث إلى أن الرجل قد أفاد من تجارب هؤلاء جميعاً، وأخذ خير ما عندهم، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء. ومن أمثلة ذلك أنه جمع بين وسيلتين متعارضتين، جرى على إحداهما الأفغاني، وارتضى الأخرى محمد عبده.

كان الأفغاني يرى الإصلاح عن طريق الحكم، ويراه محمد عبده عن طريق التربية؛ وقد استطاع حسن البنَّا أن يدمج الوسيلتين معاً، وأن يأخذ بهما جميعاً، كما أنه وصل إلى ما لم يصلا إليه، وهو جمع صفوة المثقفين من الطبقات والثقافات المختلفة إلى مذهب موحد، وهدف محدد.

ثم أخذت أتتبع خطوات الرجل بعد أن عدت إلى أمريكة؛ وأنا مشغول به حتى أُثير حوله غبار الشبهات حيناً، ثم انتهى الأمر إلى اعتقال أنصاره، وهي مرحلة كان من الضروري أن يمر بها أتباعه، ثم استشهاده قبل أن يتم رسالته.

وبالرغم من أنني كنت أسمع في القاهرة أن الرجل لم يعمل شيئاً حتى الآن، وإنه لم يزد على جمع مجموعات ضخمة من الشباب حوله، غير أن معركة فلسطين، ومعركة التحرير الأخيرة في القناة، قد أثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة، قلَّ أن تجد لها مثيلاً إلا في تاريخ العهد الأول للدعوة الإسلامية.

كل ما أستطيع أن أقوله هنا أنّ الرجل أفلت من غوائل المرأة والمال والجاه، وهي المغريات الثلاث التي سلطها المستعمر على المجاهدين، وقد فشلت كل المحاولات التي بذلت في سبيل إغرائه.

وقد أعانه على ذلك صوفيته الصادقة، وزهده الطبيعي، فقد تزوج مبكراً، وعاش فقيراً، وجعل جاهه في ثقة أولئك الذين التفوا حوله، وأمضى حياته القصيرة العريضة مجانباً لميادين الشهرة الكاذبة، وأسباب الترف الرخيص.

وكان يترقب الأحداث في صبر ويلقاها في هدوء، ويتعرَّض لها في اطمئنان، ويواجهها في جرأة.

لقد شاءت الأقدار أن يرتبط تاريخ ولادته وتاريخ وفاته بحادثين من أضخم الأحداث في الشرق، فقد ولد عام ١٩٠٦م وهو عام دنشواي، ومات عام ١٩٤٩م وهو عام إسرائيل، التي قامت شكلياً سنة ١٩٤٨م وواقعياً سنة ١٩٤٩م.

وكان الرجل عجيباً في معاملة خصومه وأنصاره على السواء، كان لا يهاجم خصومه ولا يصارعهم بقدر ما يحاول إقناعهم وكسبهم إلى صفه، وكان يرى أن الصراع بين هيئتين لا يأتي بالنتائج المرجوة.

وكان يؤمن بالخصومة الفكرية ولا يحولها إلى خصومة شخصية، ولكنه مع ذلك لم يسْلم من إيذاء معاصريه ومنافسيه، فقد أعلنت عليه الأحزاب حرباً عنيفة.

كان يقتفي خطوات عمر وعلي، ويصارع في مثل بيئة الحسين، فمات

لقد سمعت الكثير من خصومه، وكان هذا طبيعياً، بل كان من الضروري أن يختلف الناس في رجل استطاع أن يجمع حوله هذا الحشد الضخم من الناس بسحر حديثه وجمال منطقه، وقد انصرف هؤلاء من حول الأحزاب والجماعات والفرق الصوفية والمقاهي ودور اللهو!!.

وكان لا بد أن يصبح هذ مثار حقد بعض الناس؛ الذين أدهشهم أن يستطيع هذا الرجل المتجرد الفقير أن يجمع إليه مثل هذا الشباب.

ومن الأمور التي لفتت نظري أنه أخذ من عمر خصلة من أبرز خصاله، تلك هي إبعاد الأهل عن مغانم الدعوة، فقد ظل عبد الرحمن، ومحمد، وعبد الباسط وهم أخوته بعيدين عن كبريات المناصب، ولطالما كان يحاسبهم كما كان عمر يحاسب أهله، ويضاعف لهم العقوبة إذا قصَّروا.

وقد أتيح لي أن ألتقي بوالده الوقور الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا، وسمعته يتحدث مع بعض الإخوان، أنه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب في أمر الإسلام واكتفى بذلك، قد رد عليه الأستاذ البنَّا بأنه منشرح الصدر لمعالجة الإسلام عن طريق تأليف الرجال.

* * *

... في الأزقة الضيقة في أحشاء القاهرة، في حارة الروم، وسوق السلاح وعطفة نافع، وحارة الشماشرجي.. بدأ الرجل يعمل[1]، وتجمَّع حوله نفر قليل، وكان حسن البنَّا الداعية الأول في الشرق الذي قدم للناس

---

(١) لم يشر الكاتب إلى أن دعوة الإخوان بدأت في الإسماعيلية.

برنامجاً مدروساً كاملاً، لم يفعل ذلك أحد قبله، لم يفعله جمال الدين ولا محمد عبده، ولم يفعله زعماء الأحزاب والجماعات الذين لمعت أسماؤهم بعد الحرب العالمية الأولى. . .

وأستطيع بناء على دراساتي الواسعة أن أقول: إن حياة الرجل وتصرفاته كانت تطبيقاً صادقاً للمبادئ التي نادى بها، وقد منحه الإسلام كما كان يفهمه ويدعو إليه حلة متألقة، قوية الأثر في النفوس، لم تتح لزعماء السياسة ولا لرجال الدين!.

لم يكن من الذين يشترون النجاح بثمنٍ بخسٍ، ولم يجعل الواسطة مبررة للغاية، كما يفعل رجال السياسة، ولذلك كان طريقه مليئاً بالأشواك، وكانت آية متاعبه أنه يعمل في مجرى تراكمت فيه الجنادل والصخور، وكان هذا مما يدعوه إلى أن يدفع اتباعه إلى التسامي، ويدفعهم إلى التغلب على مغريات عصرهم والاستعلاء على الشهوات التي ترتطم بسفن النجاة فتحول دون الوصول إلى البر.

كان يريد أن يصل إلى الحل الأمثل مهما طال طريقه، ولذلك رفض المساومة، وألغى من برنامجه أنصاف الحلول، وداوم في إلحاح القولَ بأنه لا تجزئة في الحق المقدس في الحرية والوطنية والسيادة، وكان هذا مما سبب له المتاعب والأذى.

وراعت بعضَ مَنْ حوله الثمرةُ، وعجزت أعصابهم عن أن تقاوم البريق، فسقطوا في منتصف الطريق.

كان يؤمن بالواقعية، ويفهم الأشياء على حقيقتها مجردة من الأوهام، وكان يبدو ـ حين تلقاه ـ هادئاً غاية الهدوء؛ وفي قلبه مرجل يغلي، ولهيب

يضطرم، فقد كان الرجل غيوراً على الوطن الإسلامي، يتحرق كلما سمع بأن جزءاً منه قد أصابه سوء أو ألمّ به أذى، ولكنه لم يكن يصرف غضبته ـ كبعض الزعماء ـ في مصارف الكلام أو الضجيج أو الصياح، ولا ينفس عن نفسه بالأوهام، وإنما يوجه هذه الطاقة القوية إلى العمل والإنشاء والاستعداد لليوم الذي يمكن أن تتحقق فيه آمال الشعوب.

وكان في عقله مرونة، وفي تفكيره تحرر، وفي روحه إشراق، وفي أعماقه إيمان قوي جارف.

وكان متواضعاً تواضع من يعرف قدره، متفائلاً، عفّ اللسان، عفّ القلم، يجلّ نفسه عن أن يجري مجرى أصحاب الألسنة الحداد.

* * *

كان مذهبه السياسي أن يرد مادة الأخلاق إلى صميم السياسة بعد أن نزعت منها، وبعد أن قيل إن السياسة والأخلاق لا يجتمعان.

وكان يريد أن يكذّب قول (تاليران): «إن اللغة لا تستخدم إلا لإخفاء آرائنا الحقيقة» فقد كان ينكر أن يضلل السياسي سامعيه أو أتباعه، وأمته. وكان يعمل على أن يسمو بالجماهير ورجل الشارع فوق خداع السياسة، وتضليل رجال الأحزاب.

وكأنما أراد أن ينشئ للشرق روحاً جديدة من المثل العليا؛ هذه المادة الضائعة التي هزم بها الشرق الدنيا وفتح بها أطراف الأرض.

كان يريد أن ينشئ القوة التي تصمد في وجه الخطرين الداهمين اللذين يهددان العالم وهما: الإلحاد والاستعباد.

كان يريد أن يجعل من الإسلام قوة تدفع الشيوعية الضالة والرأسمالية الزائغة، وكان يطمع في أن يرفع الإسلام ويسمو به عن أن يكون خادماً للاستعمار باسم الديمقراطية، أو للشيوعية باسم الاشتراكية، وإنما كان يرى الإسلام نظاماً كاملاً فوق الشيوعية والديكتاتورية والرأسمالية جميعاً.

وكان يوم الثلاثاء يوماً مشهوداً يتجمع فيه بضع مئات من أنحاء القاهرة؛ ليستمعوا إلى هذا الرجل الذي يصعد المنصة في جلبابه الأبيض وعباءته البيضاء وعمامته الجميلة، فيجيل النظر في الحاضرين لحظة؛ بينما تنطلق الحناجر بالهتاف.

ولأول مرة خاطب الجماهيرَ زعيمٌ بما يفتح العيون على الحقائق، ووضع دعوته على المشرحة، وقَبِل أن يُسأل عن أدق الأشياء فيها وفي حياته الخاصة.

ولا تدهشك خطابته بقدر ما تدهشك إجابته عن الأسئلة التي كان بعضها يتصل بشخصيته وحياته وأسرته.

وقد سُئل مرة بعد أن ترك عمله في الحكومة، ورفض مرتب الجريدة الضخم الذي كان يبلغ مئة جنيه: مم يأكل؟ فقال في بساطة: كان محمد ﷺ يأكل من مال خديجة، وأن آكل من مال (أخي خديجة) ـ يقصده صهره ـ.

* * *

وكان أعجب ما في الرجل صبره على الرحلات في الصعيد... هذه الرحلات التي لا تبدأ إلا في فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلي في حالة غليان، وفي أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام!!.

وهنـاك تراه غاية في القوة واعتدال المـزاج . . لا الشمـس اللافحـة، ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه، ولا هو يضيق بها . تراه منطلقاً كالسهم، منصوب القامة، يتحدث إلى مَنْ حوله ويستمع، ويفصل في الأمور!!.

وقد أمدته هذه الرحلات في خمسة عشر عاماً، زار خلالها أكثر من أربعة آلاف قرية، وزار كل قرية بضع مرات، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد، للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض، وألوانها السياسية وأثرها في قراها وبلادها ورضا الناس عنها أو بغضهم لها، وما بين البـلاد أفراداً وأحزابـاً وهيئـات وطوائـف من خلافات أو حزازات.

كان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى، فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو يغير طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى دار عامل فقير في البلد.

وكنت إذا قلت له فلان . . . الحسيني مثلاً أو الحديدي أو الحمصاني قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع . . . إحداها في القاهرة، والثانية في دمنهور، والثالثة في الزقازيق، والرابعة في . . . فأيها تقصد؟.

وكانت هذه الزيارات المتوالية طوال هذه السنوات المتتالية، قد كوَّنت له رأياً في الناس. فقلَّ أن تكون قرية في مصر لا يعرف الرجل شبابها وأعيانها ووزراءها ورجال الأحزاب والدين والمتصوفة فيها . . . ولا يكون قد تحدث إليهم واستمع منهم، وعرف آمالهم ورغباتهم.

وكان الرجل من خلال هذه الأحاديث الواسعة المتسفيضة يستكنه

الشعبي المصري؛ على صورة قلما أتيحت لزعيم أو داعية من قبل. فإذا أضفت إلى هذا قراءاته الواسعة واطلاعه الضخم، والتهامه لكل ما كتب في العربية عن الشرق والغرب، ونظريات العلماء والفلاسفة؛ عجبت لهذه القوة الكبرى التي فقدها الشرق يوم غيب الثرى هذا الرجل، ودهشت كيف يمكن أن يُملأ هذا الفراغ، أو يُسدّ هذا النقص!.

وفي خلال هذه الزيارات كنت ترى الرجل بسيطاً غاية البساطة، ينام في الأكواخ أحياناً، ويجلس على (المصاطب)، ويأكل ما يقدم له... لا يحرص إلا على شيء واحد هو ألا يفهم الناس عنه أنه شيخ طريقة، أو من الطامعين في المنفعة العاجلة!!.

ولقد حدثني أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً فيقصد إلى المسجد، فيصلي مع الناس، ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام... وأحياناً ينصرف الناس عنه، فينام على حصير المسجد، وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته.

ولا شك أن هذا الجهد الضخم قد أتاح له أن يلتقي بعشرات الآلاف من الناس خصوماً وأنصاراً، شيوخاً وشباباً، مثقفين وغير مثقفين، وأنه قد استمع إليهم وحدثهم، وأفاد منهم خبرة ضخمة واسعة أضافها إلى علمه وثقافته.

وإنني على ثقة من أن حسن البنَّا رجل لا ضريب له في هذا العصر، وأنه قد مر في تاريخ مصر مرور الطيف العابر الذي لا يتكرر.

* * *

كان لا بد أن يموت هذا الرجل الذي صنع التاريخ، وحول مجرى الطريق شهيداً؛ كما مات عمر وعلي والحسين، فقد كان الرجل يقتفي

مات في عمر الزهـر النضير، وفي السن نفسها التي مات فيها كثيـر من العباقرة ورجال الفكر والفن، وقضى وهو يسطع ويتألق.

وعاش الرجل كل لحظة من حياته، بعد أن عجزت كل وسائل الإغراء في تحويله عن نقاء الفكرة وسلامة الهدف.

لم يحن رأسه، ولم يتراجع، ولم يتردد أمام المثبِّطات ولا المهددات. وكان الرجل قذًى في عيون بعض الناس، وحاول الكثيرون أن يفيدوا من القوة التي يسيطر عليها، فقال لهم:

«إن أنصاره ليسوا عصا في يد أحد، وإنهم لله وحده».

وحاول البعض أن يضموه إليهم أو يطووه، فكان أصلب عوداً من أن يُخدع أو ينطوي!!.

وكان على بساطته التي تظهر للمتحدث إليه، بعيد الغَوْر إلى الدرجـة التي لا تفلت متصلاً به أو متحدثاً إليه من أن يقع في شركه، ويؤمن بالفكرة التي يدعو إليها.

وكان لا يواجه إلا من يعترض طريق دعوته، وكان يستر من لم يكشف خصومتـه، وكان لا يهاجم عهداً ما دام هذا العهد لا يحـول دون الامتداد الطبيعي لدعوته، وكان يدخر قوته للوطن، ويكبر نفسه ودعوته من أن يكونا أداة صراع داخلي.. وظن بعض الناس أن هذا ضعف ولين ومسايرة، وما كان كذلك، فالرجل بطبيعتـه لم يكن يحب الصراع في معركـة جانبية، ولا يقبل توزيع قواه؛ وإنما يؤمن بالتطور والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن دور إلى دور على أسـاس النضج والتكامل، وكـان هذا يزعج خصومـه الذين لم

يعهدوا سياسة تعلو على المطامع الفردية، وتتعالى على الأغراض الذاتية، وتنقي جوها من الدوافع الشخصية الخاصة!!.

وكان الرجل على قدرته الفائقة في ضبط أعصابه كيِّساً في مواجهة الأمور، لبقاً في استقبال الأحداث والأزمات!!.

وإلى هذا كله كان غاية في الاعتدال، فكان يعيش براتب لا يزيد على راتبه المدرسي المحدود، وبين يديه الأموال الضخمة المعروضة من أتباعه، وحوله من العاملين معه من يصل دخله إلى ضعف أو أضعاف ما يحصل عليه!

* * *

كان في بيته مثال الزهادة، وفي ملبسه مثال البساطة، وكنت تلقاه في تلك الحجرة المتواضعة الأثاث ذات السجادة العتيقة والمكتبة الضخمة؛ فلا تراه يختلف عن أي إنسان عادي، إلا ذلك الإشعاع القوي والبريق اللامع الذي تبعثه عيناه، والذي لا يقوى الكثيرون على مواجهته، فإذا تحدث سمعت من الكلمات القليلة المعدودة موجزاً واضحاً للقضايا المطولة التي تحتويها المجلدات.

وكان إلى هذه الثقافة الواسعة الضخمة قديراً على فهم الأشخاص، لا يفاجئك بالرأي المعارض، ولا يصدمك بما يخالف مذهبك، وإنما يحتال عليك حتى يصل إلى قلبك ويتصل بك فيما يتفق معك عليه، ويعذرك فيما تختلفان فيه.

وهو واسع الأفق إلى أبعد حد، يفتح النوافذ للهواء الطلق، فلا يكره حرية الرأي ولا يضيق بالرأي المعارض، وقد استطاع أن يحمل الرأي الجديد

إلى الجماهير دون أن يصطدم بهم. . هذا الجديد الذي لو عرض بغير لباقة لوقفوا ضده وحاربوه. . . لقد نقلهم من وراثياتهم، وغيّر فهمهم للدين، وحوّل اتجاههم في الحياة، وأعطاهم الهدف، وملأ صدروهم بالأمل في الحرية والقوة.

وكان له من صفات الزعماء صوته الذي تتمثل فيه القوة والعاطفة، وبيانه الذي يصل إلى نفوسهم الجماهير ولا تنبو عنه أذواق المثقفين، وتلك اللباقة والحنكة والمهارة في إدارة الحديث والإقناع.

وبهذه الصفات جميعها استطاع كسب هذه الطائفة الضخمة من الأنصار في هذا الوقت القصير من الزمن، فحوّل وجهات نظرها، ونقلها نقلة واسعة دون ارتطام أو صراع!!.

كان سمته البسيط، ولحيته الخفيفة، وذلك المظهر الذي لا تجد فيه تكلف بعض العلماء، ولا العنجهية ولا السذاجة؛ قد أكسبه الوقار.

ولقد كانت شخصية حسن البنّا جديدة على الناس. . . عجب لها كل من رآها واتصل بها؛ كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم!!.

وكان كل جانب من هذه الجوانب يبرز كطابع خاص في الوقت المناسب، ولكل هذه الصفات التي تقرؤها في كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدراً أن يعيش طويلاً في الشرق. . وكان لابد أن يموت باكراً، فقد كان غريباً عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين أمام مثل هذا الرجل الذي أعلى

كلمة الإسلام على نحو جديد، وكشف لرجل الشارع حقيقة ووجوده ومصيره، وجمع الناس على كلمة الله، وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة، واعتدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجري في ركب (الريح الإسلامية).

* * *

لم يكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة، مما عرف العالم في الشرق أو في الغرب، في القديم أو في الحديث؛ لم يبحثها، أو يقرأها، أو يدرس أبطالها وحظوظهم من النجاح أو الفشل، أو يحمل منها ما يصلح لتجاربه وأعماله.

كان يقول كل شيء، ولا تحس أنه جرح أو أساء، وكان يوجه النقد في ثوب الرواية أو المثل، وكان يضع الخطوط ويترك لأتباعه التفاصيل.

كان قديراً على أن يحدث كلاً بلغته وفي ميدانه وعلى طريقته، وفي حدود هواه، وعلى الوتر الذي يحس به، وعلى (الجرح) الذي يثيره.

ويعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا وفي الصحراء وفي مصر الوسطى والعليا وتقاليدها، بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات، وأهالي بعض أحياء القاهرة، الذين تتمثل فيهم صفات معينة بارزة، وكان في أحاديثه إليهم يروي لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم.

بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعي الطريق والقتلة، وقد ألقى إليهم مرة حديثاً.

وهو يستمد موضوع حديثه ـ أثناء سياحاته في الأقاليم وفي كل بلد ـ من

مشاكلها ووقائعها وخلافاتها، ويربطه في لباقة مع دعوته ومعالمها الكبرى، فيجيء كلامه عجباً يأخذ بالألباب.

كان يقول للفلاحين في الريف: «عندنا زرعتان: إحداهما سريعة النماء كالقثاء. والأخرى طويلة كالقطن».

لم يعتمد يوماً على الخطابة ولا تهويشها، ولا إثارة العواطف على طريقة الصياح والهياج... ولكنه يعتمد على الحقائق، وهو يستثير العاطفة بإقناع العقل، ويلهب الروح بالمعنى لا باللفظ، وبالهدوء لا بالثورة، وبالحجة لا بالتهويش.

ويعد (الحديث) عند بعض الناس آيته الكبرى، غير أنني علمت من بعض المتصلين به أنها آخر مواهبه، فقد كانت أبلغ مواهبه القدرة على الإقناع، وكسب (الفرد) بعد (الفرد) فيربطه به برباط لا ينفصم، فيراه صاحبه صديقاً خاصاً، وتقوم بينه وبين كل فرد يعرفه صداقة خاصة خالصة، يكون معها في بعض الأحيان مناجاة، وتنتقل للتعرف على شؤون الوظيفة والعمل والأسرة والأطفال.

وهذه أقوى مظاهر عظمته، فهو قد كسب هؤلاء الاتباع فرداً فرداً، وأصاب منابع أرواحهم هدفاً هدفاً، وإن لم يكسبها جملة ولا على صفة جماعية، وقد استطاع بحصافته وقوته وجبروته أن ينقلها من عقائدها وأفكارها - سواء أكانت سياسية أم دينية - إلى مذهبه وفكرته، فتنسى ذلك الماضي، بل وتستغفر الله منه، وتراه كأنما كان إثماً أو خطأ.

ومن أبرز أعمال هذا الرجل، أنه جعل حب الوطن جزءاً من العاطفة الروحية، فأعلى قدر الوطن وأعز قيمة الحرية، وجعل ما بين الغني والفقير

حقاً وليس إحساناً، وبين الرئيس والمرؤوس صلة وتعاوناً وليس سيادة، وبين الحاكم والشعب مسؤولية وليس تسلطاً.

وتلك من توجيهات القرآن، غير أنه أعلنها هو على صورة جديدة لم تكن واضحة من قبل!!.

* * *

لم يكن الرجل القرآني، فيما علمت يسعى إلى فتنة، أو يؤمن بالطفرة، ولكنه كان يريد أن يقيم مجتمعاً صالحاً قوياً حراً، وينشئ جيلاً فيه كل خصائص الأصالة الشرقية.

لقد ظهرت حركات إصلاحية كثيرة خلال هذا القرن... في الهند، ومصر، والسودان، وشمال أفريقية. وقد أحدثت هزات لا بأس بها ولكنها لم تنتج آثاراً إيجابية ثابتة.

وقد جاء هذا نتيجة لعجز بعض المصلحين عن ضبط أعصابهم عند مواجهة الأحداث، واندفاعهم إلى الحد الذي وصل بهم إلى مرتبة الجرح قبل أن يتم البنَّاء، كما جاء أثراً من آثار عزوفهم عن الاتصال بالشعب وتكوين رأي عام مثقف.

اختفت هذه الدعوات، وبقيت عبارات على الألسنة وكلمات في بطون الكتب، حتى قيض الله لها أن تبعث من جديد، وأن تستوفي شرائطها ومعالمها، وأن تأخذ فترة الحضانة الكافية لنضجها، وأفاد الرجل من تجارب من سبقوه، ومن تاريخ القادة والمفكرين والزعماء الذين حملوا لواء دعوة الإسلام، ولم يقنع بأن يكون مثلهم، ولكنه ذهب إلى آخر الشوط، فأراد أن يستمد من أبي بكر

عمر وخالد وأبي بكر؛ فأخذ من أبي بكر السماحة، ومن عمر التقشف، ومن خالد عبقرية التنظيم.

* * *

وقد استطاع الرجل رغم كل ما دبِّر لوضع حد لدعوته أو حياته أن يعمل، وأن يضع في الأرض البذرة الجديدة، بذرة المصحف، البذرة التي لا تموت بعد أن ذوت شجرتها القديمة، ولم يمت الرجل إلا بعد أن ارتفعت الشجرة في الفضاء واستقرت.

لقد حمل حسن البنَّا المصحف ووقف به في طريق رجال الفكر الحديث الذين كانوا يسخرون من ثلاث كلمات: (شرق، وإسلام، وقرآن) كان الرجل يريد أن يقول: آن للشرق أن يمحص أفكار الغرب قبل أن يعتنقها، بعد أن غدت الحضارة الغربية في نظر أصحابها لا تفي بما يطلب منها.

كان يقول: علينا أن نزن هذه القيم وأن نعتقد أنَّ ما عندنا لا يقل عما عند الغرب أو على الأقل لا يستحق الإهمال، وأن على الشرق أن ينشئ للدنيا حضارة جديدة، تكون أصلح من حضارة الغرب، قوامها امتزاج الروح بالمادة، واتصال السماء بالأرض، وما كنت تعرض لأمر من أمور الحضارة الغربية إلا رده إلى مصادره الأولى في الحضارة الإسلامية، أو في القرآن والسنة والتاريخ.

كان الرجل القرآني يؤمن بأن الإسلام قوة نفسية قائمة في ضمير الشرق، وأنها تستطيع أن تمده بالحيوية التي تمكن له في الأرض، وتتيح له الزحف إلى قواعده واستخلاص حقوقه وحرياته.

كان يؤمن بأن الشرق وحده قائمة كاملة.

* * *

استطاع حسن البنَّا أن يؤلف بين طائفة ضخمة من الأتباع بسحر حديثه، وجمال منطقه، وروعة بيانه، فتنصرف هذه المجموعة الضخمة من حول الأحزاب والجماعات والفرق الصوفية، وتنضوي تحت لوائه وتطمئن له وتثق به.

كان هذا مثار حسد الناس، ومثار حقد بعض ذوي الرأي، وكان خليقاً بهم أن ينقموا وأن يحسدوا هذا الرجل المتجرد الفقير، على أنه استطاع أن يجمع الناس إليه بوسائل غاية في البساطة واليسر، وهي لباقته وحسن حديثه، فيرفعهم فوق المطامع المادية التي يجتمع عليها الناس عادة!!.

وكان طبيعياً أن يتنكر له بعض الناس، وأن يذيعوا عنه بعض المرجفات، فليس أشد وقعاً في نفوسهم من أن يسلبهم أحد سلطاناً كان لهم، وليس أبعد أثراً في نفوسهم من أن يجيء رجل من صميم الشعب ليجمع الناس حوله باسم القرآن، ويقول لهم: إن الله قد سوَّى بين الناس بالحق، وجعل فضيلتهم عنده على أساس العمل والتقوى.

خُيِّل إليّ بعد أن انطوت حياة الرجل على هذه الصورة العجيبة، وثار حولها ذلك الغبار الكثيف، أن وقتاً طويلاً يجب أن يمر قبل أن يقول التاريخ الحق كلمته، ويروي المؤرخ النزيه قصته.

غير أن الظروف السياسية في مصر سرعان ما تغيرت، وأمكن أن يكشف التحقيق في بعض القضايا بطلان كثير مما وصمت به دعوة الإخوان المسلمين من ادعاءات، وأن يبرئ جانب هذا الرجل بالذات فيبدو نقياً طاهراً.

وكنتُ قد التقيت بالرجل في القاهرة سنة ١٩٤٦م ثم عدت إلى القاهرة مرة أخرى سنة ١٩٤٩م بعد أن قضى، وحاولت أن أتصل ببعض الدوائر التي

تعرفه، فسمعت الكثير مما صدق نظرتي الأولى إليه.

فقد علمت أنه كان في أيامه الأخيرة يحس بالموت، وكان الكثير من محبيه ينصحه بالهجرة أو الفرار، أو اللياذ بتقية أو خفية، فكان يبتسم للذين يقصون عليه هذه القصة وينشد لهم شعراً قديماً:

أيَّ يـومـيَّ مِـنَ المَـوتِ أَفِـرّْ   يـومَ لا قُـدِّر أَم يـومَ قُـدِرْ
يَـومَ لا قُـدِّرَ لا أَرْهَبَـهُ   ومِـنَ المقْـدُورِ لا يَنْجـو الحَـذِرْ

وكان لا يني لحظة عن محاولة استخلاص أنصاره من الأسر، وكان يبلغ به الأمر مبلغه، فيستيقظ في الليل، ويضع كلتا يديه على أذنيه، ويقول:

«إنني أسمع صياح الأطفال الذين غاب آباؤهم في المعتقلات»

* * *

إن تاريخ جهاد (الرجل القرآني) طويل، ولكنَّ أخصب سنواته أيام الحرب، منذ أن خرج من المعتقل عام ١٩٣٩م، في هذا الوقت الذي شغلت الحرب الدنيا جميعها، عن الأحزاب، وعن السياسة، وعن كل شيء، كان الرجل لا ينام، كان يسعى ويطوف، ويذهب إلى كل قرية، وكل نجع، وكل دسكرة، يفتش عن الشباب، ويحدث الشيوخ، ويتصل بالعظماء والعلماء، يومها بهر الوزراء، وأعلن بعضهم الانضمام إلى لوائه الخفاق، وجيشه الجرار.

وحاول الإنكليز أن يقدموا له عروضاً سخية، فرفضها الرجل في إباء. ونامت الأحزاب في انتظار الهدنة، وظل الرجل الحديدي الأعصاب يعمل أكثر

من عشرين ساعة، لا يتعب ولا يجهد، كأنما صيغت أعصابه من فولاذ.

لقد كان يحب فكرته حباً يفوق الوصف، ولم يكن في صدره شيء يزحم هذه الدعوة. كان يعشق فكرته كأنما هي حسناء! لا يجهده السهر، ولا يتعبه السفر، وقد أوتي ذلك العقل العجيب، الذي يصرِّف الأمور في يسر، ويقضي في المشاكل بسرعة، ويفضها في بساطة، ويذهب عنها التعقيد.

كان لا يحتاج إلى الإسهاب ليفهم أي أمر، كأنما لديه أطراف كل أمر، فما إن تلقي إليه أوائل الكلمات حتى يفهم ما تريد، بل كان أحياناً يجهر بما تريد أن تقول له، ويفضي لك بما تريد أن تسأل عنه!!.

كان نافذ البصيرة، يرى ما وراء الأشباح، فيه من ذلك السر الإلـٰهي قبس.

كان يلتهم كل شيء، لا تجد علماً ولا فكراً ولا نظرية جديدة في القانون أو الاجتماع أو السياسة أو الأدب، لم يقرأها ولم يلمَّ بها.

* * *

وحدَّثني الرجل القرآني عندما أخذت أراجعه رأيه في صبغة الإسلام للشرق؛ قال: أضرب لك مثلاً بتركية؛ إنها ستعود إلى الإسلام، وإن عوامل تلك العودة قد تبدت منذ الآن.

كان هذا الحديث بيني وبينه عام ١٩٤٦م، وقد لاحظت في السنوات التالية ما تحقق من قول حسن البنَّا في مايو (أيار) ١٩٥٠م بعد أن مضى الرجل إلى ربه، حيث هُزم حزب مصطفى كمال وانتصر الحزب الذي كان يقال عنه إنه رجعي.

وسألته عن الصوفية والتصوف وهل هو من الإسلام ـ وكان ذلك على أثر ما نشرته بعض الصحف من أنه من سلالة مغربية تعتنق الطريقة الشاذلية ـ فكان مما أفضى به إليّ أن الصوفية النقية البعيدة عن التعقيد هي من لباب الإسلام، وأنها هي الدرجة التي يصل إليها الرجل الحق. وأن الصوفية بالمفهوم الأصيل تمد الطبع بحب الجهاد والكفاح وافتداء الفكرة، وأنه يجب أن يرقى أتباعه إلى هذه الدرجة، وأنه لا بأس عن الإخوان من أن يأخذوا المعاني القوية الكامنة وراء مظاهر الصوفية فينقلوها إلى دعوتهم، دون أن يتقيدوا بأثوابها القديمة أو مظاهرها التي لا تتفق مع روح العصر.

فلما أفضيت إليه بخواطري في الخوف من أن يجتمع الناس جميعاً على دعوة واحدة، لا سيما أن هناك من المواهب الإسلامية ما يحول دون ذلك؛ قال لي: إن هذه الخلافات لا تحول دون ارتباط المسلمين، وإنها إحدى عوامل السَعَة ومقدرة الإسلام على مجاراة العصور والأزمنة والأقطار.

ونحن نعتقد أن الخلاف في فروع الدين أمر لا بد منه، وضرورة لا بد منها، وقد قال الإمام مالك للخليفة أبي جعفر المنصور حين طلب إليه أن يوطئ للناس كتاباً يجمعهم عليه؛ قال: إن أصحاب رسول الله قد تفرقوا في الأمصار، وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة.

فضلاً عن أن التطبيق يختلف باختلاف البيئات، وقد أفتى الإمام الشافعي في مصر بغير ما أفتى به في العراق، وقد أخذ في كليهما بما استبان له، ولذلك فإن الإجماع في الفروع مطلب مستحيل، وهو يتنافى مع طبيعة الإسلام، ونحن نلتمس العذر لمن يخالفوننا في الفروع، ونرى أن هذا الخلاف ليس حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب، والإخوان أوسع الناس صدراً مع مخالفيهم.

* * *

ولما سألته عن الإسلام والسياسة ـ وأنا أرى أنهما لا يتصلان بحال ـ قال لي: ألا ترى أن الإسلام بغير السياسة لا يكون إلا هذه الركعات وتلك الألفاظ، وأن الإسلام في الحق عقيدة ووطن، وسياسة وثقافة وقانون، ولو انفصل الإسلام عن السياسة لحصر نفسه في دائرة ضيقة.

وقال لي فيما قال: إن سر انتصار الغرب وظفره هو الإسلام.

قلت مستغرباً: كيف؟ قال: من ناحيتين؛ إنه حفظ التراث القديم وزاد عليه حين أسلمه لأوروبة عن طريق قرطبة والقسطنطينية، وإن الغرب انتصر بأخلاق الشرق ومبادئه، فقد عرف الغرب الحصيف كيف وصل الشرق بهذه الأخلاق إلى الذروة، فأسس تلك الإمبراطورية الضخمة، فاستعار هذه الأخلاق ونجح، حين غفل عنها الشرق وهو صاحبها وتخلف.

ومضى يقول لي: إن ما تراه الآن في الشرق، ليس هو الإسلام ولكنهم المسلمون اسماً ووراثة، هؤلاء الذين لو فهموا حقيقتهم لوصلوا.

* * *

وحدثني بعض أتباع الرجل القرآني عما لقي الرجل إبان زيارته لأرض الحجاز، وكيف تقاطرت على بيته الذي كان ينزل فيه وفود المسلمين من أندونيسية، وجاوة وسيلان والهند ومدغشقر وربونيون ونيجيرية والكامرون وإيران والأفغان؛ تتعرف عليه وتجتمع به، وهو مع كل مجموعة يتحدث عن أمور هي مصدر اهتمام الفريق الذي يلتقي به، يحدثهم عن قضاياهم ومشاكلهم فيبهرهم؛ كأنه قادم للتوّ من بلادهم، وليسوا هم القادمين عليه.

وكان فريق من أتباعه يهرعون إليه يحدثونه عما يقول بعض المتشددين فيقول: لا توحيد بغير حب، لا توحيد بغير حب.

* * *

وأعجب العجب أن تستمع إلى الكلمات التي يلقيها الرجل إلى أتباعه، وفيها تتمثل التضحية الخالصة والإيمان:

«إننا قد عرفنا الطريق إلى أوطاننا الإسلامية: إنها هي الجهاد والموت والفداء. إنها هي الطريق الوحيد الذي سلكه المؤمنون في كل زمان ومكان».

«إن الدنيا كلها تائهة ضالة تبحث عن الحق والمُثُل العليا، فلا تجده فيما لديها من نظم وفلسفات ومبادئ. رسالتكم العظمى للإنسانية أن تحرروها وتنقذوها وتسعدوها».

«إن الشرق يتهيأ لنهضة كبرى ووثبة عظمى، وإن الغرب يقف له بالمرصاد، ولا بدَّ لنا من أن نتسلم راية الحضارة الإنسانية لنسعد الناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتخبط».

«إن الدنيا حائرة ضالة لاهية، وكلها تنظر إلى القيادة ومكانها شاغر، ولن يملأها غيركم لإقرار رسالة الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحق وتحرير الإنسان بمبادئ من وحي السماء».

* * *

ومما استلفت نظري في الرجل القرآني أنه يضع الحدود بين الخصومات الشخصية والخصومات الفكرية. وفي هذا يقول:

«والخصومة بيننا وبين القوم ليست خصومة شخصية أبداً، ولن تكون، ولكنها خصومة فكرة ونظام: هم يريدون لهذه الأمة نظاماً اجتماعياً ممسوخاً من تقليد الغرب في الحكم والسياسة والقضاء والتعليم والاقتصاد والثقافة، ونحن نريد لها وضعاً ربانياً سليماً من تعاليم الإسلام وهديه وإرشاده».

* * *

فإذا ذهبنا نتعرف على حقيقة الحاكم المسلم كما يفهمه (حسن البنَّا) وجدناه (عمرياً)؛ إنه يفهمه كما فهمه عمر بن الخطاب.

«إذا أحسنت فأعينوني، وإذا أسأتُ فقوموني».

ويفهمه كما فهمه أبو بكر: «الضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وكان يرى أن يكون الحاكم المسلم من الشجاعة بحيث يقبل ما قبل عمر عندما جابهه الرجل بكلمة (اتق الله) فقال: دعه فليقلها لي، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقلبها.

ويرى مسؤولية الحاكم في حدود قول عمر:

«لو عثرت شاة بشاطئ الفرات لظننت أن الله عز وجل سائلي عنها يوم القيامة».

ويرى الحاكمَ من حيث القدرة على الإنصاف من النفس كقول عمر: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ويـؤمن بتطبيق نظـام عمـر في القضاء: «اجعل النـاس عندك سـواء، لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأَثَرَة والمحاباة فيما ولاّك الله».

ويردد في أكثر من مرة قول الرسول ﷺ لأسامة رضي الله عنه: «أتشفع في حد من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!!.

ويجب أن يطبع المسلم حياته بطابع كلمة عمر الخالدة:

«أحب من الرجل إذا سيم الخسف أن يقول (لا) بملء فيه».

وهو على هذه الأسس من المفاهيم الإسلامية العميقة كان ينشئ جيله، ويبني كتيبته، ويرسم (الطوبى)[1] التي إذا طبقت حقق الإسلام في الشرق دوره، وزحف إلى مكان الزعامة العالميَّة والصدارة الإنسانية.

ويرى أن قاعدة الإسلام الأساسية هي (لا ضرار ولا ضرار).

ويؤمن بسد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات.

* * *

وجملة القول في الرجل القرآني أنه يفهم الإسلام فهماً واضحاً سهلاً يسيراً كما جاء في حديثه معي، على الطريقة التي فهم بها محمد ﷺ الإسلام، إنه قريب في نظري من أبي حنيفة الذي أصر على رفض القضاء، ومالك الذي أفتى في البيعة، وابن حنبل الذي أريد على هوى فلم يرد.

وأجد حسن البنّا قد حرر نفسه من مغريات المجد الناقص، ومفاتن النجاح المبتور، ومثل هذا التحرر ـ في نظر (أمرسون) ـ هو غاية البطولـة،

---

(١) المدينة الفاضلة.

ولذلك فلم يكن عجيباً أن يقضي الرجل على هذه الصورة العجيبة فكان فيها شأنه دائماً غير مسبوق.

كان الناس يرونه غريباً في محيط الزعماء بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريباً غاية الغرابة في موته ودفنه، فلم يصلِّ عليه في المسجد غير والده، وحملت جثمانه النساء، ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملؤون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم كانوا وراء الأسوار.

لقد نُقل الرجل بعد أن أسلم الروح إلى بيته في جوف الليل، ومنع أهل البيت من إعلان الفاجعة، وغسله والده، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب. ولقد كان خليقاًبمن سلك مسلك أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل، أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة المروعة، التي من أي جانب ذهبت تستعرضها، وجدتها عجيبة مدهشة!!.

إنه كان يدهش الناس في كل لحظات حياته، فلا بد أن يدهش الأجيال بختام حياته، إن الألوف المؤلفة قد سارت في ركب الذين صنع لهم الشرق بطولات زائفة، أفلا يكون حسن البنَّا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق.

إن هناك فارقاً أزلياً بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا لله ولرسوله ﷺ، إن هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد في نفوس رجال الفكر النور والضياء، ويبعث في قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق في نفوس أهله حتى يمكنوا له.

إن الأمر الذي أسأل عنه فلا أجد له جواباً: هل هناك علاقة ما بين الإسلام كما كان يفهمه حسن البنَّا ويدعو إليه وبين نهايته؟ إن كثيرين يدعون إلى الإسلام ويحملون اسـمه، فهل هناك خلاف جوهـري بين ما كان يدعو إليه حسن البنَّا وما يدعو إليه هؤلاء؟.

لأني لا أعرف الإجابة الصحيحة، أدع ذلك للتاريخ.

* * *

الملامح العامة لفكر حسن البنَّا

عشر حقائق في حياة حسن البنَّا كانت نبراساً لهذه الشخصية الفذة:

أولاً ـ البلاغة في الأداء:

كان حسن البنَّا كاتباً وخطيباً ومحدِّثاً آيةً من آيات البيان والتعبير، ووراء ذلك كله المحصول الضخم من القراءات والثقافات والتجارب، فقد أحاط بالتراث الإسلامي إحاطة طيبة، وعرف من الناس العشرات، استمع إليهم وحدَّثهم، وعرف تجاربهم، وما وعوه من سير الدعوة والدعاة! يقول الدكتور منصور فهمي:

«كان على قدر عظيم من الإيمان والذكاء ومبشراً من الصالحين. يدعو لوجه الله على أبلغ ما يدعو داعية مؤمن بما يقول، وعلى خير صور التبليغ الذي يصل به المعلم المختار الملهم إلى نفوس تلاميذه وأذهان مريديه.

اجتمعت به مراراً في المجالس التي تعمل للصالح العام، كان إذا بدا له أن يسوق رأياً أو حكماً؛ كانت الحجج القاطعة تواتيه منتظمة في فصاحة البلغاء ولباقة الأذكياء الكيِّسين، وفي تواضع العلماء الراسخين، وفي إيمان الدعاة المخلصين.

وطالما سمعته خطيباً ومحدِّثاً في المحافل العامة، فكانت المعاني تواتيه

جلية واضحة مرتبة، وتتوالى على لسانه العبارات طيِّعة سهلة فصيحة، ولطالما كان يثبت معانيه وأقواله بقول الله المكين والأحاديث المناسبة والشواهد الأخَّاذة من أعمال السلف الصالح.

وبمثل فصاحته البليغة الفياضة بحرارة الإيمان كان يقود الجماهير ويفيدهم بما يذهب إليه ويدعو له».

ويقول أحد الأمراء العرب:

«لقد خاب ظني بادئ الرأي في حسن البنَّا أول مالقيته في القاهرة لجسده الضئيل، وبذلته الباهتة، وسمته الذي لا يلفت العين فضلاً عن أن يلفت النفس، فإن هي إلا دقائق في أحاديث مختلفات حتى بهرني الرجل البسيط: أصالة في الصدق تطوِّع من كان له بعض قلب، وأصالة في الحجة والرأي مبرأة من شوائب الحسد أو العجب، كل ذلك مع سماحة نفس سيالة الود، وتواضع عجيب ليس فيه إثارة من ذل، وواقعية مدهشة، وحفاظ على ثلاثة أمور في وقت معاً: على وعي راسخ بالأحكام الشرعية. وعلى حاضر الحجة من الكتاب والسنة، ومحيط الفطرة بخلافات الفقه ووجوهها، واستيعاب نادر لدقائق المشكلات وقضايا الناس؛ حتى لكأنه عاش لكل مشكلة أو قصة واكتوى بنارها ولم ينشغل بسواها. وعلى ثقة تامة بدعوته وبمستقبل الإسلام والمسلمين».

وخاصية البلاغة في الأداء لا تعتبر بعيدة عن أهل القرآن، ولقد جاء الإسلام معجزة بيانية حين ارتقت البشرية وأصبحت صالحة لرسالة البيان والقلم والفكر والتأمل والنظر في الكون والتعرف إلى سنن الله في الأمم والحضارات والمجتمعات.

* * *

ثانياً ـ فهم الإسلام، والاطّلاع على كل معضلات الفكر والخلاف؛ سواء بين الفقهاء والصوفية، أو المتكلّمين والفلاسفة، أو أهل السنَّة والفِرَق.

وأعتقد أنه لم يتصدَّ للدعوة العامة إلا بعد أن ألم بذلك إلماماً واسعاً وعميقاً، ذلك أنه إنما كان يعرض نفسه في البلاد في أكثر من أربعة آلاف قرية ذهب إليها، على أناس ليسوا كلهم من المؤمنين بما يقول، وفيهم من كان يدعو إلى إثارة المشكلات والتحدي، سواء أكان يقصد بذلك التعجيز أو الاقتناع بقدرة الرجل على الفهم.

وكتابات حسن البنَّا تفيض بذلك الوضوح القادر على معرفة أبعاد هذه المسائل كلها، وهداية الناس إلى المنابع الأصيلة التي فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه، بعيداً عن كل التعقيدات التي خرج بها دعاة الفلسفة والكلام من المعتزلة أو المتصوفة.

وهو في هذا كله واضح كل الوضوح، قادر على مواجهة المواقف في حسم وأناة وحكمة، وقد روى في مذكراته (مذكرات الدعوة والداعية) من ذلك ما يستطيع الباحثون أن يرجعوا إليه، فقد كان هناك من يتجمع ويتحفز للإحراج وإلقاء الأسئلة في المسائل الشائكة.

«ما رأيكم في مسألة التوسل؟

وكانت الإجابة: يا أخي أظنك لا تريد أن تسألني عن هذه المسألة وحدها، ولكنك تريد أن تسألني كذلك في الصلاة والسلام بعد الأذان، وفي قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، وفي لفظ السيادة للرسول ﷺ في التشهّد، وفي أبوَي الرسول ﷺ وأين مقرّهما، وفي قراءة القرآن، وهل يصل ثوابهما

إلى الميت أو لا يصل، وفي هذه الحلقات التي يقيمها أهل الطريق وهل هي معصية أو قربة إلى الله؟

وأخذتُ أسرد له مسائل الخلاف جميعاً التي كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم، هذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا يزالون مختلفين، والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة، فأرجو أن تعاهدوا الله أن تدعوا هذه الأمور، وأن تجتهدوا في أن نتعلم أصول الدين وقواعده، ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة، وإرشاداته المجمع عليها، ونؤدي الفرائض والسنن، وندع التكلّف والتعمق؛ حتى تصفو النفوس ويكون غرضنا جميعاً معرفة الحق لا مجرَّد الانتصار للرأي، وإنَّ دين الله أوسع وأيسر من أن يتحكَّم فيه عقل فرد أو جماعة».

هذا أسلوبه: أساسه الحكمة والبراعة!!

وعندما يجيب على سؤالٍ ما يقول:

اعلم أيها الأخ ـ أمدَّك الله بروح منه، وأذاقك حلاوة معرفته، وأنار بصيرتك بنور هدايته ـ أنَّ الكلام على سؤالك هذا يستدعي أن أتكلَّم معك في عدة نقاط؛ أرجو أن نتفق فيها أولاً، وسترى بعد ذلك الجواب إن شاء الله، وإنما أقول ما علمت، وفوق كل ذي علم عليم، فما كان من حسنة فمن الله، وما كان من خطأ فالله نسأل ألاَّ يحرمنا من يبصِّرنا بأخطائنا، ومن يأخذ بيدنا إلى جادة الصواب.

وأحب أن يلاحظ إخواننا الأحباء أن يكون رائدهم في بحوثهم قياس كل شيء بالكتاب والسنَّة؛ من غير نظر إلى شهرة قائله والثقة براويه، فكم أفسد الدس علماً وضيَّع خيراً كثيراً. دعوا الجدل والمراء والتعصُّب والخلاف، فما

فتح بـاب الجدل على قـوم إلا ضلّوا، وما تمسـك قوم بالحب والإخاء إلا سادوا.

* * *

ثالثاً ـ الاطّلاع الواسع على المذاهب والنظريات والإيديولوجيات الجديدة أولاً بأول، وعرضها في ضوء الإسلام، وبيان مافيها من أوجه الخلاف والالتقاء مع الإسلام؛ إيماناً بأن الإسلام أصلح منها وأعمق وأكثر استيعاباً للنفس الإنسانية واستهدافاً لبناء المجتمع الصحيح.

ولقد عرض لمختلف مذاهب الديموقراطية والماركسية وكشف عن زيفها جميعاً، وتنبأ بأنها لن تستطيع الحياة والاستمرار في محيط البلاد الإسـلامية العميقة الصلة بالدين والأخلاق والقيم، وأن الإسلام قد شكل لها وجودها الحقيقي، فهي بدونه لن تكون شيئاً. وهو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيكشف عن زيف الذين حاولوا أن يكتبوا عن الإسلام وزعماء الإسلام من خلال مذاهب الغرب، في تلك المحاولة التي أرادت القديم البديل قبل إسقاط الأصيل حين قال لهم في وضوح:

أيها الكاتبون عن الإسلام ورسوله وتاريخه: هل أنتم مؤمنون بالإسلام حقيقةً نظام مجتمع ومنهج حياة!

ويقول: إن هناك بعض المخادعين ممن يحاول أن يجمع بين الفكرة المادية وبين الإسلام، متذرِّعاً بهذا الجانب من جوانب الإصلاح الاجتماعي في تعاليمه، وأن ينفذ بهذا الجمع إلى تحطيم هذا البناء الإسلامي الشامخ في نفوس المؤمنين به؛ لتحلَّ محلَّه هذه المادية القصيرة العاجزة الكليلة، ويجب

أن لا تجوز هذه الخدعة على المتيقظين ذوي الغيرة، ويجب أن تتحدد المقاصد والأهداف والاتجاهات طبقاً لتحديد الوسائل والغايات، وأن يتميز الحق من الباطل أمام أنظار الناس ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إن الإسلام قد وضع من قواعد الإصلاح الاجتماعي في شريعته ما يكفل للجميع مطالب الحياة المادية والعيش في طمأنينة وراحة واستقرار، فأسلموا لله وجوهكم أولاً، وأقيموا مجتمعكم على قواعد الإسلام تتحقق لكم مطالب الحياة المادية ثانياً، واحذروا أن تخدعكم عن ذلك الأوهام الزائلة والدعايات الباطلة.

* * *

رابعاً ـ مواجهة أعداء الإسلام، والكشف عن باطلهم وزيفهم، وتقديمهم للناس في صورتهم الصحيحة، دون خداع أو إيهام، وذلك في أسلوب رفيع.

ومن ذلك موقفه من الدكتور طه حسين حين أعلن في حفل أقامه له أتباعه من طلاب كلية الآداب بأنه نصير الإسلام، وقال: إنني أتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه كما أدافع عنه، وأن ينشره ويحببه للناس كما أنشره أنا وكما أحبب مبادئه للناس. فكتب له الأستاذ البنَّا قائلاً:

إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق، واعتبرنا أيها الداعية المسلم من جندك منذ الساعة، فإنا للإسلام نعيش، وله نحيا، وفي سبيل الدعوة إليه نموت شهداء.

صدقني يا دكتور طه من غير أن أقسم لك، وإن شئت فأنا أقسم على

هذا؛ إنني لأتمنى من كل قلبي مخلصاً أن أرى ذلك اليوم الذي تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم.

فإنك رجل جريء، لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون وأصدقاء مخلصون، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب، وما نحسدك على هذا ولكنا نتمنى أن يكون ذلك في ميزان الإسلام لا عليه وفي كفة الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر، فهل يجيء حقاً ذلك اليوم؟! أسألك يا دكتور مخلصاً لأطمئن، لا متحدياً لأتعنت.

إنَّ لك تلامذة قد اختصصت بهم واختصوا بك، فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه؛ فكان لساناً إسلامياً، أو قلماً إسلامياً، أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية، أو مظهراً من مظاهر التمسك بالإسلام؟!

وإنك قد ساهمت في خدمة كثير من القضايا الاجتماعية، وحضرت كثيراً من الأحفال والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه؛ ففي أيٍّ من هذه جميعاً نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه؟!

وأنت يا دكتور أستاذ في الجامعة المصرية منذ أنشئت، فأنشدك الحق: هل تذكر أنك عرضت في دروسك ومحاضراتك لطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومتانة تشريعه؛ هذا والمادة التي اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام؟!

ولا أحرجك فأقول ـ وأنشدك الحق يا دكتور ـ: أفتحيا أنت في حياتك اليومية نمط إسلامي، وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع، ودع البيت وما فيه، أفتقوم أنت في حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم؛ فضلاً عن الداعية الذي يتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه مثله؟!

ولا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه؛ فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولهما جميعاً، وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط؟!

وبعد يادكتور طه: فهل من الدعوة للإسلام لأن تعرض للنظر في القرآن بالأسلوب الذي اخترته لنفسك من قبل ـ ولعلك عَدَلت عنه من بعد، وهو ما أسرُّ له ـ حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمي بحت!!

وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة في شأن الكتابين الإنكليزيين، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا من حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلاميذك رأوا في هذا الكلام طعناً في مقدساتهم، فلجؤوا إليك بالطريق القانوني في هدوء وأدب؛ أوَمَا كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسرَّ لها ويعطف كل العطف على القائين بها؟!

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تنادي في صراحة لا تعدلها صراحة: أنه لا سبيل لنا إلى الرقي إلا إذا قلّدنا أوروبة، وسلكنا مسلك الأوروبيين، لنكون لهم شركاء في حضارتهم خيرها وشرها، حلوها ومرها، نافعها وضارها، ما يحب منها وما يكره، وما يمده منها وما يعاب، ومن زعم لك ذلك فهو خادع أو مخدوع!!.

ولعلك تقول كما قلت: إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام، وهذا حسن جميل، ولكن أفترى أن الإسلام لم يسلك بالمسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبة من ظلمات جهلها بمئات السنين؟ فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبة الناشئة المتخبطة،

ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان؟! .

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تخلط يا دكتور بين الفتيان والفتيات هذا الخلط في كلية الآداب، فتحذو حذوها غيرُها من الكليات، وتبوء أنت بإثم ذلك كله؟! .

وتزين للفتيات في صراحة هذا الاختلاط، وتحثهن عليه، وتدعوهن إليه! ولا تقل إن هذا من عمل غيرك، فيداك أوكتا وفوك نفخ، وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه في تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت!! .

ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك، ولكني أخالفك يا دكتور، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام، وقد رأينا وسنرى ما سيكون له من آثار!! .

هذه صحيفتك يا دكتور طه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، فهل لا تزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذي لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان، مصراً على أن يقيِّض الله للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه، ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل؟! .

على أننا على استعداد لأن ننسى الماضي جميعه، ونأخذ في جديد مثمر منتج على الأساس الذي وضعته أنت وارتضيناه نحن: أن تثبِّت في نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام، وأن تدافع عنه، وأن تنشر تعاليمه، وأن تحببه للناس. وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب الله كما تفسره اللغة العربية الواضحة، وسنة رسول الله ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون رضوان الله عليهم.

فهل يضع الدكتور طه في يدنا على هذا الأساس، ثم نعاهد الله جميعاً على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين في سبيله؟! .

وكلمة أخيرة يا دكتور: لقد قلت ـ وهو قول الحق ـ: إن حياتنا موقوتة، وكل ما فيها موقوت، وإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التي منحها لنا، وهي الحياة في أي لحظة، وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة.

ما أجمل هذا الإيمان!! أذكرك بهذه الكلمات، وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الآمال الخلّب، وصرت إلى الآخرة أقرب، وأسأل الله أن يطيل حياتك خادماً مخلصاً للإسلام، وإن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيراً من السيئات.

وإن الله تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم؛ فلا عليك يا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح، وتتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبيب تعاليمه بحق إلى الناس، فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ذلك ما نرجوه منك ولك، وقلوب الناس بيد الله، يصرفها كيف يشاء، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ذلك هو موقف حسن البنّا في مواجهة أهل الفكر: حكمة عالية، وسماحة خلق، مع بيان كل شيء حتى لا ينخدع الناس بكلام مزيف براق.

* * *

خامساً ـ الصدع بالحق والجهر بكلمته عند كل سلطان جائر:

ومن يطالع آثاره وكتاباته يجده قائماً بالحق، لا يتوقف عن أن يقول كلمته لكل حاكم، وأن يرد غيبة الإسلام في كل موقف.

«أيها الجالسون على كراسي الحكم: أما آن لكم أن تفقهوا بعدُ أن من استعز بغير الله ذل، وأنَّ الناس من خوف الذل في الذل، ومن خوف الفقر في الفقر، وأنَّ من حرص على الموت وهب الله له الحياة. فإذا أردتم القوّة الصحيحة فالتمسوها في طاعة الله وأداء فرائضه ومناصرة أحكامه، وتأييد المجاهدين في سبيل حماية أرض الإسلام ومقدسات الإسلام، ولا تتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين و ليجة. اصدقوا الله ساعة من نهار، وجربوا هذا الطريق، وثقوا أنكم الرابحون ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]».

* * *

ويرسل إلى أكبر رؤساء الأحزاب(١) في مصر يناقشه فيما جاء في تصريح له حين قال: أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك، ليس فقط بناحيته العسكرية، ولكن بعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة.

يقول: هذا التصريح ليس تصريحاً أجوف، وليس تصريحاً يصدر هكذا عن مجاملة أو غير روية سابقة وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب حين تتهيأ لها الظروف؛ وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير.

فأنتم تسجلون في هذا التصريح أن هناك شيئاً اسمه الدولة الحديثة، وهي التي فهمها كمال أتاتورك، وشكل على غرارها تركية، وتصرحون في كلامكم كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو.

---

(١) مصطفى النحاس.

ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية، فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنمو في الأحوال العالمية الحاضرة إلا إذا تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركية.

وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريدونه لهذا الوطن بعد الانتهاء من قضاياه الخارجية، ولست رجلاً من آحاد الناس، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم، وتلقى إليه مقاليد الأمة، واسمح لي أن أنبه إلى نقطة قد تكون خافية؛ وهي أن كمال أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده، وطرد منها الأجانب، وبث فيها روح العزة والكرامة، ووفر بها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات، وهذا جميل لا غبار عليه، وقد وصل إليه أتاتورك وهو مسلم يحمل السبحة ويتلو القرآن في المصحف، ويسجد لله على رمال الصحراء بين أعراب الأناضول ومسلميه، حتى إذا مكن الله له في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح بل وأضعافه لو ظلَّ متمسكاً بدينه وإسلامه، فلم يكن الإسلام حائلاً يوماً ما عن الوصول إلى المجد، والإلحاد والرقص والقبعة، وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر.

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن (الوفد) يعمل على سياسة إن لم تكن تناوئ الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه ولا تعنى بشأنه، ويسرّها أن تتخلص من تبعاته».

* * *

هذا النموذج يعطي صورة واضحة عن جرأة الرجل وأدبه في الكشف عن

زيف الاتجاه السياسي الذي كانت تعيش عليه الحزبية السياسية في البلاد العربية .

وفي مجال آخر يواجه الحكام في شأن الشريعة الإسلامية فيقول :

يا زعماء مصر وقادتها وأولي الرأي فيها! ما أعظم تبعتكم بين يدي الله وبين يدي الأجيال القادمة؛ إن ظلت الحالة على ماهي عليه الآن، إنكم ضيعتم بتفرقكم واشتغالكم بخصوماتكم هذه الفرص المواتية لهذا الشعب الذي ائتمنكم على مقدراته، فلم تحفظوا فيه حق أمانته .

طهروا أنفسكم من هذه الأدران، واطرحوا هذا الكبرياء الكاذب الذي يزينه لكم شيطان النفوس الجامحة، وفكروا في مصر، واعملوا لمصر، فإن فعلتم ذلك فهو حظكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة، وإن لم تفعلوا ـ ولا أقول الثانية ـ فسيحيق بكم سوء تفريطكم، وسنحاسبكم أشد الحساب على أعمالكم، وسيدمغ تاريخكم بأبشع تهمة لوث بها تاريخ إنسان، وسنسير في طريقنا، وسنحاول أن نعمل لهذا الشعب، ونسلك به مسالك الجهاد الصحيح في سبيل استكمال حريته واستعادة مجده؛ رضيتم بذلك أو وقفتم في سبيله، ولن يدفع أمر الله دافع، ولكنا نريد أن تكونوا معنا، فنختصر الطريق فهل أنتم فاعلون؟ .

* * *

ويواجه المسؤولين في صراحة فيقول :

إن الذين وضعوا الدستور المصري قالوا في المادة التاسعة والأربعين بعد المئة منه : «إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام» .

فالأمر لا يعدو أحد اثنين: إما أن يكونوا جادِّين في هذا الذي سجلوه على أنفسهم وعلى الدستور المصري، فيجب أن يكون محل احترام منهم، وأن يعملوا جاهدين حتى تحل النظم الإسلامية محل كلِّ نظام غير إسلامي في كل شيء: في الحكم، والقانون، والعادات، والمعاملات، كل مظاهر الحياة، وحينئذ يكون بحق دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ويكون الدستور المصري محترماً مصوناً، قد احترمه واضعوه، ونزلوا على حكمه.

وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون، ولا يؤمنون بما يكتبون، وهم بذلك يعبثون ويلهون، ويغشون الشعب ويخدعونه بمثل هذا النص الذي لا تحقق له في الخارج، وحينئذ يجب علينا معشر الدعاة أن نقوم إليهم وإلى هذا الشعب المخدوع بالنصيحة، فإن فعلوها فبها ونعمت، وإلا فنحن دائبون في جهادنا، عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفتنا، جادون في إيقاظ الفكرة الإسلامية القائمة في نفس المسلم الطيب القلب، حتى يعرف حقه، ويحرص على دينه ويملي إرادته على حكامه، فينزلون عليها، ولا يجدون مناصاً من تحقيقها، فيكون الدين الرسمي بذلك للدولة هو الإسلام.

فأي الموقفين يريد حماة الدستور وواضعوه أن يضعوا أنفسهم أمام الأمة؟

ذلك موقفنا من القرآن والدستور، وسيظل دائماً في المستقبل حتى تتحقق الغاية؛ فتتفق تعاليم الدستور مع تعاليم القرآن، وتكون تعاليم القرآن هي لب الدستور ومحوره، والحكم بيننا وبين الفقهاء، ليستمدوا الدستور من كتاب الله على أوسع حدوده ومدلولاته، وإنا لندعوهم إلى خطة سواء فهل يقبلون؟!

* * *

سادساً ـ إقرار أسلوب الإسلام في الجدل ومواجهة الباطل :

ومن ذلك حرصه على أن يكون للإسلاميين أسلوب يختلف عن أسلوب السياسيين والحزبيين، أسلوب مستمد من القرآن ومن آداب الإسلام، ويظهر ذلك واضحاً في خطابه إلى محرر النذير؛ يقول :

قرأت كلمة النذير؛ أبعث إليك عاتباً، فقد كنتُ أحبُّ أن تلتزم منهاجنا دائماً، وألا يزيدنا جهل الجاهل علينا إلا حلماً، وألا يخرجنا عدوان الناس عن خطة الأناة والتثبت والرفق .

من منهاجنا ألا نكشف من ستر عنا خصومته، فلعله يثوب إلى رشده، من قريب أو من بعيد، وألا نهاجم إلا من أبدى صفحته .

منهاجنا أن نتجافى ونبتعد دائماً عن هذه الألفاظ النابية التي لاكتها ألسنة الحزبيين وأقلامهم، وتداولوها فيما بينهم، ولا نجاريهم أبداً في مزالق ورَّطتهم فيها خصوماتهم الحزبية والشخصية، فهذه بضاعة لا تنفق في سوق الإخوان المسلمين ولا تروج في مجتمعاتهم، ولا يحسن أن تجري على ألسنتهم وأقلامهم .

ومن مناهجنا ألا يخرجنا العدوان عن موضوع النقاش والجدل والبحث، وألا نصور الحوادث إلا بصورتها من غير إغراق ولا مبالغة، فإنما نريد أن نقاوم في الناس شهوة الطغيان، ونرشدهم إلى النزول على حكم الحقائق، ومتى يصح طب الطبيب إذا جارى المرضى .

ومن منهاجنا يا أخي أن نعفَّ ألسنتنا وأقلامنا عن اللفظ المستكره، والكلمة النابية، والعبارة المبتذلة؛ إلى غير ذلك من الألفاظ المتخيرة والكلمات المهذبة

والعبارات القوية. وأوصيك بما أوصانا الله به: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

على أن الأمر لم يصل إلى الشنآن، وإنما هو جدل صحفي لغاية أنت تعرفها، فليكن شعارنا دائماً: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

إننا ربانيون نبويون، إن فخرنا بشيء فهو صلتنا برسول الله ﷺ، واستمدادنا من منهاجه، ومحاولتنا التمسك بسنته، ومتى صلحت مبادئ الزعماء إن لم يكن دعامتها وأساسها أقوال الأنبياء؟ وأي خير في سياسة لا تستمد من مشكاة الوحي وأنوار النبوة؟!».

* * *

سابعاً ـ فهم مهمة الداعية إلى الله فهماً صحيحاً:

يقول:

«أستطيع أن أتصور المجاهد شخصاً قد أعد عدته، وأخذ أهبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، دائم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً.

إذا دعي أجاب، وإن نودي لبى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه؛ وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وارادته.

تقرأ في قسمات وجهه، وترى في بريق عينيه، وتسمع في فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم به قلبه من جوًى لاصق وألم دفين، وما تفيض به نفسه

من عزيمة صادقة وهمة عالية وغاية بعيدة، وذلك شأن المجاهدين من الأفراد والأمم، فأنت ترى ذلك جلياً في الأمة التي أعدت نفسها للجهاد.

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهياً لاعباً، عابثاً ماجناً؛ فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب في عداد المجاهدين».

ذلك منهج الداعية حسن البنَّا، الذي عرفه وطبقه على نفسه، فهو ينادي شباب الإسلام والحائرين والمتعبين:

«أيها الحائرون في بيداء الحياة؛ إلى متى التيه والضلال وبيدكم المصباح المنير؟! ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ـ١٦].

أيها الحيارى والمتعبون الذين التبست عليهم المسالك فضلُّوا السبيل، وتنكبوا الطريق المستقيم، اجيبوا دعاء العليم الخبير: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤] وترقبوا بعد ذلك طمأنينة النفس وحسن الجزاء وراحة الضمير ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

أيها الأخ العاني المتعب الرازح تحت أعباء الخطايا والذنوب؛ إياك أعني، وإليك أوجه القول: إن باب ربك واسع فسيح غير محجوب، وبكاء العاصين أحب إلى الله من دعـاء الطائعين. جلسـة من جلسـات المفاجأة في السحر، قطرة من دموع الأسف والندم، وكلمة الاستغفار والإنابة يمحو الله بها زلتك، ويعلي درجتك، وتكون عنده من المقربين، وكل بني آدم خطاؤون وخير الخطّائين التوابون.

ما أقرب ربك إليك، وأنت لا تدرك قربه، وما أحبك إلى مولاك، وأنت لا تقدِّر حبه، ماأعظم رحمته بك، وأنت مع ذلك من الغافلين.

من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة، فالوقت هو الحياة، وحين تطوي عجلة الزمن عاماً من أعوام حياتنا، لنستقبل عاماً آخر، نقف على مفترق الطريق، ما أحوجنا في هذه اللحظة الفارقة أن نحاسب أنفسنا على الماضي وعلى المستقبل من قبل أن تأتي ساعة الحساب وإنها لآتية؛ على الماضي فنندم على الأخطاء، ونستقيل العثرات، ونقوِّم المعوج، ونستدرج ما فات وفي الأجل بقية، وفي الوقت فسحة لهذا الاستدراك. وعلى المستقبل فتعدّ له عدته من القلب النقي، والسريرة الطيبة، والعمل الصالح، والعزيمة الماضية السباقة إلى الخيرات.

والمؤمن أبداً بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه. فيأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت، فما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنـا خلق جديد وعلى عملك شـهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

* * *

ثامناً ـ التحرُّر من كل الارتباطات ما عدا الارتباط الإسلامي وحده:

كان من أبرز معالم حياة هذا الرجل حرصه إلى أن يكون ربانياً إسلامياً، بعيداً عن كل المغريات التي تريد أن تدفعه إلى اتجاه آخر، ولطالما قال للزعماء الذين كانوا يلتقون به من هنا وهناك إنه ورجاله ليسوا عصا في يد أحد، وإن ولاءهم إنما هو لله والقرآن.

كذلك أعرض حسن البنَّا عن الاتصال بأي هيئة عالمية أخرى، ومنها الماسونية، وقال: إنه ليس في حاجة إلى خيرها، إن كان فيها خير ففي الإسلام له غناء، وإنه ليس في حاجة إلى شرها لأن الإسلام الذي يؤمن به ويعمل له لا يحتاج إلى أساليب شريرة أو ملتوية لكي يسود، فهو من السمو والشمول والوضوح بحيث يقنع كل عقل راجح، ويرضي كل قلب سليم.

* * *

تاسعاً ـ النظرة المستقبلية:

كان دائماً ينظر إلى المستقبل ويضع الحقائق واضحة أمام أتباعه؛ حتى إنه يقول في نهاية رسالته (بين الأمس واليوم):

«وأردت بهذه الكلمات أن أضع فكرتكم أمام أنظاركم، فلعل ساعات عصيبة تنتظرنا يُحال فيها بيني وبينكم إلى حين، فلا أستطيع أن أتحدثَ معكم أو أكتبَ إليكم.

أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد؛ ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه

بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داوٍ يعلو مردداً دعوة الرسول ﷺ.

ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلّى عنه الناس. إذا قيل لكم إلامَ تدعون؟ فقولوا: ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه. فإن قيل لكم: هذه سياسة؛ فقولوا: هذا هو الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام. وإذا قيل لكم؛ أنتم دعاة ثورة؛ فقولوا: نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا، ووقفتم في طريق دعوتنا، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا، وكنتم أنتم الثائرين الظالمين. وإن قيل لكم: إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات؛ فقولوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنتم به مشركين. فإن لجوا في عدوانهم فقولوا: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين».

* * *

وانظر موقفه من العمل الإسلامي وقد بلغ الأربعين؛ إنه يراجع نفسه دائماً، و في نظره إلى الماضي اتجاه إلى المستقبل.

يقول في مذكراته:

«في هذه الليلة أبلغ من العمر أربعين عاماً هجرياً كما أخبرني والدي. والآن وأنا قائم بالدعوة إلى الله أجدني مقصراً فيما فعلت، فلا بد لي من الاهتمام بأورادي، ولا تشغلني مشاغل الدعوة عنها؛ ولا بدَّ لي من الإعداد والتحضير لحديث الثلاثاء ففي ذلك خير كبير. إن الله لن يفجع الناس فيك أيها المؤمن، محال أن يكون هذا، إن آمال الناس فيك هي ألسنة الخلق التي هي

كتاب الحق، ولن يخذلك الله أبداً، فما دمت على الإيمان وعلى الحق فأنت كريم على الله، عزيز عليه، فالله ولي الذين آمنوا.

أنت أيها المؤمن قد وهبت نفسك لله، ووقفت كل حياتك على دعوة الحق؛ فكل شعرة منك، وكل حاسة من حواسك، وكل ما أنعم الله به عليك من عضو أو موهبة كل هذا من نعم الله، فهو له، وينبغي أن يكون موقوفاً كله للجهاد ولدعوته، فعليك أن تحافظ عليه، لتصرفه في هذا السبيل وحده فليس لك في نفسك شيء».

وفي ظل هذا الاتجاه كشف الرجل الكريم هذا الجانب من نفسه حين قال:

«أنا ورقة بيضاء ناصعة البياض، أنا من ضوء محمد ﷺ، وعلى ضوء محمد أسير، وهذا سر ما يدركني من نجاح، فهو من توفيق الله وحده، لست عبقرياً كما تصورونى، ولست فذاً مفرداً في علم أو خبرة، فهذا البناء الضخم يساهم في بنائه كثيرون مجهولون لعلهم عند الله أكثر ثواباً مني، فأنا قد أخذت في الدنيا حظاً من شهرة ومعرفة حُرم منه هؤلاء!!

لقد أخذتُ من الدنيا نصيباً من الشهرة وإقبال الناس علي، وكان الصالحون من المتصوفة يعتبرون ظهور الكرامة على يد الولي نقصاً؛ وأنا أرجو أن يكرمني الله فيجعل هذه المظاهر كلها خالصة له ولدعوته، ويجعل ـ سبحانه ـ من هذا الإقبال أو الجاه نصراً لدعوته ولدينه.

إن توفيقي من الله، فالمجهود ليس لي وحدي، ولكنه مجهود جند الله المجهولين: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

على أن كل من اعتصم بحبل الله أدرك هذا النجاح وأدركه هذا التوفيق، وكل من سلك طريقة المدرسة المحمدية الهاشمية فقد وصل إلى هذه الغاية ولا محالة.

فالإسلام في ذاته معجزة، إنه معجزة للفكر ومعجزة للتاريخ، وأنا لا أصنع للناس شيئاً كيما أعجزهم، لا أصنع أكثر من أن أقدم لهم الإسلام الذي فهمته وآمنت به إيماناً عميقاً فلا أتحول عنه. فأنا أقدم لكل عقل ولكل فكر ولكل شخصية مهما كانت؛ أقدم لها ما يناسبها ويتناسب معها ولا أزيد على هذا.

وهذا التقديم أو هذه البضاعة هي المعجزة. هي التي تعجز الناس والعقول والأفهام؛ لأن الإسلام هكذا معجزة التاريخ والإنسانية. يأتيني الرجل العبقري ذو الفكر والعلم والمنصب والجاه فأقدم له الإسلام، فيعجزه (ويتيه) فيه، لأن الإسلام أكبر منه.

أوصي إخوتنا أن يتسلحوا بالإسلام ضد كل إنسان، مهما كان العبقري عبقرياً فالإسلام أكبر منه لأنه صنع الله ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فأنا لا أعجز الناس بشيء، ولكنه الإسلام.

وعملي في هذا كله هو الإيمان والاستلهام منه؛ مع الاعتزاز بالله والانتساب إليه تبارك وتعالى وهو دائماً الموفق.

أما أنا مع إخواني فتربطني بهم صلة الإخوة والحب في الله، أبادلهم هذا الحب كما يبادلونني إياه، فلا أشعر أنني ممتاز عليهم، وبيني وبينهم عهد الله وحدود الله، هي التي تحكمنا وهي قانوننا، ويعظمها ما بيننا من حب وثيق».

* * *

عاشراً ـ الإيمان بالموتة الطاهرة:

كان يقول دائماً: «أرجو أن يتم الله علي نعمته، فألقى الله وأنا على هذه الطهارة، وأن يرزقني الله أيضاً الموتـة الطاهرة التي طلبها أحد الصوفيـة في أدعيته، وأنا أرددها في أورادي، وهذه الموتة الطاهرة هي الشهادة».

وفي موقف مشهود وأمام مئات ممن كانوا يسمعونه تحدث عن الجهاد في سبيل الله ثم انتفض وقال:

«ألا تعجبون معي من إخواننا العبّاد الذين لا ينقطعون عن تلاوة دعاء الشيخ أبي الحسن الشاذلي في حزب البر، ويرددون من ذلك دائماً: «اللهم وارزقنا الموتة المطهرة» ماذا تُراهم يستحضرون من معنى الموتة المطهرة؟ ألا إن أطهر موتة يحبها الله هي هذه ـ ورفع يده فحز بها على رقبته ـ وكأنما والله قد مسَّت الناس كلّهم كهرباء، واستعلن أمامهم مشهد الفداء والذبح رأي العين، فسالت دموع، وثارت عواطف، وتعالت هتافات!!.

ولقد سجل هذا المعنى في مقال ذائع له تحت عنوان: (صناعة الموت): «الموت صناعة من الصناعات؛ من الناس من يحسنها فيعرف كيف يموت الموتة الكريمة، وكيف يختار لموتته الميدان الشريف والموقف المناسب، فيبيع القطرة من دمه بأغلى أثمانها، ويربح بها ربحاً أعظم من كل ما يتصور الناس، فيربح سعادة الحياة وثواب الآخرة، ولم ينقص من عمره ذرة، ولم يفقد من حياته يوماً واحداً، ولم يستعجل بذلك أجلاً قد حدده الله.

انجلى الصدأ عن المعدن النفيس، وبرزت النفس في ثوبها الحقيقي اللامع المجاهد، وتكشف الصدف عن لؤلؤه، وتمحص الذهب الخالص تحت نار

الضغط الأليم، وذهب فريق من أبطال المسلمين يحسنون من جديد صناعة الموت، ويطلبون عن طريقها حقهم في الحياة، وسرى هذا التيار في نفس الفئة المجاهدة القليلة في جوار الحرم المقدس إلى كثير من شباب الإسلام.

إن فلسطين هي خط الدفاع الأول، والضربة الأولى نصف المعركة، فالمجاهدون إنما يدافعون عن مستقبل بلادكم وأنفسكم وذراريكم؛ كما يدافعون عن أنفسهم وبلادهم وذراريهم، وليست قضية فلسطين قضية قطر شرقي ولا قضية الأمة العربية وحدها، ولكنها قضية الإسلام وأهل الإسلام جميعاً، ولا محل للتدليل على حقوق العرب فيها».

وقد صدق حسن البنَّا ربه، فكانت فلسطين هي المسرح الأول لجهاده، ومنها تجلت الصورة الباهرة التي كشفت عن نجاح تجربته، فقد قدم أبناؤه ورجاله أرواحهم خالصة طاهرة؛ على نحو أذهل القوى الغربية الاستعمارية التي أحست بمدى الخطر الذي سيحدث لو نجح هذا الإتجاه وهذا التيار، ومن ثمَّ قدم حسن البنَّا حياته وروحه مؤمناً بصناعة الموت وعلى النحو الذي رسمه وفهمه، فمات هذه الموتة الكريمة، بعد أن كشف للدنيا كلها أن كلمة الجهاد لم تمت في المسلمين، وإنما هي قادرة على الحياة والعمل، وأنها حين استجاشت بها النفس المؤمنة عادت من جديد لتثبت أن الإسلام قادر على بناء الأمم من جديد.

ودفع الرجل حياته ثمناً لإيمانه، ولكن بعد أن أقام بناءً لا ينقض، وأقام أمة مؤمنة بالإسلام كما تنزّل به القرآن.

● ● ●



الفَصْلُ الخَامِسَ عَشَر[1]

بَعْضُ مَا قِيلَ فِي الإِمَامِ الشَّهِيدِ

- الداعية العبقري : للسيد الأستاذ أبي الحسن الندوي .
- حسن البنّا وعبقرية النباء : للشيهد سيد قطب .
- حسن البنّا في رحاب الخلود : للدكتور مصطفى السباعي .
- الشيهد العظيم حسن البنّا : للحاج أمين الحسيني .
- حسن البنّا مرحلة حاسمة في تاريخ الفكر الإسلامي : للأستاذ عبد الحكيم عابدين .
- الأئمة في مختلف العهود كانوا أعلام دين وسياسية : للشيخ حسنين مخلوف .
- فكرة تحيا في رجل : للأستاذ البهي الخولي .
- الإمام الشهيد حسن البنّا كما عرفته : للأستاذ الشيخ محمد الحامد .

---

(١) هذا الفصل من إعداد الناشر .



الداعية العبقري[1]

للسيد الأستاذ أبي الحسن الندوي

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد:

كفى برهاناً على خلود الإسلام، وعلى أنه دين الله المختار، الذي صُنع ليعيش إلى آخر الزمن، وعلى خلود هذه الأمة، وعلى أنها هي الأمة الأخيرة، وعلى أنها مُنجبة منتجة، مورقة مزهرة، وعلى أنها كنانة الله التي لا تنفد سهامها، ولا تخطئ مرامها.

كفى برهاناً على كل ذلك وجود هؤلاء المصلحين والمجاهدين والعباقرة والنوابغ، والموهوبين والمؤيَّدين والمربين، وقادة الإصلاح الموفقين الذين ظهروا ونبغوا في أحوال غير مساعدة، وفي أجواء غير موافقة، بل في أزمنة مظلمة حالكة، وفي بيئات قاتلة فاتكة، وفي شعب أصيب بشلل الفكر، وخواء الروح، وخمود العاطفة، وضعف الإرادة، وخور العزيمة، وسقوط الهمة، ورخاوة الجسم، ورقة العيش وفساد الأخلاق والإخلاد إلى الراحة، والخضوع للقوة، واليأس من الإصلاح.

---

(١) كتبت هذه الكلمة في الأصل مقدمة لكتاب (مذكرات الدعوة والداعية) للإمام الشهيد، وقد نقلناها بشيء من التصرف.

إن لهؤلاء المجاهدين الدعاة المصلحين قائمة مشرِّفة يتجمَّل بها تاريخ الإصلاح والدعوة، ولا يخلو منهم زمان ومكان، وقد كان الإمام الشهيد حسن البنَّا من هذه الشخصيات التي هيأتها القدرة الإلـٰهية، وصنعتها التربية الربانية، وأبرزتها في أوانها ومكانها. وإن كل من يتعرف على سيرة هذا الرجل، وهو سليم الصدر، مجرد الفكرة، بعيداً عن العصبية والمكابرة يقتنع بأنه رجل موهوب مهيأ، وليس من سوانح الرجال ولا صنيعة بيئة أو مدرسة، ولا صنيعة تاريخ أو تقليد، ولا صنيعة اجتهاد ومحاولة وتكلف، ولا صنيعة تجربة وممارسة، إنما هو من صنائع التوفيق والحكمة الإلـٰهية، والعناية بهذا الدين وبهذه الأمة، والغرس الكريم الذي يُهيأ لأمر عظيم ولأمل عظيم، في زمن تشتد إليه حاجته، وفي بيئة تعظم فيها قيمته.

إن الذي عرف الشرق العربي الإسلامي في فجر القرن العشرين، وعرف مصر بصفة خاصة، وعرف ما أصيب به هذا الجزء الحساس الرئيسي من جسم العالم الإسلامي من ضعف في العقيدة والعاطفة، والأخلاق والاجتماع، والإرادة والعزم، والقلب والجسم، وعرف الرواسب التي تركها حكم المماليك وحكم الأتراك وحكم الأسرة الخديوية، وما زاد إليها الحكم الأجنبي الإنكليزي وما جلبته المدنية الأفرنجية المادية والتعليم العصري اللاديني، والسياسة الحزبية النفعية، وما زاد هذا الطين بلة من ضعف العلماء، وخضوعهم للمادة والسلطة، وتنازل أكثرهم عن منصب الإمامة والتوجيه، وانسحابهم عن ميدان الدعوة والإرشاد، والكفاح والجهاد، واستسلامهم (للأمر الواقع)، وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

زد على ذلك كله نشاط دعاة الفساد والهدم، والخلاعة والمجون،

والإلحاد والزندقة، وتزعم الصحف والمجلات الواسعة الانتشار القوية التأثير للدعوات المفسدة، والحركات الهدامة والاستخفاف بالدين وقيمه، والأخلاق وأسسها.

وماآل إليه الأمر ووصلت إليه الأقطار العربية بصفة عامة، والقطر المصري بصفة خاصة من التبذل والإسفاف، والضعف والانحطاط، والثورة والفوضى، والانهيار الخلقي والروحي في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي، ورأى كل ذلك مجسماً مصوراً في أعداد (الأهرام) و(المقطَّم) و(الهلال) و(المصوَّر)، وفي كتب كان يصدرها أدباء مصر وكتابها المفضلون المحببون عند الشباب، ورأى ذلك مجسماً مصوراً في أعياد مصر ومهرجاناتها، وحفلاتها وسهراتها، واستمع إلى الشباب الجامعي في نواديهم ومجالسهم، وزار الإسكندرية وشواطئها ومصائفها، ورافق فرق الكشافة والرياضة والمباراة، ودخل دور السينما، ورأى الأفلام الأجنبية والمحلية، واطَّلع على الروايات التي تصدرها المكتبة العربية في مصر بين حين وآخر، ويتهافت عليها الشباب بنهامة وجشع، وعاش متصلاً بالحياة والشعب، وتتبع الحوادث ولم يعش في برج عاجي، وفي عالم الأحلام والأوهام؛ عرف رزية الإسلام والمسلمين، ونكبة الدعوة الإسلامية في هذا الجزء الذي كان يجب أن يكون زعيماً للعالم العربي كله، وزعيماً للعالم الإسلامي عن طريقه، وقد بقي قروناً كنانة الإسلام ومصدر العلم والعرفان، وأسعف العالم العربي وأنجده بل أنقذه في فترات دقيقة عصيبة في التاريخ الإسلامي، ولا يزال يحتضن الأزهر الشريف أكبر مركز ثقافي إسلامي وأقدمه.

إن كل من عرف ذلك عن كثب لا عن كتب وعاش متصلاً به، عرف فضل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود، وفاجأت مصر ثم العالم العربي

والإسلامي كله بدعوتها وتربيتها وجهادها وقوّتها الفذّة؛ التي جمع الله فيها مواهب وطاقات قد تبدو متناقضة في عين كثير من علماء النفس والأخلاق، ومن المؤرخين والناقدين، هي: العقل الهائل النير، والفهم المشرق الواسع، والعاطفة القوية الجياشة، والقلب المبارك الفياض، والروح المشبوبة النضرة، واللسان الذرب البليغ، والزهد والقناعة ـ دون عنت ـ في الحياة الفردية، والحرص وبُعد الهمة ـ دونما كلل ـ في سبيل نشر الدعوة والمبدأ، والنفس الولوعة الطموح، والهمة السامقة الوثابة، والنظر النافذ البعيد، والإباء والغَيْرة على الدعوة، والتواضع في كل ما يخص النفس؛ تواضعاً يكاد يجمع على الشهادة عارفوه، حتى لكأنه ـ كما حدثنا كثير منهم ـ مثل رفيف الضياء: لا ثقل، ولا ظل، ولا غشاوة.

وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادة دينية اجتماعية، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادة دينية سياسية أقوى وأعمق تأثيراً وأكثر إنتاجاً منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلامية يندر أن تجد ـ في دنيا العرب خاصة ـ حركة أوسع نطاقاً وأعظم نشاطاً، وأكبر نفوذاً، وأعظم تغلغلاً في أحشاء المجتمع، وأكثر استحواذاً على النفوس منها.

وقد تجلَّت عبقرية الداعي مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها، في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلى القليل النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين:

أولاهما: شغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسية للدعاة والقادة الذين يُجري الله على أيديهم الخير الكثير.

والنـاحية الثانية: تأثيره العميق في نفـوس أصحابـه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج؛ فقد كان منشئ جيل، ومربي شـعب، وصاحب مدرسـة علمية فكريـة خلقية، وقد أثَّـر في ميول من اتصل بـه من المتعلمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي منـاهج تفكيرهم، وأسـاليب بيـانهم ولغتهم وخطابتهم تأثيراً بقي على مر السنين والأحداث، ولا يزال شعاراً وسمة يُعرفون بها على اختلاف المكان والزمان.

لقد فاتني أن أسعد بلقائه في مصر وفي غير مصر، فقد كان العام الأول الذي كتب الله لي فيـه الحج والزيارة، وخرجت من الهند لأول مرة وهـو عام ١٩٤٧م هو العام الذي تغيب فيه الشهيد عن الحجاز ولم يغادر مصر، وقد كان يحضر الموسم في غالب الأعوام، ويحرص على نشر دعوته والحديث إلى وفـود بيت الله الحرام، وعلى السـعي المجهد الحثيث في تـوثيق الصلات والعهود مع الوافدين من أنحاء عالم الإسلام كله.

بيدَ أني قابلت بعض تلاميذه ودعاته، فلمست فيهم آثار القائد العظيم والمربي الجليل، فلما قُدِّر لي أن أزور مصر سنة ١٩٥٠م؛ كانت رحمة الله قد أستأثرت به، ولما يجاوز عمره بعد الثانية والأربعين إثر حادث استشهاده الذي أدمى نفوس ملايين المسلمين وحرم العالم الإسلامي هذه الشخصية التاريخية الفريدة، ولا أزال أتحسر على هذه الخسارة التي كتبت لي، ولكني اتصلت بتلاميذه اتصالاً وثيقاً، وعشت فيهم كعضو من أعضاء أسرة واحدة، وزرت والده العظيم رحمه الله، واستقيت منه معلومات وأخباراً سجلتها في مذكراتي، وقـابلت زملاءه وأبنـاءه. واجتمع لنفسـي من كل هذه الآثار والأخبار ملامح الصورة العظيمة لصاحب هذه الدعوة ومؤسس هذه المدرسـة أنا واثق بأنها صورة صادقة مطابقة.

وفي تلك الرحلة وقع إلي كتابه (مذكرات الدعوة والداعية) فألفيته كتاباً أساسياً، ومفتاحاً رئيسياً لفهم دعوته وشخصيته، وفيه يجد القارئ منابع قوته ومصادر عظمته وأسباب نجاحه واستحواذه على النفوس، وهي:

سلامة الفطرة، وصفاء النفس، وإشراق الروح، والغَيْرة على الدين، والتحرق للإسلام، والتوجع من استشراء الفساد، والاتصال الوثيق بالله تعالى، والحرص على العبادة، وشحن (بطارية القلب) بالذكر والدعاء والاستغفار، والخلوة في الأسحار، والاتصال المباشر بالشعب وعامة الناس في مواضع اجتماعهم ومراكز شغلهم وهواياتهم، والتدرج ومراعاة الحكمة في الدعوة والتربية، والنشاط الدائم والعمل الدائب.

وهذه الخلال كلها هي أركان دعوة إسلامية ربانية، وحركة دينية تهدف إلى أن تحدث في المجتمع ثورة إصلاحية بنَّاءة، وتغير مجرى الحوادث والتاريخ.

أما بعد:

فقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الدعوة التي أعاد إلى الجيل الجديد في العالم العربي الثقة بصلاحية الإسلام وخلود رسالته، وأنشأت في نفوسهم وقلوبهم إيماناً جديداً، وقاومت (مركب النقص) في نفوسهم والهزيمة الداخلية التي لا هزيمة أشنع منها وأكبر خطراً، والميوعة وضعف النفوس والانسياق تحت ربقة الشهوات والطغيان، وخلقت ـ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ (في جسم الحمام الرخو الرقيق قلب الصقور والأسود) حتى استطاع هذا الجيل أن يصنع عجائب في الشجاعة والبسالة والاستقامة والثبات.

لقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الحركة وطمس معالمها،

وتعذيب جنودها، وتشـريد رجالها، جريمة لا يغتفرها التاريخ الإسـلامي، ومأساة لا ينساها العالم الإسلامي، وإساءة إلى العالم العربي لا تعدلها إساءة، ولاتكفِّر عنها أي خدمـة للبلاد، وأي اعتبار من الاعتبـارات السياسـية، إنها جريمة لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ التتار الوحوش ولا في تاريخ الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش في العالم المسيحي القديم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

حسن البنَّا وعبقرية البناء

للشهيد سيد قطب

في بعض الأحيان تبدو المصادفة العابرة كأنها قدر مقدور، وحكمة مدبرة في كتاب مسطور.. حسن(البنَّا).. إنها مجرد مصادفة أن يكون هذا لقبه.. ولكن من يقـول: إنها مصادفـة، والحقيقـة الكبرى لهذا الرجل هي البناء، وإحسان البناء، بل عبقرية البناء؟.

لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيراً من الدعاة، ولكن الدعاية غير البناء، وما كل داعية يملك أن يكون بنَّاء، وما كل بنَّاء يوهب هذه العبقرية الضخمة في البناء.

هذا البناء الضخم.. الإخـوان المسلمون.. إنه مظهر هذه العبقريـة الضخمة في بناء الجماعات. إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس، استجاش الداعية مشاعرهم ووجداناتهم، فالتفوا حول عقيدة.. إن عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم: من الأسرة، إلى الشعبة، إلى المنطقة، إلى المركز الإداري، إلى الهيئة التأسيسية، إلى مكتب الإرشاد.

هذه من ناحية الشكل الخارجي ـ وهو أقل مظاهر هذه العبقرية ـ ولكن البناء الداخلي لهذه الجماعة أدق وأحكم، وأكثر دلالة على عبقرية التنظيم والبناء. البناء الروحي. هذا النظام الذي يربط أفراد الأسرة وأفراد الكتيبة

وأفراد الشعبة. هذه الدراسات المشتركة، والصلوات المشتركة، والتوجيهات المشتركة، والرحلات المشتركة، والمعسكرات المشتركة.. وفي النهاية هذه الاستجابات المشتركة والمشاعر المشتركة، التي تجعل نظام الجماعة عقيدة تعمل في داخل النفس، قبل أن تكون تعليمات وأوامر ونظماً.

والعبقرية في استخدام طاقة الأفراد، طاقة المجموعات، في نشاط لا يدع في نفوسهم ولا يدعهم يتلفتون هنا أو هنالك يبحثون عما يملؤون به الفراغ. إنَّ مجرد استثارة الوجدان الديني لا يكفي، وإذا قصر الداعية همه على هذه الاستثارة، فإنه سينتهي بالشباب خاصة إلى نوع من الهوس الديني، الذي لايبني شيئاً. وإنَّ مجرد الدراسة العلمية للعقيدة لا تكفي؛ وإذا قصر الداعية همه على هذه الدراسة، فإنه سينتهي إلى تجفيف الينابيع الروحية التي تكسب هذه الدراسة ندواتها وحرارتها وخصوبتها. وإن مجرد استثارة الوجدان والدراسة معاً لا يستغرقان الطاقة، فستبقى هنالك طاقة عضلية، وطاقة عملية، وطاقة فطرية أخرى في الكسب والمتاع والشهرة والعمل والقتال.

وقد استطاع حسن البنّا أن يفكر في هذا كله، أو أن يُلهم هذا كله، فيجعل نشاط الأخ المسلم يمتد ـ وهو يعمل في نطاق الجماعة ـ إلى هذه المجالات كلها، ـ بحكم نظام الجماعة ذاته ـ وأن يستنفد الطاقات الفطرية كلها، في أثناء العمل للجماعة، وفي مجال بناء الجماعة... استطاع ذلك في نظام الكتائب، ونظام المعسكرات، ونظام الشركات الإخوانية، ونظام الدعاة، ونظام الفدائيين، الذي شهدت معارك فلسطين، ومعارك القنال نماذج من آثاره، تشهد بالعبقرية لذلك النظام.

وعبقرية البناء في تجمع الأنماط من النفوس، ومن العقليات، ومن

الأعمار، ومن البيئات . . تجميعها كلها في بناء واحد؛ كما تتجمع النغمات المختلفة في اللحن العبقري . . وطبعها كلها بطابع واحد يُعرفون به جميعاً، ودفعها كلها في اتجاه واحده، على تبـاين المشاعر والإدراكات والأعمـار والأوساط، في ربع قرن من الزمان.

ترى أكانت مصادفة عابرة أن يكون هذا لقبه؟ أم أنها الإرادة العليا التي تُنسق في كتابها المسطور بين أصغر المصادفات وأكبر المقدورات في توافق واتساق؟ .

ويمضي حسن البنَّا إلى جوار ربه، يمضي وقد استكمل البناء أسسه، يمضي فيكون استشهاده على النحو الذي أريد له: عملية جديدة من عمليات البناء . . عمليـة تعميق للإســاس، وتقوية للجدران. وما كانت ألف خطبـة وخطبة، ولا ألف رسالة للفقيد الشهيد لتلهب الدعوة في نفوس الإخوان، كما ألهبتها قطرات الدم الزكي المهراق . . .

إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة.

وحينما سلَّط الطغاة الأقزام الحديد والنار على الإخوان، كان الوقت قد فات، كان البناء الذي أسسه حسن البنَّا قد استطال على الهدم، وتعمق على الاجتثاث. كان قد استحال فكرة لا يهدمها الحديد والنار، فالحديد والنار لم يهدما فكرة في يوم من الأيام. واستعلت عبقرية البناء على الطغاة الأقزام، فذهب الطغيان، وبقي الإخوان.

ومرة بعد مرة، نزت في نفوس بعض الرجال ـ من الإخوان ـ نزوات . . وفي كل مرة سقط أصحاب هذه النزوات كما تسقط الورقة الجافة من الشجرة

الضخمة، أو انزوت تلك النزوة، ولم تستطع أن تحدث حدثاً في الصفوف.

ومرة بعد مرة، استمسك أعداء الإخوان بفرع من تلك الشجرة، يحسبونه عميقاً في كيانها، فإذا جذبوه إليهم جذبوا الشجرة، أو اقتلعوا الشجرة... حتى إذا آن أوان الشد خرج ذلك الفرع في أيديهم جافاً يابساً كالحطبة الناشفة، لا ماء فيه ولا ورق ولا ثمار!.

إنها عبقرية البناء، تمتد بعد ذهاب البنَّاء.

* * *

واليوم يواجه بناء الإخوان خليطاً مما واجهه في الماضي.. ولكنه اليوم أعمق أساساً، وأكثر استطالة وأشد قواماً.. اليوم هو عقيدة في النفس، وماض في التاريخ، وأمل في المستقبل ومذهب في الحياة.. ووراء ذلك كله إرادة الله التي لا تُغلب، ودم الشهيد الذي لا ينسى.

فمن كان يريد بهذا البناء سوءاً، فليذكر أن طغيان فاروق ـ ومن خلفه إنكلترة وأمريكة ـ لم يهدم منه حجراً، ولم يترك فيه ثغرة. إن المستقبل لهذه العقيدة التي يقوم عليها بناء الإخوان، وللنظام الاجتماعي الذي ينبثق من هذه العقيدة. وفي كل أرض إسلامية اليوم نداء بالعودة إلى الراية الواحدة، التي مزقها الاستعمار ذات يوم، ليسهل عليه ازدراد الوطن الإسلامي قطعة قطعة، وقد آن أن تتضامَّ هذه المزق، وتنتفض جسماً حياً كاملاً يمزق الاستعمار.

إن طبائع الأشياء تقتضي انتصار هذه الفكرة، فلقد انتهت موجة التفكك والتمزق، ولم تمت الفكرة الإسلامية في تلك الفترة المظلمة، فهيهات إذن أن تموت اليوم موجة اليقظة والانتفاض والإحياء.

ولقد اختلطت الفكرة الإسلامية ببناء الإخوان المسلمين، فلم يعد ممكناً أن يفصل بينهما التاريخ، ومن ثَمَّ لم يعد ممكناً أن يفصل بينهما أحد في اليوم أو الغد.

ولقد كان الاستعمار في الماضي يستخدم أجهزة للتخدير يلبسها ثوب الدين: استخدم رجال الطرق، واستخدم رجال الأزهر، كما استخدمها طغيان السراي.. أما اليوم فلم يعد ذلك ممكناً... إن الفكرة الإسلامية اليوم يمثلها بناء الإخوان تمثيلاً قوياً. فلا سبيل إلى التمويه بأي جهاز... والأزهر ذاته ـ وقد خضع للطغيان طويلاً وخضع للاستعمار ـ ها هو ذا أخذ في الانتفاض والتحرر، وهؤلاء طلابه وأساتذته، ينضمون جماعات وأفراد إلى صفوف الإخوان، المحضن الأول للفكرة الإسلامية كما ينبغي أن يكون.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

* * *

حسن البنَّا في رحاب الخلود

بقلم الدكتور مصطفى السباعي

ليس للعظمة مقياس خاص فقد يكون العظيم عالماً، أو فاتحاً، أو مخترعاً، أو مربياً روحياً، أو زعيماً سياسياً، ولكن أجدر العظماء بالخلود هم الذين يبنون الأمم، وينشؤون الأجيال، ويغيرون مجرى التاريخ.

وحسن البنَّا كان أحد هؤلاء الخالدين، بل هو - في رأيي - أبرز الخالدين في تاريخ الإسلام في القرن الرابع عشر، ليس لأنه كان عالماً أو خطيباً؛ ففي معاصريه من كانوا أكثر منه علماً، وأنصع بياناً، ولكن لأنه الرجل الذي بني دعوة، وأنشأ جيلاً، وهزَّ تاريخ مصر الحديث خاصة، والشرق العربي عامة، هزّاً عنيفاً ما تزال الأحداث تتأثر بمجراه.

وحسبك أن تعلم أن مؤرخاً ما لن يستطيع أن يؤرخ لمصر الحديثة، أو لقضية فلسطين، أو للقضية العربية عامة، أو لقضايا العالم الإسلامي، دون أن يترك فيه مكاناً لحسن البنَّا، ومهما اختلفت فيه آراء المؤرخين، فلن يختلفوا قط في أنه أبرز الشخصيات المصرية أو العربية أثراً في الحوادث التي ما زالت تتابع منذ أكثر من ربع قرن حتى الآن. . . وهذا وحده أبرز مظاهر الخلود لفقيدنا العظيم.

وإذا غمط الناس قدر هذا المصلح الكبير في عصرنا الحاضر، غمطوه قدره في حياته، وغمطوه قدره بعد استشهاده، فذلك شأن العظماء من

معاصريهم في كل زمان، ألم تر الشيخ محمد عبده كيف كان في حياته متهماً بالكفر والزندقة من علماء الأزهر، تجري الشائعات حوله في كل ناحية من نواحي شخصيته، لتبرز للناس بصورة غير محببة إليهم، فما انقضى على موته نحو من ثلاثين سنة حتى كان الأزهر ـ علماء وطلاباً ـ يحتفلون بذكراه، ويمجدون علمه ونبوغه وفضله؟.

وحسن البنَّا لم يمت عند كل الذين خاصموه وخاصمهم في حياته، بل لم تنقطع أسباب العداوة بينه وبين كثيرين من الذين وقفت دعوته في وجوههم، بل لا تزال الحرب قائمة بين دعوته وبين الذين لا يؤمنون بها، وبيد أكثرهم الملك والسلطان، والجاه والأموال، والصحف والإذعات، فكيف يرجى منهم أن ينصفوه، ولم يصلوا إلى لبانتهم من القضاء على دعوته؟!.

ولن يضير حسن البنا أن يغمطه الناس أو ذوو النفوذ منهم قدره، ويجحدوا فضله، فعظماء الإسلام في التاريخ القديم والحديث، لا يعملون أبداً ليعرف الناس أقدارهم، أو ليحيطوهم بالرعاية والثناء. إن الإسلام ليصوغ هؤلاء العظماء صياغة خاصة لا يعرفها التاريخ في غيرنا من الأمم، فهو يربيهم على الروحانية المشرقة، والإيمان العظيم، لا تنفصم عراهما، والوعي العجيب لحقائق الحياة وأسرار الوجود، والفناء الخالص في فكرتهم، والتضحية البالغة في سبيل أدائها، والحب الإنساني الرائع للناس، على اختلاف نزعاتهم.

ثم هم مع ذلك كله لا يرون إلا الله، ولا يرغبون إلا في ثوابه، ولا يخشون إلا من حسابه، ولا يطلبون الزلفى إلا عنده، ولا يرجون الأمن والكرامة إلا في رحابه، فلن يكون في نفوسهم متسع لشهوة الثناء، أو رغبة الجاه، أو الأمل بحب من تنزلهم المطامع والأهواء إلى دركات الحقد أو الغفلة أو الشقاء. هيهات أن يبعثهم على العمل في الحياة ما تفيض به الحياة من رغبات وشهوات،

فما هم إلا النور المرسل من السماء، ليكشف عن أهل الخلود ظلماتهم، ثم يظل في السماء دائماً وأبداً، ولن يختلط بتراب الأرض، إلا كما تقع أشعة الشمس على أعلى القصور وأدناها!.

وبعد: فكيف كان حسن البنَّا في واقعه الذي عاش فيه، ثم في عالمه الذي خلد فيه؟. إن مثل هذا الرجل العظيم لن تسع الصفحات القليلة للتحدث عنه، بل لن يكفي في تحليل شخصيته، وتعداد أعماله ومآثره كتاب محدود الصفحات، ولقد كتب السيد رشيد رضا رحمه الله عن الإمام محمد عبده ثلاثة مجلدات في تاريخ أعماله ومآثره، فإذا أراد مؤرخ أن يؤرخ لحسن البنَّا على ذلك النمط، كان الحديث عنه في بضعة مجلدات كبار، ولعل الدعوة الإسلامية تستطيع أن تقوم بهذا الواجب قبل أن ينقرض الجيل الذي رافق حسن البنَّا في جهاده، وأخذ عنه مبادئ دعوته، وعرف من دقائق حياته ما لا يعرفه إلا الأفراد القلائل، واطلع على أسرار حركته وجهاده ما لم يعرف منه إلا القليل النادر.

إن هذه أمانة في عنق أصحابه وتلاميذه، لن يطالبهم بها حسن البنَّا، بل ستطالبهم بها الأجيال المسلمة الآتية التي رفع لها الإمام الشهيد اللواء، ومهد لها الطريق، ورفع عنها القيود والأغلال.

ولقد قدّر لي أن أعرف حسن البنَّا في أواخر حياته، وأن أكون على مقربة منه في أيام محنته الأخيرة، ثم في أيام استشهاده، ثم قدر لي بعد ذلك أن أطوف في بعض أنحاء مصر، في مدنها وقراها، وفي ساحلها وداخلها، فوالله ما رأيت إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح، من حسن البنَّا رحمه الله!.

لقد كانت كل قوى الشر في الأرض تتحداه: الاستعمار، والملك

والباشوات، والأحزاب والأزهر، والفساد والانحلال، ثم جهل الجماهير بمصلحتها؛ لقد كان كل ذلك يتحداه ويقف في طريق إصلاحه ودعوته، ومشى كالطود لا يعبأ بالرياح، ولا يبالي بالمعاول، ولا يتراجع أمام العاصفة، وإن كـان ينحني لها حتى تـأخذ طريقها، ولا ينكص على عقبـه برغم كل تهديـد ووعيد، ولا يضعف إيمانه بالنصر، وإن أظلمت الدنيا من حوله، ولا ينهزم من المعركة مهما تكاثرت القوى وتألبت عليه.

وكان مع ذلك كله يتسع صدره لأعدائه كما يتسع لأصدقائه، لم يكن يكره أحداً من أعدائه كراهة حقد، فالرجل العظيم لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً، ولكنما يكره من أعدائه باطلهم وفسادهم وافتراءهم وتفننهم في الشر، وإضرارهم بمصالح الشعب، كما كان يكره في بعض أنصاره لجَاجهم وقلة تبصرهم، وتمردهم على الحق، وإيذاءهم للدعوة بسلوكهم وأخلاقهم. وهو مع ذلك يقول ما قاله الرسول ﷺ وهو جريح يوم أُحد: «اللهم أهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

وما زال بإعدائه نصحاً وإشفاقاً، وما زال أعداؤه به كيداً وتآمراً، حتى قتلوه في الظلام وحيداً أعزل، مجرداً من كل قوة وجاه وأنصار قتلوه وهم أقوياء وهو الضعيف، وهم الحاكمون وهو المطارد، وهم المسلحون وهو الأعزل، وقتلوه وهم الأشقياء وهو السعيد، ثم أصبحوا مطرودين من رحمة الشعب، وهو مغمور برحمة الله، وهم الآن مشتتون في ديار الغربة، وهو الآن في رحاب الخلود!...

رضي الله عنه، وأكرم مثواه، وأجزل مثوبته.

* * *

الشهيد العظيم حسن البنّا

بقلم سماحة مفتي فلسطين الأكبر
الحاج محمد أمين الحسيني

بينما كان الملاحدة ودعاة الإباحية ومروجو الفكرة الشعوبية يهاجمون الإسلام، وينشرون سمومهم وضلالاتهم في مختلف الأوساط في مصر والأقطار العربية وبخاصة بين طلبة الجامعات والمعاهد العليا؛ برز المرحوم الشيخ حسن البنّا في وسط الشعب المصري المؤمن كما تبرز الشمس من بين السحب الداكنة، داعياً أمته وبلاده والمسلمين جميعاً إلى العمل بالقرآن الكريم، وتطبيق أحكامه السامية وآدابه الرفيعة، والاستمساك بسنة النبي الأعظم ﷺ في كل شأن من شؤونهم الخاصة والعامة، وإلى تربية الشباب تربية إسلامية على أساس العقيدة الصحيحة والسلوك الفاضل الحميد.

وإليه يرجع الفضل في هداية الألوف الكثيرة من طلبة الجامعات والعمال والمزراعين وسواهم من طبقات الشعب، الذين انتفعوا به وبنشاطه واتجهوا في حياتهم العامة والخاصة اتجاهاً دينياً وخلقياً سديداً.

وقد عرفته للمرة الأولى من كتاب أرسله إلي عام ١٣٤٦هـ الموافق سنة ١٩٢٧م، ثم توالت أخبار نشاطه وجهوده النافعة لخدمة الإسلام.

وبعد وصولي إلى مصر عام ١٩٤٦م عرفته رحمه الله شخصياً، وسمعت

أحاديثه، وشعرت بصفاء روحه، وتوثقت الصلات بيننا؛ حتى عرفت حقيقة هذا الرجل العظيم الذي أنعم الله عليه بمزايا جليلة وخلالٍ كريمة جميلة قلّما اجتمعت في أحد.

ولقد كان من أبرز صفاته الإخلاص الشديد، والعقل الرشيد، والعزم القوي، يزين ذلك كله إيمان قوي، وأخلاق محمدية كريمة جميلة قلما اجتمعت لأحد؛ في علو همة، وإيثار وتضحية، وصبر وتقشف في الحياة، وعزوف عن مطامع الحياة المادية، وسيرة نقية طاهرة جعلت منه قدوة حسنة لكل من اتصل به وعرفه!!.

أضف إلى ذلك: نظرة سليمة، وذكاءً نافذاً، وألمعية باهرة، مع رزانة في التفكير، وبراعة في التنظيم، ودأب على العمل يضرب به المثل، ولقد زرته في بيته في (الحلمية الجديدة)؛ فاسترعى نظري ما علية البيت المتواضع من بساطة في أثاثه، وجميع حاله يدل على التقشف والقناعة!!.

* * *

كان ـ رحمه الله ـ يتوقد غَيْرة وحمية وحماسة ضد الاستعمار المعتدي على مصر وسواها من أقطار المسلمين والعرب، وكان يعمل بكل ما في وسعه لتحرير وادي النيل والبلاد العربية والوطن الإسلامي بكل أجزائه من كل استعمار أجنبي.

كما كان ـ رحمه الله ـ حريصاً على جمع كلمة المسلمين، وإعزاز أخوة الإسلام، وتوثيق الروابط فيما بينهم للتعاون على البر والتقوى، وتحقيق ما فيه رفعة شأنهم، وكان يرى أن وطنه هو الوطن الإسلامي الأكبر.

ولقد كان للشهيد الشيخ حسن البنَّا وأتباعه ومريديه في نصرة فلسطين والدفاع عنها جهود مشكورة وأعمال مبرورة، كلها مآثر ومفاخر، سجلها لهم تاريخ الجهاد الإسلامي بحروف من نور، وقد بذلوا على ثرى فلسطين مع إخوانهم المجاهدين من أبناء البلاد العربية والإسلامية دماء زكية ومهجاً غالية، واستشهد منهم عصبة كريمة كانت في الرعيل الأول من المجاهدين، الذين نفروا خفافاً وثقالاً لنجدة فلسطين، وساروا في الطريق الذي سلكه المجاهد الكبير الشهيد أحمد عبد العزيز وصحبه الأبطال الأحرار، وكان ثباتهم في مقارعة العدو ومقاومته واستماتتهم في صد عاديته مضرب المثل في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة، فكانوا كما قال الله تعالى في وصف عباده المؤمنين المجاهدين المخلصين: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لقد كان فَقْدُ الشهيد المرحوم الشيخ حسن البنَّا خسارة فادحة جداً على الإسلام والمسلمين، هيهات أن نجد عليها عزاء وعوضاً.

هيهات أن يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

فرحمة الله ورضوانه على هذا الشهيد الأعظم، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي عباده العلماء العاملين الصالحين المصلحين، وأحسن الله نزله في دار الخلد ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، وأَكرِمْ به من داعية إلى الله عاش عاملاً للإسلام، ومات في سبيله ميتة الأبرار الأطهار.

* * *

حسن البنَّا مرحلة حاسمة
في تاريخ الفكر الإسلامي

للأستاذ عبد الحكيم عابدين

لست في مقام الرثاء لشهيد الإسلام العظيم؛ حتى يتحسس القارئ من حديثي العاطفة الدفاقة والإفاضة اللائقة في الجلاء عن مواطن العظمة ـ وما أكثرها ـ في الجوانب المختلفة من حياة الإمام الشهيد رفع الله مقامه في عليِّين.

وإنما الذي أخذت به نفسي في هذا الحديث أن أصور النهضة العلمية، وإن شئت فقل التحول الفكري الذي أحدثه الإمام البنَّا في منهج التفكير الإسلامي، بعد أن استقام لي أن الرجل كان بحق مرحلة واضحة المعالم، بل مدرسة شاخصة الدعائم في سير التطور الذي سلكته الفكرة الإسلامية في أذهان المسلمين، وذلك ما أردت الإلمام بطرف منه في خيالي اليوم؛ أملاً أن تهيَّأ لي فيما بعد فرصة أوسع للإحاطة به والإفاضة فيه.

هذه الإسماعلية حيث بدأ المصلح ابن العشرين دعوته مسرحاً للتناحر بين الفرق الدينية على التعصب لمذاهب وآراء استحدثها القوم وتوارثوها جيلاً بعد جيل.

فهذا معسكر السلفية وهم أكثر من فرقة تختلف فيما بينها ولا تتفق واحدة منها مع أخرى من معسكر آخر.

وهذا معسكر الصوفية وشأنهم في ذلك أدعياء وصادقون.

وهذا معسكر العلماء وأشباه العلماء لا يرتاحون لأحد الفريقين ولا يرتاح إليهم الفريقان.

وعامة الشعب الإسماعيلي البريء قسمة بين هؤلاء، قد صبغ بالحزبية الدينية ـ طاعة لكبرائه ـ مرافق الحياة المختلفة من نواد ومجالس، ثم استجمع بأسه فحزَّب المساجد بيوت الله لا يصلّي فريق في مسجد فريق.

ما بال المسلمين في الإسماعيلية يتناكرون باسم الدين حتى يتقاسموا المساجد أحزاباً؟!

وما بال المسلمين في الشعب المصري تذهب بهم الفرقة المذهبية إلى حد التراشق بتهم الكفر والإلحاد؟!

وما بال العالم الإسلامي يمزق وحدته إعصار الخلاف الديني حتى يكون بعض أبنائه لبعض أعداء؟!

بل ما بال تاريخ الفكر الإسلامي وقد وفد إلينا في موكب من الصفاء والنضج والعبقرية لا يزال يسعى في أكنافه ضجيج من الجدل المفرِّق والخلاف الممزِّق؟!

أليس الإسلام قد هدف أول ما هدف إلى جمع الكلمة؟

أليس الحق تبارك وتعالى قد سجّل في قرآنه الخالد أن المؤمنين إخوة؟!

أليس الرسول صلوات الله عليه قد جعل عزة المسلمين في الائتلاف والوحدة؟

أليس أصحاب رسول الله ﷺ تناكرت آراؤهم في غير مسألة، فما شق لهم ذلك عصا، ولا أوهن بينهم مودة؟ ألم يحتكم بعض الصحابة إلى الرسول مفترقة أنظارهم في أكثر من أمر؛ فأثنى على كل وجهة نظر وصحح كل فرقة؟!

ألم تقرع أسماع المسلمين نذر الله ورسوله وهي تحذرهم مغبة التدابر والفرقة؟

ألم تكن للمختلفين على مسائل الدين في الأئمة الأربعة أسوةٌ حسنة؟

في ضوء هذه الأسئلة بل هذه الحيرة البالغة أفضى الداعية الأول إلى محرابه، ووقف متطلعاً إلى نفحات ربه، وانطلق ببصره في آفاق العصور الإسلامية منذ بلغ بها الخلاف هذه الحدة يتحسس الأسباب، ويتلمس الأسرار، ويهيِّئ الدواء ولم يطل به التيه حتى وضع يده على موطن العلة وهُدي في علاجها سواء السبيل.

ومن البداهة بمكان أن الداعية الشهيد قد اتخذ من صحبة القرآن الحكيم واستعراض عصر النبي الكريم الميزان الصادق في تقدير كل ما انتشر من المذاهب، ووزن كل ما تتابع من العصور.

أكدت له صحبة القرآن الخالصة الطويلة أنَّ وحدة الجماعة الإسلامية هدف أساسي لا يرضى القرآن بحال أن يضحى منه بمثقال ذرة في سبيل أي هدف آخر يمكن أن تحققه رسالة الإسلام.

وملأته دراسة العصر النبوي يقيناً بأن تحقيق هذه الوحدة لم يتعرض لشيء من الخطر بسبب ما توزع آراء المسلمين من خلاف في بعض مسائل الدين، وما أكثر ما تعرضت له آراء الصحابة من فرقة وخلاف.

كيف تلازم الأمران في عهد النبي صلوات الله عليه؛ فدامت الوحدة للجماعة مع ترك الحرية للآراء في أن تختلف على أية مسألة.

وكيف تناكر الأمران فيما تلا من عصور الإسلام فلم ينشط اختلاف الرأي إلا على حساب الوحدة واجتماع الكلمة.

من عرض هذه الأسئلة استطاع حسن البنَّا أن يكوِّن الرأي، ويضع أسباب العلاج الذي بدأ في تطبيقه بنفسه وبصفوة المؤمنين من أنصاره، فكان به حقاً مدرسة في تاريخ التفكير الإسلامي. لا يكفي القول بأنها جديدة ذات شخصيات واضحة وطابع متميز، حتى أدعي أنها مرحلة حاسمة في تسديد الفكر الإسلامي؛ بل ثورة من شأنها ـ حين يلتفت المسلمون جميعاً إليها ـ أن تقلب قواعد النظر في أمور الدين، وتنشئ أسلوباً جديداً لتناول الخلاف تستعصم به وحدة الجماعة الإسلامية من عوامل التدابر والفرقة أيما استعصام.

وعلى عشر دعائم ـ فيما وسعني استنباطه ـ أقام الداعية المؤمن مدرسته الفاضلة في توجيه الفكر الإسلامي، ونشَّأ عليها مئات الآلاف من تلاميذه، مستهدياً لا ريب بروح القرآن، مقتدياً في أمانة بنهج النبي عليه الصلاة والسلام.

الدعامة الأولى ـ دوام استهداف الوحدة:

عليك أيها المسلم حين ينأى بك الرأي في أمر عن رأي أخيك أن تذكر أن أمامك هدفاً لا يسوغ التخلي عن طلبه وهو الوحدة، وأنك محدود بحدود ينبغي ألا تتجاوزها، وهي الحرص على رابطة القلوب واجتماع الكلمة بين المسلمين. فإذا وقر هذا في نفسك ناقشت بقدر، وخالفت بحساب، ووقفت من دراسة الأمر مع صاحبك عند القدر الذي يمسك مكانته في قلبك ومكانتك في قلبه.

ومن واجبك أن تستحضر أبداً نذر القرآن والحديث: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، «لا تَخْتَلِفوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا».

الدعامة الثانية ـ الاجتماع على الأصول:

كل من قال: «لا إلـه إلا الله محمد رسول الله» يلتقي معك في ظل التوحيد، وتجمعه وإياك كلمة الإسلام، وتعصم دمه وماله وعرضه حرمة الأخوة في الله؛ فوطن نفسك على أن تشمل الوحدة التي هدف إليها القرآن كل من قال هذه الكلمة، ولا تَخُفنَّ وراء شهوة الجدل والانتصار إلى ادّعاء أن المخالف قد خرج من الملة وأفضى إلى الردة مهما يكن للأمر المختلف عليه من قيمة.

فقد اختلف أبو بكر وعمر في أسرى بدر وهو خلاف بلغ من خطره أن تحرك الوحي السماوي فرجح فيه وجهة غير التي أخذ بها الرسول ﷺ؛ فما تلاوم الرسول ﷺ وصاحباه قبل الوحي ولا بعده.

واختلف الأئمة في أهم أحكام العبادات كالجنابة وقراءة البسملة؛ خلافاً لو أطيع على إطلاقه لأبطل صلاة بعضهم وراء بعض، ومع ذلك لم يتبادلوا إلا التقدير والمحبة.

الدعامة الثالثة ـ اتهام النفس وإحسان الظن بالمخالف:

ليكن همك منصرفاً أول الأمر إلى اتهام نفسك وتزكية خصمك، واذكر أدب الشافعي رضي الله عنه إذ يقول ما معناه: «ما جادلتُ أحداً إلا تمنيتُ أن يظهر الله الحق على لسانه دوني».

ومتى أحسنت الظن بالمخالف الذي تجتمع معه على الأصول قربت منه نفسك وقرب منك رأيه، فاتبعته إن بدا لك في قوله الحق، وانصرفت عنه في الحالة الثانية وأنت تلتمس له العذر.

الدعامة الرابعة ـ أدب الإنكار والاختصام:

حدَّثوا أن الحسن والحسين في صباهما شاهدا شيخاً لا يحسن وضوءه، فأخذهما الحياء أن ينكرا عليه، فزعما له أن بينهما خلافاً على أيهما أحسن وضوءاً من الآخر، وأنهما ارتضياه حكماً، فتوضآ أمامه؛ فلم يلبث الرجل أن أدرك أن وضوءهما حسن، وأنه هو الذي لا يحسن الوضوء، ثم عاد فتوضأ.

إذا وجدت من نفسك سعة للإنكار بمثل هذا الأسلوب فما أجمله، فإن عزَّ عليك فكلمة طيبة ونصيحة رفيقة جديرة بأن تهدي إلى الحق وترشد إلى المعروف.

كن كذلك إذا اختصمت مع غيرك، فيلكن حرصك على إظهار حجته كحرصك على إظهار حجتك، وإذا خرج الحكم عليك فابتسم كما تفعل لو خرج الحكم لك ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨].

الدعامة الخامسة ـ تذميم الجدال والمكابرة:

لم يكن شيء أبغض إلى إمامنا الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ من الجدال والمكابرة، نفَّر منهما إخوانه ونشر الأحاديث الواردة بذمهما في لافتات ملأ بها دور الإخوان، وأوسعها شرحاً في الدروس والمحاضرات، وكان الأنموذج العملي لاجتناب الجدال في كافة شأنه مع من يحب ومن يكره على السواء. «ما ضَلَّ قَومٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْه إلاَّ أُوتُوا الجَدَل».

«أنَا زعيمٌ ببيتٍ في رَبض الجنَّة لِمَنْ تَركَ الجَدلَ وهُو مُخطئ، وببيتٍ في رَبضهمَا وفي أَعْلاهَا لِمَنْ تَركَ الجَدلَ وهُو مُحقّ».

الدعامة السادسة ـ جواز تعدد الصواب:

ولعل هـذه النقطة من أروع ما قـرع به أسـماع المسـلمين من هَـدْي رسول الله ﷺ، وإدراكُها من أبعد العوامل أثراً في الوقوف بخلاف الرأي عند حد التدارس والتفاهم لا التدابـر والتذام، إذ كان إلف النـاس على أنـك متى اقتنعت بالحق والصواب في رأيـك فلا مناص من الحكم بالخطـأ على من خالفك، ومن هنا كان ينشأ التعصب للرأي فينشىء الفرقة ويفصم المودة.

أما الداعية المجدد فقد قضى بجواز تعدد الصواب في بعض المسائل، بأن يكون فريقا الخلاف كل على رأي وكل رأي منهما صواب. وقد استمد هذا التوجيه فضلاً عن بساطته المنطقية من هدْي رسول الله ﷺ يوم رفع إليه أمر خلاف الصحابة في تطبيق قوله عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» أي الفريقين أصاب؟ أهذا الذي أخذ بحرفية الأمر، فأصر على مواصلة السير لبني قريظة ولو لم يصلِّ العصر إلا بعد الغروب، أم الذي أخذ بروح النص فاكتفى من تنفيذ الأمر بالإسراع في الخروج وآثر الصلاة لوقتها في الطريق؟ فإذا الرسول صلوات الله عليه يزكي الرأيين ويثني على الفريقين.

الدعامة السابعة ـ التعاون في المتفق عليه وتبادل العذر في المختلف فيه:

كان الإمام الشـهيد ـ رضوان الله عليـه ـ شـديد الاعتزاز بهذه القـاعدة الذهبيـة، دائم الدعوة إليها. ومـؤداها ألا جدوى من الوقـوف طويـلاً عند

المسائل التي لم يتيسر اجتماع الرأي فيها على وجه معين. مثل هذه المسائل يجب أن نؤثرها بالإرجاء، فلا نقتتل عليها، ولا يُنحي فريق باللائمة على مَن خالفه فيها، بل الهدي النبوي أن ننصرف عنها، وكل فريق يلتمس لصاحبه العذر إذا لم يقتنع برأيه، وأمامنا ميدان آخر يجمل بنا أن نجتمع عليه ونستغل قوانا متحدة للنهوض بتبعاته؛ ذلك هو ميدان المسائل المتفق عليها وما أكثرها وأولاها بالتقديم.

لا خلاف بين المسلمين في أن الخمر حرام، فلنجتمع على مناهضتها.

ولا خلاف بين المسلمين في أن الزنى حرام، فلنجتمع على إغلاق مواخيره.

ولا خلاف بين المسلمين أن القمار حرام، فلنجتمع على مصادرة نواديه.

ولا خلاف بين المسلمين على أن الحكم بالقرآن واجب، فلنجتمع على دعوة الحكام إليه.

ولا خلاف بين المسلمين في أن العزة حق للمسلمين، فلنجتمع على غرس إباء الاستعمار في نفوس المسلمين.

ولا خلاف بين المسلمين في أن الجهاد سبيل العزة، فلنجتمع على تنشئة الأمة الإسلامية على التربية العسكرية.

ومتى حشدنا قوانا متحدة في شغل هذه الميادين بدت لنا سائر مسائل الخلاف من النوافل الثانوية.

الدعامة الثامنة ـ استحضار خطر العدو المشترك:

ولقد كان الإمام البنّا عليه رضوان الله يعلم بداهة أن أعون شيء للجماعة

على أن تتحد؛ هو شخوص عدو ذي بأس أمامها تتحد جميع فرقها في خشيته والتعرض لشره.

من أجل ذلك كان دائم الحرص على تنبيه المسلمين فقهاء ومتصوفين إلى أن أمامهم عدواً مشتركاً، عدو الوطن وعدو الدين، لا يفرق في اعتباره بين سلفي وصوفي، ولا يتميز في منظاره سوري عن عراقي، وهو بالمرصاد لديننا بمذاهبه المختلفة لأنه غير مسلم، ولوطننا بأصقاعه المتباعدة لأنه فاتح ظالم. أليس من الإنقاذ لأنفسنا أن نطرح وراء ظهورنا كل خلاف لنتعاون على أخذ الأهبة لدفع هذا الخطر واتقاء ما يترتب عليه من بطش وعدوان.

الدعامة التاسعة ـ فتح آفاق العمل والانتاج:

يجمع كُتّاب السير على أن عمر رضي الله عنه حينما دفع بأصحابه إلى الفتح وأخرج المسلمين غُزَّى في فجاج الأرض، كان يرمي مع قصد الفتح إلى صرف المسلمين عن مجالس المناقشة والجدال؛ إيماناً منه بأن الرجل إذا فرغ من العمل التفت إلى الكلام، ومتى كان الكلام مشغلة الجماعة، كثرت فيها المذاهب، وتشعبت في المسألة الواحدة الآراء، ونجم عن ذلك ـ مع الغفلة عن كل القواعد السالفة ـ تَعَرُّضُ كيان الجماعة للاقتتال والانهيار.

وبهذا المغزى الرفيع أخذ الأستاذ البنَّا، فكان يخلق لتلاميذه ميادين العمل ويبتكر لهم من ضروب الواجب ما يجعل إلمامهم بالمناقشات وتناظرهم حتى في مسائل العلم أمراً يسيراً أو دون اليسير.

فعلى الأخ كل يوم فوق أعماله الخاصة أن يقرأ ورداً ولو قليلاً من القرآن، وأن يردد بعض المأثور من الدعاء، وأن يزور شعبته، وأن يجتمع مع مندوبي الشُّعب الأخرى في مركز جهاد، وأن يجتمع مع مندوبي مراكز الجهاد في مكتب

إداري، وأن يسعى غير مرة إلى المركز العام، وأن يسافر إلى بعض الأقاليم عند اقتضاء الأحوال، وأن يزور بيوت المنكوبين في الدعوة، وأن ينهض للخدمة العامة في كل ميدان. وأخيراً أن يجلس إلى نفسه لحظات قبل النوم ليحاسبها على عمل النهار.

فأي جانب بقي له من الوقت يستطيع أن يستجيب فيه لشهوة الجدال؟!

الدعامة العاشرة ـ الرثاء للضال لا الشماتة فيه ولا التشهير به:

وأخيراً نسجل أن هذه الظاهرة من أبرز خصائص المدرسة التي كوَّنها الإمام الشهيد عليه رضوان الله؛ ذلك بأن المخالفين في بعض المسائل يكونون من وضوح الهوى وسفور الانحراف بحيث تجد نفسك في حل من أن ترميهم بالضلال.

لقد كان شعور الإمام البنَّا حتى مع هذا النوع من المخالفين هو شعور الرثاء لا الشماتة والتشهير.

كان يوسع له فرصته للأوبة إلى الحق بكلامه العذب وإرشاده الرقيق، حتى إذا قام عنه المخالف لم تنجرح كبرياؤه، ولم يوغر بالغيظ صدره؛ وجد طريق الرجوع إلى الصواب معبداً أمامه، لا يصده عنه توهم هزيمة وخوف شماتة. وفي مثل هذا المقام كان يردد قول عمر رضي الله عنه: «هكذا لا تعينوا الشيطان على أخيكم، ولكن أعينوه على شيطانه».

ولو وسعتني السطور القليلة لقصصت عن تاريخ عشرات الشباب الذين اتصلوا بالإمام الشهيد رضوان الله عليه ما يؤكد جلال الثمرة التي حصَّلها للإسلام ودعوته من خطة الانصراف عن الجاحد الضال في حالة عطف ورثاء لا شماتة واستعلاء.

أيها القارئ الكريم . . هذه بالإجمال بعض قواعد المرحلة الحاسمة التي خلفها حسن البنَّا في تاريخ التفكير الإسلامي، فإذا قلت في أي كتاب سجلها وأي مؤلف أودعها؟ فاعلم أنه سجلها في أخلاق رجاله، وأنه أودعها روح أنصاره، دعوة بالكلام وقدوة بالسلوك، رأيت من أثرهما لا ريب أن دعاة الإخوان كانوا أبداً بمنأى عن إثارة المسائل الخلافية في محاضراتهم وأحاديثهم، وأن شباب الإخوان كانوا وما يزالون بحمد الله يفيضون بشعور الأخوة نحو كل مسلم، وأن معالم التعصب للمذهب إن ظهرت في كل ناد اختفت تماماً من نوادي الإخوان؛ فالناشئ منهم في أحضان التصوف يعانق الآخذ برأي السلف إذا أقبل عليه، والعالم النحرير من رجالهم يصلي وراء الشاب المطربش متى رآه في المحراب، وحامل اللحية والعذبة لا يجد حرجاً في أن يأتم بعاري الرأس متى سبقه إلى الصلاة، وهم جميعاً في إحساس بعضهم نحو بعض كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها .



الأئمة في مختلف العهود كانوا أعلام دين وسياسة

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف
مفتي الديار المصرية سابقاً

الشيخ حسن البنّا ـ أنزله الله منازل الأبرار ـ من أعظم الشخصيات الإسلامية في هذا العصر، بل هو الزعيم الإسلامي الذي جاهد في الله حق الجهاد، واتخذ لدعوة الحق منهاجاً صالحاً وسبيلاً واضحاً، استمده من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن روح التشريع الإسلامي، وقام بتنفيذه بحكمة وسداد وصبر وعزم، حتى انتشرت الدعوة الإسلامية في آفاق مصر وغيرها من بلاد الإسلام واستظلّ برايتها خلق كثير.

عرفته رحمه الله منذ سنين، وتوثقت الصداقة بيننا في اجتماعات هيئة وادي النيل العليا لإنقاذ فلسطين الجريحة، وتحدثنا كثيراً في حاضر المسلمين ومستقبل الإسلام، فكان قوي الأمل في مجد الإسلام وعزة المسلمين إذا اعتصموا بحبل القرآن الكريم المتين، واتبعوا هَدْي النبوة الحكيم، وعالجوا مشاكلهم الاجتماعية والسياسية وغيرها بما شرعه الله في دينه القويم.

ففي الإسلام من المبادئ السامية والتعاليم الحكيمة ما فيه شفاء من كل مرض وعلاج لكل داء وحل لكل مشكلة، وفيه من الأحكام مالو نُفِّذ، ومن الحدود والعقوبات مالو أقيم؛ لسعد الناس في كل زمان ومكان بالاستقرار

والاطمئنان، وعاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى يوم كانوا أعزاء أقوياء.

تلك لمحة من دعوته وهي عقيدة كل مسلم وأمل كل غيور على الإسلام؛ غير أن العلماء حبسوا هذا العلم الزاخر في الصدور، ولم يرددوه إلا في حلقات الدروس وفي زوايا الدور.

أما الشيخ البنَّا ـ رحمه الله ـ فقد أخذ على نفسه عهداً أن يرشد العامة إلى الحق، وينشر بين الناس هذه الدعوة، وينظم طرائقها ويعبد سُبُلَها، ويربي الناشئة تربية إسلامية تنزع من نفوسهم خواطر السوء وأخطار الهواجس، وتعرِّفهم بربهم وتدنيهم من دينهم الذي ارتضاه الله لهم، فكان له ماأراد، وتحمل في ذلك من المشاق والمتاعب مالا قِبَل باحتماله إلا للرجل الصبور والمؤمن الغيور الذي يبغي رضاء ربه بما يعمل، ويشعر بدافع نفسي قوي إلى إنقاذ أمته من شر وبيل وذل مقيم.

من الطبيعي وهذه دعوته أن يمس السياسة عن قرب، وأن يأخذ في علاج مختلف الشؤون على ضوء التعاليم القرآنية، وهنا يقول الأستاذ بحق ما نقوله نحن ويقوله كل من درس الإسلام وأحاط خبراً بالقرآن: إن الإسلام دين ودنيا وسياسة ودولة، والمسلم الحق هو الذي يعمل للدين والدنيا معاً. فقد جاء القرآن بالعقائد الحقة، وبالأحكام الراشدة في العبادات والمعاملات ونظم الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وجاء بالأوامر والنواهي وما يصونها من العقوبات والزواجر، وألزم المسلمين كافة العمل بها وإقامة الدولة على أساسها، فإذا دعا الشيخ حسن البنَّا إلى ذلك فقد دعا إلى مادعا إليه الله ورسوله، ودعا إليه الصحابة والتابعون وسائر الأئمة والفقهاء وزعماء الإسلام في كل زمان.

يعيب عليه بعض الناس أنه توغل في السياسة وقد نوّهت بالرد على ذلك في عدة أحاديث أذعتها في مناسبات شتى، فالسياسة الراشدة من صميم الدين، والصدارة فيها من حق العلماء، بل من واجبهم الذي لا يدفعهم عنه أحد، وما أصيب العلماء بالوهن والضعف وما استعلى عليهم الأدنون وتطاول عليهم الأرذلون إلا من يوم أن استكانوا الأولئك الذين يحاولون احتكار السياسة، ويستأثرون بالسلطان في الشعوب والأمم الإسلامية؛ قضاءً للباناتهم، واغتصاباً للحقوق.

وإذا صح فصل الدين عن السياسة أو بعبارة أخرى الحجر على رجال الدين في الاشتغال بسياسة الدولة ـ بالنسبة لسائر الأديان ـ فلا يصح بالنسبة للدين الإسلامي الحنيف، الذي امتاز على غيره بالتشريع الكفيل بسعادة الدين والدنيا معاً.

وقد كان الأئمة في مختلف عهود الإسلام أعلام دين وسياسة فما بال الناس اليوم ينكرون على علماء الإسلام أن يعنوا بشؤون الشعوب الإسلامية، ويغضبوا لكرامتها، ويجاهدوا لإعزازها، ورفع نير الاستعباد عن أعناقها، وتبصير الناس بما يموه به الاستعماريون من حِيَل ويدبرون من فتن ويدسّون من سموم.

وما الذي خوَّلهم حق احتكار السياسة والحكم؟!

إن من حق العلماء ـ وأعني بهم القائمين بالدعوة إلى الله لا خصوص حملة الشهادات العلمية الرسمية ـ أن يمثلوا في كل شؤون الدولة وخاصة في السلطة التشريعية، حتى لا يشرع في الدولة الإسلامية ما ينافي أحكام الإسلام، وأن يكون للتشريع الإسلامي الذي لهم به اختصاص الأثر الواضح في التشريع والتنفيذ.

إن الدعوة في جوهرها دعوة واضحة المعالم، والقلوب الموفقة قد انعطفت إليها، والشعب قد آمن بها. ومن إنكار الحقائق أن يزعم زاعم انصراف السواد الأعظم من الأمة عنها.

وكلما أمعنت السياسة في توهينها ازدادت قوة وذيوعاً، وأيقن الناس بما فيها من خير وصلاح. ومن الإخلاص لولاة الأمور الصدق في القول والأمانة في الأداء. فليعلموا أن الدعوة عقيدة استقرت في النفوس، وأن مقاومة الساسة لها ولدعاتها لايزيدها إلا ثباتاً ورسوخاً، وأن من الراسخ في العقائد أن اليهود ومن ورائهم الدولة الغاصبة والدول الاستعمارية هم الذين يكيدون لها، ويبذلون كل ما في استطاعتهم لاستئصالها؛ ولكن هيهات مايريدون.

وبعد: فإنا نسأل الله تبارك وتعالى للمسلمين خيراً عميماً، ورشداً مبيناً، وتوفيقاً سديداً لكل من يدعو إلى خير ورشاد. ورحمة واسعة للأستاذ العظيم.

* * *

فكرة تحيا في رجل...

للأستاذ البهي الخولي

طيف من النور ألمَّ بهذه الدنيا إلمام الغريب الطارئ، أو الضيف العابر، ثم تركها ومضى.

ماذا يأخذ الطيف من الدنيا، أو ماذا يجمع لنفسه منها؟ لا شيء!. وماذا يترك الطيف في هذه الدنيا حين يلم بها قدسياً من عالم القدس، نورانياً من عالم النور؟.. إنه يترك كل شيء حين يترك للضمائر نورها، وللنفوس قدسها وطهرها!!

وهكذا كان حسن البنَّا، لم يأخذ لنفسه شيئاً، وقد ترك للناس كل شيء!

* * *

هبط حسن البنَّا هذه الدنيا وموجة المادية تطغى على عقول الناس وقلوبهم ونفوسهم، مادية الفكر، والعاطفة، والشهوة، ولقد قضينا نحن شطراً من شبابنا في هذه الموجة، فكنا نظن فضائل الإسلام ومُثُله العليا أموراً نظرية لا شأن لها بواقع الحياة، كل حظ الناس منها ترديد عباراتها ـ إن رددوها ـ كما تردد عبارات الشعر والأدب الجميل..

كان الناس يحيون في غمار الموجة المادية حين قام حسن البنَّا في

إشراق هالة أخرى لها مبادئها ومُثُلها العليا؛ هالة الفكرة الإسلامية، يحيا فيها بقلبه، ويحيا فيها بعقله، ويحيا فيها بنفسه، ويحيا فيها بوجدانه، وشعوره وعصبه.. فكانت مبادئها عنده هي الحق، وما سواها الباطل، وكانت مُثلها هي النواميس العملية الأصيلة، وما سواها وهم خادع وسراب لا معول عليه، وكانت زهرة الحياة الدنيا تتضاءل وتتقلص أمام عينه إلى جانب ما يفيض عليه في هالة من سعادة رزق الله. فكان زهده في دنيا المادة لا يعدله إلا زهد أهل المادة فيما لديه من مثل شريفة، ولقد عرضت الدنيا نفسها عليه وجاءته خاطبة، وواتته الظروف، ولكن هيهات أن تروج هذه الأوهام في نفس مشغولة زاخرة بالحقائق النفسية العليا.

جاءه من يعرض عليه منصباً في فجر الدعوة سنة ١٩٣٢م ليلين عن بعض واجبه في منصب الداعي إلى الله... وكانت نظر رثاء وإشفاق وتبكيت، ذابت لها شخصية الداعي هواناً ودحوراً وخجلاً.. ولو أنه أجاب ما عُرض عليه، لكان لبنيه اليوم من جَدِّ المنصب ونعمته مايحسدهم عليه الكثيرون.

وعرض عليه الإنكليز ذهبهم الوهاج في مستهل الحرب العالمية الماضية، ألوفاً وعشرات الألوف، من ورائها خزائن طوع أمره، ورهن إشارته، ولكن الرجل المتواضع السهل السمح أذل بكبريائه القاسية من جاءه يساومه في مثله وكرامته.. ونكس القوم على رؤوسهم مدركين أن الذهب والفضة لا يعالجان مثل هذا، وأن لابد من معالجته بما يحسم أمره، ويخفت صوته إلى الأبد.. ولو أنه ألان لهم الجانب لما كشف أحد سره، ولما تعرض لنقمة الناقمين، وغيظ الحاقدين، وكان لبنيه اليوم من الضياع والعمائر ما يسلكهم في أرباب الثروة الطائلة.

نعم، وهذه شركات الإخوان المسلمين يعمل في مجالس إدارتها

جميعاً، فتعرض عليه المرتبات السخية، والمكافآت المجزية، ولكنه يريد أن يكون مأجوراً من الله لا من الناس، فيجعل عمله في هذه الشركات حسبةً له سبحانه، ولأول مرة نرى في عالم الشركات والاقتصاد هذا المثل الفذ الفريد.

كان حسن البنَّا فكرة قوية هائلة، والفكرة لا تبغي مالاً، ولا تسعى لعرض زائل، لذا رأيناه يحيا بيننا حياة الطيف الخفيف، يلم الدنيا على هوادة، لا يجمع منها ولا يمنع، ولا يهتم لشيء فيها إلا بمقدار، ولا يصيب منها إلا ما تدعو إليه الضرورة، يأكل ما حضر من الطعام، ويلبس ما تيسر من اللباس، ويتخذ ماقل وكفى من السكن، ويعيش عيشة الكفاف، ولا يهمه أن يترك بنيه لله ولا شيء معهم، وكل قرة عينه وبهجة نفسه أن ينادي في الناس بكلمة الله، ويعلن إليهم مافي صدره من الأسرار، وأن يرى فضائل فكرته ومُثُلها العليا حقائق واقعة، وصوراً عملية تسعى في حياة الناس على قدمين، وتزحم بمناكبها العريضة كل ما يعترضها من باطل وتنضر وجه الدنيا بإبائها وعفتها.. فإذا بلغ من ذلك ما أراد رضيت الفكرة في نفسه، وبسمت في قرارة فؤاده بسمة لها من سنا وجه الله نعيم ونور وغبطة.

ولقد كان الناس قبل حسن البنَّا يقرؤون نصوص الدين ويستمعون لمواعظه، فلا يكاد يعلق بنفوسهم منها شيء؛ فلما جاء بعث الراكد، وحرك الهامد، وأثار الأشواق، وعلق همم العاملين بالأفق الأعلى.. ولم يأت حسن البنَّا بعلم جديد، ولم يكن حسن البنَّا بأعلم العلماء، إنما كان شأنه وشأن غيره أنّ الغير يعرض الفكرة الإسلامية ما استطاع، أما هو فكان الفكرة الإسلامية تعرض نفسها حية سافرة، تعرض نفسها على لسانه بياناً جزلاً مفصلاً، وتعرض نفسها في لهجة صوته خشوعاً وحنيناً وروحاً غريباً تطمئن به القلوب، وتعرض نفسها على ملامح وجهه قوة ناطقة بما يشاء، وتعرض نفسها في نور عينيه

نظرات نافذة ملهمة، تلهم القلوب والنفوس جميعاً، فإذا نور جديد يشرق في جوانب النفس، وحياة جديدة تنشر ميت القلوب، وإذا الناس إزاء الإسلام الحي الخالد كأنهم إزاء محدث جديد، وأمر تربو به نفوسهم لا عهد لهم به.

جاء حسن البنَّا والإسلام قد درست معالمه، إذ هان عند أكثر الناس، فهو عندهم صلاة ركعات، وصيام أوقات، وطقوس تؤدى في زوايا المساجد وغير المساجد.. جاء والإباحية تهدد كل ما بقي لنا من فضيلة، والنفوس هامدة ميتة، قد استنامت للغاصب في أحضان دعة ذليلة فاترة، قانعةً من جهادها بما لا يخرجها عن الدعة، ولا يكلفها إلا العافية من كل بلاء.. جاء والشباب لا يرى في الإسلام إلا مجموعة بالية من الأفكار المتخلفة عن ركب الحضارة، والحكام ينبذون تشريع السماء ويستمدون لنا الصلاح من تشريعات الأجانب، والاستعمار يبارك كل هذه المفاسد ويملي لها أن تذهب إلى آخر مدى. وليست العبرة هنا أنه نجح في عرض ملامح الإسلام كاملة، فإذا هو دين ودولة، وصلاة وجهاد، وروحانية ومادة، وعقيدة وشريعة، وتصرف وعمل.

ليست العبرة في ذلك ولا في أنه نجح عملياً في إعداد كتائب الغزاة الذين خرجوا من أرض الوطن للجهاد في سبيل الله لأول مرة في تاريخ الإسلام الحديث.. ولا في أنه حبب إلى الشباب ما في الإسلام من نظم تقدمية للمجتمع الراقي.. لا، ولا في أنه دفع التشريع الإسلامي إلى بيئات القانون والتشريع حتى استطاع أن يوجد له في داخلها أنصاراً وأعواناً، وفي خارجها رأياً عاماً ينادي به، ويدعو إليه.. ليست العبرة في هذا كله ولا في أنه غزا ميدان الاقتصاد باسم الإسلام، فنجح في إنشاء الشركات التجارية، والمؤسسات الصناعية.. ليست العبرة في هذا ولا في غيره مما لا نطيل بذكره، إنما لبّ العبرة نستخلصه من بين شقي الرحا.. رحا الصراع الهائل الذي نشب بينه وبين القوى المختلفة، أو بينه

وبين عوامل الجهل والخمول والطغيان والهوى.

دعا إلى الجهاد والقوة، وأنحى بالائمة على أولئك الذين ضيعوا تلك الفريضة المقدسة، فذعر الاستعمار ـ وحق له أن يذعر ـ ونشط إلى دسائسه يحيك منها ما يحيك، وهب الحكام يقولون فوضى وثورة على القانون، ومضى الذين لا يعجبهم عجب، ينقون كالضفادع في جهالة وسخف: ما لنا وللجهاد، كان الجهاد أيام النبي والخلفاء، وأين نحن من تلك الأيام؟.

ونشط الداعي إلى عدالة الإسلام يندد بجشع الرأسمالية، وظلم أولئك الذين يستحلون من جهود الضعفاء ما ليس لهم بحق، فقالوا شيوعي مدمر يدعو إلى إفساد ما بين الطبقات.

ولم يطق المسلم الحي أن يغزوه الإلحاد الشيوعي في عقر داره، فانبرى لمنازلته في قوة وإيمان، فقالوا: فاشية تنزع إلى الديكتاتورية والتعصب.

وأعلنت الفكرة الإسلامية حق الوطن في الجلاء ووحدة الوادي، وأبت إلا أن تقول للمحسن أحسنت، وللمسيء استقم على أمر الله، فكانت الطامة العارمة، والقيامة التي لم تهدأ ثائرة الأحزاب منها، ماللدين يتدخل في السياسة، وما للسياسة تمتزج بالدين.. وهبت معارضة الجهلة من العوام ناعية على أولئك الذين أفسدوا الدين بالسياسة، وأقحموا السياسة في صميم الدين.. ورمي الرجل من أجل ذلك بعداوة المعادين، وبغض الناقمين، ودسائس الكائدين. ورمي بكل مساءة في خلقه، ودينه وعرضه، وقيل: إنه مأجور، وإنه مرتش، وذهبت الأراجيف تتحدث عن عشرات الألوف التي قبضها، والسيارات التي حازها، وأسهم الشركات التي اقتناها من الدجل باسم الدين. وأخيراً لم يكفهم أن ينالوا من الرجل كل هذا فقتلوه في نذالة وضِعة،

ليخلف أبناءه في شقة بالية مهدمة، كان يدفع عن سكنه فيها مئة وثمانين قرشاً عن كل شهر، وتتقلص عشرات الألوف أو مئاتها عن صبية صغار يخلفهم في هذه الدنيا لا ماء ولا شجر.

ثارت لعدائه هذه القوى جميعاً، فكانت أمامه دسائس الاستعمار، وأمامه جبروت الحكام، وأمامه الرأسمالية الظالمة، والشيوعية الملحدة الهادمة، وحقد الحزبية الجامحة، وجهل بعض العامة حين يندفعون إلى معارضة مالا يعلمون، وأمامه كيد اليهود وغير اليهود من كل ناقم ومغيظ، فلو أن حسن البنَّا كـان رجلاً يعتنق فكرة، لأشـفق على نفسـه بعض ما يؤلب عليه هذه القوى التماساً لشيء من العافية في وقت يلتمس فيه دعاة الجهاد المزيف كل العافية.

لو أن حسن البنَّا كان رجلاً يعتنق فكرة لاتخذ لنفسه مسلك السلامة بين هذه القوى، ولكنه رجل سلكته فكرة، وفاضت على عقله، وقلبه، وعزيمته، وعصبه، وسخرته لمشيئتها. . كان شحنة هائلة من روحانية الإسلام، فكان عليه أن يبلغ بقدر الله كل ما أمامـه من بينات، وآفـات ومحيطات، وما كان يملك أن ينازل بعض أعدائه ويهادن بعضاً. . ما كان يسعه في دين الله حين نازل الرأسمالية أن يترك إلحاد الشيوعيين يسرح ويمرح في أنحاء البلاد انتظاراً لفراغه من معركة الرأسمالية!! كلا، وما كان يسعه في هذا الدين أن يترك فلسطين تقع غنيمة للطغيان الصهيوني اعتذاراً بأنه لا يستطيع أن يحارب في ثلاث جبهات!! إنَّ شيئاً ما كان يسعه بل ما كان يملكه، لأن الرجل كان فكرة، والفكرة وحدة متماسكة الأجزاء، إذا أسفرت شمسها الرائعة، أسفرت بكل عناصرها مرة واحدة على كل البيئات والأنحاء. وهذا هو لب العبرة في جهد هذا الإمام.

وبعد: فهل نجح حسن البنّا في رسالته؟

سؤال يختلف في الإجابة عنه كثير من الناس:

فمن قال إنه نجح، نظر إلى منشآته التي أقامها، وتشكيلاته التي بناها، ومن قال غير ذلك، أيد قوله بأن الشيوعية لا تزال قائمة، وأن فلسطين أفلتت من يد العرب، وأن الغاصب لا يزال جاثماً على صدورنا، وأن، وأن.

وكلا الفريقين محجوب عن حقيقة هذا الإمام العظيم، فليست العبرة أنه نجح في تكوين شركات، وتأليف هيئات وجماعات، فما أهون أن تصطنع المظاهر الكاذبة.. وليست العبرة كذلك أنه انتصر على القوى التي نازلها أو لم ينتصر، وإنما العبرة بالسر الكامن وراء ذلك كله، فقد كان حسن البنّا طاقة ضخمة من الحياة أراد لها أن يجدد بها المجتمع، ويطلق سرها في الأفق الهامد الراكد، وبدون هذا السر ما أرخص الزعماء والأدعياء، وبدون هذا السر لا تقوم رسالة، ولا يطرأ على الأفق شيء جديد..

ولقد أسلفنا فيما مضى إشارة إلى القوى التي قامت تناهض المرشد وتنابزه، وما تلك القوى إلا جراثيم الشر والفساد أفزعها ما بدأ يدب في الجسم المريض العفن من مدد الحياة الجديدة، ودفقات البرء والصحة.

نعم لقد بدأت الحياة تدب في الجسم الهامد مباركة باسم الله زاكية. فذعرت جراثيم العفن، وتقلقلت الخلايا الميتة، وجزع ما كان يعيش عليه من حشرات سامة خبيثة. ولكن لن ينفع الجزع شيئاً، فقد تغلغلت الحياة في أطوائه، نامية متجددة، وتوالت عليه رجفات النشور بالخلايا الجديدة تطهر العفن، وتطرد مافوقها من قشور بالية.. وبين رجفات النشور، وصيحات الاستنكار والذعر، انقدح في الأفق كهرباء التطور الجديد.. وسكب حسن

البنّا آخر دفقة من حياته مع آخر نبضة من قلبه.

فمن أراد أن يعرف حسن البنّا فليوفر على نفسه استقصاء منشآته، وتشكيلاته، ومؤلفاته وتوجيهاته؛ وليذكر أن براعم الجيل الجديد كانت تنفتح يوم مقتله على حقبة تعج بأخبار المعتقلات، وأنباء السجون، وأرواح الشهداء، وأحاديث الملاحم، ودوي القنابل، وزلزلة المحنة، وبلاء المؤمنين.. ليذكر أن براعم الجيل الجديد كانت ولا تزال تتفتح على جو مكهرب مشحون بسيول قوية دافقة.. ليذكر هذا الجو الذي أتيح لهذه البراعم، والجو الرخو الناعس الذي تفتحت فيه براعم جيلنا الماضي، فإنه مدرك أي مس تنشقته البراعم الناشئة وأي طراز جديد من الرجال سيحتل الميدان في المستقبل العتيد.

ذلكم الجو المشبع بالقوة والأمل والعزم هو غذاء أعصاب الجيل الجديد، وهو رسالة الحياة التي أداها حسن البنّا لهذا المجتمع في مدى عشرين عاماً من دم قلبه، وعصارة روحه، حتى إذا كان يوم اغتياله اقشعر الأفق برجفة عنيفة إذ سرت في ضميره آخر شحنة من كهرباء تلك الحياة المباركة.

وقال الناس يومئذٍ؛ مات حسن البنّا.. وقال قدر الله: لا، فهو حي في أتباعه، وهو حي أكثر من ذلك في تلك البراعم التي لم يرها ولم تره.

لم يمت حسن البنّا وإنما انطلقت مبادئه من إطارها الذي ألزمته حيناً، وتحررت الفكرة الإسلامية من نطاق اللحم والدم، لتواصل أمرها في آخرين.. انطلقت الفكرة من قلب واحد لتربو من جديد في قلوب هيأها الله لها على قدر.. أما الإطار الطاهر والجسم العزيز فقد رد إلى أهله، ليخرج من هذه الدنيا متواضعاً يسير المظهر، كما دخلها متواضعاً يسير المظهر، وكما عاش فيها كذلك.

وساهمت الحكومة المتحضرة في هذا التواضع واليسر، فحرمت على

المشيعين أن يقربوه، ورأى الناس يومئذٍ عجباً في الجنازات؛ رأوا نعشاً يحمل لأول مرة في تاريخ البشر على أعناق النساء، وفي مقدمتهن فتاة قوية صبور تهتف بأبيها: قرَّ عيناً يا أبتاه، فلن نتخلف عن رسالتك، وليهنك قدومك على الله مقدم الشهداء.. ولئن منعت الحكومة من يشيع جثمانك - واأسفاه لنذالة الحكام - فحسبنا عزاءً وجزاءً أن أرواح الشهداء تمشي معنا، وتشيع عن أهل السماء ما عجز عن تشييعه أهل الأرض!!

وفي وحشة الشارع المقفر من الغادي والرائح، إلا من هذه الجنازة المتمهلة الفريدة، ارتجت المنازل على الجانبين، وأُجهشت النوافذ والشرفات بالبكاء، وهم يرون حسن البنَّا العظيم، يحمل على كتف زوجته وابنته إلى مقره الأخير!!.

* * *

الإمام الشهيد حسن البنَّا كما عرفته

للأستاذ الشيخ محمد الحامد

أحمد الله سبحانه وتعالى وأصلي على حضرة نبيه الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه وذريته ومن دعا بدعوته.

قيل لي: اكتب في الإمام الشهيد أغدق الله عليه شآبيب رحمته، وزاده قرباً منه في أهل خاصته، فقلت: وما الذي يكتبه عاجز مثلي ضعيف الجنان والبيان في عظيم قد استجمع العظمة، فما من جانب من جوانبها إلا وهو فيها طود أشم، أو روض زاهر، أو خضم زاخر، أعجز الناس سبقاً في خصوصياتهم، فبزَّ الفقهاء في دقة النظر وصحة التصوير، والأدباء في حسن البيان وجمال التعبير، والخطباء في النفوذ إلى الأرواح وملئها تأثراً بما يريد، والمتوسمين في صدق الفراسة وجودة النظر، والمفكرين في سعة أفق التفكير، فلا ضيق عطن، ولا وعورة فكر، بل حل للمستعصيات وفتح للمغلقات، في سهولة ممتنعة تخال قريبة وهي عن غيره بعيدة.

ومن عجب أن تجد في الملتفين حوله عناصر شأنها التنافر في غير مَهْيعة، وأن تحمل صدورها العداء والكره، لكنه جمعها على دعوة طيبة ملأتهم ألفة ومودة عميقة أطاحت بالافتراق وأطارت الخلاف.

عزيمة ماضية، وهمة شماء، ودأب متصل، ويدٌ في العلم موغلة، لم

يقف في سيره العلمي على ما يحمل من عبء، لو تسلط بعضه على كبار المحصِّلين لصرفهم عن العلم مستأثراً بهممهم وعزائمهم.

هذا كله وأكثر منه، قد اجتمع له خلق كريم، واتساع للإخوان بشتى طرائقهم وخلائقهم، ولله ذلك اللقاء الذي كان يلقانا به وتلك البسمات العذبة والمفاكهات الحلوة والداعبات اللطيفة (للشيخ الحموي كاتب هذه السطور) التي تغرق الإخوان في فيض من السرور. على أنه في شغل بعمله الجاد عن أن يلتفت إلى هذه المطايبات، ولكنه الكمال حتى في هذا الوجه منه.

كنت أرى في الصادقين من إخوانه انصباغاً بصبغته، كالذي يكون في المريد الصادق مع شيخه الكامل، قولاً وحركةً وإشارة، وكان يظهر لي هذا جلياً في خواص أتباعه. ثم عرفت بعد أن البنَّا من أرباب القلوب ذوي السير إلى الله سبحانه، المربين بالروح بله اللسان؛ قضى أمداً من عمره سالكاً طريق المجاهدة والتصفية، قاطعاً مراحلها حتى بلغ غاية رفيعة، وقعد مقعداً عالياً، فهو من أهل الذكر والفكر ومن القوم الذين عقلوا عن الله ورضوا به مستسلمين أحكامه.

كانت عيناه تكتحلان بالدموع حباً لله سبحانه، وشوقاً إليه حين انفراده به، ويتمنى فراغ ليلة يقضيها في ذكر الله وسماع ما يحرك الهمة، ويسوق الروح إليه سبحانه، وكان يقول لي: يا شيخ يا حموي أتريد أن تبعث فينا أشواقنا الأولى وجراحنا القديمة؟ يعني بها ما يكابده السالك الذكر في بدايته من وجد، وما يغشاه من حال ووارد.

وحين أجمعت العود إلى بلادي إثر انتهاء تحصيلي في الجامعة الأزهرية، حمَّلني تحية إلى سيدي ومرشدي العارف بالله تعالى الأستاذ الشيخ

محمد أبي النصر النقشبندي قدس الله سره، حملني التحية إليه، وأن أبلغه عنه أنه قد بايعه بيعة روحية، وكنت حدثته عن بعض فضائله ومناقبه، فانتسب إليه على بعد الدار وشط المزار، وإنها الأرواح واختلاطها، فلا بعد بينها ولا حصر لدائرة اقترابها:

لا تقل دارها بشرقيِّ نجدٍ كـلُّ نجـد للعـامـريـة دارُ

ثم صار بعد يراسله ويكاتبه متواضعاً له، ملتمساً بركات روحه وتوجيهات قلبه الكريم وصالح دائه؛ رحمهما الله وقدس أسرارهما وألحقنا بهما صالحين. آمين.

وليس عجيباً منه هذا التواضع الكريم؛ فقد كان أبرز صفات الإمام الشهيد، وكم كنا نختلف ـ أنا وهو ـ في أمور فرعية علناً في مجامع الإخوان فيرجع إلى الصواب علناً حين يراه غير مستكبر. وقد يمتدَّ الخلاف إلى أن أحاول إقناعه كتابياً فيقتنع، ثم يأبى إلا إعلان رجوعه عما كان يرى ليلة الأربعاء ليلة المحاضرة العامة قائلاً: نتنازع علانية ثم نصطلح سراً، أي لا بد من الاصطلاح علناً وجهرة.

وعلى ذكر ليلة الأربعاء كنت أقول له: إنها ليلة الفيوضات، لما يفيض الله على قلبه من عرفان، وعلى لسانه من بيان، وعلينا نحن المستمعين له من نشوة وفرح!!!.

وقد كنت أعتنقه أحياناً حين ينتهي من محاضرته أمام الإخوان، وهذا اجتراء مني عليه، ولكنه الحب في الله يذيب الأخطاء، ويمحق الأسواء، ويخلط الروح بالروح. و(ذنب المحب مع الأحباب مغفورُ).

وبعد:

فإن حزني على أخي وحبيبي وسيدي الإمام الشهيد حسن البنَّا لم يسكن وقد تنقضي سنون بل حياتي كلها ولا أنساه[1]، وكم أنا مشتاق إلى وقفة على قبره الشريف أناجيه عن قرب، وأبثه أشواقي وأشجاني عن كثب، فإن للقرب معناه عند المحبين.

أسأل الله الشهادة التي نالها أخي (حسن) في سبيله، مقبلاً غير مدبر، وكأني بها كائنة إن شاء الله فنجتمع غير مفترقين؛ آمين.

وقد رأيت فيما يرى النائم ما يدل على قبوله رحمه الله ورضي عنه، رأيتني وإياه وبعض الإخوان جالسين إلى مائدة فيها خبز طيب، وأطباق من

---

(١) وصدق - والله - الشيخ محمد الحامد فيما قال، فقد جلسنا إليه في أخريات عمره وفي مرض وفاته، وكنا بضعة أشخاص، فسألته أن يحدّثنا عن الإمام البنا، فانفجر يبكي بصوتٍ عالٍ فور إلقاء سؤالي، وقال لي: لا تسألني عن هذا الرجل الآن.

ثم لما هدأت نفسه بعد وقت حدَّثنا ببعض حديثه، وكان مما قاله:

«إني أقولها كلمةً حرّةً ولا بأس بروايتها عني، أقول:

إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين؛ في مجموع الصفات التي تحلّى بها، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف. لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبّرين، وحنكة السائسين.

لا أنكر هذا كلّه عليهم من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمّع لهذه المتفرّقات من الكمالات، قلّما ظفر به أحد كالإمام الشهيد». (الناشر)

الريحان الجميل جداً؛ وحين استيقظت من نومي تذكرت قول الله سبحانه وتعالـى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الواقعة: ٨٨ـ٨٩].

● ● ●

الفصل السادس عشر

مَراحِلُ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ

١ ـ وقائع حياته .

٢ ـ عصره .

٣ ـ شخصيته وشمائله .

٤ ـ رحله وعمله .

٥ ـ التفسير القرآني .

٦ ـ الدعوة إلى الله .

٧ ـ مقال مجلة الفتح .

٨ ـ توجيه الدعوة .



الفَصْلُ السَّادِسُ عَشَر

مَرَاحِلُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

١ ـ وقائع حياته:

وُلِدَ الأستاذ حسن البنَّا رضوان الله عليه عام ١٩٠٦م (وهو العام نفسه الذي رحل فيه الإمام الشيخ محمد عبده) في بيتِ علمٍ وفضلٍ، أمضى مطلع حياته بين حلقات الذكر وحلقات العلم، كان والدُه الشيخ أحمد عبد الرحمن ساعاتياً ومحدِّثاً، يُعنى بتراث الإمام أحمد بن حنبل، يراجعُه يعدّه للنشر في صورةٍ عصريةٍ، فتعلَّم الصناعتين، فقد كان يفخر بأنَّه يُحسنُ صناعتين، صناعة إصلاح الساعات، وصناعة تجليد الكتب.

وفي هذا الجوِّ العلمي العبق بالحديث النبوي، كانت أيامه الأولى، وهو يمضي إلى الكتّاب في (المحمودية) ليحفظ القرآن الكريم قبل المدرسة الإعدادية ومدرسة المعلمين الأولية بدمنهور.

ثم كانت رحلتُه إلى (القاهرة) لدخول مدرسة (دار العلوم)، حيث أمضى في الأزهر الشريف أسبوعاً واحداً، معتكفاً يستذكر موادّ الامتحان فيما بين الكشف الطبي، وامتحان القبول لدار العلوم عام (١٩٢٣م)، حتى أتمَّ الدراسة في الحادية والعشرين عام (١٩٢٧م) حيثُ عُيِّنَ مدرّساً بمدرسة (الإسماعيلية)

بالدرجة السادسة بمرتب (١٥) جنيهاً مصرياً، وتسلّم عمله يوم ٢٠ سبتمبر (١٩٢٧م).

وفي مجتمع الإسماعيلية نبتت الدعوة الإسلامية التي حمل لواءها الإمام حسن البنَّا، وبها تشكل أول تكوين لجماعة الإخوان، حتى استُشهد في ١٢ فبراير ١٩٤٩م، بعد أن أمضى أكثر من عشرين عاماً مجاهداً في سبيل إرساء قواعدِ الفكرة الإسلامية منتقلاً بها إلى الجماعة، ثم إلى الهيئة الإسلامية العالمية.

* * *

حياةٌ وقائعها قليلةٌ ويسيرة، ولكنّها عريضةٌ حافلةٌ من حيث إنها عاشت عصراً خطيراً، وشهدت أحداثاً جساماً، تشكّلَ وجودُها منذ اللحظة الأولى على تحقيق هدفٍ خطير بالغ الأهمية، وهو تصحيحُ مفهوم الإسلام أساساً، والعمل على جمع الناس عليه.

قد يكون شهوده لثورة ١٩١٩م وهو في سِنّ الثالثة عشرة عاملاً حرّك لديه الحسَّ الوطني إزاء الاحتلال البريطاني، غير أنَّ الحدث الخطير الذي يمكن أن يكون بمثابة قاعدة الانطلاق الحقة، هو سقوط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م، وما أُثيرَ حولَ ذلك من قضايا تمسّ الشعورَ الإسلامي في أعماقِ نفسٍ طُلَعةٍ، مثل نفسيّة حسن البنَّا، وخاصةً حملة التبشير التي وُجّهت إلى مصر عام ١٩٢٧م.

يقول: طالعتُ كثيراً، وجربت كثيراً، وخالطت أوساطاً كثيرة، وشهدت حوادث عدة، فخرجتُ من هذه السياحة القصيرة المدى، الطويلة المراحل، بعقيدةٍ ثابتةٍ لا تزول، هي أنَّ (السعادة) التي ينشدها الناس جميعاً إنما تفيضُ

عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تـأتيهم من خارج هذه القلوب أبداً، وإنّ القرآن الكريم يؤيّد هذا المعنى ويوضّحه، وذلك قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

اعتقدتُ هذا، واعتقدتُ إلى جانبه أنَّه ليست هناك نُظُمٌ ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفوس البشرية، وتهدي الناسَ إلى الطرق العملية الواضحة لهذه السعادة كتعاليم الإسلام الحنيف.

ولهذا وقفتُ نفسي منذ نشأتُ على غايةٍ واحدةٍ هي إرشادُ الناس إلى الإسلام حقيقةً وعملاً. ولهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين إسلامية بحتة في غايتها وفي وسائلها، لا تتصل بغير الإسلام في شيءٍ.

لقد ظلّت هذه الخواطر حديثاً نفسانياً، ومناجاةً روحية أتحدّثُ بها في نفسي لنفسي، وقد أفضي بها إلى كثيرٌ ممَّنْ حولي، وقد تظهرُ في شكل دعوةٍ فرديةٍ، أو خطابةٍ وَعْظيةٍ، أو درسٍ في المساجد، إذا سنحت فرصةُ التدريس، أو حثٌّ بعض الأصدقاء من العلماء على بذل الهمّة ومضاعفةِ الجهود في إنقاذ الناس وإرشادهم إلى ما في الإسلام من خير.

ثم كانت في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي حوادثُ عدة، ألهبتْ نفسي، وأهاجت كوامِنَ الشجن في قلبي، ولفتت نظري إلى وجوب الجِدِّ والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس.

وقد أخذتُ أفاتِحُ كثيراً من كبار القوم في وجوبِ النهوضِ والعمل، وسلوكِ طريق الجدِّ والتكوين، فكنتُ أجدُ التثبيطَ أحياناً، والتشجيع أحياناً، والتريّث أحياناً، ولكني لم أجد ما أريدُ من الاهتمام بتنظيم الجهود العملية، ومن الوفاء أن أذكرَ في هذا المقام، المرحوم (أحمد باشا تيمور) أفسحَ الله له في

جنته فما رأيتُه مرةً إلا مثالاً للهمّة المتوثّبة، والغَيْرة المتوقدة.

ولّيتُ وجهي شطر الأصدقاء والإخوان، ممَّن جمعني وإياهم عهد الطلب، وصدق الود، والشعور بالواجب، فوجدتُ استعداداً حسناً، وكان عهدٌ وكان موثقٌ أن يعمل كلٌّ منّا لهذه الغاية، حتى يتحوّل العرفُ العام في الأمة إلى وجهةٍ إسلامية صالحة. ولا يعلمُ إلاَّ الله، كم من الليالي كنّا نقضيها نستعرضُ حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلّل العلل والأدواء، ونفكّر في العلاج وحَسْمِ الداء، نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة والخليون هاجعون يتسكعون في المقاهي، ويترددون على أندية الفساد والإتلاف، كنّا نعجب لهؤلاء الناس، وكثيرٌ منهم من المثقفين، ومَنْ هم أولى منا بحمل هذا العبء، ولهذا وأمثاله نعمل، ولإصلاح هذا الفساد وقفنا أنفسنا، فنتعزى، ونحمد الله على أنْ جعلنا من الداعين إليه، العاملين لدينه.

وفي (الإسماعيلية) أيها الأخوان! وُضِعتْ أولُ نواةٍ تكوينية للفكرة، وظهرت أول هيئة متواضعة نعمل لها ونحمل لواءها، ونعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها تحت اسم (الإخوان المسلمين)، وكان ذلك في ذي القعدة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م.

وكان الرعيل الأول في الإسماعيلية: عبد الرحمن محمد حسب الله، أحمد الخضري، زكي المغربي، حافظ عبد الحميد، إسماعيل نمر، فؤاد إبراهيم.

٢ ـ عصره:

كيف كانت حالة الأمة الإسلامية في هذا العصر الذي حمل فيه الأستاذ البنّا لواءَ الدعوة إلى الله؟.

أولاً: كان الشيخ محمد عبده قد رحلَ بعد أن أحيا فكرة الإصلاح والتجديد، على نحو امتدّ منذ قَدِمَ جمال الدين الأفغاني إلى مصر، وكان الحديثُ جامعاً بين مقاومة النفوذ الأجنبي، وبين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود.

امتدَّ عصر جمال الدين حتى أُخرج من البلاد قبيل الثورة العرابية، وهاجر الشيخ محمد عبده معه، ثم عاد بعد الاحتلال بمفهوم جديد للتربية والإصلاح، دون الاصطدام مع النفوذ البريطاني أو معارضته، فكان له تأثيره الواضح في إصلاح المحاكم الشرعية، وتجديد مناهج التعليم في الأزهر حتى توفي سنة ١٩٠٥م.

ولم يبقَ بعد ذلك إلا ما حمله السيد رشيد رضا من خلال مجلة (المنار) التي اتسعّ نفوذُها إلى المغرب غرباً، وإلى جاوة شرقاً.

كان عمل محمد عبده وتلاميذه: رشيد رضا، المراغي، مصطفى عبد الرزاق ـ محدوداً بحدود النخبة، وفي بؤرة الأزهر، فلما استحصد الأستاذ البنَّا، عرفَ هذه المجتمعات، وقرأ (المنار)، واتصل بالشيخ رشيد، الذي وجّهه إلى الفكر السلفي، فاتسعت دائرة الأستاذ البنَّا الفكرية، ولم تقف عند الاتصال بالطرق الصوفية، ولكنّها امتدّت إلى مختلف الطوائف، وخاصة الجمعية الشرعية.

ثانياً: كانت مصر في هذه الفترة تُحكَمُ بواسطة الأحزاب السياسية التي تشكّلت بعد ثورة ١٩١٩م وفي مقدمتها الوفد من خلال النظام الديمقراطي الغربي، القائم على الصراع بين الأحزاب، وهي تتصارع على الحكم بين قصر عابدين وقصر المعتمد البريطاني.

وكانت العلاقة بين حكّام مصر، والمعتمد البريطاني تهدف إلى استمرار السيطرة البريطانية والحدِّ من قوى التحرر، حيثُ كانت الحركة السياسية قبل ثورة ١٩١٩م تعملُ على (الجلاء)، ثم تحوّلت الأحزابُ بعد الثورة إلى الدعوة إلى ما يسمّى (الاستقلال) وفارق بينهما.

وبالرغم من أنَّ ثورة ١٩١٩م كانت ثمرة جهاد مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش، فإنها لم تحقق إلا وصول القوى السياسية التي شكّلها الاستعمار في حزب الأمة الذي كان يقود سياسته لطفي السيد، وسعد زغلول في جريدة (الجريدة).

وكانت الحزبية السياسية قائمةً على مفاهيم العلمانية الغربية، التي وضعها سعد زغلول في مفهوم إقليمي ضيق: هو ـ مصر للمصريين ـ، بعيداً عن الوحدة العربية أو الجامعة الإسلامية.

وكان معنى هذا كلّه اختراقَ ثورة ١٩١٩م التي تشكلت في أحضان مفهومٍ إسلامي وعربي جامع.

ثالثاً: كان من أخطر الأحداث التي هزَّت الوجودَ الإسلامي سقوطُ الخلافة العثمانية ١٩٢٣م، ذلك الأمر الذي شغل قلوب الغيورين، وكان السؤال هو: ماذا بعدُ بالنسبة للإسلام؟ وقد أُقصي على قيادته، فتفرّقت الأقطار الإسلامية، وأصبحت عُرضةً للقضاء عليها، حيث كان ذلك مخطط الصهيونية العالمية، والنفوذ الاستعماري، لتقسيم ميراث الدولة العثمانية، والقضاء على الوحدة الجامعة، وإثارة خلافات العنصر والدم، وظهور دعوات إقليمية وقومية، ترمي إلى التفرقة والخلاف، حيث ظهرت بعد ذلك مخططات تسليم

سورية ولبنان إلى فرنسة، والعراق إلى بريطانية، وإقامة وطن قومي في فلسطين للصهيونية العالمية.

رابعاً: تقدير مدى الخطر الذي أصاب مصر (والوطن العربي) نتيجة الاحتلال الغربي، الذي بدأ في القرن السابع عشر في الهند وأرخبيل الملايو (بريطانية وهولندة)، ثم بالوطن العربي: الجزائر ١٨٣٠م، مصر ١٨٨٢م، وبعدها السودان وبعدها سورية والعراق وفلسطين.

وقد صاحبَ هذا الاحتلال الأجنبي العسكري والسياسي سيطرة القانون الوضعي، وحجب الشريعة الإسلامية، هذا العمل الخطير، الذي بدأ منذ الحملة الفرنسية، وبعدها النفوذ البريطاني حيث قامت المحاكم المختلطة، وسيطرة القانون الوضعي على النحو الذي أوقع المجتمع في أزمات خطيرة، حيث سقط المجتمع في أزمات التحلّل والفساد، واضطراب الأسرة، وهزيمة العلاقات بين المرأة والرجل، وبين الأبناء والآباء.

وكان للغزو المسرحي والفني بالرقص والغناء، والفنون والإباحيات المكشوفة أثره الخطير في فساد المجتمع.

وكان حَجْبُ الشريعة الإسلامية يتمُّ في مجتمعٍ مسلمٍ لأول مرة في تاريخ الإسلام كلّه.

خامساً: مدى الاضطراب الذي أصابَ الحياةَ الاجتماعية نتيجة المناهج التعليمية المضطربة، التي قام بها (دنلوب) والتي صاحبتها معاهدُ الإرساليات والتبشير، على النحو الذي فرّغ هذه البرامج من المفاهيم الإسلامية الصحيحة وقيامها على فهم ضئيل لبعض آيات قرآنية، وأحاديث شريفة، بغية (حجب

النظام العلماني الشريعة والقيم الإسلامية).

وكان التركيز كلُّه في الحديث عن الإسلام على أنه دين عبادي يتعلَّق بالمساجد، والمولد النبوي، والعلاقات بين الخلق والخالق تبارك وتعالى، في تصوّرٍ لاهوتي مستمدّ من المفاهيم الغربية للدين، وبعيد عن حقيقة الإسلام، من حيث إنه منهج حياة ونظام مجتمع، وإنه يقدّم تصوّره الكامل في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والفنّ.

سادساً: كان لسقوط الخلافة في الدولة العثمانية، وقيام أوّل نظام علماني في بلد مسلم بقيادة كمال أتاتورك آثاره البعيدة على البلاد الإسلامية، وخاصة إيران وأفغانستان من ناحيةٍ، وظهر لهذا النظام أتباعٌ ودعاةٌ في مصر والبلاد العربية يتحدّثون عن التحرر من اللغة العربية والقرآن، والتعليم الديني، ومختلف مفاهيم القيم الاجتماعية والأخلاقية، وبدا أعداء الإسلام في مصر وغيرها يعملون على ضرب القيم الأساسية، وكانت بيدهم أدوات كاملة من الصحافة، والندوات والمعاهد، وكان للتبشير ومؤسساته أبلغ الأثر في إحداث أخطار أُصيبت بها بعض الأسر، التي أحدث بها المبشرون آثاراً خطيرة كخطف أبنائهم وتنصيرهم.

سابعاً: كان من أخطر الدعوات المثارة في هذه الفترة: نظرية (داروين) التي كانت بمثابة ضربة خطيرة لمفهوم الخَلق الإسلامي، وفتحت الصحف والمجلاّت أبوابها لإشاعة هذا المذهب الخطير، الذي كان وراءه اليهود.

ثامناً: جاءت قضية فلسطين وتصريح (بلفور) بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بالغ الأثر في الكشف عن هذا الخطر الجديد، وما يتصل به من

محاولات السيطرة على البلاد العربية وعلى بيت المقدس، وإعادة بناء هيكل سليمان.

وتبعَ هذا ظهور (بروتوكولات صهيونية) وانكشاف مدى هذا الخطر، والمقررات التي اتّفق عليها اليهود في مؤتمر (بال) ١٨٩٧م من أجلِ إقامة حكومة عالمية، والسيطرة على العالم الإسلامي.

وما قيل من أنّ إسقاط الخلافة الإسلامية كان مقدمةً لتحقيق هدف السيطرة اليهودية على فلسطين.

تاسعاً: سيطرة الصحافة المارونية الحاقدة الزاحفة على القاهرة، والمتمثّلة في صحف (الأهرام) و(المقطم) و(دار الهلال) ومنها مَن كان على ولاء للفرنسيين أو ولاء للإنكليز، ولكنهم جميعاً على ولاء للماسونية والصهيونية، وأعداء للإسلام وللخلافة الإسلامية وللوحدة الإسلامية.

أما الصحف الوطنية، فقد كانت قصيرة العمر، لا تلبث قليلاً حتى تُغلَق وتُصادَر، ولم تعد هناك صحيفة واحدة تحمل لواء الإسلام بعد أن أُغلق (المؤيد) الذي كان قد صدر أساساً ليقف أمام حملة المقطم على الإسلام والدولة العثمانية والخلافة، أما الصحف الوطنية التي كانت تناصر الإسلام (كوكب الشرق) و(البلاغ) فقد اختلفت مع الحكام، وصُودِرت، وتوقفت، وأصبح المسلمون يتطلّعون إلى صحيفة يومية إسلامية خالصة.

* * *

في هذا الجو نشأ الأستاذ حسن البنَّا وهو يحملُ في نفسِه الرغبةَ في العمل، ويتطلَّعُ إلى منهج جديد، فقد كان الدعاةُ السابقون يعملون مع طبقةِ

الصفوة، ويحاولون بناء قادةٍ للفكر الإسلامي.

أما الأستاذ البنَّا، فقد توجَّه نحو مفهومٍ أشدّ أصالةً، هو مفهوم التربية الذي بنى عليه محمد ﷺ صحابته وأتباعه. لقد تصوَّر أنَّ هذا هو وحدَه المنهجُ الأصيل والصحيح.

يقول: «رأى قومٌ أن يصلحوا من أخلاقِ الأمة عن طريق العلم والثقافة، ورأى آخرون أن يصلحوه عن طريق الأدب والفن، ورأى غيرُهم أن يكون هذا الإصلاح عن طريق أساليب السياسة، وسلك غيرُ هؤلاءِ الرياضةَ، وكلٌّ أولئك أصابوا في تحديد معاني هذه الألفاظ، أو أخطؤوا، وسددوا أو تباعدوا، وليس هذا مجالُ النقد والتحديد، ولكن أريد أن أقولَ: إنّ (الإخوان المسلمين) رأوا أنّ أفضل الوسائل في إصلاح نفوس الأمم: الدين، ورأو إلى جانب هذا أنَّ الدين الإسلامي جمع محاسن كلّ هذه الوسائل، وبَعُدَ عن مساوئها؛ فاطمأنت إليه نفوسهم، وكانت أولى وسائلهم العملية في تطهير النفوس وتجديد الأرواح: تحديد الوسيلة واختيارُ المبدأ، وعلى هذا الأساس وضعوا عقيدة (الإخوان المسلمين) مستخلصةً من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ لا تخرج عنها قيد شعرة».

والواقع أنَّ الأستاذ حسن البنَّا قد وضعَ هذه الصورة التي عاشها العصر كاملةً، ليصلَ إلى منهجٍ أصيل.

هذا المنهج هـو القرآن الكريم، وأنَّ بناء الشـباب هو الطريـقُ الوحيـد لمواجهةِ خطرِ هذا العصر وانحرافاته.

وما مِنْ حلقةٍ من حلقات هذه الصورة إلا تحوّلت في منهج الأستاذ البنَّا إلى خطةِ عمل.

وكانت التربية الإسلامية القرآنية الأصيلة هي المدخل الحقيقي للعمل كله، وكانت قرآنية الدعوة هي الطريق، فلقد كانت هناك فرق كثيرة تعمل في مجال الإسلام، هناك دعاةُ الطريق إلى الله (الصوفية)، وهناك أهلُ السنّة من الجماعة الشرعية، وكانت هناك دعوات أخرى، ولكنّه كان واضحَ الطريق عندما كتب يقول في مقالٍ له في مجلة (الفتح) تحت عنوان: (الدعوة إلى الله). وبذلك أعاد كلمة (الدعوة) إلى مجالها الحقيقي ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد كان هذا العمل جديداً في أفق العمل الإسلامي كلّه.

٣ ـ شخصيته وشمائله:

خيرُ مثال على تقديم شخصية الأستاذ حسن البنّا أن نصوِّر جوانبَ من تصرّفاته، ووقائع حياته: يقول الأستاذ عبد الرحمن البنّا:

كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضاً، وفي آخر الصفوف إذا اصطفّت المقاعد للجلوس منكمشاً، فلا يكاد يُرى، متواضعاً فلايكاد يُعرف، لولا ما ينمُّ عنه من علمٍ وفضلٍ ونورٍ، يلبسُ في غالب أحيانه الجلباب العادي، من أرخص الأقمشة، والعباءة من فوقه، والعمامة يشرق من تحتها جبينٌ وضّاء، ووجهُ كلُّه سماحةٌ وذكاء.

ويتحدّثُ فيمسِكُ الناسُ الأنفاسَ؛ وهو يدعو إلى التراحُم والمحبّةِ بين الناس، لا يفتعل العبارة، ولا يتكلّف الحديثَ، ولكن يرسِل القولَ إرسالاً، ويبيّن ما يريد في بساطةٍ ووضوحٍ، مستشهداً في كل موقف بآيات القرآن

الكريم، يحفظها حفظاً جيّداً، ويتلوها تلاوةً عذبةً، ويوضّحها إيضاحاً كاملاً، ويفهمها فهماً دقيقاً، ويفتح عليه فتوحٌ هو الفيض الإلـٰهي والفتح الربّاني، وتمضي الساعات وهو مسترسل، ويفيضُ فيسمع الناسُ في دهشةٍ وذهولٍ.

ها هو ذا يروي عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ عبادِ اللهِ عباداً ليسوا بأنبياءَ، يَغْبطُهم الأنبياءُ والشهداءُ».

قيل: مَن هم، لعلّنا نحبّهم؟

قال: «هُمْ قومٌ تحابّوا في اللهِ مِنْ غيرِ أرحامٍ ولا أنسابٍ، وُجوههم نورٌ، على منابرَ من نورٍ، لا يخافون إذا خافَ الناسُ، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]».

كان سمحاً كريماً كالإسلام في سماحته، والتشريع الحكيم في شموله.

حضر حفلاً في بعض بلاد الوجه القبلي، وأقبل كثيرٌ من القسّيسين وعدد آخر من المواطنين المسيحيين، فكانت تحيتهم عنده بعض ما ورد في القرآن الكريم في تمجيد مريم وعيسى عليهما السلام، فانطلق يتلو في هيبةٍ وجلالٍ قولَ الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٢ـ٤٤].

وهكذا مضى يتلو ويشرح الآيات، حتى ظنّ المواطنون المسيحيون أنَّ الحفلَ قد أقيم لهم خاصة، ولم يُقَم لشأنٍ من شؤونِ المسلمين.

* * *

كان الإمام الشهيد رضوان الله عليه وسلامه يؤمنُ بالقضاءِ والقدرِ إيماناً راسخاً، لا عن طريق الدراسة والتسليم فقط، وإليك قولُه في هذا:

إنَّ إيماني بالقضاء والقدر، والرزق والأجل، ليس نتيجةَ الدراسة والتسليم والإيمان بالنصوص فقط، ولكنَّه نتيجةَ التجارب والمشاهدة، فقد تعرّضتُ للموتِ في صغري أكثر من مرّة، وبصور مختلفة، وكانت نجاتي بأعجوبة، فوجئتُ أنا وأخي عبد الرحمن ونحن صبيان نلعبُ في الحارة بانقضاضِ بيتٍ كامل فوق رؤوسنا، ولم ينجينا إلا استناد السقف على درابزين السُّلَّم، فأصبحنا في مأمن بالفراغ الناشئ عن ذلك، حتى رُفعت الأنقاض وخرجنا سالميْن.

ووقعتُ من فوقِ سطحٍ يرتفعُ عن الأرضِ أكثرَ من ثمانية أمتار، ولكنّ الله سلّم، فجاءت الوقعة في (ملَطم المونة) فلم تحدث إصابة.

وقذفتُ بنفسي في إحدى الترع الكبيرة في أيام الفيضان، والماء على أشُدّه، فراراً من مطاردةِ كلبٍ عقورٍ، فانتشلتني سيدةٌ كريمةٌ، لا أزال أذكر منظرها، وقد خلعت في سرعة البرق جلبابها، وتعممت به، وقذفت بنفسها إلى الماء، وبعضُ الرجال وقوفٌ ينظرون، ولا ينجدون، مما جعلني أومن بأنّ الشهامة والنجدة ليستا وقفاً على الرجال.

وتقدمتُ لإطفاء النار في منزلٍ اندلعت ألسنتُها فيما على سطحه من وقود على عادة الريف، فاهتدت النار إلى ثيابي وأطرافي، ولكنّ فرقة الإطفاء كانت قد أقبلت، وقدّر رجالها هذا الموقف من ناشئ صغيرٍ، فوجهوا إليَّ خراطيمهم، ونجوتُ بذلك من احتراق محقق.

وجمحت بي الفرسُ مرةً جموحاً شديداً، واعترضني حاجز قوي لسور

خشبي يحاذي الرقبة، كان الاصطدام به كافياً ليطيح بالرأس إلى مكانٍ بعيدٍ، لولا أنَّ الله تبارك وتعالى ألهمني في هذه الساعة الحرجة أن أستلقي على ظهري على السرج استلقاءً كاملاً حتى اجتزتُ هذا الحاجز بسلام.

* * *

وكان الأستاذ البنَّا يشارك الإخوان في كلِّ المناسبات الفردية والاجتماعية، فهو يخطب الجمعة والعيدين، ويصلّي التراويح بهم في رمضان بختمة القرآن كاملةً، ويجري في كثير من الأحيان صيغة عقود الزواج لهم بنفسه، ويدعو لأطفالهم بالدعاء المأثور، حين يولدون، ويشيّعُ جنائزهم، ويصلّي عليها، ويقيمُ معهم في معسكراتهم الكشفية والرياضية، ويوجّههم في حياتهم العامة والخاصة أفضلَ توجيهٍ، ويديرُ معهم الحديثَ في كلِّ المناسبات ويخلصُ لهم الحُبَّ والمودّة من كلِّ نفسه، وهم يبادلونه هذه العاطفة وهذا الشعور من أعماق قلوبهم، وهذا هو سرُّ تماسكهم، وعجزُ الدسائس والفتن عن أن تصلَ إلى كيانهم، أو تنالَ من بنيانهم.

وكان يسكن في شارع سنجر الخازن رقم (١٥) بالحلمية الجديدة بإيجارٍ قدره جنيهان، زيدت في أيام الحرب بحسب قانون المساكن (٨٪) فأصبح إيجارُها (٢١٦) قرشاً.

* * *

كانت خطة حسن البنَّا في نشر دعوته عجيبة حقاً:

١ ـ انتقاله إلى الناس في كلِّ مكان دون انظارهم حتى يصلون إلى

المسجد، ومن ذلك كان انتقاله إلى المقاهي.

٢ ـ انتقالُه إلى القرى والكفور، دون الاقتصار على العمل في القاهرة وحدها، فطاف أربعة آلافِ قريةٍ من الإسكندرية إلى أسوان بحثاً عن المؤمنين.

٣ ـ تكليفُ بعضُ أتباعه بالتجوال في البلاد بحثاً عن الشخصيات ذات الوجاهة والقيم من المثقّفين كالمحامين وغيرهم، ودعوتهم لمقابلته.

٤ ـ الذهاب إلى بيوت أي دعاةٍ إلى الله، ماداموا قادرين على العطاء في مجال تعاملهم لخدمة الدعوة، وخاصةً رجال القانون والاقتصاد والتجارة.

٥ ـ البدء بالمسجد في أي قرية يزورُها، ويلقي حديثاً بعد الصلاة، وخاصةً صلاة العصر، وإذا لم يدعه أحدٌ بعد صلاة العشاء وضع حقيبته تحت رأسه، وعباءته فوق جسمه، ونام حتى الفجر، ودائماً معه (عيش ودقة) طعامٌ قليل، يتبلّغ به.

٦ ـ في زياراته يلقي حديثاً في المسجد بعد الصلاة، وحديث الندوة العامة، وكلمة في الاجتماع الصغير الذي يتألّف بعد ذلك، وكلُّ حديث من ذلك له هدف.

يقول أحدُ رجال القضاء: إنَّه التقى يوماً في الريف بفتيةٍ أقبلوا يحدّثوني، فوجدتُ عجباً، فعامة من في الريف لا يكاد الواحد منهم يتجاوز في معارفه القراءة والكتابة، يحسنون جلوسهم مع من هم أكبر منهم في أدبٍ لا تكلّف فيه، ولا يحسّون بأنَّ أحداً أعلى من أحدٍ.

ويتكلّمون في المسألة المصرية كأحسن ما يتكلّم فيها شابٌّ متعلّم

مثقّف، ويعرفون من الأخطاء التي ارتكبت في عرضها، وفي المفاوضات التي جرت فيها، وطريقة حلّها ما لا يدركه إلا القليل من الناس.

ويتكلّمون في المسائل الدينية كلامَ الفاهم المتحرر من رقّ التقليد، ويبسطون الكلام في ذلك إلى مسائل مما يحسبُه الناسُ من صِرْفِ المسائل الدنيوية، ويعرفون من تاريخ الرسول ﷺ - وتاريخه هو الرسالة - ما لا يعرفه طلبة الجامعات، فعجبتُ لشأنهم، وسألتهم أين تعلّموا كلَّ ذلك، فأخبروني أنهم من الإخوان المسلمين، وأنَّ دعوتهم تشمل كلَّ شيءٍ، وتُعنى بالتربية والأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، والغنى، والفقر، وإصلاح الأسرة، وغير ذلك من الشؤون صغيرها وجليلها.

* * *

وقال المستشار حسن الهضيبي:

خرجتُ في يوم لِمِشْية العصرِ مع زملاء على حافة النيل، فوجدنا جمعاً، فسألنا، فقالوا: إنَّ حسن البنّا سيلقي خطبةً في حفل الليلة، لقد تعلّقت أبصارنا به، ولم نجد فكاكاً من ذلك، وخِلْتُ واللهِ أنَّ هالةً من نورٍ أو مغناطيسٍ تحَفُّ بوجهه الكريم، فتزيدُ الانجذاب إليه، وخطب ساعةً وأربعين دقيقةً، كان شعورنا فيها شعورَ الخوف من أن يفرغ من كلامه، وتنقضي هذه المتعة، التي أمتعنا الله بها ذلك الوقت، إنَّ كلامه يخرج من القلبِ إلى القلب، شأن المتكلّم إذا أخلص النية لله، وما أذكرُ أنني سمعتُ خطيباً قبله إلا تمنّيتُ على الله أن ينهي خطابه في أقرب وقتٍ، كان كالجدول الرقراق الهادئ ينسابُ فيه الماءُ، لا علو ولا انخفاض، أو كالموسيقى العذبة ليس فيها نشاز، يخاطِبُ

الشعورَ فيُلهبه، والقلبَ فيملأه إيماناً، والعقلَ فيسكب فيه من المعلومات ألواناً، فلما التقينا إذا تواضعٌ جمٌّ، وأدب لا تكلّف فيه، وعلمٌ غزيرٌ، وذكاءٌ فريدٌ، وعقلٌ واسعٌ عليمٌ بالشؤون جليلها وحقيرها، وآمالٍ عِراضٍ، كلُّ ذلك يحفُّه روحٌ ديني، عاقلٌ لا تعصُّبَ فيه، ولا استهتار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنَّه كان ملهماً، وأقسم أني التقيتُ به وعاشرته، فما سمعتُ منه كلمةً واحدةً فيها مغمزٌ في عرض أحدٍ أو دينِ أحدٍ، حتى أولئك الذين تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه، وكان في ذلك ملتزماً حدّ ما أمر الله به.

* * *

قال السيد أمين الحسيني زعيم فلسطين: لقد اشتعل رأسي شيباً، وتحت كلِّ شعرة خبرة وتجارب سنين عديدة، ولكنّي حينما التقيت مع حسن البنَّا علمتُ أنني انتهيتُ من حيثُ بدأ هو.

وقال الفضيل الورثلاني: كان لحسن البنَّا صفات تفرَّقت في الناس، وقلّما اجتمعت في شخص واحد اللهمَّ إلا طائفة نادرة من أولي العزم، للرجل طاقة يتفرّدُ الناسُ من ناحيةٍ من نواحيها ولا تجتمع لهم، فإذا حدّثه الفقيهُ وجدَ فيه الفقه الممتاز، ويظنُّ أن هذه صفته، وإذا اجتمع به الأديبُ توهّم أن هذه صفته، وما له من غيرها إنما هو مكمِّلٌ، وإذا لقيه السياسي وجد فيه سياسياً من طرازٍ فريدٍ، وحَسِبَ أنَّ ما له من الصفات الأخرى إنما هو جزءٌ يسيرٌ، وإذا استمع إليه الناس وجدوه خطيباً فحسب، واجتمع لحسن البنَّا من الصفات التي يختصّ بواحدة منها العباقرةُ من الناس، والتي كان يتوهّمه على واحدة منها كلُّ من نظر إليه من الزاوية التي يفهمها.

والحق أنَّ حسن البنَّا هو تلك الصورة الضخمة، التي تجمعُ تلك الصفات جميعاً، وبحظٍّ وافرٍ، يوازي إن لم يزد على ما للمتخصّصين من حظّ.

٤ ـ رحلة عمله:

عمل الأستاذ البنَّا مدرِّساً بعد تخرّجه من (دار العلوم) ٢٠ سبتمبر ١٩٢٧م، وكان من أوائل الدفعة الذين يرشّحون للابتعاث إلى مدارس الغرب، ولقد كان من المنتظر أن ترسلَه وزارةُ المعارف في بعثة علمية إلى إنكلترة أو فرنسة، على عادتها في إيفاد أوائل دبلوم (دار العلوم)، ولولا ظروف خاصّة، جعلت الوزارة تخالف هذه العادة في ذلك العام.

وبقي مدرّساً بمرتّب (١٥) جنيهاً مصرياً، ولما نُقل إلى القاهرة عام ١٩٣٣م بقي في عمله مدرِّساً حتى استقال من عمله الحكومي في مايو ١٩٤٦م بمناسبة إنشاء جريدة (الإخوان المسلمين) وهو لا يملك مرتَّب شهر واحد، فقدَّر له مجلس إدارة الجريدة مرتَّباً شهرياً قيمته مئة جنيه، فرفض أن يتسلّم مليماً واحداً. واستمرّ يشاركُ في الإدارة والتحرير، ويبذل جهود الجبابرة دون مقابل.

وبلغ مجموع ما اقترضه خلال عام (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م) لينفق منه خمسمئة جنيه مصري، ثم أنشأ مجلة (الشهاب) الشهرية، ففرض لنفسه من إيرادها ما يقابلُ مرتّبه الحكومي وقت الاستقلال ـ وهو أربعون جنيهاً مصرياً ـ ينفِقُ منها شهرياً على نفسه وأولاده، ويقدِّمُ منها ما تفرضه عليه الدعوة من التزامات مالية.

٥ ـ التفسير القرآني :

عِدَّةُ عوامل أساسية تكشِفُ جوهرَ هذه الشخصية :

١ ـ كان أبرز قدراته عمق فهمِه للقرآن الكريم :

نقول : القرآن الكريم يخاطب الفطرةَ الإنسانيةَ مجرّدة من كلّ لون صناعي، لا يخاطِبها على أساس الفلسفة، أو المنطق، أو النظرات اللاهوتية، لأنَّ هذا كله من وضع الناس للناس، وقد نحا القرآن الكريم في هذا منحى عريضاً لم يسبقه فيه كتاب من كتب العقيدة، فأنت تجدُ فيه المعنى البسيط المؤثّر، المبني على الفطرة الإسلامية الخالية من كل كلفة ومن كل تصنّع.

ذلك أنّ القرآن الكريم لم يَسْلُك في هذا مَسْلَكَ الكتب العلمية، فنأى بالعقائد من ناحية، والعبادات من ناحية، والأخلاق من ناحية، والأحكام من ناحية؛ ذلك لأن كتاب الله بالتالي لا يقصد أبداً إلى الفائدة العلمية وحدها، ولم يأتِ ليملأ رؤوسَ الناسِ وأدمغتَهم وحوافِظهم بكثيرٍ أو قليلٍ من النظريات العلمية، وإنما جاء كتاب الله تعالى ليصْقل النفوس، ويثير كوامنها، ويزيل الغشاوات عن الأرواح، فتكون أرواحُ الناس هذه منابع للعلم، وبما أنَّ النفس الإنسانية وحدةٌ لا تتجزَّأ، فالعقيدةُ مظهرٌ من مظاهر هذه النفس والخلق أيضاً، والعبادات حالة من حالات النفس، والحكم هو الآخر يُقصَدُ لتليين هذه النفس ولزجرها، ولذلك جاءت كلُّ الأمور على شكل جرعة واحدة لا تستغني عنها النفس مجتمعةً، حتى تولى أمرها.

هذا فهمه للقرآن.

٢ ـ أما فهمه للإسلام بعامة، فهو فَهْمٌ أصيلٌ عميقُ الأصالةِ، لأنه يعتمد على مفهوم الكتاب والسنَّة، ولقد كان أخطر ما قدّم في هذا الباب، حيث حرر مفهوم الإسلام من مفهوم الكلام والفلسفات، وذلك قوله:

«سبيلنا إلى التعرّفِ على ذاتِ الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ليس علم أصول الكلام في نزوعه إلى الفلسفة والاصطلاحات العلمية المعقَّدة، التي تشتِّت الذهن وتفرّق القلب، ولا ذوق أصحاب الوجد في انقطاعه عن منهج العلم، وإنما سبيلنا هو العلم الصحيح الثابت في الكتاب والسنّة الموصل إلى العمل الذي تتحرّك به الجوارح منفعلةً بوجدانِ قلبٍ علمَ من ذات (الله) ربِّه، وصفاته، ما حرّكه بالخشية والرهبة والحبِّ وكمالِ الخضوعِ والذّلِّ.

وهكذا تحدَّدَ موقف الدعوة بعيداً عن مقولة (المعتزلة الجدد) التي تتمثّل في التماس المنطلق، وأسلوب الكلام والفلسفة، وبعيداً عن الأغراض عن (ساس ويسوس) لاعتبارٍ واضحٍ هو أنَّ الإسلام منهجٌ سياسيٌّ جامع.

لقد كانت المدرسة القرآنية بعيدةً عن تأويلات الكلام، قائمةً على التربية، وبناء الفرد المسلم على أساس التوحيد الخالص، على النحو الذي قام به رسول الله ﷺ في فجر الدعوة، إيماناً بأنَّ القرآن هو الأصلُ الأصيلُ للفكر الإسلامي، لأنه يستطيع أن يقدّم الإجابة الحاسمة ويدحض الشبهة الزائفة، وبذلك تحرر مفهوم الأصالة من تفسيرات الفكر الغربي، على النحو الذي عرفه وتعلَّق به الذين ترجموا عن المستشرقين، وتابعوهم في فهم كثير من المفاهيم الأساسية، فمنهم من أخطأ في مفهوم البطولة والنبوّة ولم يعرف التفرقة الدقيقة بين النبوّة والعبقرية.

ومنهم مَن قال: إنَّ دعوة محمد ﷺ كانت استجابةً لظروفٍ تاريخيةٍ معينة، كانت تجتاح العالم في القرن السابع، ومنهم من تأثّر بالتفسيرات المسيحية ظنّاً منه أنها حقائقُ دينية، ولكنَّ النظرة الإسلامية الأصيلة المستمدّة من القرآن الكريم، استطاعت أن تدْحَضَ هذا الاتجاه بالرغم من اعترافها له بأنَّه حاول أن يقدّم شيئاً يخرج الناسَ من غمرة الفكر الماديّ، التي حاول التغريب والفكر الوافد فرضها، ولكنّ المرحلـة القرآنيـة كانت أكثر أصالـةً، فقد تحرّرت من التغيرات المشوبة بالفكر الغربي ـ مسيحياً أو وثنياً ـ، لقد كان التماس التفسير القرآني بمثابة الوصول إلى السنّة الجامعة، بديلاً عن التفرّق حول تفسيرات المعتزلة أو المتصوّفة أو الفلاسفة، فالسنّة الجامعة هي البوتقة الناصعة التي انصهرت فيها كلُّ الثقافات والنِّحَل والدعوات التي طرحت في بوتقة الفكر الإسلامي فاستصفتها السنة، وحرّرتها من شبهاتها، وأخذت عصارتها الطيبة، فضمّتها إلى كيانها، فالسنّة الجامعة هي النهر الكبير، والمذاهب والفرق روافد، وقد التقت السنّة بالكلام، كما التقت بالتصوّف والتشيّع، وصهرت خير ما في ذلك كله في مضمونها الجامع الأصيل، الذي يستمدُّ حقيقة وجوده من الفهم النبوي للقرآن الكريم.

ولقد كانت (العودة إلى المنابع) هي صيحة المسلمين في كل أزمة وكلّما ادلهمّت الخطوب وأحاطت بهم ظلمات التغريب، وكانت دعوة ابن حنبل وابن حزم والغزالي وابن تيمية وابن القيّم وابن عبد الوهاب هي عماد حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة، فلقد رفض الإسلام التطوّر على حساب الأصالة، ورفض التقدّم على حساب الجذور والقيم الإسلامية كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدّم المادي.

* * *

٣ ـ كذلك فإن الأستاذ البنّا، هو أول من كسر خط الانبهار بالغرب، وكشف عن زيفه، وهاجم الحضارة الغربية هجوماً صريحاً في عصرٍ كان علماء الإسلام ينظرون إليها بإعجاب، وكان كتّابُ العصر يطالبوننا بأن نقبل الحضارة الغربية، لأنها وحدها التي تحرّرنا من نفوذ الاستعمار.

يقول: ولقد كانت فكرةُ عودة الإسلام إلى أصالته ـ بوصفه نظام حياة، ومشروعَ حضارةٍ مكتمل ـ فكرةً تزعج الغربَ الرأسمالي، كما تزعج الشرق الشيوعي، لأنّ هذا يعني ظهور قوةٍ ثالثة، لا أحدَ يضمن مدى تأثيرها على موازين القوى في العالم، وقد كان المطلوب هو تعميق الخلافات بين المسلمين، إنهم يخرجون من أكفان التاريخ قضايا خلافيّة مرّت عليها القرون، يعيدون إحياءها، ليتقاتل المسلمون حولها، وهم يمدّون هذه الفرق المتصارعة بالسلاح.

٦ ـ الدعوة إلى الله:

لقد قدَّم الأستاذ البنّا الإسلامَ الأصيل الصحيح: الإسلامَ الجامعَ الذي يتمثَّل في جناحيه: عبادة الله تعالى، وتطبيق نظامه الاجتماعي.

ولقد كانت خطورة الاستشراق والتبشير والغزو الفكري كلُّها مركّزةً حول هدف واحد هو أن يكون الإسلام عبادةً لاهوتيةً أشبه بالمسيحية، وقد تخلّص تماماً من منهجه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي.

يقول الأستاذ البنّا: «فمن الناس مَن لا يرى الإسلامَ شيئاً غير حدود العبادة الظاهرة، فإن أدَّاها أو رأى من يؤدّيها اطمأنَّ إلى ذلك، ورضي به،

وحسبه قد وصلَ إلى لُبِّ الإسلام. وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين.

ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخُلق الفاضل والروحانية الفيَّاضة، وهذا الغذاء الفلسفي الشهي للعقل والروح، البعيد عن أدران المادة الطاغية الظالمة.

ومنهم مَن يقف إسلامه عند حدّ الإعجاب بهذه المعاني الحيوية العملية في الإسلام، فلا يتجاوز نظرهم إلى غيرها، ولا يعجبهم التفكير في سواها.

ومنهم مَن يرى الإسلام نوعاً من العقائد الموروثة، والأعمال التقليدية، التي لا غنى فيها، ولا تقدّم معها، فهو متبرّمٌ بالإسلام، وبكلّ ما يتّصل بالإسلام، ونجد هذا المعنى واضحاً في نفوس كثير من الذين تثقّفوا ثقافةً أجنبية، ولم تتح لهم فرصة الاتصال بالحقائق الإسلامية، فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً أصلاً، أو عرفوا عنه صورةً مشوّهةً بمخالطةِ مَن لم يحسنوا تمثيله من المسلمين.

وقليلٌ من الناس أدرك الإسلامَ صورةً كاملةً واضحةً تنتظمُ هذه المعاني جميعاً.

هذه الصور المتعدّدة للإسلام الواحد في نفوس الناس جعلتهم يختلفون اختلافاً بيّناً في فهم الإخوان المسلمين وتصوّر فكرتهم.

فمن الناس من يتصوّر الإخوان المسلمين جماعةً وعظيةً إرشاديةً كلُّ همّها أن تتقدم للناس بالعظات، تزهّدهم في الدنيا، وتذكّرهم بالآخرة.

ومنهم مَن يتصوّر الإخوان المسلمين طريقةً صوفيةً تُعنى بتعليم الناس

ضروبَ الذكر، وفنونَ العبادة، وما يتبعُ ذلك من تحرُّرٍ وزهادةٍ.

ومنهم من يظنّهم جماعةً فقهيةً كلُّ همِّها أن تقفَ عند طائفةٍ من الأحكام، تجادلُ فيها، وتناضل عنها، وتحمل الناس عليها، وتخاصمُ أو تسالِمُ مَنْ لم يسلِّم بها معها.

وقليلٌ من الناس خالطوا الإخوان المسلمين، وامتزجوا بهم، ولم يقفوا عند حدود السماع، ولم يخلعوا على الإخوان المسلمين إسلاماً يتصوّرونه هم، فعرفوا حقيقتهم، وأدركوا كلَّ شيءٍ عن دعوتهم علماً وعملاً.

ولذلك أحببتُ أن أتحدَّث عن معنى الإسلام وصورتَه المائلة في نفوس الإخوان المسلمين، حتى يكون الأساس الذي ندعو إليه، ونعتزُّ بالانتساب إليه، والاستمداد منه واضحاً جليّاً.

١ ـ نحن نعتقد أنَّ أحكام الإسلام وتعاليمه شاملةٌ تنظِّمُ شؤون الناس في الدنيا والآخرة، والذين يظنّون أنّ هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام: عقيدةٌ وعبادةٌ، ووطنٌ وجنسيةٌ، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف، فالقرآن الكريم ينطِقُ بذلك كلِّه، ويعتبره كلَّه من لُبِّ الإسلام ومن صميمه، يوصي بالإحسان فيه جميعاً، وإلى هذا تشير الآية الكريمة:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

وإنك كما تقرأ في القرآن وفي الصلاة إن شئت قول الله تبارك وتعالى في العقيدة والعبادة:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥].

وتقرأ قوله تبارك وتعالى في الحكم والقضاء والسياسة :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء : ٦٥].

وتقرأ قوله تعالى في الدَّين وفي التجارة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٨٢].

وتقرأ قوله تعالى في الجهاد والقتال والغزو :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ

فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة النازلة في هذه الأغراض نفسها، وفي غيرها من القضايا العامة وشؤون الاجتماع.

وهكذا اتّصل الإخوان بكتاب الله تعالى، واستلهموه، واسترشدوه، فأيقنوا أنّ الإسلام هو هذا المعنى الكلّي الشامل، وأنّه يجبُ إن يهيمن على كلِّ شؤون الحياة، وأن تصطبغ جميعُها بهِ، وأن تنزلَ على حكمه، وأن يساير قواعده وتعاليمه، وتستمد منها مادامت الأمَّةُ تريدُ أن تكون مسلمةً إسلاماً صحيحاً.

أما إذا أسلمت في عبادتها وقلّدت غير المسلمين في بقية شؤونها، فهي أمة ناقصة الإسلام، تضاهي الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٨٥].

إلى جانب هذا اعتقد الإخوان أنّ أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله تبارك وتعالى، وسنّة رسوله ﷺ، اللذين إن تمسّكتْ بهما أمة فلن تضلّ أبداً. وإنَّ كثيراً من الآراء والعلوم التي اتّصلت بالإسلام وتلوّنت بلونه، تحملُ لونَ العصور التي أوجدتها، والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن

نستقي النظم الإسلامية التي تحمَلُ عليها الأمة من هذا المعين الصافي، من السهولة الأولى، وأن نفهمَ الإسلامَ كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح، رضـوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربّـانية النبوية حتى لا نقيّد أنفسنا بغير ما يقيّدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصرٍ لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جمعاء.

وإلى جانب هذا يعتقد الإخوان المسلمون أنَّ الإسلام كدينٍ عام انتظم كلَّ شؤون الحياة في كلِّ الشعوب والأمم، لكلِّ الأعصار والأزمان، جاء أكمل وأسـمى من أن يعرِضَ لجزئيات هذه الحيـاة وخصوصاً في الأمور الدنيويـة البحتة، فهو إنما يضع القواعد الكلّية في كلِّ شأنٍ من هذه الشؤون، ويرشـد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق، والسير في حدودها.

ولضمان الحقّ والصواب في هذا التطبيق، أو تحرّيهما على الأقل، عُني الإسلامُ عنايةً تامّةً بالنفس الإنسانية، وهي مصدر النظم، ومادة التفكير والتصوير والتشكُّل، فوصف لها من الأدوية الناجعة ما يطهّرها من الهوى، ويغسلها من أدران الغرض والغايـة، ويهديها إلى الكمال والفضيلـة، ويزجرها عن الجور والقصور والعدوان.

وإذا استقامت النفس وصفت، فقد أصبح كلُّ ما يصدر عنها صالحاً جميلاً ـ يقولون: إنَّ العدل ليس في نص القانون، ولكنّه في نفس القاضي، وقد يأتي بالقانـون الكامل إلى القاضي ذي الهوى والغايـة، فيطبّقه تطبيقاً جائراً لا عدلَ معه، وقد تأتي بالقانون الناقص الجائر إلى القاضي الفاضل العادل البعيد عن الأهـواء والغايات فيطبّقه تطبيقاً فاضلاً عادلاً، فيـه كلُّ الخير والبر والرحمة والإنصاف، ومن هنا كانت النفس الإنسانية محلَّ عنايةٍ كبرى في كتاب الله،

وكانت النفوس الأولى التي صاغها هذا الإسلام مثالَ الكمال الإنساني، ولهذا كلِّه كانت طبيعة الإسلام تسايرُ العصورَ والأمم، وتتسع لكلّ الأغراض والمطالب، ولهذا أيضاً كان الإسلام لا يأبى أبداً الاستفادة من كلّ نظامٍ صالحٍ لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة».

هذا هو التصوّر الجامع الذي رسمه الأستاذ البنّا للدعوة الإسلامية خلال السنوات العشر الأولى من دعوته كما أورده في خطابه المسمّى (المؤتمر الخامس ١٣٤٧ـ١٣٥٧هـ).

* * *

وكان وضَعَ قبل ذلك ـ ربما بعد عودته من الإسماعيلية ـ ١٩٣٣م (عقيدتنا) التي سجّل فيها أنَّ الإسلامَ قانونٌ شامل لنظام الدنيا والآخرة، وأنَّ القرآن كتاب الله، وأن المسلمَ مطالَبٌ بالعمل والتكسُّب، وأنّ في ماله الذي يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم.

وأنّ المسلم مسؤولٌ عن أسرته، وأنّ من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها، وأنّ من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه، وإعادة تشريعه، وأنّ راية الإسلام يجب أن تسودَ البشر، وأنّ من مهمة كلّ مسلمٍ تربية العالَم على قواعد الإسلام.

وأنّ المسلمين جميعاً أمةٌ واحدة، تربطها العقيدة الإسلامية، وأنّ الإسلامَ يأمُر أبناءَهُ بالإحسان إلى الناس جميعاً، وأنّ السِّرَّ في تأخر المسلمين ابتعادُهم عن دينهم، وأنّ أساس الإصلاح العودةُ إلى تعاليم الإسلام وأحكامه، وأنّ فكرة الإخوان المسلمين تحقق هذه الغاية.

هذا هو مجمل الاعتقاد الذي وضعه الأستاذ البنَّا للعاملين معه مستمدّاً إياه من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة .

* * *

هي ثلاثة أمور لا بدّ منها لكلِّ أمةٍ تريدُ النهوض :

١ ـ أن تتعرَّف على أعدائها لتحذرهم .

٢ ـ وأن تهتدي إلى أحبّائها لتستخلصَهم .

٣ ـ وأن تضعَ المنهجَ الحازِمَ الحكيم للنهضة ، لتسيرَ عليه ، فلا تلتوي بها الطريق .

والأمة التي لا تصنعُ منهجَ نهضتها تتخبَّطُ في سيرها ، فلا تتقدّمُ خطوةً واحدةً .

إنما يكونُ التناقض في الأمة عند عدة أمور :

منها الاغترار بالظواهر ، وسهولة الانخداع والاستسلام لكلِّ مظهرٍ يتّفق مع ميولنا وأغراضنا ، فما أحوجَنا إلى بُعْد النظر ، وعُمقِ الفكر ، وصحّة التقدير ، وأن يقوم فينا مَنْ يُميِّز لنا العدو من الصديق .

٧ ـ مقال مجلة الفتح :

أول مقال كتبه الأستاذ البنَّا (١٤) يونيو ١٩٢٨م يكشِفُ عن فهمه للإسلام ، وخطّته في العمل على النحو الذي نفّذه بدقة .

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨]

إنَّ أمّتنا المصرية ـ بل الإسلامية ـ بما تقلَّبتْ فيه من أطوار، وما مرَّ عليها من حوادث سياسية واجتماعية، استبدّت بدينها وأخلاقها، فتركتها كالمعلّقة، هذه الأمة في أشدِّ الحاجة إلى دعوةٍ قويةٍ فعّالة، تردّها إلى رشدها، وتهديها بهدي نبيّها، وترشدها إلى معالم دينها، وتنقذها مما هي فيه من الانحلال الأدبي، والفساد الخلقي، فأنت إينما وجهتَ وجهك لا تجد إلا فساداً ظاهراً، وتهتكاً مزرياً، بل الفوضى في العقائد، والتخبّط في الآراء والمذاهب، إلى من يتهجّم على عامتنا، فيخرجهم من دينهم، ويسرق منهم إيمانهم من مرتزقة التبشير، وما إليه.

تسيرُ في الشارع، فترى ما يؤذي ويؤلم، وتستعرض حياة الأسرة، فتجد ما يمضُّ ويؤسف، وتولّي وجهك شطر المدارس ومعاهد العلم فتلقى ما يزري ويخجل، وقُلْ مثلَ ذلك في كلِّ مرافقنا وشؤوننا، حتى لقد أصبح الداء عامّاً يئنُّ تحته الفرد والجماعة.

ولا يغُرَّنَّك قومُ من الكتّاب، يقولون: هذا عصر مدنية وتجديد، ورقي في المدارك والأفكار، وثقافة حرّة، وحرية شاملة، شخصية وغير شخصية، وغير ذلك من الألفاظ التي يخدعون بها البسطاء، ويخيلون بروائها الضعفاء، فذلك تعبير له تعبير، ولو أنّ هؤلاء القائلين ممَّن لم يستولِ عليهم الافتتان والإعجاب بما يرون إلى حدٍّ لا يفقهون معه دليلاً، ولا يذعنون لحجة ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣]، لناقشناهم دليلاً بدليل،

وساجلناهم حجةً بحجة، وبيّنا لهم أنّ الحق غير ما يظنون، وأنَّ صلاح الأمة لغير مايفهمون، ولنا موقف آخر إن شاء الله، رغم ذلك كلِّه يرون فيه الحق حقّاً والباطل باطلاً.

أوجِّه هذا النداء الصادق إلى من يُحسُّ مثلي بداء هذه الأمة، ويشعر به بين جوانحه همّاً مبرِّحاً وجوًى لاصقاً.

إنَّ أمةً هذا حالُها حرامٌ على المؤمن فيها أن يسكتَ عمَّا يرى، أن يجدَ مسَّ الداء، ويتوسَّد الهم والألم، فلا يبدي حراكاً، ولا يرفع صوتاً، وهو يتلو كتاب ربه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ [التوبة: ١١١]، وكذا ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أين الإيمان في قلوبنا، والدين من نفوسنا، إنْ لم تُؤدَّ الأمانة، أمانة النداء بكلمة الله، والقيام بحجته والدعوة إليه.

* * *

ما أحوج الأمة في دور انتقالها إلى قادة حكماء، ومرشدين أدلاّء، هداة فضلاء، يسلكون بها سبيل السعادة، ويجنّبونها خطر الاندفاع، لايزالون يتحسسون طريق النجاة بكلِّ ممكنةٍ وغير ممكنة من الطرق: أحياناً باستخلاص العبرة التاريخية، وأخرى بالمقارنة بين الحوادث الكونية، وثالثة بما هدتهم إليه التجارب الطويلة، والفطرة السليمة، وما أرشدتهم إليه من طريق الإصلاح وسبل النجاح: أولئك القادة هم صفوةُ الله من خلقه، وأمناؤه على عباده، وهم المجدّدون حقاً.

* * *

لم ينل من هذه الأمة أحدٌ ما نالَ منها بأسها من نفسها ، وسكوتُ قادتها الغيورين عن إصلاحها ، فلا يخدعنّك ما يخدّرون به الأعصاب ، وينيمون به الحمية ، ويُثبّطون به العزائم من قولهم (طبيعة العصر) و(هذا تيار لا يغالب) و(قد استفحل الداء) وغير ذلك من بيان اليأس ودلائل الخمول وقيم اليأس ، وقد وعدنا الله النصر ، وكتب على نفسه المؤازرة للهداة والمرشدين .

إنَّ الدعوة واجبة علينا ، معلّقة بأعناقنا ، فإنْ ظفرنا منها بما نحسب من خير هذه الأمة وهدايتها فذاك هو المأمول ، بحول الله وقوته ، وإلاَّ فحسبنا أن نكونَ قنطرةً تعبرُ عليها فكرة الدعوة والإرشاد إلى مَن هم أقدر منَّا على التنفيذ ، حسبنا أن نكونَ حلقة اتصال بين من تقدّمنا ومن سيأتون بعدنا .

* * *

إنَّ الدعوة إلى الله علينا فريضةً ، لا يخلصنا منها إلا الأداء ، ولا يقبل فيها عذر ولا هوادة .

إنّي لأشمُّ بوادر النجاح وأتنشّقُ عبير الفوز ، من تلك النهضة الإرشادية التي تمشّت في نفوس الشباب ، فخلقت منهم دعاةً صادقين ، وكان من آثارها تلك الجمعيات النبيلة المقصد ، وفي مقدمتها (جمعية الشبان المسلمين) و(جمعية مكارم الأخلاق) .

وإنَّا لنرجو بعد ذلك مظهراً ، فتلك إن شاء الله باكورةُ آمالٍ بعدها آمال .

* * *

على من تجب الدعوة[1]:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الدعوة إلى الله فرضٌ لا مناص منه إلا بالأداء.

هذا الفرضُ مقسَّمٌ بين طبقات الأمة، على كلّ منها أن يقوم به، وأن يؤدّيه بالشكل الذي يتناسب مع مركزها وحالها.

وأهم الطبقات المكلّفة بالدعوة، والقادرة عليها، هي:

أولاً ـ الحكومة «إن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزعُ بالقرآن»، والناسُ في كلِّ زمان ومكان على دين رؤسائهم وأولي الحكم منهم.

وحكومتنا شغلتها الأمور السياسية، والحوادث الخارجية في السنوات الماضية عن حالِ الأمة الخُلقية وعللها الاجتماعية، حتى عمَّ الخطبُ.

إنَّ أهمَّ إصلاحٍ تقوم به هو علاجُ الأمة في روحها وأخلاقها، وليس اهتمامها بشفاء الأجسام وعلاجها وإصلاح الأرضين وإروائها بأجلِّ وأولى من اهتمامها بأرواح الأمة وخُلُقها وعقيدتها التي هي مبعثُ أعمالها.

أمامها تعميم التعليم الديني، ومكافحة المجلاّت الهازلة، وأماكن اللهو الخليع، والقمار المخرِّب، والضرب على أيدي دعاة الإباحة أشباه الملحدين، وأدعياء الفلسفة الكاذبة، الذين يخرجون الأمة من أقدس مشاعرها.

---

(١) مجلة الفتح ٥ يوليو ١٩٢٨م.

يا قوم إياكم وبنيات الطريق، فاليمين والشمال مضللة، والطريق الوسطى هي الجادة، ولن يدينَ هذا الشعبُ إلا لهذه العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية، التي خالطت لحمه ودمه، وامتزجت بجسمه وروحه.

٨ ـ توجيه الدعوة:

يجب أن تثبتوا للأمانة التي أخذتموها على عاتقكم، وهي النظر إلى خير المسلمين بحكمةٍ وإخلاص، ويجب أن تتصل قلوبُكم بقلوب المؤمنين التي تحوطكم، وبأرواحهم التي ترفرف عليكم، وبآجالهم التي تحوم حولكم، واللهُ من وراءِ الجميع محيطٌ، يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إنَّ الإخلاصَ أساسُ النجاح، وإنَّ الله بيده الأمرُ كلُّه، وإنَّ أسلافكم الكرام لم ينتصروا إلا بقوّة إيمانهم، وطهارة أرواحهم، وزكاء نفوسهم، وإخلاص قلوبهم وعملهم بعقيدة واقتناع جعلوا كل شيء وقفاً عليها، حتى اختلطت نفوسهم بعقيدتهم، وعقيدتُهم بنفوسهم، فكانوا هم الفكرة، وكانت الفكرة إيّاهم.

فإن كنتم كذلك ففكّروا، والله يُلْهِمُكُم الرُّشدَ والسداد، واعملوا، والله يؤيّدكم بالمقدرة والنجاح، وإن كان فيكم مريض القلب معلولَ الغاية، مستورَ المطامع، مجروح الماضي، فأخرجوه من بينكم، فإنَّه حاجزٌ للرحمة، حائلٌ دون التوفيق، وقد علم أنّ رسوله ﷺ بأن وجود قوم معروفين بسيماهم بين المؤمنين مثبّطٌ لهممهم. فاعملوا فإن العمل بالإخلاص وتحقيق النيّة مشيدٌ وأثره خالدٌ.

* * *

إنّنا نحن الإخوان المسلمين لا نريدُ علوّاً في الأرض ولا فساداً، لأنَّ الله عوَّضنا عن ذلك بالآخرة، ولكننا كذلك نجد من العقوق لأنفسنا وللناس أن نرى الدنيا تحترق في نيران الأهواء الفاسدة، والآراء الغاشية، ولا نتقدم للإنقاذ، وفي يدينا مضخّة الإطفاء.

* * *

اذكروا أنَّ الدنيا لن تصغي لكم، ولن تسمع منكم، ولن تجيبكم إلى ما تطلبون إليها، إلا إذا كنتم أنتم نماذجَ صالحة للتمسك بما تدعون الناس إليه، والعمل بهذا المنهاج الكريم القويم:

كتاب الله تبارك وتعالى الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢].

وكنتم مع هذا يداً واحدةً وقلباً واحداً، واتجاهاً واحداً، لأنّ الإسلام وحدة وتوحيد، ولا شيء بعد هذا.

يا شباب: إنَّ عيدكم الأكبر يوم تتحرّر أوطانكم، ويحكم قرآنكم، فاذكروا في العيد ماضيكم المجيد، لتتذكّروا تبعاتكم، وأملكم لحاضركم، ورسالتكم لمستقبلكم، وحّدوا الآمال وآمنوا، وتآخوا واعملوا، وترقّبوا بعد ذلك النصر المبين.

ولا تنسوا أن ثمن النصر: تضحية وفداء.

فاحرصوا على تقديم الثمن، ولا تهنوا بعد ذلك ولا تحزنوا فأنتم الأعلون، والله معكم، ولن يتركم أعمالكم، وما كان الله ليضيع إيمانكم.

* * *

وأنت أيّها المؤمن، قد وهبتَ نفسك لله، ووقفت كلَّ حياتك على دعوة الحق، فكلُّ شعرة فيك، وكل حاسّة من حواسّك، وكلّ ما أنعم الله به عليك من عضو أو موهبة؛ كلُّ هذا من نعم الله، فهو له، وينبغي أن يكونَ موقوفاً كلُّه للجهاد له، ولدعوته، فعليك أن تحافظ عليه، لتصرفه في هذا السبيل وحده، فليس لك في نفسك شيء.

* * *

القرآن الكريم أمانةٌ في أعناقكم، وديعة غالية في صدوركم، وسلاحٌ قاطعٌ في أيديكم، فَعَضُّوا عليه بالنواجذ، وأعرضوا عن غيره من لغوِ المبادئ، ولهو النظريات، لا يمكن أن يقوم الباطلُ إلا في غفلة الحقّ، وقد صحا الحقُّ، فلا غفلةَ، فلا بدّ أن ينتصر ويظهر، ولا بدّ أن يزهقَ الباطلُ، ويقهر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

* * *

الأزمة أزمة مبادئ وعقائد، ونفوس وأرواح: أزمة إيمانٍ. لو آمن الناسُ برقابة الله تبارك وتعالى وعدالته واطّلاعه عليهم، ونظره إليهم، واستقرّت في نفوسهم معرفة الله العلي الكبير لألهمهم هذا الإيمان يقظةً في الضمير، وحياةً في الشعور.

* * *

سننتصر بأهون الوسائل، وستعرف الدول الكبرى منّا ما لم تكن تعرف، ستنبعثُ فضائلنا العليا من جديد، وستظهر روحنا العاصفة الجارفة الجبّارة

التي سترها حُسنُ الظنّ، وفسحة الأمل حيناً من الدهر، وسيردّد الهاتف في الدنيا من جديد ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦]، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [سورة صَ: ٨٨]، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [غافر: ٧٧].

وإذا لم نجد النصفة من العالم الجديد، فسنعرفُ كيف نضبط أنفسنا، ونضع حاجزاً حصيناً قوياً بيننا نحن المؤمنين وبين هؤلاء الظالمين، وسيرون أنَّ السلاح السلبيَّ سيفوِّتُ عليهم قصدَهم، ويعكس عليهم عدوانهم، ويردّ عليهم كيدهم في نحورهم.

* * *

أنتم لم تخلقوا إلا لتكونوا سادة وتكونوا خلفاء، وإنّ الله اصطفاكم على غيركم من الأمم، وجعل لكم رتبة الأستاذية على العالم، والأمة الإسلامية محمّلة أمانة، مكلّفة بأن تبلّغها إلى العالم، وتلكم الأمانة هي عقيدة التوحيد، فالله شهيدٌ والرسول شهيدٌ علينا، ونحن شهداء على الناس.

ولذلك كرّر الله علينا الأمر بالجهاد في كثير من سور القرآن، فقال: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨]، أي اصطفاكم للقيام بهذا الأمر.

وإذا كانت أوروبة الآن تعتقد أنّها عالمة ومخترعة وتدّعي السيادة واستحقاقها، فهي كاذبة في دعواها، لأنّها استخدمت علمها ومخترعاتها وسيادتها في الاستعلاء على العالم.

وقد أثبتت التجارب العديدة أنَّ مدنيتهم وقوانيهم وسياستهم كانت شرّاً على العالم.

لقد أعطاكم كتابه، ولم يعطه لأحد في أوروبة.

* * *

إنَّ العالم تتجاذبه شيوعية روسية، وديمقراطية أمريكة، وهو بينهما يتذبذب حائراً، لن يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام، وفي أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحي السماء. فمن الواجب علينا أن نعلنَ هذه الحقيقة في وضوح، وندعو إلى منهاجنا الإسلامي في قوة، ولن يضيرَنا أنْ ليس لنا دولة ولا صولة، فإنَّ قوة الدعوات في ذاتها، ثم في قلوب المؤمنين بها، ثم في حاجة العالِم إليها، ثم في تأييد الله لها متى شاء أن تكون مظهرَ إرادته، وأثرَ قدرته ورحمته.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦].

واجبنا في القضاء على الاستعمار الغربي واليهودية العالمية.

* * *

سيقولون لكم إننا لم نفهمكم فأفهمونا أنفسَكم.

هل أنتم طريقة صوفية؟ أم جمعية خيرية؟ أم مؤسسة اجتماعية؟ أم حزب سياسي؟

فقولوا لهم: **نحن دعوة القرآن الحقّة الشاملة الجامعة.**

طريقةٌ صوفية نقية لإصلاح النفوس، وتطهير الأرواح.

وجمعية خيرية نافعة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتواسي المكروب.

ومؤسسة اجتماعية تحاربُ الجهلَ والفقر.

وحزب سياسي نظيف، يجمع الكلمة، ويَبْرأ من الغرض، ويُحْسِنُ القيادة.

وقد يقولون: ومع هذا لا زلتم غامضين.

* * *

أكثر الأديان تقوم على عنصري العقيدة والعبادة فقط، ولا شأن لها بنظام المجتمع، والإشراف عليه.

أما الإسلام فيقوم على عناصر العقيدة والعبادة والحكم، ولا يبيحُ لأتباعه أن يخضعوا إلا لأحكام دينهم، وقد سنَّ لهم الهجرة من المدينة التي تضطهد أحكام دينهم، ولا تمكّنها من السيادة والاعتلاء.

فالإسلام دين جماعة، ودين حكم، والمسلم الذي يتحرّى أحكام دينه وعبادته، يتحرّاها في عبادته الفردية، ويتحرّاها في أحواله الشخصية، ويتحرّاها في جماعية الإسلام.

* * *

أَفهَموا الناسَ أنّ الإسلام شيءٌ، والاجتماعُ شيءٌ آخر، وأنَّ الإسلامَ شيءٌ، والقانون شيءٌ آخر، وإنّ الإسلامَ شيءٌ، ووسائل الاقتصاد شيءٌ آخر، وأنَّ الإسلامَ شيءٌ والثقافة العامة سواه، وأنَّ الإسلامَ شيءٌ يجب أن يكون بعيداً عن السياسة.

وإذا كان الإسلام شيئاً غير السياسة، وغير الاجتماع، وغير الاقتصاد، وغير القانون، وغير الثقافة فما هو إذن؟.

أهو تلك الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هذه الألفاظ التي هي كما تقول رابعة العدوية استغفارٌ يحتاج إلى استغفار؟

ألهذا نزل القرآن نظاماً شاملاً محكماً مفصّلاً ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، لقد ألغى الإسلامُ الحدود الضيقة التي حدّدوا بها معنى الإسلام.

* * *

توجيهات:

- ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول.
- أنيروا أشعّة العقول بلهب العواطف.
- ألزموا الخيالَ صدق الحقيقة والواقع.
- اكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة.
- ولا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلّقة.

ـ لاتصادموا نواميسَ الكون، فإنها غلاَّبة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض.

* * *

معرفةُ الله تبارك وتعالى هي عصا التحويل، التي ستنقل الفرد والجماعة من حالٍ إلى حال، وحُسن الاعتماد عليه وحدَه، هو أظهر علامات الإيمان الصادق، فحققوا في نفوسكم وفي أعمالكم هذه الصلة بربّكم، واعتمدوا عليه وحده، ولا تخافوا غيره، ولا ترهبوا سواه، وخذوا في الأسباب، ورحّبوا بالنتائج كيف كانت.

وحرّموا على أنفسكم وترفّعوا عما استباحَ الناسُ في هذه الأعصار من التكالب على الوساطات الوهمية، والوقوف بأعتاب ذوي الجاه والسلطان، والتوسّل إلى الأغراض الشريفة بالوسائل الخسيسة، فإنّ ذلك مما يطوِّحُ بإيمان المؤمنين، ويثلمُ شرفَ الأعزّة الأكرمين، وتأمّلوا قول النبي ﷺ: «اطلبوا الحوائجَ بِعِزَّةِ الأنفس، فإنَّ الأمورَ تجري بالمقادير».

● ● ●



الفصل السابع عشر

الإمام بعد ٤٨ عاماً من الرحيل

- في ذكرى العام الواحد والأربعين .
- حسن البنّا والدعوة الإسلامية .
- بعد ٤٨ عاماً من الرحيل .



الفَصْل السَّابع عَشَر

الإمَامُ بَعْدَ ٤٨ عَامًا مِنَ الرَّحِيلِ

في ذكرى العام الواحد والأربعين لاستشهاد حسن البنّا

أثبتت الدعوة التي حملها الإمام الشهيد بعد أربعين سنة صدقَ غايتها، وسلامةَ مقصدها، وأقبل العام الحادي والأربعين بعد استشهاد الإمام، يؤكّد أنَّ الشجرة التي غرسها قد ثبتت جذورها في الأرض، حتى إنه لم يعُد في إمكان أيِّ قوة اقتلاعها، وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تواجَه بالاضطهاد، حتى تنتشر حبَّات عقدها، فتصل إلى كل مكان يمكن أن يُقال فيه كلمة لا إلـه إلا الله. فتلاميذ الإمام وحواريوه، قد توزّعوا، فما من مكانٍ اليومَ ينادَى فيه للأذان، إلا وتجد واحداً منهم يؤمُّ الناس للصلاة، في أقصى الأرض، في اليابان، في أسترالية، في الملاديف، في الملايو، في فرنسة، ألمانية، إنكلترة، لابد أن تجد ذلك الرجل الذي يقول: «وأصلي وأسلّم على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحابته ومَن دعا بدعوته إلى يوم الدين».

وتلك كانت علامة الدعوة على ألسنة الدعاة.

شاء الله تبارك وتعالى أن يسد الفراغ الذي بدأ مقلقاً ومخيفاً بعد سقوط

الخلافة، وارتفاع كلمة باطلة تقول بأن الإسلام دين عبادة، وأنّ محمداً ﷺ لم يُقِمْ دولةً ولا حكومةً[1].

وفي مكتب الجامعة، وكلية الآداب بالذات، حيث كان طه حسين يطلب إلى أوليائه أن ينتقدوا القرآن كأيٍّ كتاب أدبي، ويقولوا: هذه الآية ضعيفة، وهذه الآية كذا. . . في قلب هذا التيار خرج الشباب المؤمن الذي أذّن للصلاة، وقال: «الله أكبر ولله الحمد» في المدرجات جاء (حسن البنّا) ليكون تعويضاً عادلاً عن تلك الموجة العاتية التي حاولت أن تضرِبَ شواطئ الإسلام، التبشير يجتاح المعاهد والإرساليات، فيسقط فيه أبناؤنا أسارى، الاستشراق يتدافع في الجامعات و(ديوي) وجماعته يسيطرون على كليات التربية، والصحافة تقود حركة العلمانية على كل طريق، المحكمة تحجب الشريعة الإسلامية، وتبرز القانون الوضعي، والمصرف يقيم منهج الربا، كم كان هذا الطوفان قاسياً وعنيفاً.

ولكنّ الرجل كان أمةً وَحْدَه، رأى كلّ المنطلقات عاجزةً بعد التجربة الطويلة، منهج الغرب لم يحقق الهدف الذي تتطلّع إليه الأمة، وبدا وكأن الأمة قد أُحيطَ بها، والذين وَعدوها بالنصر في ظل تقليد الغرب قد بدا وكأنهم ظالمون، أو غاشّون.

---

(١) انظر: كتاب (الإسلام وأصول الحكم) الذي ألّفته الاستخبارات البريطانية ضمن حملتها الإعلامية والنفسية على الدولة العثمانية، ثم نشر عام (١٩٢٥م) ووضع عليه اسم علي عبد الرزاق بن حسن عبد الرزاق أحد زعماء حزب الأمة المصري الموالي للبريطانيين. (الناشر)

وكان لابدّ من منطلق صحيح، ولم يكن هذا المنطلق سوى ذلك المنطلق الأول الذي التمسه رسولُ الله ﷺ: منهج التربية من جديد، تربية جيل يؤمن بأنّ الإسلام منهج حياة، ونظام مجتمع، وليس ديناً لاهوتياً قاصراً على الصلاة والصيام وإقامة المولد النبوي.

وحمل حسن البنَّا اللواء، ودعا كلَّ الناس، دعا أنصار السنة، وأهل التصوّف، وأهل القلم، والمعلِّمين، وأهل الصناعة، وسعى إلى الناس في أماكنهم، ولم ينتظر حتى يأتوا إليه، وحمل لهم قارورة الدواء، ناشدهم الله والوطن. وقدّم لهم منهجاً كاملاً جامعاً، مبرءاً من كلِّ نِحْلة أو مطمع أو هوًى، قدّم لهم الإسلام غضّاً طريّاً.

ومضى يعمل، ولم يضيّع دقيقة واحدة، واستجابت الأمة، استجاب له الشباب في كل مكان، وبايع الجميع على تقديم أرواحهم وأموالهم فداءَ دعوة الحقّ «إن الله اشترى ونحن بعنا».

وقدّم الأستاذ البنَّا لكلِّ مشكلة حلاً، وجدَّد دعوة الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

كان القرآن منهجه، والرسول ﷺ قدوته ودليله، فمنهما انطلق إلى الهدف، وفي ضوئهما (القرآن والسنّة) حدّد وُجهته، وكان وِرْدُه اليومي الذي لا يتخلف، كان يحمل في جيبه في الصباح الجزء اليومي ليقرأه في أي مكان، فلا يشغله عنه سفر ولا عمل، وقد أوغل في هذا الوجهة حتى كان يتلوه في دقائق معدودة، وقد أفاض في تعرّف أهدافه، حتى كان يتلو عشرات الآيات ذات المعنى الواحد متصلة في محاضراته، على نحو يدهش له السامعين، وفي

مكة كان يخاطب الجاوي والهندي والماليزي وغيرهم بلغة القرآن، حيث يقدّم لهم المعنى من الآيات المتصلة على نحو عجيب حقاً، حتى كانت أعينهم تفيض من الدمع مما يقرأ من سياق الآيات القرآنية.

وكان غزير المطالعة حتى كان يستحضر عشرات الأبيات من الشعر، فيسترشد بها في دعوته، ويستدلّ بها على غايته من موقع الكلمة الفاصلة، وقد أخبر أنّه كان يحفظ أكثر من خمسة آلاف بيت.

وبالجملة فقد هداه القرآن، وهدته السنَّة إلى تربية جيل من الشباب وِفق المنهج الذي طبّقه النبي ﷺ، قوامه عدم الصبر على الضيم، واليقين بنصر الله، والفرج بعد الشدة.

مضى يدعو ويكثّف نشاطه مستعيناً بالله عقدين كاملين، حتى عرفت الدعوة (دعوة الإخوان المسلمين العالمية) في كل أقطار الوطن العربي، وامتدّت إلى العالم الإسلامي، وكانت قضية فلسطين تستعجلها النصرة والدفاع، فحملت لواء الجهاد وقدّمت الشهداء، وأحسّ العدو بالخطر، فاجتمعت قوى النفوذ الأجنبية على إغراق السفينة، التي كشفت مؤامرةَ الغرب، وفساد حضارته، وزيف منهجه، وأضاليله ومؤامرته على الشريعة والثقافة والتراث، في محاولة الحيلولة دون المسلمين ومنهجهم الرباني، واستشهد الإمام، وظلّ أبناؤه وأتباعه يحملون الراية عاليةً، يضحّون في سبيل حمايتها بكل غال ورخيص، ماضون على المنهج في صبرٍ وثبات، يتحمّلون الأذى ويدعون أمر الظالمين إلى الله.

واليوم وبعد أربعين عاماً من بِدْءِ المسيرة، نرى الدعوةَ الإسلاميةَ حقيقة

واقعة، قائمة على أمر الله، وقد انصهرت، فما عادت تخاف بخساً ولا رهَقاً، تحملُ لواءَ الحق، تدعو إلى الله على بصيرة، بعيدة كل البعد عن العنف وعن العدوان، شأنُها شأن الدعوة الأولى، تجهر بما تعتقده، ولا تطلب عليه جزاءً، وليس لها مطمع أو مأرب، وتفوّض إلى الله الأمر، وتسأل الله للناس الهدى، صابرةً على كلّ ما يصيبها، فقد باعت أنفسها لله خالصة.

ترى أن الإسلام دين ودولة، حقيقة واقعة، وأنّ الحضارة الغربية تنهار، وأنّ مناهجها تسقط، وأنّ الأصالة والعودة إلى المنابع حقيقة واقعة، وأنَّ معطيات الاستشراق والتبشير لم تعد تُقنع أحداً، وأنّ دعاة العلمانية بعد المادية ينهار بهم الجسر الذي صنعوه.

ولقد هدى الله بكلمة الحق أقواماً خُدعوا زمناً، واتّسع نطاق الدعوة حتى اقتحم عالم الغرب، وعشش فيه، ولها في كل يوم خبر جديد، عن نصر جديد، وقد اقترب الفجر، وانهدمت الأيديولوجيات، وسقطت النظريات المادية، وعجزت الأنظمة التبشيرية عن العطاء، وتطلّعت الأمم إلى ضوءٍ جديدٍ، يسعدها ويهدي قلوبها، وإلى نظام جديد يحقق لها الأمن والسكينة، وتلك كلمة الله ودعوته حمل لواءها حسن البنّا، واللهُ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

* * *

حقائق مضيئة في وجه شبهات مثارة

حول تاريخ الإمام الشهيد والدعوة الإسلامية:

تعدّدت الكتابات التي تحاول أنْ تؤرّخ للإمام الشهيد حسن البنّا وحركته الإسلامية العالمية التي استطاعت أن تسيطر في عقدين من الزمن على حركة الدعوة الإسلامية، فكانت بمثابة المرحلة التي نقلت التيار الإسلامي من حيّز الفكرة إلى حيّز الدعوة، فالحركة بعد قليل.

والذين يتناولون هذا التاريخ هم بين منصفٍ ومغرِض، وبين رجل تعرّف إلى الدعوة طامعاً فيها، فلما لم يجد بغيته ارتدّ عنها، معارضاً لها، ملتمساً لها ولقائدها كلَّ عيبٍ، وبين رجلٍ آمن بها وأنار له الطريق إلى صدقها.

وأشدُّ الذين يهاجمون الإمامَ الشهيد ودعوته أولئك الذين عجزوا عن أن يستوعبوا المفهوم الإسلامي، فظنّوا أنهم إزاء جماعة أو حزب يتطلّع إلى مطامع حزبية أو أهواء سياسية، ناسياً أو متجاهلاً أنّ هناك فوارق أساسية بين الدعوة الإسلامية والحزبية السياسية، فالأولى تنكر الذات في سبيل تحقيق الهدف النبيل، بينما تتجه الأخرى إلى الصدارة والشهرة، والمطمع الفردي.

وطالما سار رجلان على طريقٍ واحدٍ حتى إذا برزت المغريات، وعرضت نفسها المطامع، عجز أحدُ الرجلين عن أن يتماسكَ، وليس أدلّ على

ذلك وأصدق من أنّ هذا الداعية المسلم حين ارتفع سهمه أقبل رجالُ الأحزاب يلتمسون تأييده ومودته، فلم يكن منه إلا أن قال مقولته التي تركت الجميع في صمتٍ مطبقٍ حين قال:

«إنَّ هذه الدعوة لم تكن يوماً عصا في يد أحد».

وتلك مقولة تعني معناها، وتؤكد صدق الوجهة إلى الله تبارك وتعالى.

فلا ضيرَ إذن أن يقولَ قائلٌ: إنّه كان مع قائد الدعوة في أول الطريق أو أنه كان سبّاقاً إلى بناء هذه اللبنات، ثم عجز عن المتابعة، أو أحسّ أنّ الطريق طويلٌ وشاقّ فتراجع، فنكص على عقبيه، فذلك شأنه هو، أما الدعوة فإنها ماضيـة في طريقها، وقد هيّأ الله تبارك وتعالى مَن يحمل لواءها، ويسير بها ويصبر على لأوائها.

أما القيـادة فإنها مهمة القادر الذي تـؤهّله ثقافتـه لحمل لوائها، وفقـه منهجها، والتعرّف على ما تحتاج الأمة إلى بيانه.

ومَن يقرأ بيان الأستاذ البنّا، الذي أصدره عندما دخلت الدعوة الإسلامية المرحلة العملية، يدهش لهذه القدرة النفّاذة في فهم أمور التعامل مع الناس، والقدرة على كسب الأنصار والبراعة في ربط الجماعات المتفرّقة برباط المفهوم الجامع للإسلام، حيث يلتقي الفقهاء بالصوفية، بدعاة التوحيد وكيف تجمعهم حقيقة الإسلام، بوصفه ديناً ودولة، وعبادةً وقيادةً، ولا ضير أن يكون الأستاذ البنّا قد بدأ طريقه صوفياً، فقد بدأ كلُّ قادة الفكر الإسلامي حياتهم كذلك، ولكنّ العبرة بتلك القدرة والمرونة في الالتقاء بالقوى المختلفة في الحقل الإسلامي، وتكامل القيم.

وإذا كان الذين سبقوا في هذا المجال قد تقوقعوا في نطاق الحلقة الصوفية، ونكصوا على أعقابهم دون الالتقاء مع أهل أنصار السنّة والسلفيين ودعاة التوحيد، فكيف كان يمكن أن تقود الدعوة الإسلامية المجتمع كله، وتربطه ربطاً محكماً على النحو الذي فعله الأستاذ البنَّا بقدرته العجيبة، ومرونته البارعة حين قال: «إنّ الإخوان المسلمين دعوة سلفية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، وشركة اقتصادية».

لقد كان هو المنطلق الحقيقي الذي حطّم تلك القيود التي وضعها النفوذ الأجنبي، التي لا يلتقي أهلُ الإسلام على مفهومه الصحيح، ومن هنا كانت براعة الأستاذ البنَّا في التطلُّع إلى العودة إلى المنابع، والتماس طريق رسول الله ﷺ في تكوين الجماعات، وفي تقديم المنهج الأصيل، وكيف اكتشف بأن الخطر الحقيقي الذي يواجه هذه الأمة في ذلك التحوّل الخطير، الذي تجري به قوى الغزو الفكري والتغريب، بحَجْب الشريعة الإسلامية عن المدرسة والمحكمة والمصرف، حتى يتيقّن المسلمون بأنّ الإسلام ليس في حقيقته إلا عبادة لله تبارك وتعالى يتمثّل في الصلاة والصوم والاحتفال بالمولد النبوي.

نعم لقد بدأ الأستاذ البنَّا خطواته من حلقة التصوّف، ولكنه سرعان ما اتّجه إلى الأفق الأوسع، ودعا الناس إلى العمل بالإسلام في قلب حياتهم الاجتماعية، وهو لم يكتفِ بأن يأتيه الناس في داره التي أعدّها، ولكنّه ذهب إلى الناس، واقتحم عليهم مقاهيهم، ثم قصد إلى بلادهم، فطاف بأربعة آلاف قرية، وتعرَّف عليهم، وأرسل إلى أهل الخير في كل مكان يدعوهم إلى لقائه، واقتحم الجامعة على طه حسين ولطفي السيد، ولم يدع رجلاً بارزاً، سواء

أكان مصلحاً اجتماعيـاً، أم زعيماً سياسـياً، أم صحفياً كبيراً، دون أن يلقاه ويتحدّث إليه ويشرح له دعوته.

وكان يلقى في كل مكان التقديـر والإعجاب، فقد كان لبقـاً وخطيبـاً ومحدّثاً وإنساناً على خلق رفيع، لا يصادم الناس، بل يلتقي بهم من منطلق الفطرة، من خلالِ قراءة واعية للفقه الإسلامي والتوجيه والتاريخ، واستيعابٍ كاملٍ لأحداث الأمة الإسلامية وارتفاعها وانخفاضها، وقوتها وضعفها.

وقد استطاع أن يصلَ إلى حقيقة أساسية هي أنّ هذه الأمة كلّما ابتعدت عن منهج الله أصابها الاضطراب، فإذا عادت إلى الله تبارك وتعالى فتح لها أبواب الرخاء والخير، هذا كله لم يكن يستطيعه إلا هذا الرجل، الذي تسلّم زمام الدعوة بقدرته الفائقة، وقدرته الواسعة على الحركة، ومرونته في العمل، وقوته الخارقة في التنقّل والسفر، ولم يكن غيره من أهل رعيله الأول يستطيع ذلك، ولا هم مؤهّلون له، ولم يكن عندهم ما عنده في أول الشوط، وعندما دخلوا بوتقة الامتحان، لم يلبثوا أن سقطوا وتجاذبهم المغريات، فقد كلّف بعضهم بالالتقاء برجال الأحزاب، فإذا بهم يُتخطّفون، وقد عجزوا عن الثبات في موقـف الدعوة الصحيح، بل ذهبـوا إلى الولاء بمن اتصلـوا بهم، على نحوٍ أفقدهم مكانهم في الدعوة، وحجب عنهم نورَ الإيمان بها، فأصبحوا خصوماً للدعوة، التي أعطتهم هذه المكانة، وحاولوا أن يحرّفوا الدعوة إلى ولاء هذا الحزب أو ذاك، بينما وقف الرجل يدافع عن مفهوم الإسلام في صلابة وصمود، حريصاً على أن لا تنحرف الدعوة للولاء الشخصي، أو الكسب المادي، أو المطمع الشخصي.

ويجيء بعض هؤلاء اليوم، ليتّهموا الأستاذ البنّا بأنه انحرف، وبأنه خرج

عن نطاق الدعوة الحقيقي، وجهلوا أنّهم هم الذين لم يفهموا حقيقة الدعوة، ولم يكونوا قادرين على الوفاء بمسؤوليتها، وهم في صدور مناصبها الكبرى، واستخفّوا بالقيادة ومسؤوليتها وحسمها في المواقف التي لا تقبل الخضوع أو الإذعان ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[المؤمنون: ٧١]. ولو اتّبع الأستاذ البنّا أهواءهم لانفكّت هذه الرابطة الجامعة، ولأصابتها الهزيمة المنكرة.

ولو كان الأستاذ البنّا من أصحاب المطامع، لما عاش هذه الحياة المتواضعة، ولما وُجِدَ في جيبه يوم استشهاده ستة جنيهات، كانت كلَّ ما يملك، ولاستطاع أن يملك من الضياع والعقارات ما ملكه الذين مازال الحقدُ يملأ صدورهم حتى اليوم.

فهل طاف أحد منهم بالقرى، ونام في المساجد لمّا لم يجد من يستضيفه؟ إنّ هؤلاء الذين اتّبعوا الأستاذ البنّا كانوا من غرس يده، التقى بهم في بلادهم وقراهم، وتابع أحوال أسرهم وأبنائهم، ودعاهم إلى الله تعالى، فوثقوا بما دعاهم إليه، وأصبحوا من أتباعه، ووجدوا فيه ذلك المؤمن المتجرّد الذي لا مطمع له، أما أولئك الذين كانوا يجلسون على كراسي مكتب الإرشاد، وكلاء أو غير وكلاء، أو مشرفين على الصحيفة اليومية، فلم يكن يعرفهم أحد، بل إنّ أهل بلادهم قد نفروا منهم، وشكوا من سوء تصرّفهم، وسوء فعالهم، فكيف يتحدّثون اليوم عن دور لهم في هذه الدعوة، التي لم يصبروا على أزماتها ومتاعبها، وكانوا يظنّون أنّ الأمر أمرُ منصب وجاه على مفهوم الأحزاب، فلمّا رأوا صمود القائد في وجه المغريات، وقد عجزوا عن الثبات،

واحتمال الامتحان، انفضّوا وتركوه وحده يواجه المؤامرات الخطيرة، التي دفع حياته ثمناً لها، أمّا هم فقد أمّنوا حياتهم، فلم يصبهم أذى.

لقد كان على الذين عملوا في الصف الأول، وكوّنوا الدعائم أن يتّقوا الله، فإن الأستاذ رحمه الله لم يكشف لهم ستراً، ولم يصرّح بآثامهم وما عملوه من أجل دفع الدعوة إلى مجالات الاحتواء، وكان كريماً متعالياً في ردّهم عن دعوة الله، بعد أن تبيّن له حقدهم وحدهم، وكان الله بكل شيءٍ عليماً.

* * *

بمناسبة مرور ٤٨ عاماً على استشهاده (١٩٩٦م)

أثر حسن البنَّا والدعوة الإسلامية
في أسلمة الثقافة العربية والأدب العربي

لايزال أثر الدعوة الإسلامية وتحوّلاتها، وما قامت به في سبيل تحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية والأدب العربي من التبعية والولاء للأجنبي من ناحية، ومن الجمود والتقليد من ناحية أخرى ـ لم يكتب بعدُ، ولم يقدّم على النحو الصحيح.

هذه المرحلة التي جاءت بعد سقوط الخلافة الإسلامية وتمزّق الوحدة، التي كانت تجمع أقطار الإسلام حين سيطر النفوذ الأجنبي على كيانها السياسي والاقتصادي، وحيث فرض القانون الوضعي، وحجب عنها منهجها الرباني الأصيل.

وحين قامت الدعوة الإسلامية من أجل أن تلمَّ شمل المسلمين، وتحرّر المفهوم الإسلامي من التبعية، وتخرج عنه عوامل التغريب والغزو الثقافي، وتعيده مرة أخرى إلى دائرة الأصالة الإسلامية، فيكون بديلاً ومقدمة للوحدة الإسلامية الجامعة.

ذلك العمل الذي بدأ فعلاً بعد احتجاب الخلافة الإسلامية، والذي شارك فيه عدد من أعلام الفكر الإسلامي في مقدّمتهم: شكيب أرسلان، وعبد العزيز جاويش، ومحب الدين الخطيب، وطنطاوي جوهري، والذي أسلم قياده إلى حسن البنَّا الذي قدّم منهج التربية الإسلامية مجدّداً لبناء أجيال جديدة على مفهوم الإسلام الخالص، كما فهمه وعمل به الرسول محمد ﷺ وصحابته.

هذا هو أبرز ما تمثّله الدعوة الإسلامية بالنسبة لحركة اليقظة التي قادها محمد بن عبد الوهاب، ثم جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، حتى قامت الدعوة على قاعدة إعادة بناء الشباب المسلم على قاعدة التربية المحمدية، بعد أن كان العمل كلّه في مجال النخبة.

وكان هذا هو الحلّ الوحيد في مواجهة أخطر ضربةٍ وُجّهت للدعوة الإسلامية، فإذا ذهبنا ننظر في التحوّلات التي أحدثتها الدعوة الإسلامية وجدنا تأثيرات خطيرة، غيّرت من اتجاه مَن كانوا يقودون الثقافة والأدب في ذلك الوقت، ومن كانوا يسيطرون على الصحافة والجامعة والأندية الأدبية والأحزاب والمؤسسات.

ولقد استطاعت الدعوة أن تحدث تحوّلات عميقة الأثر، ولكنها لا تظهر باسمها صريحة، ولكنها تكشِفُ عن آثارها في كتابات كل مفكري العصر الذين كانوا يقودون الحركة الفكرية والسياسية:

يظهر من ذلك في تحوّلات أساطين الفكر: طه حسين، وهيكل، والعقاد، ومصطفى عبد الرزاق، وأحمد حسن الزيّات.

وفي رجال وزعماء الفكر السياسي الإسلامي: المراغي في الأزهر، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر، والمودودي في مسلمي الهند.

لقد كان الخطر الأكبر الذي واجهته الدعوة الإسلامية هو سقوط الخلافة وكتابات علي عبد الرازق حول (الإسلام وأصول الحكم)[1]، هذا هو العمل الأكبر على طريق التغيير، الذي دعا لأول مرة في تاريخ العصر ـ على حين فترةٍ من الضعف والخمول والتراجع ـ إلى إعادة تصحيح المفهوم الإسلامي: وأنه دين ودولة، ومنهج حياة وحكم، وليس كما صوّره علي عبد الرازق في كتابه الذي كتبه في الحقيقة مؤرخ يهودي بريطاني ليرضي اليهود والغرب وليضلّل مسلمي الهند، زاعماً أن الخلافة لم تكن من الإسلام ولا السياسة كلها، وفي محاولة لتقديم الإسلام بأنه دين عبادةٍ ولاهوتٍ، ولا علاقة له بالمجتمع أو السياسة أو الاقتصاد، تلك الدعوة الخطيرة التي عرفتها أوروبة بعد صراعها مع المسيحية والكنيسة، وهي ما تسمّى بـ(العلمانية)، والتي كان النفوذ الغربي الذي فرض على العرب والمسلمين بعد الحملة الفرنسية ولا يزالُ إلى اليوم يعمل على سيطرتها على الثقافة والمجتمعات المسلمة.

ولقد كان عمل الدعوة الإسلامية الأساس هو استعادة الحقيقة، وتصحيح مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة، ونظام مجتمع، والعقيدة والعبادة، جزءٌ منه، لا ينفصل عنه.

---

(١) انظر حول هذا الموضوع (الخلافة في العصر الحديث)، للدكتور ضياء الدين الريس.

والإسلامُ بذلك يختلف اختلافاً واسعاً وعميقاً عن المسيحية وغيرها من الأديان، فقد جاء الإسلامُ ليكون دينَ البشرية كلّها، وإلى أن تقوم الساعة، وليكونَ منهجَ حياة للمجتمع البشري كلِّه.

وكان لابدّ من تربية أجيال من المسلمين على هذه الحقيقة، وإذا كان دعاةُ الإسلام قد شُغلوا في المراحل السابقة حول تحرير أوطانهم من النفوذ الأجنبي، فقد آن الأوان أن يعملوا على تحرير فكرهم من التبعية للفكر الغربي، والفكر المسيحي واليوناني الوثني الوافد من خلال الفلسفة اليونانية والفلسفة المادية الحديثة.

وكان عقد الثلاثينيات هو مطلع هذه النهضة الجديدة، وكان ظهور مفاهيم الإسلام بوصفه منهجاً للحياة والمجتمع في مواجهة حركة التغريب التي كشف عنها المستشرق (جب) وجماعته عاملاً فعالاً في هدم تلك المحاولة الخطيرة، التي تحدّث عنها المستشرقون الخمسة في كتابهم (وجهة الإسلام) الذي نوّه به في جريدة (السياسة) الأسبوعية الدكتور محمد حسين هيكل الذي يُعَدُّ أوَّل مَنْ تنبَّه إلى هذا الاتجاه الخطير، والذي كان كتابه (حياة محمد) منطلقَ هذا الفهم، ولقد كانت هناك عوامل عديدة، وأهمها التبشير الغربي الذي اقتحم المدارس والأزهر الشريف نفسه، حيث دخل المبشر زويمر إلى العلماء، وألقى إليهم منشوره المُعَنْوَن (لماذا لا تعودون إلى القبلة القديمة).

وكانت الدعوة الإسلامية متمثّلة في عدد من الجمعيات (الشبان) و(الإخوان) و(الهدي النبوي) و(أنصار السنّة) و(الجمعية الشرعية) وغيرها قد أخذت تواجه الخطر، خطر التغريب بأعدادها القليلة، والتي لفتت النظر إلى

طابع الإسلام، الذي أخذ يشكّل تيّاراً قويّاً متدفّقاً.

كانت فكرة الفهم الصحيح للإسلام هي القوة الدافعة، وإذا كان الدكتور هيكل قد كتب (حياة محمد) فصولاً في مجلة السياسة الأسبوعية، معتمداً على كتاب (أميل لودڤيج) فقد وجد مَن يصحح له ما غاب عنه من أمثال الدكتور حسين الهراوي، والذي ظلَّ يتابع حلقات هيكل، ويصحّح حتى عاد هيكل إلى السيرة أساساً، واعتمد عليها كمصدر أساسي.

والمعروف أنَّ الذي لفت نظره إلى أخطاء (لودڤيج) أنَّه حجَبَ تماماً علاقة النبي والمسلمين باليهودية والمدنية، مما أحدث خللاً في الدراسة، اضطرّ هيكل إلى العودة لمصادر السيرة المعتبرة.

وكانت كتابات هيكل للسيرة، وتوجّهه الإسلامي كلِّه بعيد الأثر في كثير من الكتّاب، وفي مقدّمتهم توفيق الحكيم، الذي كتب (حياة محمد) عن طريق الحوار القصصي، والعقاد بعد ذلك في العبقريات، وكان لهذا أثره الواضح في الصحافة الأدبية، فقد ظهر العدد الهجري لمجلّة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ الزيّات، حافلاً بالكتابات الإسلامية من أقلامٍ كثيرةٍ خاضت هذا المجرى لأوّل مرّة.

(وهذه مرحلة يجب دراستها دراسةً موسّعةً)

وإذا كان الدكتور هيكل قد صحّح طريقه بما كتبه في مقدمة كتابه (في منزل الوحي) حين قال:

«لقد خُيِّلَ إليَّ زمناً، كما لايزال يخيَّلُ إلى أصحابي ـ (يقصد طه حسين وغيره) ـ أنَّ نقل حياة الغرب الروحية والعقلية هي سبيلنا إلى النهوض والتقدّم،

ولكنّي أدركتُ أنني أضعُ البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه، ثم لا تمخض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، وأرى أنّ هذا القادمَ من الغرب غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غيرُ تاريخ الغرب

لقد خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرّته البابوية المسيحية، وبقي الشرقُ بريئاً من الخضوع لهذا التفكير، لا مفرّ إذاً من أنْ نلتمس من تاريخنا وثقافتنا، وفي أطوار ماضينا الروحية، نحيي بها ما فتر عن أذهاننا، وتجمَّد من قرائحنا، وجمد من قلوبنا.

ولقد انقلبتُ ألتمسُ تاريخنا البعيد في عهد الفراعين، فإذا الزمنُ وإذا الركود العقلي قد قطع ما بيننا وما بين ذلك العهد من سبب، فلا يصلح بذراً لنهضة جديدة، ثم رأيتُ **أنَّ تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي يُنبت ويثمر**، ففيه حياة تحرّكُ النفوس، وتجعلها تهتزّ وتربو، ولأبناء هذا الجيل من الشرق نفوسٌ قوية خصبة، تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمارها بعدَ حين».

وفي نصٍّ آخر كشف هيكل عن خروجه من الفكر الذي حاول الغربُ أن يجعله يمضي في طريقه، حين رأى جماعات التبشير وهي تغرر بشبابنا المسلم في محاولة لاحتوائه، ولكنّه مع الأسف وقف عند حدود ما سمَّاه (تاريخنا الإسلامي) كمحاولةٍ للنهضة، ولم يصل إلى الغاية التي كانت الدعوة الإسلامية، تتحدّث عنها، وتدعو إليها، وهي: (منهج الإسلام نفسه).

ولكنّه على كلٍّ حال وقف في وجه التغريب والتبشير، وتحرّى منطلقاً أصيلاً للفكر الإسلامي، كانت الدعوة الإسلامية عاملاً هامّاً في اتجاهه إليه، والتحرّر من تبعية التغريب، والتي كانت جريدة (السياسة) التي يرأس تحريرها مدرستها الأولى.

وكان هو وطـٰه حسين، ومحمد عبد الله عنان، وعلي عبد الرازق، قادتها الأُوَل، وفي هذه المرحلة التي صحح فيها هيكل منطلقه، استطاع أن يتحدّثَ عن محاذير كثيرة، وأهمها التعليم العلماني ومحاذيره، وكانت دعوته إلى تحرير التعليم من التبعية، ولكن مع الأسف لم يتمكن هيكل بعد أن أصبح وزيراً للمعارف، أن يحقق هذا الهدف.

* * *

وكانت مؤامرة الادّعاء بأنَّ الإسلام دينٌ روحيٌّ، وأنّه لم يطبَّق إلا في عصر عمر من الدعاوى التي حمل لواءها علي عبد الرازق، وطـٰه حسين، والتي وجدت من يردّ عليها ويدحضها. خاصة ما كتبه طـٰه حسين عن القرآن في (الشعر الجاهلي) وإنكاره رحلـة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى مكة، وإعادة بنـاء الكعبـة مع ابنه إسماعيل، حيث شكَّك في علاقة الإسلام بالملّة الحنيفية الإبراهيمية، وشكّك في قصة بناء الكعبة، ورفع قواعدها، وفي أخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وما إنْ هدأت المعركة قليلاً، حتى تحوّل طـٰه حسين إلى أسلوبٍ جديدٍ أرادَ به إنكار وجود الإسلام كمنهجٍ للمجتمع، بعد عصر عمر بن الخطاب، وقد وجد هذا الرأي المنقول عن المستشرقين نقداً شديداً، ومعارضةً واسعةً، كشفت عن مدى عمق الإيمان الذي حققته الدعوة الإسلامية بالباحثين والكتاب في هذا الشأن.

ولقد كانت هذه الظاهرة: ظاهرة الردّ على كتابات العلمانيين قد وضحت

تماماً في هذه المرحلة، إزاء كتابات طه حسين وسلامة موسى، ومحمود عزمي، وتصدَّر للردّ على هذه الكتابات كتَّاب يؤمنون بالإسلام بوصفه منهجَ حياةٍ في مقدمتهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي، وأحمد الحوفي وسعيد العريان، وغيرهم ممن حفلت بهم أعدادُ الهجرة من مجلة (الرسالة) سنوياً.

وكان للأستاذ حسن البنَّا موقفين حاسمين في هذا الصدد:

١ ـ موقفه من طه حسين أساساً.

٢ ـ وموقفه منه بعد صدور كتاب (مستقبل الثقافة)[1]، وكان هذا الكتاب قد أحدث دويّاً شديداً، مما حمل معه جمعية الشبان المسلمين إلى عقد محاضرة تكلَّم فيها الأستاذ حسن البنَّا على كتاب (مستقبل الثقافة) بإشراف الدكتور الدرديري مراقب الجمعية.

وقد كشف الأستاذ البنَّا أخطاءَ الكتاب في رفق وحكمة، وإنْ كان قد أوضح الأخطار التي تحيط به.

---

(١) وجاء اليوم من يبعث هذا الكتاب من قبره ويعيد نشره، ويقدّم له الدكتور محمد فتحي سرور!! ولو كان الأمر بريئاً لنشر الكتاب مع ردود ساطع الحصري وسيد قطب وغيرهما ليكون الملف كاملاً أمام القارئ، أما أن تُطبع هذه الكتب المشبوهة مثل (تحرير المرأة) لقاسم أمين و(مع الشعر الجاهلي) لطه حسين، و(مستقبل الثقافة في مصر) له أيضاً، و(الإسلام وأصول الحكم)، وترويجها من جديد، وتجاهل كل الردود والانتقادات التي وُجِّهت إليها فهو أولاً استخفافٌ بعقل القارئ وتدليس عليه، وعدم احترام للعلم والحق وخيانة علمية، وهي قبل كل شيء إثارة للفتن من جديد لاستنزاف جهد الأمة الذي يجب أن تحشده أمام التحدّيات الجديدة كالعولمة وغيرها. (الناشر)

ومن العجيب أنَّ طه حسين طلب الاستماع إلى هذه المحاضرة، ووُضِعَ في إحدى الغرف القريبة من مصدر الصوت، فاستمع إلى ما قاله الأستاذ البنَّا كاملاً، وخرج قبل انتهاء المحاضرة، ثم أُخطر الأستاذ البنَّا بذلك من بعدُ.

وكان الأستاذ البنَّا قد علم بالكتاب، وراجعه، وأعدَّ مراجعته له في أيام قليلة، وكشف عن أخطائه على نحوٍ أذهلَ السامعين، وكان أخطر ما دعا إليه طه حسين في كتابه هذا ما قاله:

من «أنْ نسير سيرةَ الأوروبيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً».

وقوله: «إنَّ السياسة شيءٌ والدين شيءٌ آخر».

وقوله: «إنَّ العقل الشرقي يوناني الأصل، وأنَّ الإسلامَ لم يغيِّر في العرب شيئاً».

وهي أهم المسائل التي علَّق عليها الأستاذ البنَّا، وكشف زيفها، وخاصة عبارتها الحادّة: «إنَّ علينا أن نقبلَ الحضارة الغربية: حلوها ومرّها، وما يُحمَدُ منها وما يُعاب».

وعندما اتسعت دائرة الكتابات الإسلامية، ودخل الحلقة كلُّ كتاب التغريب تقريباً تحدّث البعض عن ذلك، فكتب الأستاذ البنَّا يردُّ عليهم ويقول: إنَّ بيننا وبينهم مفهوم الإسلام الصحيح، وهو أنَّ الإسلام نظام مجتمع، ومنهج حياة، فإن تطابقوا معنا في هذا الأصل الأصيل كان الموقف صحيحاً، أما إن كانوا لا يزالون يدعون إلى مفهوم لاهوتي أو علماني للإسلام، فإنَّ الموقف يختلف تماماً.

وهذا يعني أنَّ كتابات هيكل والعقاد وطه حسين لم تكن صورةً خادعة، وفي المرحلة التالية لذلك أحصى كثيرٌ من الباحثين المسلمين أخطاءَ هيكل والعقاد في السيرة. الأوَّل في موقفه من المعجزات. والثاني في تصوّره للرسول النبي المرسَل بأنَّه عبقري من العباقرة فحسب.

أما طه حسين فقد كانت كتاباته الإسلامية كلّها داخلةٌ في إطار دعوته التي بدأها منذ اليوم الأول، وعاش لها إلى نهاية حياته وهي: إثارة روح الشك الفلسفي، والتشكيك في الحقائق التاريخية على النحو الذي قام به في كتابه (على هامش السيرة) وغيره من الكتب، وهذا ما كشفه الباحثون من بَعْدُ[١].

* * *

ولقد كان لمجلة (الرسالة) التي أصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٢م في نفس الوقت الذي صدرت فيه صحف الإخوان دورٌ واضحٌ في الكتابات الإسلامية، ولكنّه ظلَّ على المدى الطويل وحتى لقي الأستاذ البنَّا ربّه دون أن يشير إلى هذه الدعوة إلا في مقالٍ واحدٍ ظنَّ البعضُ أنَّه يعني شيئاً، وكان عنوان المقال (الرجل المنتظر) ولكنْ ما إن مضى الشيخ البنَّا إلى ربه حتى كتب عنه الزيات كتابة طيبة، وفهم يومها أنَّه كان على صلة بالشيخ، وكان من حُسن الحظ أن قدَّم أحدُ الباحثين في (الرسالة) خمس مقالات تحت عنوان (الرجل القرآني) نشرت في العام الأخير للمجلة.

---

(١) انظر (طه حسين في ميزان الإسلام) للمؤلف. (الناشر)

ولقد كان الأستاذ محمد أحمد الغمراوي من الكتّاب الإسلاميين الذين جمعوا بين الكتابة في (الرسالة) وفي مجلة (النذير) التي حملت لواء الدعوة الإسلامية.

ويجيءُ بعد ذلك الأثر العالمي الذي أحدث تغييراً في خريطة الأمة الإسلامية كلِّها بظهور عبد الحميد بن باديس في الجزائر، والشيخ المودودي في الهند على المنهج والطريق نفسه الذي رسمه حسن البنَّا وعاش يحميه ويحتضنه عشرون عاماً كاملةً، قبل أن يستشهد، وقد وضع له كلَّ القواعد والأصول الكفيلة بامتداده، فضلاً عن ظهور دعاة كرام في العراق والشام، من أمثال مصطفى السباعي وعمر الأميري والشيخ الصوّاف.

ولقد كان الضوء الإسلامي الذي سطع في جميع أرجاءِ مصرَ خلال زيارة الأستاذ البنَّا لأكثر من أربعة آلاف قرية، وإعلان منهجه أكبر علامة على تمكين هذا المفهوم الأصيل على النحو الذي حملَ أصحاب الأقلام والصحف الذين كانوا لا يفتحون أبوابهم لهذا التيار، حملهم على أن يدخلوا هم هذه المرحلة، ليكسبوا مالاً وشهرةً، فقد قيل إنَّ الدكتور هيكل استطاع أن يبني ڤيلا فاخرة من ثمار بيع كتاب (حياة محمد) و(أبو بكر) و(عمر) و(منزل الوحي)، كما دفع الآخرين إلى الدخول في الحلبة، على النحو الذي فعله العقاد وتوفيق الحكيم.

ومع ذلك ظلَّ كثيرٌ من هؤلاء الكتّاب يحجبون أنفسهم عن منهج الدعوة، وغطاء الشريعة الإسلامية.

* * *

في الذكرى الخمسين لاستشهاد الإمام حسن البنَّا

سيف الإسلام: جهات خارجية وراء مقتل أبي، واستبعد أن يكون للملك فاروق دورٌ في الاغتيال.

حديث عالمي أجراه محمد عبد القدوس مع سيف الإسلام البنَّا (جريدة الشعب) القاهرية في ١٢ فبراير (١٩٩٩م).

* * *

من أهم الكلمات التي تؤكّد دور حسن البنَّا في تاريخ الإسلام في العصر الحديث والقرن الرابع عشر الهجري، قول القائل:

«كانت عبقريته أنّه أوجد الصيغة الإسلامية التي تبرَأُ من جمود الفقهاء، ومن خيال الصوفيين، ومن عداء الليبراليين للإسلام». اهـ.

في الذكرى الخمسين
لاستشهاد الإمام حسن البنَّا
سيف الإسلام: جهات خارجية وراء مقتل أبي
وأستبعد أن يكون للملك فاروق دورٌ في الاغتيال

١١ من فبراير سنة ١٩٤٩م يومٌ حزينٌ في تاريخ مصر، حيث لقي الإمام الشهيد حسن البنَّا ربه، وذهب شهيداً بعد إطلاق الرصاص عليه أمام جمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة نازلي (رمسيس حالياً) في قلب القاهرة. وقد كُتب الكثير في هذا الموضوع، خاصةً عن الإمام حسن البنَّا ـ مؤسسة جماعة الإخوان المسلمين ـ وصفاتِه المتميزة، التي تفرَّد بها، كما أنَّ الحادث وملابساته تناولته الصحف مراراً وتكراراً. لذلك أردتُ معالجةَ هذا الحدث الجلل في الذكرى الخمسين لوقوعه، بطريقةٍ إنسانيةٍ، والتقيتُ بأقرب الأقربين إلى الإمام الشهيد فلذة كبده، ابنه سيف البنَّا.

في البداية سألته: هل كان والدك يشعر بالخطر على حياته في أواخر أيامه؟

أجابني قائلاً: نعم.. تلقَّى تحذيرين بذلك، أولهما من (مكرم عبيد) ـ السياسي المصري البارز ـ الذي قال له: «ياشيخ حسن حاسِبْ على نفسك.. أنتَ ستُقْتَل»، والتحذير الثاني جاءه من زوجة شقيقه عبد الرحمن البنَّا،

وكانت من عائلة كبيرة لها نفوذها، وأبلغته بأن الحكومة تُعدّ لقتله! كما أنَّ جدّتها لأمها رأت في المنام أنه سيلقى ربّه ويستشهد، وجاءتنا وأبلغتنا بذلك.

سألتُه: هل تذكر الساعات الأخيرة له في الدنيا؟

أجابني: كان طبيعياً.. ولم يكن على ملامحه أيُّ قلق، وأذكر أنه في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر جاءه محمد الليثي - رئيس قسم الشباب بجمعية الشبان المسلمين - وأخبره بأن (محمد الناغي) يريد مقابلته بالجمعية في المساء، وكان هو حلقة الاتصال بينه وبين الحكومة، وشارك في الوساطة أيضاً مع الناغي المحامي المشهور مصطفى مرعي، وكانت هناك حلقة أخرى تعمل على التوسط تضمّ: صالح حرب، ومحمد زكي علي. وذهب الإمام الشهيد في الموعد المحدد، حيث لقي ربّه.

رفض تهريبه!

ويلقي سيف البنّا بمفاجأتين في هذا الموضوع:

- إن والده كان يستعدُّ للسفر إلى عزبة الشيخ عبد الله النبراوي بـ(بنها)، ليمكث فيها بعضَ الوقت، حيث قرّر أنه لا فائدة من التفاوض مع الحكومة، وكان ينوي وقف هذه المفاوضات غير المجدية، ومن ناحية أخرى فرضت الشرطة حصاراً محكماً حول منزله، وكلّ مَن يأتي إليه لا يخرج سالماً!! بل يتمُّ القبض عليه، لذلك قرّر الابتعاد مؤقتاً.

يقول سيف البنّا: رفض أبي محاولة تهريبه خارج مصر في هذه الأوقات العصيبة، وعندما طالبته بمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع اعتذر بلباقة.

سألته: كيف علمتَ أنتَ بالحادث؟

أجابني: كنتُ عائداً من المكتبة عندما قابلني صاحب الكراج بالشارع الذي نسكن فيه بـ(سنجر الخازن)، وسألني: هل سمعتَ الراديو.. وعندما نفيتُ له ذلك سكت، فشعرتُ أنَّ هناك شيئاً ما غير طبيعي، وعدتُ إلى منزلي، وعلمتُ بالخبر المفزع، حيث أذاع الراديو أنه قد أُطلق عليه الرصاص وأصيب، وبعد ذلك علمتُ أنه مات.

النساء لم يحملن الجثة:

ويكمل سيف البنّا حديثه قائلاً: في البداية رفضتْ الحكومة تسليمَ جثّة أبي، فذهب جدي إلى محافظ القاهرة، وحدَّثه بعنف شديد، وبعد أخذٍ وردٍّ رضخَ في النهاية، ووصلت الجثة إلى منزلنا في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل.

ويضيف قائلاً: حضرتُ غسلَه مع جدي، ورأيتُ إصاباته في جسده الطاهر، ونزل بعض الدم أثناء الغسل.. منظرٌ لا أنساه وهو في ذاكرتي إلى الآن.

سألته: كم كان عمرك عند استشهاده.

أجابني: أنا من مواليد ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٤م، يعني عندما مات أبي كان عمري خمس عشرة سنة، وأذكر أنّني بعقليتي الصغيرة عندما شعرتُ بالخطر على حياته اشتريتُ مطواة وبونية حديدة وبطارية للدفاع عنه، ويومها تلقّيتُ قبلةً منه.

قلتُ له: نعود إلى الجنازة.. لقد قيل إنَّ النساء حملنَ النعش لأنه كان

ممنوعاً على الرجال الاقتراب من الجثَّة!!.

أجاب: هذا غيرُ صحيح، لقد صلّينا عليه في جامع (قيسون) وكان جدي هو الإمام، وحملتْ الأسرة النعشَ مع هؤلاء الذين قاموا بالدفن، ومقبرة أسرتنا تقع في منطقة الإمام الشافعي، وقيل أيضاً: إنَّ مكرم عبيد شارك في الجنازة، وهذا غير صحيح أيضاً إنما جاء بعد ذلك ليؤدي واجب العزاء.

سؤال: هل ترك الإمام الراحل وصية؟

كانت إجابته: لم يفعل ذلك، لكنّه قبل وفاته استدعاني مع أختي الكبيرة وفاء، وأخبرنا بما يشبه الوصية..

حاولت معرفة ما قاله الأب لأبنائه ففشلتُ، وأخيراً أخبرني بها بعدما تأكد أنه كلام خاص ليس للنشر.

مفاجأة كبرى:

وعندما سألتُ سيف البنّا عن قتلة الإمام الشهيد كانت المفاجأة الكبرى، أخبرني بأنه يعتقد أن القَتَلة الحقيقيين غير الذين تمَّ القبض عليهم بعد الحادث بفترة.. فالمؤامرة لم تكن محلية، بل وراءها جهات خارجية.. الأمريكان والإنكليز.

سؤال: وما مصلحة هؤلاء في ارتكاب الحادث؟

أجاب: لهم مصالح واضحة في التخلّص من الزعماء أصحاب الشعبية، حتى يعيدوا ترتيب المسرح السياسي بأكمله في مصر والعالم العربي، ولذلك اغتيل والدي، كما تعرَّض النحّاس باشا لأكثر من محاولة اغتيال، وكذلك

أحمد حسين واجه اضطهاداً شديداً . . رحم الله الجميع .

ويضيف سيف البنّا قائلاً : الوثائق البريطانية التي شهدتها بنفسي في لندن تؤكّد أنّ خروج أحمد السكري ـ وكيل الإخوان عن الجماعة ـ كان بتدبير من الخارج لإضعاف الجماعة ، ولذلك لا تتعجّب إذا كانت مؤامرة اغتيال والدي الإمام وراءها أصابع أجنبية أيضاً .

قلتُ لـه : لكن المعروف أنّ قتلـه كان ردّاً على اغتيـال النقراشـي في ديسمبر سنة ١٩٤٨م بواسطة عضو من الإخوان .

أجاب : النقراشـي كان مكروهاً من الشـباب الوطني كلّه وليـس من الإخوان فقط ، فهو الذي فتح عليهم [النار على] كوبري عباس ، واعتدى عليهم بوحشية تفوّق فيها على الإنكليز ذاتهم، كما أنه ارتكب خيانةً في حقٍّ مصر والقضيـة الفلسطينية عندما قبل الهدنة الأولى، وكانت القوات العربية منتصرة ، وتبعد عدة كيلـومترات من تـل أبيب ، ولم يكتـفِ ببيع القضيـة ، بل قـام باعتقال المجاهدين المشـاركين في الحرب ، فلقي المصير المنتظَـر والذي توقّعـه الجميع له مقدَّماً .

تساءلت : والدك لقي ربه شهيداً يوم عيد ميلاد الملك فاروق . . فماذا يعني هذا بالنسبة لك؟

أجاب : لا يعني شيئاً . . وأستبعد أن يكون الملك فاروق متورطاً في هذا الحادث ، لأنَّه كان يخاف من الإخوان ، وكان يخشى على عرشه منهم ، فهو يعلم أنَّ مثل هذه الجريمة ستؤدي إلى غضب الشعب ، لذلك فهو بريء منها ، وقد أكَّد ذلك للإخوان أنفسهم .

حكايات إنسانية:

وطبعاً ترك رحيل الإمام فراغاً رهيباً في أسرته الصغيرة، كان اثنان من أولاده قد سبقاه إلى لقاء الله.. أحمد حسام الدين ومات بالتيفوئيد، وعمره سبع سنوات، والغريب كما يقول سيف البنّا أنَّ أمي قالت: ابني سيموت بعد خمسة عشر يوماً، جاءني في المنام ملاك بثياب بيضاء، وعمّة خضراء، وأخبرني بذلك، وطلبتْ من أبي أن يشتري مدفناً.. وقد كان.. مات الطفل في التاريخ الذي حدّدته له أمه بالضبط، رغم أن الدكتور واسمه إبراهيم حسن كان يقول: إنّ حالته تتحسّن!!.

ومن جديد يتكرّر ذات الموقف مع الطفلة (صفاء) ابنة سنتين.. زار الملاك الكريم الأم، وأخبرها بأن البنت ستموت بعد أربعة أيام.. وسارع أبي بالمصور ليلتقط لها الصور قبل أن تموت في الموعد المحدَّد!!.

فاجأتُ سيفاً بهذا السؤال: «والدك كان مشغولاً جداً بدعوته، فهل كان يجد وقتاً لكم.. أقصد لأسرته الصغيرة؟

أجابني دون تردّد قائلاً: طبعاً.. السبب أنه كان صاحب ملكات فريدة، شديد الحرص على وقته، شخصٌ مؤثّر، تحبّه وتطيعه، ولا تستطيع أن تكذبَ عليه.. وما أفعله أنا وأنت في ساعةٍ مثلاً يفعله هو في نصف هذا الوقت، فهو إنسانٌ ذو مواهب خارقة، ولم يضربني أبداً، كان يكتفي بأن (يقرص وِدْني) إذا أخطأت، ولا مانعَ أن يتصل بي بعد ذلك قائلاً: «إزي وِدْنك».

ومن دلائل اهتمامه بمنزله كما يقول ابنه أنه كان هناك ملفٌّ لكلٍّ واحدٍ من أبنائه، يفتحه له منذ ميلاده، وفيه يضع شهاداته المرضية والدراسية، وأيّ

ملاحظات على الدراسة، وكذلك تواريخ التطعيم.

والجدير بالذكر أن سيف البنَّا يأتي في الترتيب الثاني من الإخوة بعد الأخت الكبيرة وفاء، ثم يليه في الترتيب: سناء، ورجاء، وهالة، وأخيراً استشهاد، التي خرجت إلى الحياة بعد وفاته. وهكذا (سيف) شقيق واحد على خمس بنات.

ومن مظاهر الاهتمام الأخرى أنَّ الإمام ربّ الأسرة كان يضع في مفكّرته الشخصية اللوازم اللازمة للبيت مثل (الفلفل والثوم والبصل)، وكان يشتري احتياجات المنزل شهراً بشهر من البقّال، الذي اعتاد التعامل معه، واسمه (سيد شهاب).

ممنوع التصوير:

سألتُ سيف البنَّا: هل في جعبتك حكايات أو ذكريات لا تنساها عن والدك الراحل الكريم؟

أجابني: نعم.. نحن ننتسب إلى أهل البيت، لكن والدي كان يرفض تماماً نشر هذه الحقيقة، ولا يريد أن يعرفه الناس بأنه من أهل الكرامات، رغم أنه كان كذلك بالفعل.. كان يكفيه أن يقنع الناس بالتمسّك بتعاليم ربّهم.

وأذكر في مرة أجرى حديثاً لمجلة المصور، ثم استأذن للصلاة، فالتقط المحرر صورة له وهو واقف بين يدي ربه، فطلب أبي عدم نشر هذه اللقطة، لأن الصلاة أمرٌ شخصي، وفي ذات المقابلة دقَّ جرس التليفون، فقام سكرتيره (عبده قاسم) يناوله سماعة الهاتف، فالتقط المصور صورة له، فاعترض أبي

قائلاً: هذه الصورة سيفهمها الناس غلط، نحن جميعاً إخوة في سبيل الله، وليس بيننا قائد وجندي.

التراث بالكمبيوتر:

سؤالي الأخير كان عن تراث الإمام الشهيد، والمخلّفات التي تركها، والمنزل الذي كان يقيم فيه.

أجاب: بيتنا أزالته الحكومة حتى تُمحى آثار أبي!! وكان في الحلمية الجديدة، ويقع في شارع سنجر الخازن رقم (١٥)، وكان إيجاره (٢١٦) قرشاً فقط، رغم أنه يحتوي على ستّ غرف، وصالة كبيرة. وانتقلنا إلى منزل بالسيدة زينب إيجاره عشرة جنيهات، وأصغر من بيتنا الأصلي.

والبيت الذي شهد مولد الإمام الشهيد في المحمودية بمحافظة البحيرة قمتُ بشرائه.. ونجحتُ والحمد لله في تجميع كلّ تراث والدي، وهو ما أحمد الله عليه، وأفتخر به منذ أول مقال له في مجلة (الفتح) التي كان يصدرها محب الدين الخطيب وتاريخها (١٤) من يونيو سنة ١٩٢٨م بعد أيام من تخرّجه في كلية (دار العلوم) أما عنوانها فهو: (الدعوة إلى الله) حتى آخر مقال في جريدة (الإخوان المسلمين) اليومية تحت عنوان: (محنة) بتاريخ (٣) من ديسمبر سنة ١٩٤٨م. وهذه العناوين تدلّ على أطوار الدعوة التي مرّت بها جماعة الإخوان المسلمين.. والحمد لله.

تم تصنيف كل هذه المقالات بالكمبيوتر.. وستظهر تباعاً في كتب بمعرفة جمعية الإمام حسن البنّا التي تمّ إشهارها في لندن لنشر تراثه، وتعريف العالم بفكره..

أقول لسيف البنَّا شكراً على كل جهودك في الحفاظ على تراث والدك . . عرف حسن البنَّا كيف ينجب .

• • •

الخاتمة

آن الأوان أن يوضع حسن البنَّا في مكانه الحق في سلك المصلحين والمجددين والعاملين؛ بعد أن حجبته الأحداث طويلاً عن اقتعاد مكانه الحق حتى في كتب عارفي فضله، فإن التقدير الحقيقي لتاريخ حركة اليقظة الإسلامية إنما يجعل مكانه في الذروة منها، ويجعله في هذه المرحلة القائمة بين عام ١٩٢٦م وعام ١٩٤٩م إماماً ورائداً، أحدث من الأثر مالا يستطيع أن ينكره الذين جاؤوا من بعده، والذين ساروا على الطريق الذي رسمته حركة اليقظة منذ ظهورها متصلة بالدعوة الإسلامية الأولى، ومهتدية بالمنابع الأساسية، ومجددة الطريق الصحيح، ومحررة الفكر الإسلامي من مفاهيم كثيرة ليست في الحقيقة هي مفهومه الأصيل.

فهو بلا ريب إضافة حقيقية لكل ما كتب الدعاة والقادة والمجددون منذ ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب والشوكاني، ومن جاؤوا بعد ذلك كجمال الدين ومحمد عبده، فهو قد قدم المفهوم الأصيل للإسلام، بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع يستحق التطبيق، ويعلو فوق كل ماقدمته البشرية من مذاهب ومناهج وأيديولوجيات، وهو أصدق وأنفع وأكثر سلامة وأمناً للأمة التي ظهر فيها من كل ما طرحه الفكر الغربي في آفاقها من مذاهب ودعوات ومناهج وأساليب للحياة والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

ثم هو سبق هؤلاء الدعاة جميعاً وامتاز عنهم جميعاً بأنه لم يتوقف عند الصيحات العاليات كتابة وخطابة، وإنما كسر القيد، وحطم الحاجز، وتقدم

إلى ما هو أبعد من ذلك في مجال البناء والتربية والإنشاء؛ بأن وضع لبنات في بناء (الأمة) الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر في قلب المجتمع الإسلامي نفسه متميزة عنه ودافعة له، أمة الصفوة والنخبة العاملين على تغيير المجتمع وتطبيق مفهوم الإسلام على أنفسهم وأهليهم وغرس الثمرة في الأرض الجديدة مرة أخرى لتنبت القوة القادرة فعلاً على التعبير، هذه الأمة التي امتحنت أشدّ الامتحان وصمدت في موقفها على الحق، لا ترجو إلا أن يفتح الله بينها وبين قومها.

ولن يستطيع باحث في تاريخ الإسلام في العصر الحديث أن يتجاوز حسن البنَّا من هذه الناحية، ولن يستطيع مصلح أن ينسى أن حسن البنَّا رادَ له الطريق وعبّده ورفع عنه عشرات العثرات والعقبات، وجعله مؤهلاً لتحقيق خطوة أكثر حسماً وقوة في بناء الدولة الإسلامية ومجتمع الإسلام القائم على مفهوم القرآن ونهجه الأصيل.

وإذا تأخر في دراسات التاريخ الإسلامي الحديث تقدير مكانة الرجل ووضعه في مكانه الحق؛ فإن ذلك لا يمنع من اعتراف جميع الباحثين والعاملين بالدور الواضح العميق الذي قام به والذي حالت الظروف دون الاعتراف به أو تقديره أو إعطائه حقه الذي يستحقه والذي هو أهل له.

ونحن نقرأ الآن من كتابات علماء الإسلام ورجاله والصفوة من البارزين فيه عن الشريعة الإسلامية وتطبيقها، أو عن الوحدة الإسلامية وتحقيقها، أو عن أصالة القرآن في بناء منهج المجتمع ونظامه، أو عن حركة التغريب والغزو الثقافي وخطرها، فإنما علينا أن نذكر أن الرجل قد راد هذا الطريق يوم كان الكلام في هذا كله محظوراً، وكانت القوى الاستعمارية تقاومه في عنف.

ولقد كانت حركة اليقظة تتحمس وتفرح عندما تجد قانونياً مثل

(السنهوري) أو (علي بدوي) أو غيرهما يتحدثون عن الشريعة الإسلامية مقدرين أمرها على نحو من أنحاء الحديث، أو تجد مؤرخاً أو باحثاً يتحدث عن فضل الحضارة الإسلامية على أوروبة، أو أديباً يتحدث عن سيرة الرسول الكريم، كان هذا في ذلك الوقت يُعدّ نصراً كبيراً لحركة اليقظة. وإن كثيراً مما وصل إليه الأمر من تقنين الشريعة الإسلامية وظهور عشرات من الأبحاث والدراسات العلمية الدقيقة ليعد كسباً لحركة اليقظة، ولا ننسى فيه جهد مثل حسن البنَّا وصيحته المدوية، وإصراره على كسب هؤلاء الباحثين إلى صف الفكرة الإسلامية، وإن كل هذا التراث الذي ينمو الآن ويتزايد ويدخل في دائرة البحث العلمي إنما هو امتداد لتلك الصيحة التي كانت تكتفي بأن تثير الأرض وتترك لمن بعدها أن يزرعها ويعمرها.

ومن يقرأ كتابات حسن البنَّا القليلة إنما يجد (رؤوس موضوعات) وصيحات عامة، وإيقاظاً للنفوس والعقول والقلوب حول معان وقضايا كانت الآراء المسمومة فيها من المسلّمات، فعمل الرجل على تصحيحها وإعادة النظر فيها من جديد، ويكفيه أنه طرق هذه الأبواب كلها وفتح هذه الموضوعات من جديد للنظر بها.

ونستطيع أن نقول في وضوح: إن حسن البنَّا أقام مدرسة في الفكر لها آثارها الباقية التي غيّرت الاتجاه نحو الأصالة.

ولقد أصبح هذا الأثر من بعدُ عميقاً عندما حطم كثيراً من المسلَّمات الزائفة التي كان فرضها التغريب والغزو الثقافي على الفكر الإسلامي والثقافة العربية منذ (كرومر) و(دنلوب).

ومنذ حرث حسن البنَّا الأرض من جديد، فلم يدع مجالاً من مجالات الفكر لم يعرض له، ولم يكشف فيه عن رأي الإسلام الصحيح، وعن زيف

المعطيات التي قدمها الفكر الغربي الوافد، منذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جديدة خصبة أصيلة، نمت في خلالها تلك المفاهيم ودخلت مرحلة التقنين، فظهرت عشرات من الأبحاث عن معطيات الشريعة والتربية والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والسياسة على أساس مفهوم الإسلام الجامع المتوازن، القائم على الترابط بين القيم، والمستظهر للإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع، وليس كما حاولت القوى التغريبية أن تصوره ديناً عبادياً لاهوتياً. ولقد كانت مفاهيم الإسلام كما كشف عنها وأحياها وأذاعها حسن البنَّا من أكبر الضربات التي وجهت إلى التيارات المسمومة التي حمل لواءها: طه حسين، علي عبد الرازق، ومحمود عزمي، وسلامة موسى، وغيرهم في مجال تغريب القيم، وإذاعة التحلل والإباحية والإلحاد والفكر الحر.

ولن يستطيع كاتب من كتاب الإسلام المؤمنين به الصادقين في الوجهة له أن يتخطى هذا التيار الذي جدّد حركة اليقظة وأمدها بطابع جديد.

لقد كان من أعظم معطيات الدعوة الإسلامية في امتداد حركة اليقظة ما أعطاه حسن البنَّا من فهم للمنهج القرآني والتفسير القرآني للتاريخ والحياة، وارتباط الدين بالدولة، وقيام الإسلام على أنه منهج حياة ونظام مجتمع. ولقد استجاب العالم الإسلامي استجابة واضحة وصحيحة لهذا التيار الأصيل، على الرغم من كل ما واجهه وواجه قائده من عنت واضطهاد، ولقد ترسَّخ هذا التيار وقوي فيما بعد، وباءت محاولات الأعداء بالخذلان، فكتب الله النصر من جديد لدينه ودعوته، فوقفت راسخة البنيان عالية الذرى، ومضى قائدها الجديد إلى ربه شهيداً كريماً، بعد أن جدَدالله به الدين، وأعزّ بجاهده عباده المؤمنين.

● ● ●

الفهـــرس

الموضوع الصفحة

هذا الرجل ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول : مدخل إلى سيرة الإمام الشهيد ١٥

- تمهيد ١٥

- بيئته ونشأته ١٨

- فجر الدعوة ٣٨

الفصل الثاني : مرحلة التبليغ ٥١

الفصل الثالث : مرحلة المعارضة ٩٩

الفصل الرابع : بناء القاعدة ١٢٥

الفصل الخامس : إقامة الحجة ١٣٩

الفصل السادس : مرحلة المواجهة ١٤٧

الفصل السابع : ولما رأى المؤمنون الأحزاب ١٧٤

الفصل الثامن : الانتخابات والتمثيل البياني ٢١١

الفصل التاسع : الدعوة العالمية ٢١٦
الفصل العاشر : معركة فلسطين ٢٣٠
الفصل الحادي عشر : معركة المصحف ٢٣٥
الفصل الثاني عشر : المؤامرة ٢٤٢
الفصل الثالث عشر : الاستشهاد ٢٧٨
كلمات حزن ورثاء ٢٩٧
- ولدي الشهيد في ذمة الله ، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ٢٩٨
- يا أخي الشهيد ، للأستاذ عبد الرحمن البنا ٣٠٠
- غصن باسق في شجرة الخلود ، للأستاذ محمد الغزالي ٣٠٢
- حسن البنا ، للأستاذ صالح عشماوي ٣٠٥
- خواطر في الإمام الشهيد حسن البنا ، لسعيد رمضان ٣٠٨
الفصل الرابع عشر : وجها لوجه مع حسن البنا ٣٢٣
- ضباب يحول دون الضوء ٣٢٥
- كيف نفهم الرجل ٣٣٠
- المسافر الدائم ٣٥٤
- الرجل القرآني ٣٦٤
- الملامح العامة لفكر حسن البنا ٣٩٢
الفصل الخامس عشر : بعض ما قيل في الإمام الشهيد ٤١٧
- الداعية العبقري ، للسيد أبي الحسن الندوي ٤١٩

ـ حسن البنا وعبقرية البناء، للشهيد سيد قطب ٤٢٦
ـ حسن البنا في رحاب الخلود، للدكتور مصطفى السباعي ٤٣١
ـ الشهيد العظيم حسن البنا، للحاج أمين الحسيني ٤٣٥
ـ حسن البنا مرحلة حاسمة في تاريخ الفكر الإسلامي، للأستاذ
عبد الحكيم عابدين ٤٣٨
ـ الأئمة في مختلف العهود كانوا أعلام دين وسياسة،
للشيخ حسنين مخلوف ٤٤٩
ـ فكرة تحيا في رجل، للبهي الخولي ٤٥٣
ـ الإمام الشهيد حسن البنا كما عرفته، للشيخ محمد الحامد ٤٦٢

الفصل السادس عشر: مراحل الدعوة إلى الله: ٤٦٧
١ ـ وقائع حياته ٤٦٩
٢ ـ عصره ٤٧٢
٣ ـ شخصيته وشمائله ٤٧٩
٤ ـ رحله وعمله ٤٨٦
٥ ـ التفسير القرآني ٤٨٧
٦ ـ الدعوة إلى الله ٤٩٠
٧ ـ مقال مجلة الفتح ٤٩٧
٨ ـ توجيه الدعوة ٥٠٢

الفصل السابع عشر: الإمام بعد ٤٨ عاماً من الرحيل ٥١١
ـ في ذكرى العام الواحد والأربعين ٥١٣

ـ حقائق مضيئة في وجه شبهات مثارة ٥١٨
ـ بعد ٤٨ عاماً من الرحيل ٥٢٤
ـ في الذكرى الخمسين لاستشهاد الإمام البنا ولقاء مع ولده سيف الإسلام ٥٣٦

الخاتمة ٥٤٥
الفهرس ٥٥١

● ● ●